

تأليف

السيد محمود شكري الألوسي
البغدادي

عني بشرحه وتصحيحه وضبطه

محمد بهجة الأثري

الجزء الأول

الطبعة الثانية


بلوغ الأرب
في معرفة أحوال العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلى الشأن ، العظيم السلطان ، صرف الدهور بقدرته والأكوان ، وأبهرت حكمته العقول والأذهان ، يخلق ما يشاء كما يشاء ، من غير تعريف ولا بيان . والصلاة والسلام على رسوله محمد الذى استخلصه من أفضل المعادن منبتاً ، وأعزّ الأرومات[1] مغرساً ، فكان سيد ولد عدنان وقحطان ، وهو النبيّ الأمىّ ، العربىّ الهاشمىّ ، الذى أنقذنا بنور وجوده من ظلمات جهل الجاهلين إلى ذروة الفضل والعرفان ، وعلى آله وأصحابه هداة كل حيران ، المفصحين عن الحق المبين ، بأفصح لسان ، وأعذب بيان ، والمتفحصين عن أحوال الأمم الغابرين ، ليزدادوا إيماناً على إيمان ، وعلى من تبعهم بإحسان ، ما تعاقب الملوان[2] ، وكرّ الجديدان[3] .

(أما بعد) : فإن العبد الفقير ، إلى لطف مولاه العزيز ، محمود شكرى ابن عبد الله بن محمود الألوسى البغدادى ، كان الله تعالى له خير معين ، وأحسن هادى ، ووفقه سبحانه لشكر مزيد النعم والأيادى . يقول : لا يخفى على من عرف أحوال الأمم ، ووقف على ما كان عليه أجيال بنى آدم ، أنّ أمة العرب على اختلافها ، وتفاوت أصولها وأصنافها ، كانت ممتازة على غيرها من الناس ، متقدمةً فى الفضائل والمآثر على سائر الأنواع والأجناس ، فإنّ الله تعالى قد شرفها برسوله ، وفضلها بتنزيله ، وخصها بالخطاب المعجز ،

---

(١) الأرومة بالفتح وتضم : الأصل

(٢) الملوان : الليل والنهار أو طرفاهما

(٣) الجديدان والأجدان : الليل والنهار

واللفظ البليغ الموجَز[1] ، والسؤال الشافى ، والجواب الكافى ، فالعرب أمراء الكلام ، ومعادن العلوم والأحكام ، وهم ليوث الحرب ، وغيوث الكرب والرفْد[2] فى الجَدْب ، وهم أهل الشيمة[3] والحياء ، والكرم والوفاء ، والمروءة والسخاء ، أحكمتهم التجارب ، وأدبتهم الحكمة فقضوا منها المآرب ، ذلت ألسنتهم بالوعد ، وانبسطت أيديهم بالإنجاز[4] ، فأحسنوا المقال ، وشفعوه بحسن لفعال ، ولبسوا من المجد ثوباً سندسى الطراز[5] ، يغسلون من العار وجوهاً مسودّة ، ويفتحون من الرأى أبواباً منسدّة ، كأنّ الفهم منهم ذو أذنين ، والجوابَ ذو لسانين . يضربون هامات الأبطال ، ويَعْرِفون حقوق الرجال ، إلى أنْ تلاعبت بهم أيدى الأقدار ، وتفرقوا فى أقصى الأنحاء والأقطار ، وإنى لم أزل أتشوق للوقوف على آثارهم ، والاطلاع على شريف سيرهم وأخبارهم ، وأتمنى أن أظفرَ بكتابٍ يشتمل على أحوالهم قبل الإسلام ، ويحتوى على ما كانوا عليه فى جاهليتهم من العوائد والأحكام ، فلم أرَ ذلك فيما بين الأيدى من الكتب والمجامع ، ولا أنه قد طرق بابَ سمع من المسامع ، مع أنّ المتقدمين ، من علماء المسلمين ، لم يهملوا مثل هذا المهم ، ولم يتركوا قولاً لقائل فى كل علم ، وهم الذين امتدّ باعهم فى جميع الفنون ، وحسنت منّا بهم الظنون . غير أنّ مرور الأعصر والأعوام ، أدى بآثارهم إلى الضياع ، وأودى بها فى سائر البقاع ، وكان كثيراً ما يختلج فى القلب ،

---

(١) الموجز : القصير السريع الوصول الى الفهم ، يقال وجز اللفظ بالضم وجازة فهو وجيز ويتعدى بالحركة والهمزة فيقال وجزته من باب وعد وأوجزته وبعضهم يقول وجز فى كلامه واوجز فيه أيضا (٢) الرفد بالكسر العطاء والصلة ، والجدب : المحل (٣) الشيمة : الغريزة والطبيعة والجبلة وهى التى خلق الانسان عليها والمراد بها ههنا الاخلاق الحسنة (٤) يقال نجز الوعد نجزا : تعجل ويعدى بالهمزة والحرف فيقال انجزته ونجزت به اذا عجلته (٥) سندسى الطراز السندس بالضم رقيق الديباج معرب والطراز بالكسر علم الثوب معرب .

ويخطر بالبال ، أنْ أتطفل بجمع كتابٍ يستوعب أحوالَهم على سبيل الإجمال ، غير أنّ قلة البضاعة تصدنى عن الإقدام ، وتثبّطنى[1] عن طَرْق باب هذا المرام ، حتى اتفق بعض الدواعى التى لم أَر للتخلف عنها سبيلا ، ولم أجد للإعراض عن هذا الغرض مقيلا ، فشرعت فى المقصود ، وبذلت فيه غاية المجهود لما يترتب على ذلك من المصالح العمومية ، وما يستنتجه إن شاء الله تعالى من الفوائد الكلية ، وقد التزمتُ طريق الاختصار ، وتجنبت عن التطويل والإكثار ، ومع ذلك فإنى معترف بالقصور والنقصان ، وإنى لست من فرسان هذا الميدان ، ولله تعالى درّ الأقدار ، فإنها تسوق المرء إلى ما ليس له فيه اختيار .

إن المقادير إذا ساعدتْ ألحقت العاجز بالحازم

(وقد سميت) ما جمعته وكتبته فى هذا الباب وحررته : « بلوغ الأرب ، فى معرفة أحوال العرب » ومن الله تعالى أستمد الإعانة والتوفيق ، والهداية إلى أقوم طريق ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

مقدمة الطبعة الأولى سنة ١٣١٤

---

(١) ثبطه عن الأمر عوقه وبطأ به عنه كثبطه فيهما

تعريف العرب وبيان أنواعهم وأقسامهم

العرب جيل من الناس لم يزالوا موسومين[١] بين الأمم بالبيان فى الكلام ، والفصاحة فى المنطق ، والذَلاقة[٢] فى اللسان ، ولذلك سموا بهذا الاسم فإنه مشتق من الإبانة ، لقولهم أعرب الرجل عما فى ضميره إذا أبان عنه ، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « الثيب تُعْرِبُ عن نفسها » والبيان سمتهم بين الأمم وستمر بك قصة كسرى لما طلب من خليفته على العرب النعمان بن المنذر أنْ يوفد عليه من كبرائهم وخطبائهم من رضى لذلك فاختار منهم وَفْداً أوفده عليه ، وكان من خبره واستغراب ما جاؤا به من البيان ما هو معروف ، وهم أمة قديمة فقد كانوا بعد الطوفان وعصر نوح عليه السلام فى عاد الأولى وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت ومن ينتمى إليهم من العرب العاربة من أبناء سام بن نوح ، ثم لما انقرضت تلك العصور وذهب أولئك الأمم وأبادهم[٣] الله تعالى بما شاء من قدرته وصار هذا الجيل فى آخرين ممن قرب نسبهم من حمير وكهلان وأعقابهم من التبابعة ومن إليهم من العرب المستعربة من أبناء عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ، ثم لما تطاولت تلك العصور وتعاقبت وكان بنو شالخ بن عابر أعالِمَ من بين ولده واختص الله تعالى بالنبوة منهم إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناحور بن ساروخ بن أرغو بن فالغ وكان من شأنه مع نمروذ ما قصه القرآن ثم كان من هجرته إلى الحجاز ما هو مذكور وتخلف ابنه إسمعيل مع أمه هاجر بالحجر قُربانا[٤] لله تعالى ومرت بها رفقة من جرهم فى تلك المفازة فخالطوها ونشأ إسمعيلُ بينهم وربى فى أحيائهم وتعلم لغتهم العربية بعد أن كان

(١) موسومين السمة العلامة (٢) الذلاقة : البلاغة فى المنطق (٣) أبادهم : أهلكهم (٤) قربانا بالضم مايتقرب به الى الله تعالى من ذبح وغيره وهو فعلان من القربة .

أبوه أعجميا ، ثم كان بناء البيت كما قصه القرآن ثم بعثه الله تعالى إلى جرهم والعمالقة الذين كانوا بالحجاز فآمن كثير منهم واتبعوه ثم عظم نسله وكثر وصار أباً لجيل آخر من ربيعة ومضر ومن إليهم من إياد وعَكّ وشعوب نِزَار وعدنان وسائر ولد إسمعيل وهم العرب التابعة للعرب ، ثم انقرض أولئك الشعوب فى أحقاب طويلة وانقرض ما كان لهم من الدولة فى الإسلام وخالطوا العجم بما كان لهم من التغلّب عليهم ففسدت لغة أعقابهم فى آماد[١] متطاولة وبقى خلفهم أحياء بادين[٢] فى القفار والرمال والخلاء من الأرض تارة والعمران تارة وقبائل المشرق والمغرب والحجاز واليمن وبلاد الصعيد والنُوبة[٣] والحبشة وبلاد الشام والعراق والبحرين وبلاد فارس والسِّنْد وكِرْمان وخُراسان أمم لا يأخذها الحصر والضبط قد كاثروا أمم الأرض .

وقد حصر ابن خلدون فى كتاب « العبر » أجيالَ العرب من مبدأ الخليقة إلى عهده فى أربع طبقات متعاقبة ، وذكر ماكان فى كل طبقة منها من عصور وأجيال ودول وأحياء وبدأ أولا بذكر :

الطبقة الأولى

وهم العرب العاربة وذكر أنسابهم ومواطنَهم وماكان لهم من الملك والدولة وسمى أهلَ هذا الجيل العربَ العاربةَ إما بمعنى الراسخة فى العروبية كما يقال : ليل أليَل وصوم صائم . أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها وقد تسمى البائدة أيضاً بمعنى الهالكة لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد من نسلهم ، ثم :

---

(١) آماد جمع أمد محركة ، قال الراغب فى المفردات : يقال باعتبار الغاية والزمان عام فى الغاية والمبدأ ويعبر به مجازا عن سائر المدة ، والأمد المنتهى من الاعمار .

(٢) بدأ القوم بداء خرجوا الى البادية .

(٣) النوبة بالضم بلاد واسعة للسودان بجنوب الصعيد منها بلال الحبشى.

الطبقة الثانية

وهم العرب المستعربة من بنى حمير بن سبأ وذكر أنسابهم وما كان لهم من الملك والدولة باليمن فى التبابعة وأعقابهم وإنما سمى أهل هذه الطبقة بهذا الاسم لأن السمات والشمائر العربية لما انتقلت إليهم ممن قبلهم اعتبرت فيها الصيرورة بمعنى أنهم صاروا إلى حال لم يكن عليها أهل نسبهم وهى اللغة العربية التى تكلموا بها فهو من استفعل بمعنى الصيرورة من قولهم : استنوق الجمل واستحجر الطين . وأهل الطبقة الأولى لما كانوا أقدمَ الأمم فيما يعلم جيلا كانت اللغة العربية لهم بالأصالة وقيل العاربة ، ثم ذكر :

الطبقة الثالثة

وهم العرب التابعة للعرب من قُضاعة وقحطان وعدنان وشعبيها العظيمين ربيعة ومضر وبدأ بقضاعة وأنسابهم وما كان لهم من الملك البدوى فى آل النعمان بالحيرة والعراق ومن زاحمهم فيها من ملوك كندة بن حجر آكل المُرار[1]، ثم ما كان لهم أيضاً من الملك البدوى بالشام فى بنى جَفْنة بالبلقاء والأوس والخزرج بالمدينة النبوية ، ثم عدنان وأنسابهم وما كان لهم من الملك بمكة فى قريش ، ثم ما شرفهم الله تعالى به وجيل الآدميين أجمع من النبوة وذكر الهجرة والسيرة النبوية وغير ذلك ، ووجه تسمية هذا الجيل بذلك الاسم ظاهر ، ثم ذكر :

الطبقة الرابعة

وهم العرب المستعجمة ومن له ملك بدوى بالمغرب والمشرق ، وسموا بذلك لاستعجام لغتهم على اللسان المضرى الذى نزل به القرآن وهو لسان سلفهم وقد أطنب رحمه الله تعالى الكلام فى ذكر هذه الطبقات الأربع حيث كانت موضوع

---

(١) المرار بالضم شجر مر من أفضل العشب وأضخمه اذا أكلتها الابل قلصت مشافرها فبدت أسنانها والذلك قيل لجد امرىء القيس آكل المرار لكشر كان به والناس يقرؤنه بالكسر وهو غلط فتنبه .

كتابه ومدار بحثه وهذا الكتاب مما تداوله الأيدى فلا حاجة فى إتعاب البنان بنقل ما ذكره .

***

تعريف من يطلق عليه لفظ العرب

إن لفظ العرب فى الأصل اسم لقوم جمعوا عدة أوصاف : أحدها أن لسانَهم كان اللغةَ العربية . الثانى أنهم كانوا من أولاد العرب . الثالث أن مساكنهم كانت أرضَ العرب وهى جزيرة العرب التى هى من بحر القُلْزُم إلى بحر البصرة ومن أقصى حجر باليمن إلى أوائل الشام بحيث كانت تدخل اليمن فى دارهم ولا تدخل فيها الشام ، وفى هذه الأرض كانت العرب حين المبعث وقبله فلما جاء الإسلام وفتحت الأمصار سكنوا سائر البلاد ومن أقصى المشرق إلى أقصى المغرب والى سواحل الشام وأرمينية وهذه كانت مساكن فارس والروم والبربر وغيرهم ، ثم انقسمت هذه البلاد قسمين منها ماغلب على أهله لسان العرب حتى لاتعرف عامتهم غيره أو يعرفونه وغيره مع ما دخل فى لسان العرب من اللحن وهذه غالب مساكن الشام وعراق ومِصْرَ والأَنْدَلُس ونحو ذلك وأرض فارس وخراسان كانت هكذا قديماً ومنها ما العجمية كثيرة فيهم وغالبة عليهم كبلاد الترك وخراسان وإرْمِينِيَة وأذربيجان ونحو ذلك فهذه البقاع انقسمت إلى ما هو عربى ابتداء وإلى ما هو عربى انتقالا وإلى ما هو عجمى ، وكذلك الأنساب ثلاثة أقسام : قوم من نسل العرب وهم باقون على العربية لساناً وداراً أو لساناً لا داراً أو داراً لا لساناً ، وقوم من نسل العرب بل من نسل بنى هاشم ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدها ، وقوم مجهولو الأصل لا يدرون أمن نسل العرب هم أم من نسل العجم وهم أكثر النـاس اليوم سواء كانوا عرب الدار واللسان أو فى أحدها ، وكذلك انقسموا فى اللسان ثلاثة أقسام : قوم يتكلمون بالعربية لفظاً ونغمةً وقوم يتكلمون لفظاً لا نغمة وهم المتعربون الذين لم يتعلموا اللغة ابتداء

من العرب وإنما اعتادوا غيرها ثم تعلموها كغالب أهل العلم ممن تعلم العربية وقوم لا يتكلمون بهـا إلا قليلا وهذان القسمان منهم من تغلب عليه العربية ومنهم من تغلب عليه العجمة ومنهم من قد يتكافأ فى حقه الأمران إما قدرة وإما عادة .

***

الفرق بين العرب والأعراب فى المعنى

ذهب بعضُ أهل اللغة الى الترادف بين اللفظين وأنهما بمعنى واحد ، قال الجوهرى فى كتاب الصحاح : العرب جيل من الناس وهم أهل الأمصار والنسبة إلى العرب عربى وإلى الأعراب أعرابى والذى عليه العرف العام إطلاق لفظ العرب على الجميع ومثل ذلك فى القاموس وغيره من كتب اللغة المعتبرة ، وذكر أبو العباس أحمد بن عبد الله الشهير بابن أبى غدَّة فى كتابه نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب : أن العرب هم أهل الأمصار والأعراب سكان البادية وفى العرف يطلق لفظ العرب على الجميع وقال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية فى كتاب (الاقتضاء) : إن لفظ الأعراب هو فى الأصل اسم لبادية العرب فإن كل أمة لها حاضرة وبادية فبادية العرب الأعراب ، وقد يقال : إن باديةَ الروم الأرمنُ ونحوهم ، وباديةَ الفرس الاكرادُ ونحوُهم ، وباديةَ الترك التترُ ونحوُهم ، قال : وهذا والله أعلم هو الأصل وإن كان قد يقع فيه زيادة ونقصان ، وقال أهل التفسير : الأعراب صيغة جمع وليست بجمع للعرب على ماروى عن سيبويه لئلا يلزمَ كونُ الجمع أخص من الواحد فإن العرب هذا الجيل المعروف مطلقا والأعراب سكان البادية منهم ولذا نسب إلى الأعراب على لفظه فقيل أعرابى وقال فريق منهم : العرب سكان المُدن والقُرى والأعراب سكان الباديةَ من هذا الجيل أو مواليهم فعلى هذا القول هما متباينان ويفرق بين الجمع والواحد بالياء فيهما ، فيقال للواحد عربى وأعرابى والجماعة عرب وأعراب وكذا أعاريب وذلك كما يقال للواحد

مجوسى ويهودى ثم تحذف الياء فى الجمع فيقال المجوس واليهود واستعمالُ البلغاء يوافق قولَ المفسرين فى الكتاب الكريم عند بيان أحوال منافقى العربِ إثر بيان منافقى أهل المدينة من سورة التوبة (وجاء المُعَذّرون[١] من الأعراب ليؤذن لهم) وفى آية أخرى (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق[٢] لاتعلمهم ، نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) وفى أخرى (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ، ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم) .

والمؤرخون على القول بأن الأعراب قسم من العرب ، فى كتاب «العبر» عند القول فى أجيال العرب وأوليتها واختلاف طبقاتهم : اعلم أن العرب منهم الأمة الراحلة الناجعة أهل الخيام لسكناهم والخيل لركوبهم والأنعام لكسبهم يقومون عليها ويقتاتون من ألبانها ويتخذون الدفء[٣] والأثاث[٤] مع أوبارها وأشعارها

---

(١) المعذرون بتشديد الذال المكسورة : المعتذرون الذين لهم عذر وبه قرأ سائر قراء الأمصار ومعنى المعتذرون الذين يعتذرون كان لهم عذر أو لم يكن وهو هنا شبيه بأن يكون لهم عذر ، وقال أبو الهيثم فى تفسير هذه الآية : معناه المعتذرون يقال عذر يعذر عذارا فى معنى اعتذر ويجوز عذر الرجل يعذر فهو معذور واللغة الأولى أجودهما قال ومثله هدى يهدى هداء اذا اهتدى ، قال الله عز وجل : أمن لايهدى الا أن يهدى ، قال الأزهرى : وقد يكون المعذر بالتشديد غير محق وهم الذين يعتذرون بلا عذر فالمعنى المقصرون بغير عذر فهو على جهة المفعل لأنه الممرض والمقصر يعتذر بغير عذر ، وقرأها ابن عباس (رض) بالتخفيف من أعذر وكان يقول : والله لهكذا أنزلت . وكان يقول : لعن الله المعذرين بالتشديد كأن المعذر عنده انما هو غير المحق وبالتخفيف من له عذر (٢) مردوا على النفاق ، قال الفراء : يريد مرنوا عليه كقولك تمردوا . وقال ابن الأعرابى المرد التطاول بالكبر والمعاصى . وفى المفردات للراغب : هو من قولهم شجرة مرداء أى لا ورق عليها ، أى أنهم خلوا عن الخير ، وليس بشىء .

(٣) الدفء : ما استدفىء به من الاكسية والاخبية وغير ذلك .

(٤) الاثاث : متاع البيت واحدها اثاثه .

ويحملون أثقالهم على ظهورها يتنازلون حللا متفرقة ويبتغون الرزق فى غالب أحوالهم من القنص ويتقلبون دائماً فى المجالات فراراً من حمارة القيظ[١] تارة وصبارة البرد أخرى وانتجاعاً[٢] لمراعى غنمهم ، وارتياداً[٣] لمصالح إبلهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أثقالهم ودفئهم ومنافعهم فاختصوا لذلك بسكنى الإقليم الثالث ما بين البحر المحيط من المغرب إلى أقصى اليمن وحدود الهند من المشرق فعمروا اليمن والحجاز ونجداً وتهامة وما وراء ذلك مما دخلوا إليه فى المائة الخامسة كما ذكروه من مصر وصحارى برقة وتلولها وقسطنطينية وإفريقية وزاغا والمغرب الأقصى والسوس لاختصاص هذه البلاد بالرمال والقفار المحيطة بالأرياف[٤] والتلول والأرياف الآهلة بمن سواهم من الأمم فى فصل الربيع وزخرف الأرض لرعى الكلأ[٥] والعشب فى منابتها والتنقل فى نواحيها إلى فصل الصيف لمدة الأقوات فى سنتهم من حبوبها ، وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك معرّات من أضرارهم بإفساد السابلة[٦] ورعى الزرع مخضراً وانتهابه قائماً وحصيدا إلا ماحاطته الدولة وذادت عنه الحامية فى الممالك التى للسلاطين عليهم فيها ، ثم ينحدرون فى فصل الخريف إلى القفار لرعى شجرها ونتاج إبلهم فى رمالها وما أحاط به علمهم من مصالحها وفراراً بأنفسهم وظعائنهم من أذى البرد إلى دفء ماشيتها فلا يزالون فى كل عام مترددين بين الريف والصحراء مابين الإقليم الثالث والرابع صاعدين ومنحدرين على ممر الأيام شعارهم لبس المخيط فى الغالب ولبس العمائم تيجاناً على رءوسهم يرسلون من أطرافها عذبات يتلثم قوم منهم بفضلها وهم عرب المشرق

---

(١) حمارة القيظ شدته وصبارة البرد شدته أيضا .

(٢) انتجاعا : طلبا الكلأ فى موضعه .

(٣) ارتيادا أى طلبا .

(٤) الارياف : جمع ريف بالكسر ارض فيها زرع وخصب .

(٥) الكلأ مهموز : العشب رطبا كان أو يابسا والجمع الكلأ مثل سبب واسباب وموضع كالىء ومكلىء فيه الكلاء .

(٦) السابلة من الطرق المسلوكة والقوم المختلفة وأسبلت الطريق كثرت سابلتها .

وقوم يلفون منها الليتَ[١] والأخدَعَ[٢] قبل لبسها ثم يتلثمون بما تحت أذقانهم من فضائها وهم عرب المغرب . حاكوا بها عمائم زِناتَةَ[٣] من أمم البربر قبلهم وكذلك لقنوا منهم فى محل السلاح اعتقال الرماح الخطية[٤] وهجروا تنكب القسى[٥] وكان المعروف لأولهم ومن بالمشرق لهذا العهد منهم استعمال الأمرين . انتهى المقصود من نقله وهذا هو المشهور ، وعليه من أهل اللغة الجمهور .

***

معنى الجاهلية وما تطلق عليه

الجاهلية الزمان الذى كثر فيه الجهال وهى ما قبل الإسلام وقيل : أيام الفترة وهى الزمن بين الرسولين ، وقد تطلق على زمن الكفر مطلقاً وعلى ما قبل الفتح وعلى ما كان بين مولد النبي والمبعث « وعن ابن خالويه » أن هذا اللفظ اسم حدث فى الإسلام للزمن الذى كان قبل البعثة « قال العسقلانى » فى شرحه على البخارى : وهذا هوالغالب ومنه (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) ثم قال : وأما جزم النووى فى عدة مواضع فى شرح مسلم أن هذا هو المراد حيث أتى . ففيه نظر فإن هذا اللفظ وهو الجاهلية يطلق على ما مضى والمراد ماقبل إسلامه وضابط آخره فتح مكة انتهى . وتفصيلُ الكلام أن لفظ الجاهلية قد يكون اسماً للحال وهو الغالب فى الكتاب والسنة وقد يكون اسماً لذى الحال فمن الأول قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى ذَرّ « إنك امرؤ فيك جاهلية » وقول عُمَرَ رضى الله تعالى عنه : إنى نذرت فى الجاهلية أنْ أعتكف ليلة ، وقول عائشةَ رضى الله تعالى عنها : كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء . وقولهم : يارسول الله كنا

---

(١) الليت بالكسر : صفحة العنق (٢) الأخدع عرق فى المحجمتين وهو شعبة من الوريد (٣) زناتة بالكسر : قبيلة بالمغرب منها الزناتى المنجم (٤) الرماح الخطية : منسوبة الى خط اسم أرض ، قال الاصمعى : لاأعلم الام نسبة الخط وهى جزيرة بالبحرين اليها تنسب الرماح الا أن يقال أن سفن الرماح ترفأ الى هذا الموضع فقيل الرماح خطية (٥) تنكب القسى بكسر القاف : جمع قوس وهو يذكر ويؤنث ، وتنكبها القاها على منكبه .

فى جاهلية وشر ، أى فى حال جاهلية أو طريقة جاهلية أو عادة جاهلية ونحو ذلك فإن الجاهلية وإن كانت فى الأصل صفة ولكن غلب عليه الاستعمال حتى صار اسماً ومعناه قريب من معنى المصدر . وأما الثانى فتقول : طائفة جاهلية وشاعر جاهلى وذلك نسبة إلى الجهل الذى هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم ، فأما من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطاً فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلاً مركباً فإن قال خلاف الحق عالماً بالحق أو غير عالم فهو جاهل أيضاً كما قال تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفُثْ ولا يجهل » . ومن هذا قول عَمْرو بن كُلْثُوم فى قصيدته :

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فَنَجْهَلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

أى لا يسفه أحد علينا فنسفَه عليهم فوق سفههم أى نجازيهم بسفههم جزاء يرْبو عليه ، استعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كثير وكذلك من عمل بخلاف الحق فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق ، كما قال سبحانه (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : كل من عمل سوءاً فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق ، وسبب ذلك أن العلم الحقيقى الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعفه فى القلب بمقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فتصير جهلاً بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال فى مسمى الإيمان حقيقة لا مجازاً وإن لم يكن كل من ترك شيئاً من الأعمال كافراً ولا خارجاً عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعُمْيا وبُكما وصُمّا وضالين وجاهلين ويَصِفُهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويَصف المؤمنين بأولى الألباب وأولى النهى وأنهم مهتدون وأن لهم نوراً وأنهم يسمعون ويعقلون . فإذا تبين ذلك فالناس قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى حال جاهلية جهلاً منسوبا إلى الجاهل

فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل وإنما يفعله جاهل . وكذلك كل ما يخالف ما جاءت به المرسلون من يهودية أو نصرانية فهى جاهلية وتلك كانت الجاهلية العامة فأما بعد مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم فالجاهلية المطلقة قد تكون فى مِصر دون مِصر كما هى فى دار غير الإسلام وقد تكون فى شخص دون شخص كالرجل قبل أن يسلم فإنه فى جاهلية وإن كان فى دار الإسلام فأما فى زمان مطلقاً فلا جاهلية بعد بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة والجاهلية المقيدة قد تقوم فى بعض ديار المسلمين وفى كثير من الأشخاص المسلمين كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة . وقال لأبى ذرّ لما عيَّر رجلا بأمه « انك امرؤٌ فيك جاهلية » فهذه كلها جاهلية وإن كان لفظ الجاهلية لا يقال غالباً إلا على حال العرب التى كانوا عليها قبل الإسلام ، لما كانوا عليه من مزيد الجهل فى كثير من الأعمال والأحكام ، روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوقَ الثلاثين ومائة فى سورة الأنعام « قد خسر الذين قتلوا أولادَهم سفهاً بغير علم وحرَّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين » وقد اختلف المفسرون فى المراد من الجاهلية الأولى فى قوله تعالى « وَقَرْنَ فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » فقيل : كانت فى الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام فقد كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشى فى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال . وقال الحكم بن عُيَيْنَةَ(١) : كانت بين آدم ونوح وهى ثمانمائة سنة وحكيت لهم سيرة ذميمة . وقال ابن عباس : ما بين نوح وإدريس . وقال الكلبى : ما بين نوح وإبراهيم قيل إن المرأة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين

(١) كذا فى الأصل ولعله عتيبة وهو الامام الحكم بن عتيبة الكندى .

وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى . وقال الثعلبي : ما بين عيسى ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم . وقال أبو العالية هى زمانَ داود وسليمان عليهما السلام كان المرأة قميص من الدر غير مخيط الجانبين . وكان النساء يُظْهِرْن ما يقبح إظهاره حتى كانت المرأة تجاس مع زوجها وخِلِّها فينفرد خلُّها بما فوق الإزار وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل وربما سأل أحدهما صاحبه البدل . وقال مجاهد : كانت النساء يمشين بين الرجال فذلك التبرج . قال ابن عطية : والذى يظهر عندى أنه تعالى أشار للجاهلية التى أدركنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفار لأنهم كانوا لا غيرة عندهم فكان أمر النساء دون حجبة وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كنَّ عليه . وليس المعنى أن ثمَّ جاهلية أخرى وقد أوقع لفظ الجاهلية على تلك المدة التى قبل الإسلام كما لا يخفى .

***

بيان فضل جنس العرب وما امتازوا به

اعلم أن كمال كل نوع إنما هو بحصول صفاته الخاصة به وصدود آثاره المقصودة منه وبحسب زيادة ذلك ونقصانه يفضل بعض أفراده بعضا ، إلى أن يُعَدَّ أحدهما سماء والآخر أرضاً ، والإنسان مشارك لسائر الأجسام فى الحصول فى الحيز . والفضاء ، وللنباتات فى الاغتذاء والنشو والنماء ، وللحيوانات العجم فى حيويته بأنفاسه ، وحركته بإرادته وإحساسه ، وإنما يتميز بما أعطى من القوة النطقية ، وما يتبعها من العقل والعلوم الضرورية ، والأعمال الصالحة المرضية ، وأهليته للنظر والاستدلال ، وترقيه بذلك فى مدارج الكمال ، وعلمه بما أمكن واستحال ، فإذا كماله إنما هو بتعقل المعقولات ، واكتساب المجهولات ، وبالأخلاق الحسنة التابعة للأعمال الصالحات ، فالإنسان فضل على سائر الحيوانات كلها فى نفسه وجسمه ، « أما فضله فى نفسه » فبالقوة المفكرة التى بها العقل والعلم والحكمة

والتدبير والرأى فإن البهائم وإن كان كلها يحس وبعضها يتخيل فليس لها فكرة ولا رويّة ولا استنباط المجهول بالمعلوم ولا تعرف عللَ الأشياء ولا أسبابهَا وليست فى قوتها تعلّم الصناعات الفكرية وإنما يتعلم بعضها بعض الصناعات المتخيلة فأقواها فى ذلك الفيلُ والقِرْد ، « وأما فضله فى جسمه » فباليَدِ العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ما أوجد فى هذا العالم ، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » وقوله « وصوّركم فأحسن صوركم » ولم يَعْنِ الصورةَ التخطيطيةَ فقط بل عناها والصورةَ المعقولةَ ولتشريفه تعالى إياه بذلك قال « ولقد كرمنا بنى آدمَ وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ومن زعم أن الإنسانَ خُلِقَ خلقةً ناقصة عن الوحشيات من حيث إنه لم يكف الملبس كما كفيته ولم يُعْطَ سلاحاً فى ذاته كما أعطىَ كثيرٌ منها فنظره ناقص ، إذ قد أُعطى الإنسان بدل ذلك التميز الذى يمكنه أن يتخذ به كل ملبس وكل سلاح حَسْب ما يريده فيتناوله متى أراد ويَضَعَهُ متى أحب ثم لو أعطى الإنسان بعض الأسلحة التى أعطيته لم يمكنه أن يستعمل غيره كالوحشيات وأيضاً فلو أعطى ذلك لكان من الحق أن لا يعطى التميز لأنه حينئذ كان يستغنى عنه فتبطل فائدته وفعلُ الله تعالى منزه عن ذلك ، إن قيلَ كيف قال تعالى « خلق الإنسان ضعيفاً » فاستضعفه قيل ضعفه بالإضافة إلى الملأ الأعلى لما فيه من الحاجات البدنية التى كفيها ، فإذا كان مناط الفضيلة ما ذكرناه ففضل جنس العرب على غيرهم بسبب ما اختصوا به فى عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم ؛ وذلك أن الفضل إما بالعلم النافع وإما بالعمل الصالح والعلم له مبدأ وهو قوة العقل الذى هو الحفظ والفهم وتمام وهو قوة المنطق الذى هو البيان والعبارة والعرب هم أفهم من غيرهم وأحفظ وأقدر على البيان .

(أما كمالهم فى الفهم) فلأنهم كانوا لا يبارون قوة ذكاء وإصابة حدس وحدة ألمعيَّة وصدق فراسة يخبرون عن الغائب بقوة ذكائهم كأن قد شاهدوه ،

ويصف لهم الحدس الصائب حال الورد قبـــل أن يردوه ، ويثبتون أبعد شيء بحدة ألمعيَّتهم كأن ليس ببعيد . وينظم لهم المجهول صدق فراستهم فى سلك المعروف منذ زمان مديد ، وقد كان منهم فى الأزمنة المتأخرة من هو دون السابقين بمراتب كثيرة ومع ذلك يتفطنون للرمزة والدقيقة ويتنبهون من اللحظة الخفية والإشارة اللطيفة كما يحكى أن سليمانَ بنَ عبدِ الملك أتى بأسارى وكان الفرزدقُ حاضراً فأمره سليمان بضرب واحدٍ منهم فاستعفى فما عفى وقد أشير إلى سيف غير صالح للضرب ليستعمله فقال الفرزدق : بل أضرب بسيف أبى رَغْوان[١] سيف مُجاشعٍ يعنى نفسه وكأنه قال : لا يستعمل ذلك السيف إلا ظالم أو ابن ظالم ، ثم ضرب بسيفه الأسيرَ واتفق أن نبا السيفُ فضحك سليمان من حوله .

فقال الفرزدق :

أيعجب الناس أن أضحكت سيدّهم　　خليفةَ الله يُسْتسْقى به المطر

لم يَنْبُ[٢] سيفى من رعْب ولا دَهَش　　عنْ الأسير ولـكن أخَّر القدَرُ

ولن يقدِّمَ نفساً قبل ميتهـا　　جمع اليدين ولا الصَمْصامة[٣] الذكر

ثم أغمد سيفَه وهو يقول :

ما إنْ يعاب سيدٌ إذا صبا[٤]　　ولا يعاب . صارِمٌ إذا نبـا

ولا يعاب شاعر إذا كبا[٥]

ثم جلس يقول : كأنى بابن المراغة قد هجانى فقال :

بسيف أبى رَغوان سيف مجاشع　　ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

---

(١) رغوان لقب مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، لقب به لفصاحته ولجهارة صوته ، ويقال وقالت امرأة سمعته : ما هذا الايرغو، فلقب رغوان (٢) لم ينب: أى لم يكل عن الضريبة ، قال الشاعر

أنا السيف الا أن للسيف نبوة　　ومثلى لاتنبو عليك مضـــاربه

(٣) الصمصامة: السيف لا ينثنى كالصمصام والذكر أيبس الحديد وأجوده وأشده كالذكير كامير وهو خلاف الانيث وبذلك يسمى السيف مذكرا (٤) صبا الى المرأة صبوة وصبوة وصبوا حن ، وأصبته وتصبته شاقته ودعته الى الصبا فحن اليها (٥) كبا : انكب على وجهه

وقام وانصرف وحضر جرير فخبر الخبر ولم ينشد الشعر

فأنشأ يقول :

بسيف أبي رَغْوانَ سيفِ مُجاشع ضربتَ ولم نضْرب بسيفِ ابن ظالم

فأعجب سليمان ما شاهد ثم قال : يا أمير المؤمنين كأني بابن القين قد أجابني فقال :

ولا نقتُل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارم

ثم أخبر الفرزدق بالهجو دون ما عداه فقال مجيباً :

كذاك سيوف الهند تنبو ظباتُها[1] وتقطع أحياناً منـاط التمائم

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارم

وهل ضربة الرومى جاعلة لكم أبا عن كليب أوأخاً مثل دارم

وما يحكى أن ذا الرُّمّة استرفد[2] جريراً فى قصيدته التي مستهلها :

نبت عيناكَ عن طَلَل[3] بحُزُوَى[4] عفتْه الريحُ وامتنح القَطارا

عدة أبيات فقالها له وهى هذه :

يعـد الناسبون إلى تميم بيوتَ المجـد أربعةً كبارا

يعدون الرِّباب[5] وآل بكر وعمراً ثم حنظلةَ[6] الخيارا

---

(١) جمع ظبة وظبة السيف حده (٢) الاسترفاد والمرافدة : أخذ الشعر هبة (٣) طلل محركة الشاخص من آثار الدار والجمع أطلال وربما طلول (٤) حزوى كقصوى اسم موضع قال ذو الرمة :

أدارا بحزوى هجت للعين عبرة فماء الهوى يرفض أو يترقرق

وعفته الريح : درسته ومحته ، وامتنح أخذ العطاء ، وامتنح مالا رزقه ، والقطار المطر قال الزمخشرى : ومن المجاز منحت الأرض القطار ثم أنشد البيت (٥) الرباب بالكسر خمس قبائل تجمعوا فصاروا يدا واحدة وهم ضبة وثور وعكل وتيم وعدى ، وأنما سموا بذلك لانهم غمسوا أيديهم فى رب وتحالفوا عليه ، وقيل سموا به لأنهم ترببوا أى تجمعوا والنسبة اليهم ربى بالضم لأن الواحد منهم ربة لأنك اذا نسبت الشىء الى الجمع رددته الى الواحد الا أن تكون سميت به رجلا فلا ترده الى الواحد كما يقال فى انمار انمارى وفى كلاب كلابى (٦) حنظلة أكرم قبيلة من تميم يقال لهم حنظلة الأكرمون وأبوهم حنظلة بن مالك بن عمرو بن تميم ينسب اليه العَنبر والهجيم والحرث الحبط ومالك وغيرهم ، وآل بكر بطن من ربيعة من العدنانية وفيهم العدد والشهرة .

ويذهب فيهما المرّىّ لغواً كما ألغيتَ فى الدية الحُوارا[1]

فضمنها القصيدةَ وهى اثنان وخمسون قافيةً . ثم مر به الفرزدق فاستنشده إياها فأخذ ينشدها والفرزدق يستمع لا يزيد على الاستماع حتى بلغ هذه الأبياتَ الثلاثة استعادها منه الفرزدق مرتين ثم قال : والله لقد علَكَهُنَّ من هو أشد منك لحيَيْن . وما يحكى أن عمر بن لجأ[2] أنشد جريراً شعراً فقال : ما هذا شعرك هذا شعر حنظلى . ولا تسأل عن فطانتهم المنتهية على الرمزة اللطيفة ، وحدة نظرهم الداركة للمحة الضعيفة ، كما يترجم عن ذلك الروايات عنهم المشهورة ، يروى أن فَزارياً ونميرياً تسايرَا فقال الفزارى للنميرى : غُضّ لجامَ فرسِك . فقال : إنها مكتوبة . وإنما أراد الفزارى ما قيل فى بنى نُمَير :

---

(١) الحوار بالضم وقد يكسر : ولد الناقة ساعة تضعه أو الى أن يفصل عن أمه والمرى المنسوب الى بنى مرة ، والدية بالكسر حق القتيل والهاءعوض من الواو (٢) عمر بن لجأ قال المجد لجأ جد عمر بن الأشعث لا والده ووهم الجوهرى ، قال الزبيدى : وهذا الذى ذكره الجوهرى هو الذى أطبق عليه أئمة الانساب . واللغة ، قال البلاذرى فى معاجم الأشراف مانصه : وولد ذهل بن تيم بن عبد مناذ بن اد بن طابخة سعد بن ذهل فولد سعد ثعلبة ابن سعد وجشم بن سعد وبكر بن سعد فولد ثعلبة امرأ القيس بن ثعلبة فولد امرؤ القيس جلهم ، منهم عمر بن لجأ بن حدير بن مصاد بن ذهل بن تيم بن عبد مناة بن اد الشاعر ، وكان يهاجى جرير بن عطية بن الخطفى وكان سبب تهاجيهما أن ابن لجأ أنشد جريرا باليمانيية :

تجر بالاهون فى أدنائها جر العجوز جانبى خبائها

فقال له جرير : هلا قلت : جر العروس طرفى ردائها ، فقال بن لجأ فأنت الذى تقول :

لقومى احمى للحقيقة منكم وأضرب للجبار والنقع ساطع
وأوثق عند المردفات عشية لحاقا اذا ماجردالسيف مانع

ارأيت اذا أخذن غدوة ولم تلحقهن الا عشية وقد نكحن فما غناؤهم فتحا كما الى عبيد بن غاضرة العنبرى فقضى على جرير فهجاه بشعر مذكور فى الكتاب المذكور وكذا جواب ابن لجأ . ومات عمر بن لجأ بالاهواز وبينهما مفاخرات ومعارضات حسنة ليس هذا محل ذكرها . وقد عرفت من كلام البلاذرى ان لجأ والده لاجده وعلى التسليم فان مثل ذلك لا يعترض به لأنه كثيرا ماينسب الرجل الى جده اكونه أشهر أو أفخر أو غير ذلك من الأغراض، ألا ترى الى قول النبى صلى الله عليه وسلم « أنا النبى لاكذب أنا ابن عبد المطلب » وأمثلة ذلك لاتحصى والله أعلم — وانظر الأغانى (ج٧ ص٤١و٤٢و٦٤)

فغضّ الطرْف[١] إنكمن نُميْر فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

وإنما عنى النميرى ما قيل فى بنى فزارة :

لا تأمنن[٢] فَزاريا خَلَوْتَ به على قَلوصِك واكتُبْها بأسيار[٣]

وأن واحداً من نمير هو شريك النميرى لقى رجلا من تميم فقال له التميمى يعجبنى من الجوارح البازى : قال شريك : وخاصةً ما يصيد القطا أراد التميمى بقوله البازى :

أنا البازى[٤] المطل على نمير أتيح من السماء له انصبابا

---

(١) قال ابن رشيق : وممن وضعه ماقيل فيه من الشعر حتى انكسر نسبه وسقط عن رتبته وعيب بفضيلته بنو نمير وكانوا جمرة من جمرات العرب اذا سئل أحدهم ممن الرجل فخم لفظه ومد صوته وقال من بنى نمير الى أن صنع جرير قصيدته التى هجا بها عبيد بن حصين الراعى فسهر لهـا وطالت ليلته الى أن قال : فغض الطرف الخ فأطفأ سراجه ونام وقال : قد والله أخزيتهم آخر الدهر ، فلم يرفعوا رأسا بعدها الا نكس بهذا البيت حتى أن مولى لباهلة كان يرد سوق البصرة ممتارا فيصيح به بنو نمير ياجوذاب باهلة فقص الخبر على مواليه وقد ضجر من ذلك فقالوا له اذا نبزوك فقل لهم فغض الطرف الخ .. ومر بهم بعد ذلك فنبزوه واراد البيت فنسيه فقال غمض والا جاءك ما تكره فكفوا عنه ولم يعرضوا له بعدها .

ومرت امراة ببعض مجالس بنى نمير فأرادوا النظر اليها فقالت : قبحكم الله يابنى نمير ماقبلتم قول الله عز وجل (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم) ولا قول الشاعر فغض الطرف الخ ..

وهذه القصيدة تسميها العرب الفاضـحة وقيل سماها جرير الدامغـة تركت بنى نمير ينتسبون بالبصرة الى عامر بن صعصعة ويتجاوزون أباهم نميرا الى ابيه هربا من ذكر من نمير وفرارا مما وسم من الفضيحةوالوسمة

(٢) البيت لابن دارة يعير به بنى فزارة بغشيان الابل والقلوص من الابل الشابة أو الباقية على السير أو أول مايركب من اناثها الى أن تثنى ثم هى ناقة والناقة الطويلة القوائم خاص بالابحاث والجمع قلائص وقلص (٣) اكتبها باسيار : اى شد حياءها أى أختمه باسيار جمع سير

(٤) البازى بالياء مخففا ضرب من الصقور وهو أفصح لغاته ثم البازىبالياء مشددة كما حكاه ابن سيده ويكنى بابى الأشعث وابى البهلول وابى لاحق وهو من أشـد الحيوانات تبكرا واضـيقها خلقا وفى عجـائب المخلوقات للقزوينى انه لا يكون الا انثى وذكرها من نوع آخر من الحداة والشـواهين ولهذا اختلفت اشكاله انتهى ويضرب به المثل فى نهاية الشرف كما فى قوله :

اذا ما اعتـز ذو علم بمال فعلم الفقـه اولى باعتـزاز
وكم طيب يفوح ولا كمسك ولا طـير يطير ولا كبازى

وقوله المطل يقال أطل عليـه اذا أشرف واتيح له الشىء قدر أو هىء له والانصباب الانحـدار

وعنى شريك بذكر القطا قولَ الطِرِمّاح :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سُبُلَ المكارم ضلتِ

وأن معاوية قال للأحنف : ما الشيء الملفف فى البجاد ؟ فقال : السخينة ، وإنما أراد معاوية قول القائل :

إذا ما مات ميت من تميم فسرك أنْ يعيش فجيء بزادِ
بخبز أو بتمر أو بسمْن أو الشيء الملفَّف فى البجاد
تراه يطوف فى الآفاق حرْصاً ليأكل رأس لقمان بن عاد

وكان الأحنف من تميم وإنما أراد الأحنف بالسخينة وهى حساء يؤكل عند غلاء السعر وكان قوم معاوية يقتصرون عليه ، رميَهُمْ بالبخل . وأن رجلا من بنى مُحارب دخل على عبد الله بن يزيد الهلالى فقال عبد الله ماذا لقينا البارحة من شيوخ محارب ما تركونا ننام وأراد قول الأخطل :

تَكِشُّ(١) بلا شيء شيوخُ مُحارب وما خلْتُها كانت تريشُ ولا تبرى
ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبتْ فدل على صوتها حيَّة البحر

فقال: أصلحك الله تعالى أضلوا البارحةَ بُرْقعاً فكانوا فى طلبه أراد قول القائل ·

لكلّ هلالىٍّ من اللؤم برقع ولابن يزيدٍ برْقُعٌ وجلالْ

---

(١) يقال كش الضب والضفدع يكش كشيشا صوت وخال ظن وفلان لايريش ولا يبرى أى لايضر ولا ينفع والضفدع حيوان نهرى وفى الأمثال قالوا : انق من ضفدع ، قال عبد القاهر : والثعبان يستدل بصياح الضفدع عليه فيأتى على صياحه فيأكله وأنشد فى ذلك :

يجعل فى الأشداق ماء ينصفه حتى ينق والنقيق يتلفه

ينصفه بضم الياء وليس المراد هنا العدل بل المراد حتى يبلغ نصف فكه الأعلى ، وقوله والنقيق يتلفه أراد به الضفادع اذا صاحت يتبعها الثعبان فيجيء فيأكلها كما قال القائل : ضفادع فى ظلماء البيت وحية البحر الافعى التى تكون فى البر وهى تعيش فى البر والبحر ومحارب فيها ضعة وخمول ، وعليه قول اسمعيل بن عمار الأسدى :

بكت دار بشر شجوها اذ تبدلت هلال بن مرزوق ببشر بن غالب
وهل هى الا مثل عرس تبدلت على رغمها من هاشم فى محارب

يقول ماهى فى استبدالها الا كعروس زوجت فى بنى هاشم ثم انتقلت فى محارب حتى قال بعض الشعراء وهو يحلف فصيرنى ربى اذاً من محارب

وأن رجلا وقف على الحسن ابن أبى الحسين[١] البصرى رحمة الله عليه فقال أعتمرْ أخرجْ أبادرْ . فقال : كذبوا عليك ماكان ذلك إن السائل أراد عثمان أخرج أبادرّ . وأن الحسن بن وهب نهض ذات ليلة من مجلس ابن الزيات . فقال سْحيرْ أى بت بخير فقال له ابن الزيات : بِنَيِه ، أى بت به . وما ظنك بكياسة جيل قد بلغت من الذكاء نساؤهم إلى حــدٍ نقدهن للكلام ما يحكى أنشدت واحدة وكانت الخنساء[٢] .

---

(١) كذا فى الأصل وفى المفتاح : بن الحسن

(٢) أقول : ان المصنف نقل هذه القصة عن (مفتاح العلوم) الامام السكاكى والصحيح أنها وقعت للنابغة الذبيانى مع حسان بن ثابت (رض) على مانقل كثير من أئمةالأدب . منهم أبو أبوعبد الله المرزبانى فى(الموشح) وابن‌ابى الاصبع فى باب (الافراط فى الصنعة) من كتـاب (تحرير التحبيز) وأبو الفـرج الأصبهانى فى (الأغانى) والرضى فى (الكافية) والشيخ عبد القادر البغدادى فى (خزانة الأدب) والامام سيبويه فى (الكتاب) وغيرهم .. قال المرزبانى فى (الموشح) : كتب الى أحمد بن عبد العزيز أخبرنا عمر بن شبة حدثنى أبو بكر العليمى حدثنا عبد الملك بن قريب قال : كان النابغة الذبيانى تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق (عكاظ) فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، قال : فأول من أنشده حسان بن ثابت الأنصارى :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحي وأسيافنا يقطرن من نجـــدة دما
ولدنا بنى العنقـــاء وابن محـــرق فأكرم بنـــا خالا وأكرم بنـــا ابنما

فقال له النابغة : أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ... وحدثنى على بن يحيى حدثنا أحمد بن سعيد حدثنا الزبير بن بكار حدثنى عمى مصعب بن عبد الله قال أنشــد حسان ، نابغة بنى ذبيان ، قصيدته التى يقول فيها لنا الجفنات الغر فقال‌له : ماصنعت شيئا قللت أمركم فقلت جفنات وأسياف ... وأخبرنى الصولى قال حدثنى محمد بن سعيد ومحمد بن العباس الرياشى عن الأصمعى عن أبى عمرو بن العـــلاء قال : كان النابغة الذبيانى تضرب له قبة بســـوق عكاظ من أدم فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فأتاه الأعشى فكان‌أول من أنشده ثم أنشده حسان بن ثابت قصيدته التى منها : لنا الجفنات الغر وذكر البيتين فقال له النابغة : أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفتخر بمن ولدك .. قال الصولى فانظر الى هذا النقد الجليل الذى يدل عليه نقاء كلام النابغة وديباجة شعره لأنه قال وأسيافنا ، وأسياف جمع لأدنى العدد والكثير سيوف والجفنات لأدنى العدد والكثير جفان وترك الفخر بآبائه وفخر بمن ولد نساؤه ، قال : ويروى أن النابغة قال له أقللت أسيافك ولمعت أجفـانك يريد قوله لنا الجفنات الغر والغرة لمعـة بياض فى الجفنة فكأن النابغة عاب هذه الجفان وذهب الى أنه لو قال لنا الجفنات البيض فجعلها بيضا كان‌أحسن فلعمرى‌أنه حسن فى‌الجفان الا أن الغر أجل=

لنا الجفناتُ الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقالت أى نخر يكون فى أن له ولعشيرته ولمن ينضوى إليهم من الجفان ما نهايتها فى العدد عشرة وكذا من السيوف ألا استعمل جمع الكثرة الجفان والسيوف . وأى نخر فى أن تكون جفنة وقت الضحوة — وهو وقت تناول الطعام — غرّاء لامعة كجفان البائع أما يُشبه أن قد جعل نفسه وعشيرته بائعى عدة جفنات ، ثم أنّى يصلح للمبالغة فى التمدح بالشجاعة وأنه فى مقامها يقطرن أما كان يجب أن يتركها إلى يَسِلْن أو يفِضْنَ أو ما شاكل ذلك . وقد اجتمع راوية جرير وراوية كُثيِّر وراوية جميل وراوية نُصَيْبٍ وأخذ يتعصب كل واحد لصاحبه ويجمع له فى البلاغة قصبَ الرهان فحكّموا واحدة وكانت سُكَيْنَةُ . فقالت لراوية جرير : أليس صاحبك القائل :

طرقتك صائدةُ القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعى بسلام

وأى ساعة أولى بالزيارة من الطروق[1] قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية كُثيِّر : أليس صاحبك الذى يقول :

يَقرُّ بعينى ما يقر بعينها وأحسن شىء ما به العين قرّت

وليس شىء أقرّ لعيونهن من النكاح أفيحبُّ صاحبك أن يُنكَح قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

= لفظا من البيض . . قال أبو عبد الله المرزبانى » وقال قوم ممن أنكر هذا البيت فى قوله يلمعن بالضحى ولم يقل بالدجى وفى قوله وأسيافنا يقطرن ولم يقل يجرين لأن الجرى أكثر من القطر وقد رد هذا القول واحتج فيه قوم لحسان بما لاوجه لذكره فى هذا الموضع فأما قوله فخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك فلا عذر عندى لحسان فيه على مذهب نقاد الشعر ، وقد احترس من مثل هذا الزلل رجل من كلب فقال يذكر ولادتهم لمصعب بن الزبير وغيره ممن ولده نساؤهم :

وعبد العزيز قد ولدنا ومصعبا وكلب أب للصالحين والود

فانه لما فخر بمن ولده نساؤهم فضل رجالهم وأخبر أنهم يلدون الفاضلين وجمع ذلك فى بيت واحد وأجاد » انتهى والتفصيل فى خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للامام عبد القادر البغدادى (٣ — ٤٣٠) .

(١) الزيارة ليلا قال الشاعر :

الا طرقتنا مية ابنة منذر فما أرق النيام الا سلامها

فلو تركتْ عقلى معى ما طلبتها   وإن طِلابيها لما فات من عقلى

فما أرى لصاحبك هوى إنما طاب عقله قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية نُصَيْبٍ : أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدَعْدٍ ما حييتُ فإن أمت   فياويح نفسى من يهيم بها بعدى

أما كان لصاحبك همّ إلا هم من يهيم بها قبح الله صاحبك وقبح شعره ، ألا قال :

أهيم بدعد ما حييتُ فإن أمت   فلا صلحتْ دعد لذى خلة بعدى

بل قد وصل العرب فى الفطنة والذكاء وحسن الفهم إلى ما كاد أن يصل إلى حد الإعجاز . وفى الأغانى لأبى فرج الأصبهانى بسنده إلى عبد الملك بن عمير . قال قدم علينا عمرو بن هبيرة الكوفة فأرسل إلى عشرة أنا أحدهم من وجوه الكوفة فسمروا عنده ، ثم قال : ليحدثنى كل رجل منكم أحدوثة وابدأ أنت يا أبا عمرٍو ، فقلت : أصلح الله الأمير أحديث الحق أم حديث الباطل . قال : بل حديث الحق . قلت : إن امرأ القيس آلى[1] بأليةٍ أن لا يتزوجَ امرأةً حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين فجعل يخطبُ النساءَ فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر فبينما هو يسير فى جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنةً له صغيرة كأنها البدرُ ليلة تمامه فأعجبته ، فقال لها ياجارية : ما ثمانية وأربعة واثنتان . فقالت : أما ثمانية فأطباء الكلبة[2] وأما أربعة فأخلافُ[3] الناقة ، وأما ثنتان . فثديا المرأة . فخطبها إلى أبيها فزوجه إياها ، وشرطت هى عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال فجعل لها ذلك وعلى أن يسوق إليها مائة من الإبل وعشرة أعْبُدٍ وعشر وصائف وثلاثة أفراس ففعل ذلك . ثم إنه بعث عبداً له إلى المرأة وأهدى

---

(١) آلى : اى اقسم، وفى الأغانى انظر (ج ٨ ص ٧١ و٧٢) من طبعة الساسى
(٢) الأطباء : جمع طبى لذات الخف والظلف كالثدى للمرأة ويطلق قليلا لذات الحافر والسباع (٣) الاخلاف : جمع خلف من ذوات الخف كالثدى للانسان وقيل الخلف طرف الضرع

إليها نحياً[١] من سمن ونحياً من عسل وحلة[٢] من عصب[٣] فنزل العبد ببعض المياه فنشر الُحلة ولبسها فتعلقت بشعره فانشقت وفتح النحيين فطعم أهل المـاء منهما فنقصا ثم قدم على حى المرأة وهم خُلوف[٤] فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ودفع إليها هديتها . فقالت له : اعلم أى أخبر مولاك أن أبى ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً ، وأن أمى ذهبت تشق النفس نفســين وأن أخى يراعى الشمس وأن سمـــاءكم انشقت وإن وعاءيكم نضبا[٥] فقدم الغلام على مولاه فأخبره . فقال أما قولها : إن أبى ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً فإن أباها ذهب يحالف قوماً على قومه . وأما قولها : ذهبت أمى تشق النفس نفسين فإن أمها ذهبت تقبل امرأة[٦] نفساء . وأما قولها : إن أخى يراعى الشمس فإن أخاها فى سرح[٧] له يرعاه فهو ينتظر وجوب الشمس[٨] ليروح[٩] به . وأما قولها : إن سمـاءكم انشقت فإن البُرْد الذى بعثت به انشق . وأما قولهـا : إن وعاءيكم نضبا ، فإن النحيين اللذين بعثت بهما نقصا ، فأصدقنى ، فقال : يامولاى إنى نزلت بمـاء من مياه العرب فسألونى عن نسبى فأخبرتهم إنى ابن عمك ونشرت الحلة فانشقت وفتحت النحيين فأطعمت منهما أهل المـاء فقال : أولى لك[١٠] . ثم ساق مائة من الإبل وخرج

---

(١) النحى بالكسر الزق أو ما كان للسمن خاصة (٢) الحلة بالضم لاتكون الأثوبين من جنس واحد (٣) العصب مثل فلس برد يصبغ غزله ثم ينسج ، ولا يثنى ولا يجمع وانما يثنى ويجمع مايضاف اليه فيقال بردا عصب وبرود عصب والاضافة للتخصيص ويجوز أن يجعل وصفا فيقال شريت ثوبا عصبا (٤) وهم خلوف بالضم وهم الذين ذهبوا من الحى

(٥) يقلل نضب المال ينضب وينضب نضوبا ذهب فى الأرض والمراد هنا نقصا (٦) قبلت القابلة الولد تلفته عند خروجه قبالة بالكسر والجمع قوابل وامرأة قابلة وقبيل أيضا (٧) السرح المال السائم (٨) وجوب الشمس : أى غروبها (٩) أى ليرجع يقال راح يروح رواحا وتروح مثله يكون بمعنى الغدو وبمعنى الرجوع وقد طابق بينهما فى قوله تعالى : غدوها شهر ورواحها شهر أى ذهابها ورجوعها وقد يتوهم بعض الناس ان الرواح لا يكون الا فى آخر النهار وليس كذلك بل الرواح والغدو عند العرب يستعملان فى المسير أى وقت كان من ليل أو نهار ، قاله الأزهرى وغيره (١٠) أولى لك تهدد ووعيد ، قال الأصمعى : أى قاربه ما يهلكه أى نزل به ، ومنه قوله تعالى أولى لك فأولى ، معناه التوعد والتهدد أى الشر أقرب اليك .

نحوها ومعه الغلام فنزلا منزلا فخرج الغلام يسقى الإبل فعجز فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلامُ فى البئر . وخرج حتى أتى المرأة بالإبل وأخبرهم أنه زوجُها فقيل لهـا : قد جاء زوجك فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ولـكن انحروا له جزوراً[١] وأطعموه من كرشها وذَنبها . ففعلوا فقالت : اسقوه لبناً حازراً . وهو الحامض فسقوه فشرب ، فقالت : افرشوا له عند الفرث[٢] والدم . ففرشوا له فنام فلما أصبحت أرسلت إليه إنى أريد أن أسألك ، فقال : سَلِى عما شئت . فقالت : مِمَّ تختلج[٣] شفتاك ؟ قال : لتقبيلى إياك . قالت : فمم يختلج كشحاك[٤] ؟ قال : لالتزامى إياك . قالت : فمم يختلج فخذاك ؟ قال : لتوركى إياك . قالت عليـكم العبد فشدوا أيديكم به . ففعلوا . قال : ومرَّ قوم فاستخرجوه امرأ القيس من البئر فرجع إلى حيه فاستاق مائة من الإبل وأقبل إلى امرأته . فقيل لهـا : قد جاء زوجك . فقالت : والله ما أدرى أهو زوجى أم لا ولـكن انحروا له جزوراً فأطعموه من كرشها وذَنبها ففعلوا . فلما أتوه بذلك قال : وأين الـكبد والسنام والملحاء[٥] . فأبى أن يأكل . فقالت : اسقوه لبناً حازراً . فأبى أن يشربه وقال فأين الصريف[٦] والرثيئة[٧] . فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم . فأبى أن ينام وقال : افرشوا لى فوق التلعة[٨] الحمراء واضربوا عليها خباء . ثم أرسلت إليه : هلم شريطتى عليك فى المسائل الثلاث . فأرسل إليها أن سلى عما سئت . فقالت : مم تختلج شفتاك ؟ قال : لشربى المشعشعات[٩] قالت : فممَّ يختلج كشحاك ؟ قال للبسى الحِبرات[١٠]

(١) الجزور من الابل خاصة يقع على الذكر والأنثى والجمع جزر مثل رسول ورسل ويجمع أيضا على جزرات ثم على جزائر ولفظ الجزور أنثى يقال رعت الجزور قاله ابن الانبارى وزاد الصاغانى وقيل الجزور الناقة التى تنحر وجزرت الجزور وغيرها من باب قتل نحرتها

(٢) الفرث : السرجين (٣) تختلج : تضرب وتتحرك (٤) الكشح مابين الخاصرة الى الضلع الخلف (٥) الملحاء : لحم فى الصلب من الكاهل الى العجز (٦) الصريف : اللبن ساعة حلب (٧) الرثيئة : اللبن الحامض يحلب عليه فيخثر (٨) التلعة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها ضد والمراد هنـــا الأول (٩) المشعشع : الشراب الممزوج ، قال عمر بن كلثوم

مشعشعة كأن الحص فيها   اذا ما الماء خالطها سخينا

(١٠) الحبرات جمع حبرة وزان عنبة ثوب يمانى من قطن أو كتان مخطط ، يقال برد حبرة على الوصف وبرد حبرة قال الأزهرى ليس حبرة

قالت . فم يختلج فَخذاك ؟ قال . لركضى المطهمات[1] . قالت . هــذا زوجى لعمرى فعايــكم به واقتلوا العبد . فقتلوه ودخل امرؤ القيس بالجارية . فقال ابن هبيرة : حسبُــكم فلا خير فى الحديث فى سائر الليلة بعد حديثك ياأبا عمرو ولن تأتينا بأعجبَ منه . فقمنا وانصرفنا وأمر لى بجائزة . وقال المبرد فى كتابه الموسوم (بالروضة) . كانت العرب تستدل باللحظة واللفظة ، فمن ذلك ما روى أن جميلا قال لِــكُثَيّرٍ : لوصرتَ إلى بثينة فأخذتَ لى عنها موعداً . فقال : إنَّ غاشية عمها كثير . فقال : إن الحيلة تأتى من وراء ذلك . فأطرق كُثيّر إطراقة . ثم قال : متى كان آخر عهدك بها ؟ قال : يوم كذا . قال : فى أى موضع ؟ قال : فى واد يقال له «وادى الدوم» فأصاب ثوبها شىء فغسلته قال:فأتى الحى فجعل يتحدث إليهم حتى أتى عمَّها فحادثه وقال : أسمعك أبياتاً فى عزة حضرتنى قال : هاتِها فأعلنَ إنشاده لتسمع بثينة وقال :

أقول لهــا ياعزُّ : أرسلصاحبى ... على نأى دارٍ[2] والرسول موكل

بأنْ تجعلى بينى وبينك موعــداً ... وأنْ تأمُرينى بالذى فيــه أفعل

أما تذكرين العهد يوم لقيتــكم ... بأسفل وادى الدوْم والثوب يغسل

فعلمت أنه إياها يقصدُ بالعلامة فصاحت : اخسأ[3] فصاح بها عمها ما خسأت ؟ قالت : كلباً يعترينا ليلا ثم رأيته الساعة . فرجع كُثيّر إلى جميل فقال : ائتها الليلة فإنها ذكرت الليل . وقال ابن الأعرابى : أسرت طىّء رجلاً شابا من العرب فقدم عليه أبوه وعمه ليفدياه فاشتطوا[4] عليهما فى الفداء فأعطيا به عطية فلم يَرْضَوْا بها فقال أبوه : لا والذى جعل الفرقدين[5] يُصبحان ويُمسيان على جبل طىّء لا أزيدكم

موضعا أو شيئا معلوما انما هو وشى معلوم أضيف الثوب اليه كما قيل ثوب قرمز بالاضافة والقرمز صبغة فأضيف الثوب الى الوشى والصبغ للتوضيح (١) المطهمات : الخيل التامة الحسن (٢) النأى : البعد (٣) اخسأ : أى ابعد والخاسي من الكلاب المبعد لا يترك ان يدنو من الناس (٤) اشتطوا : أى جاروا عليه فى الطلب (٥) الفرقدان : نجمان فى السماء لايغربان ولكنهما يطوفان بالجدى ، وقيل هما كوكبان قريبان من القطب ، وقيل هما كوكبان فى بنات نعش الصغرى

على ما أعطيتكم . ثم انصرفا ، فقال الأب للعم : لقد ألقيت إلى ابنى كليمة لئن كان فيه خير لينجون بها . فما لبث أن نجا واطرد قطعة من إبلهم فذهب بها كأنه قال : الزم الفرقدين على جبل طىّء فإنهما طالعان عليه وهما لا يغيبان عنه . وفى كتاب الملاحن [1] : يروى عن ابن دريد فى أسير بكر بن وائل حيث سألهم رسولا إلى قومه فقالوا : لا ترسل إلا بحضرتنا ، اشفاقاً منه أن يُنذرهم فقد كانوا هموا بغزو قومه فجيء بعبد أسود فقال له : أتعقل ؟ قال : نعم إنى لعاقل . قال : ما أراك عاقلا . ثم قال : ما هذا ؟ وأشار بيده إلى الليل فقال : هذا الليل فقال : أراك عاقلا . ثم ملأ كفيه من الرمل فقال : كم هذا ؟ قال : لا أدرى وإنه لـكثير . قال : أيما أكثر النجوم أم النيران ؟ قال : كلٌّ كثير . قال : أبلغ قومى التحية وقل لهم : أكرموا فلاناً — يعنى أسيراً كان فى أيديهم — فانهم لى مكرمون وقل لهم : إن العرفج قد أدْبى وقد شكت النساء ومُرهم أن يعروا ناقتى الحمراء فقد أطالوا ركوبها وأن يركبوا جملى الأصهب بآية ما أكلت معكم حيساً وسلوا الحارث عن خبرى . فلما أدى العبد إليهم الرسالة قالوا : قد جن الأعور . والله ما نعرف له ناقة حمراءَ ولاجملاً أصهب . ثم سرحوا العبد ودعوا الحارث وقصوا عليه القصة فقال : قد أنذركم . أما قوله قد أدّبى العرفج أى الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح . وقوله شكت النساء أى اتخذوا الشكاءَ للسفر والشكوة القربة الصغيرة . وقوله : اعروا ناقتى الحمراءَ . أى ارتحلوا عن الدهناء واركبوا الصمان وهو الجمل الأصهب . وقوله : أكلت معكم حيْساً يريد أخلاطاً من الناس قد غزوكم لأن الحيس يجمع السمن والتمر والأقط . فامتثلوا ذلك وعرفوا ما قال . فأخذ هذا المعنى رجل كان أسيراً فى بنى تميم فـكتب إلى قومه ملغزاً فى الشعر يُنذرُهم .

---

(١) هو لابن دريد والملاحن الالغاز وهى المحاجاة لأنها تظهر الحجى والمعاياة والرمز والمعمى ، قالّ الخفاجى : والمتأخرون من الأدباء اصطلحوا على التفريق بينهما وهو ليس بأمر لغوى وقد تطلق على كناياتهم كقولهم للخمر أشـقر وللماء أشهب الى غير ذلك مما ذكر فى كتاب الكناية لابن المكرم

خلوا عن الناقة الحمراء واقتعدوا ال عوْد الذى فى جنابى ظهره وقع

إن الذئاب قد اخضرّتْ براثنها والناس كلُّهُمُ بكر إذا شَبِعُوا

قال أبو عثمان الاشناندانى فى أبيات المعانى : أراد بالناقة الحمراء الدهناء وهى أرض لبنى تميم تشبيهاً بالناقة لتأتيها وسهولة ركوبها لأنها أرض فلاة سهلة واقتعدوا العود أى اسكنوا الصمان وهو بلد لبنى تميم أرض غليظة صابة . وإنما شبهه بالعود لتذكير اسمه والعود المسن من الإبل وجعل فى ظهره وقعاً وهو آثار الدبر فى ظهر البعير تشبيهاً للصمان بما قد وطىء وكثرت آثار الناس فله بظهر بعير موقع . يقول امتنعوا بركوب الصمان لأنه وعر صلب يشق على الخيل أن تطأه ، والدهناء ممكنة . وأراد بالذئاب القوم الذين يغيرون عليهم ، شبههم بالذئاب لخفتهم وحرصهم على الغارة . وقوله قد اخضرت براثنها : يريد قد اخضرت الأرض وكثر العُشب فيها وأمكن الغزو والأقدام مخضرة من الكلأ . فجعل الأقدام براثن . وقوله والناس كلهم بكر إذا شبعوا : يريد أن بكر بن وائل أشد الناس عداوة لبنى تميم يقول : إذا شبعوا وأخصبوا فعداوتهم كعداوة بكر . ومن الغريب فى هذا الباب ما روى المرزبان أن رجلا كثير المال صحب عبدين فى سفر فلما توسطا الطريق همّا بقتله فلما صح ذلك عنده . قال أقسمُ عليكما إذا كانا لا بد لكما من قتلى أن تمضيا إلى دارى وتنشدا ابنتى هذا البيت . قالا : وما هو قال :

من مبلغ بنتىَّ أن أباهما لله درُّكما[1] ودر أبيكما

فقال أحدهما للآخر : لا نرى به بأساً فلما قتلاه جاءا إلى داره وقالا لابنته الكبرى : إن أباك لحقه ما يلحق الناس وآلى علينا أن نخبركما بهذا البيت فقالت الكبرى : ما أرى فيه شيئاً تخبرانى به ولكن اصبر حتى أستدعى أختى الصغرى . فاستدعتها فأنشدتها البيت فخرجت حاسرة[2] وقالت : هذان قتلا أبى يامعشر العرب ما أنتم

(١) لله دره : أى عمله ولا درديره لازكا عمله (٢) حاسرة : أى كاشفة . يقال حسرت المرأة ذراعها وخمارها من باب ضرب كشفته

فصحاء قالوا : وما الدليل عليه ؟ قالت : المصراع الثانى يحتاج إلى أول والأول يحتاج إلى ثان لا يليق أحدهما بالآخر ؟ قالوا : فما ينبغى أن يكون ؟ قالت : ينبغى أن يكون :

من مخبرٌ بنتيَّ أن أباهما ... أمسى قتيلاً بالفلاة مجندلا[١]

لله دركما ودر أبيكما ... لن يبرح العبدان حتى يقتلا

قال : فاستخبروهما فوجدوا الأمر على ما ذكرت . ومما يدل على غزارةِ فهم العرب ودقيق نظرهم ما اختصوا به من قرع العصا وهو أشد أنواع الرموز استخراجاً وأصعبها استنباطاً لخلوه من النطق وللاقتصار فيه على مجرد الفعل فإنه شارة بالفعل دون القول . وقد ادعى بنو قيس بن ثعلبة أن أول من قرع العصا سعد بن مالك بن ضُبَيْعة بن قيس بن ثعلبة قرعها لأخيه عمرو بن مالك وذلك حين لقى النعمان سعداً ومعه خيل بعضها يقاد وبعضها أعراء مهملة . فلما انتهى إلى النعمان سأله عنها فقال سعدٌ : إنى لم أقُدْ هذه لأمنعها . ولم أعَرِّ هذه لأضيعها[٢] فسأله النعمان عن أرضه هل أصابها غيث يحمد أثره . وروى شجره . فقال سعد : أما المطر فغزير . وأما الورق فشكير . وأما النافدة فساهرة . وأما الحازرة فشبعى نائمة . وأما البرشاء فقد امتلأت مساربها . وابتلت جنابتها وروى جنابثها . وأما الجوف فغُدُر لا تطلع . وأما الحذف فعزاف لا ينكع . يفتر إذا رتع[٣] . فقال النعمان وحسده على ما رأى من ذَرَب لسانه : وأبيك إنك لَمِفْوَهٌ فإن شئت أتيتك بما تَعيا عن جوابه . فقال : شئت إن لم يكن منك إفراط ولا إبعاد . فأمر النعمان وصيفاً فلطمه . وإنما أراد أن يتعدى فى القول فيقتله . فقال : ما جواب هذه ؟ فقال سعد : « سفيه مأمور » فأرسلها مثلا . قال النعمان للوصيف : ألطمه أخرى فلطمه . قال ما جواب هذه ؟ قال : لو نُهى عن الأولى لم يعد للأخرى فأرسلها

(١) مجندلا : أى مصروعا على الجدالة كسحابة وهى الأرض
(٢) لاهبها
(٣) سيأتى شرح هذه الكلمات فى الأصل

مثلا . فقال النعمان : ألطمه أخرى ففعل فقال : ما جواب هذه . فقال : ربٌّ يؤدّبُ عبدَهُ . فقال : ألطمه أخرى ، ففعل . فقال : ما جواب هذه . فقال : « ملكتَ فأسْجِحْ[1] » فأرسلها مثلا . فقال النعمان أصبتَ فاقعد فمكث عنده ما مكث ، ثم بدا للنعمان أن يبعث رائداً يرتاد له الكلأ فبعث عمرو بن مالك أخا سعد فأبطأ عليه فأغضبه ذلك . فأقسم لئن جاء حامداً للكلأ أو ذامًّا ليقتلنَّهُ ، فلما قدم عمرو دخل على النعمان وعنده الناس وسعد قاعد لديه مع الناس ، وكان قد عرف ما أقسم به النعمان من يمينه ، فقال سعد : أتأذن لى فأكلمه ؟ قال : إن كلمته قطعت لسانك . قال : فأُشير إليه ؟ قال : إن أشرت إليه قطعت يدك . قال فأومىء إليه ؟ قال : إذن انزع حدقتيك . قال فأقرع له العصا ؟ قال : اقرَعْ . فتناول عصا من بعض جلسائه فوضعها بين يديه وأخذ عصاه التى كانت معه وأخوه قائم فقرع بعصاه العصا الأخرى قرعة واحدة فنظر إليه أخوه ثم أومأ بالعصا نحوه فعرف أنه يقول مكانك ثم قرع العصا قرعةً واحدةً ثم رفعها إلى السماء ثم مسح عصاه بالأخرى فعرف أنه يقول قل له لم أجد جدباً ثم قرع العصا مراراً بطرف عصاه ثم رفعها شيئاً فعرف أنه يقول ولا نباتاً ثم قرع العصا قرعة وأقبل بها نحو النعمان فعرف أنه يقول كلمه . فأقبل عمرو بن مالك حتى وقف بين يدى النعمان فقال له النعمان هل حَمِدْتَ خصباً . أو ذممت جدبا . فقال عمرو لم أذم جدبا . ولم أحمد بقلا . الأرض مُشكلة لا خِصْبها يُعرف . ولا جدبها يوصف . رائدها واقف . ومنكرها عارف . وآمنها خائف فقال النعمان : أولى لك[2] بذلك نجوت فنجا وهو أول من قرعت له العصا . فقال سعد بن مالك لقرعة العصا :

قرعت العصا حتى تبين صاحبى ولم تك لولا ذاك للقوم تقرع

فقال: رأيت الأرض ليست بمُمْحل ولا سارح منها على الرعى يشبع

---

(١) الاسجاح حسن العفو ، أى ملكت الأمر على فأحسن العفو عنى وأصله السهولة والرفق يقال مشية سجح أى سهلة . يضرب فى العفو عند المقدرة

(٢) سيأتى شرحها فى الأصل

سواء فلا جدْب فيعرف جدبها   ولا صابها غيث غزير فَتَمْرِعُ[١]

فنجى بها حوْباء[٢] نفس كريمة   وقد كاد لولا ذاك فيهم يقطع

قول سعد : « أما الورق فشكير » يعنى أنّه صغيرٌ لم يكبر . « وأما النافدة فساهرة » يعنى التي قد نفدت من الهزال فلم يبق فيها قوة فهى ساهرة لأنها لم تشبع بعد فسهرها لفقد الشبع . والحازرة يجب أن تكون من قولهم حزرة المال خياره أى هى تقتدر بقوتها على الرعى فتشبع فتنام . والبرشاء أرض فيها رِمْث[٣] . والمسارب جمع مسرب وهى المواضع التى تسرب فيها المال أى الإبل . وقوله ابتلت جنابتها فهى مثل الجناب . وإذا قيل جنابثها فيجوز أن يكون مثل الجنابذ وهى جمع جنبذة . والجنبذة المكان المرتفع فأبدلت الثاء من الذال كما قالوا جث وجذ . ومن روى الرهاء فيجوز أن يكون من الأرض التى قد أصابها الرهام .[٤] والجوف البطن من الأرض . والغُدر جمع غدير . يعنى أن الوادى لم يكثر المطر فيسيل فيه فيرتفع سيله إلى جوانبه فيجاوز حد الغدران . والحذف ضرب من الشاء صغار ، وعزاف يعنى أنها تعزف نفوسها عن الماء لكثرته ولا ينكع : أى لايقطع شربها . يقال نكع . وأنكع . إذا قطع . قال الشاعر :

بنى ثُعل لاتَنْكعوا[٥] العنز شربها   بنى ثعل من يَنْكعُ العنز ظالم

وتفتر تكشف أسنانها إذا رفعت رءوسها من الرعى ، وأولى لك كلمة تقال

---

(١) مرع الوادى وامرع : اكلأ واخصب ، وقيل لم يأت مرع ، وقال ابن الاعرابى امرع المكان لا غير (٢) سيأتى شرحها فى الأصل (٣) رمث بالكسر مرعى الابل من الحمض وشجر يشبه الغضى (٤) الرهام كجبال جمع رهمة بالكسر المطر الضعيف الدائم الصغير القطر (٥) نكعه عن الأمر اعجله عنه أو رده ومنعه ورفعه وقيل نكعه نغصه بالاعجال كنكعه تنكيعا وقال الليث نكعه وكسعه ضرب بظهر قدمه على دبره وكذلك بكعه بالموحدة ، وأنشد : بنى ثعل لاتنكع العنز شربها الخ ، قال الزبيدى وأنشد سيبويه هكذا وفسره فقال ونكعه الورد ومنه . ومنعه اياه انتهى ، وبنو ثعل كصرد ابن عمو بن الغوث حى من طىء ، قال امرؤُ القيس :

رب رام من بنى ثعل   مثلج كفيه فى قتره

وفى الأساس : وان دعوت على أبناء رجل اسمه عمر او زفر فقل : أتيح لكم يابنى فعل ، رام من بنى ثعل .

للرجل إذا نجا من شر بعد ما كاد يصيبه . وقوله حوْباء نفس كريمة فيه وجوه يقال أن الحوباء النفس فإذا أخذ بها فإنما أضيفت الحوباء إلى النفس فى شعر سعد لاختلاف اللفظين . وربما قالوا الحوباء خالص النفس . وقال بعضهم الحوباء روح القلب . وأهل اليمن يقولون إن أول من قرعت له العصا عمرو بن حُمَمَةَ الدوسى . روى ذلك الشعبى عن ابن عباس وأنه المراد بذى الحلم فى قول الحارث ابن وعلة .

لا تأمننْ قوما ظلمتهمُ ... وبدأتهمْ بالشتم والرغم

أن يأبروا[1] نخلا لغيرهم ... والشىء تحقره وقد ينمى

وزعمتم أن لاحلومَ لنا ... إن العصا قرعت لذى الحلم

يريد أن الأمر والشأن لاحلوم لنا فإن كان الأمر كما زعمتم فنبهونا أنتم فإن الدوسى كان يقرع له العصا فينبه لما كان يزيغ فى الحكم لكبر سنه . وهذا تهكم منهم أى عرضتم فى قولكم بأنا سفهاء فاكتفينا بالتعريض عن التصريح كاكتفاء ذى الحلم بقرع العصا . ومضر تدعى أن ذا الحلم عامر بن الظَرِب العدوانى وإياه عنى ذو الأصبع فى قوله .

ومنهم حكم يَقضى ... فلا يُنقَضُ ما يَقضى

وتدعيه ربيعة فتقول قيس بن خالد الشيبانى وهو جد بسطام بن قيس بن مسعود ابن خالد . فأما ما يدعى لعمرو بن حُمَمَة فالخبر فيه وفى عامر بن الظَرِب واحد . وهو أن كل واحد منهما كان حكما للعرب يتحاكمون إليه فى كل مُعضلة . وهو لعمرو بن حُمَمَة فى هذا الحديث أشهر . وذلك أن العرب أتَوْه يتحاكمون إليه فغلِط فى حكومته وكان قد أسنّ فقالت له ابنته إنك قد صِرْت تهم فى حكمك أى تغلط فقال : إذا رأيتِ ذلك منى فاقرعى العصا . فكان إذا قرعت له العصا فطن فثاب إليه حلمه فأصاب فى حكمه .

---

(١) ابرت النخل ابرا من باب ضرب وقتل لقحته وأبرته تأبيرا مبالغة وتكثير والابور وزان رسول مايؤبر به

ومن الرموز بالفعل دون القول التى اختصت العرب بفهم المراد منها ما يروى فى الأمثال عن أبى فيد السدوسى . قال : حدث أبو خالد الـكلابى أن الأحوص بن جعفر أتى فقيل له أتانا رجل لا نعرفه فلما دنا من القوم حيث يرونه نزل عن راحلته وأتى شجرة فعلق عليها وطباً[1] من لبن ووضع فى بعض أغصانها حنظلة ووضع صرة من تراب وصرة من شوك فى بعضها ثم أتى راحلته فاستوى عليها فنظر الأحوص والقوم فى أمره فعى به . فقال الأحوص أرسلوا إلى قيس بن زهير فأتوا قيساً فجاءوا به إليه فقال له الأحوص : ألم تـكن تخبرنى أنه لا يرد عليك أمر إلا عرفت مأتاه مالم تر نواصى الخيل . قال وما الخبر ؟ فأعلموه فقال : قد بيَّن الصبحُ لذى عينين »[2] فصار مثلا يضرب به فى وضوح الشيء . قال أما صرة التراب فإنه زعم أنه أتاكم عدد كثير . وأما الحنظلة فإنه يخبركم أن حنظلة قد أتتكم . وأما الشوك فإنه يخبركم أن لها شوكة . وأما اللبن فهو دليل لـكم على قرب القوم وبعدهم . فإن كان حلوا حليباً فقد أتتكم الخيل . وإن كان لا حلوا ولا حامضاً فعلى قدر ذلك . وإن كان قارصاً[3] فعلى قدره . وإن كان خاثراً فلـكم مهلة من الرأى . وإنما ترك الرجل كلامكم لأنه قد أخذت عليه العهود وقد أنذركم . ونظائر هذه الحـكايات التى رواها الثقاة كثيرة ، وسيأتى عند الـكلام على علوم العرب ما يزيد المقام وضوحا .

ولما كانت العرب فى قوة الفهم وحدة الذهن إلى غاية الغايات كان معجزهم القرآن فإن المعجز فى كل قوم بحسب أفهامهم وعلى قدر عقولهم وأذهانهم وكان فى بنى إسرائيل بلادة وغباوة لأنه لم ينقل عنهم ما تدون من كلام مستحسن أو يستفاد من معنى مبتكر . وقالوا لنبيهم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . فخصوا من الإعجاز بما يصلون إليه ببداية حواسهم . والعرب أصح الناس أفهاما . وأحدّهم أذهانا . قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها .

(١) الوطب : سقاء اللبن وهو جلد الجذع فما فوقه والجمع أوطب ووطاب وأوطاب (٢) بين هنا بمعنى تبين ، يضرب للأمر يظهر كل الظهور (٣) القارص: اللبن الحامض

ومن المعانى أغربَهَا . ومن الآداب أحسنَها . نخصوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم . وتصل إليه أذهانُهم . فيُدْركونه بالفطنة دون البديهة . وبالروية دون البادِرة .[1] لتكون كل أمة مخصوصة بما يشا كل طبعها . ويوافق فهمها . والله ولى التوفيق .

***

وأما كون العرب أحفظ من غيرهم

فَلِأَنّ الغالب منهم أُمّيون . لا يقرءون ولا يكتبون . بل إن جميعَ عرب البوادى كذلك ومع هذا حَفِظوا على سبيل التفصيل أيامَهم وحروبَهم ووقائعهم وما قيل فيها من شعر وخطب . وما جرى من المفاخرات والمنافرات[2] بين قبائلهم . وضبطوا أنسابهم وأسماء فرسانهم الذين نزلوا فى ميادين حروبهم وأنهم من أى قبيلة وإلى أى أبٍ ينتهون من الآباء الأولين . وأسلافهم السابقين . وكان أحدهم يقول الشعر بلغت أبياته ما بلغت فما هم إلاّ أن سمعوه فانتقش فى صحائف خواطرهم وتمثّل فى خيالهم . وهذا مما تساوى فيه العامة والخاصة منهم والصغير والكبير والذكر والأنثى من أحيائهم . وذلك مما لا يستريب فيه أحد ولا يشك ذو نظر . وكانوا إذا جرت بينهم حادثة غريبة أو اتفقت لهم نكتة غريبة ضربوا بها الأمثال . وسارت بين القبائل تلك الأقوال . فلا تغيب هاتيك الوقائع عن أفكارهم . ولا تزول مدى الليالى والأيام عن خزائن خواطرهم . وقد دوَّن المتأخرون ما تلقَّوْه من الثقاة . وما سَمِعوه من أفواه الرُواة . من أيامهم وأخبارهم . وأمثالهم وأشعارهم . فبلغ ذلك ما بلغ من المجامع والأسفار . حتى تجاوزت دوائر العدّ والانحصار . هذا مع أن ذلك بالنسبة إلى مالم يصل إليهم كقطرة من

---

(١) البادرة : مايبدر من حدتك فى الغضب من قول أو فعل

(٢) نافر : معناه حاكم فى النسب وسميت منافرة لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة : أنا أعز نفرا

بحار . وذرة من جبال وقفار · وأما الغالب من شعرهم ولغتهم وأيامهم الأول . فقد ذهب بذهابهم وبقى فى الصدور ولم ينقل . وأخذوا فى أكفانهم[١] كثيراً من العلوم والفنون . حيث لم يجدوا من يحفظ حقوقها ويصون · وكان لكل شاعر منهم راوية يَحْفَظُ عنه ما يقول . وما يُنشد فى المواقع والمجامع حين يصول ويجول . وكل راوية من رُواتهم كان يحفظ من الأراجيز والقَصِيد وسائر فنون الشعر ما يفوت الإحصاء والحصر . هـذا الأصمعى من متأخريهم قال : ما بلغت الْحُلُمَ حتى رويت اثنى عشر ألف أرجوزة للأعراب ، وكان خَلَفٌ الأحمر أروى الناس للشعر وأعلمهم بجيده . وبالجملة العرب أحفظ الناس . ولا يكاد يمترى فى ذلك إلا من عدم الإحساس ، حتى إن فى كتاب الوشى المرقوم : أن الهمدانى ادعى أنه لم يصل إلى أحد من أخبار العرب والعجم إلا بالعرب وبين ذلك على أتم وجه وأثبته ثم قال : والعرب أصحاب حفظ ورواية .

وفى مقدمة أقوم المسالك نقلا عن تاريخ دردى وزير المعارف العمومية بفرنسا : أن الآداب كانت قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤداة بلغتين : الحميرية فى اليمن ، والقرشية فى الحجاز ، وبالآخرة جاء القرآن ، ولا يخفى عليك أن الذى يقابل الحميرية هو المضرية ، وإن وقع الإجماع فى القراءة على خصوص القرشية ، ولذلك اشتهرت واستمر خلوصها إلى وقتنا هذا باستمرار كتب العلم والديانة وما دخلت العجمة فى اللسان إلا بدخول الأمم فى الإسلام ، وتطاول السنين ، واللغة المذكورة من الاتساع وَسَعة المجال مالا يخفى على مُثافنها[٢] لاسيما فى الأشياء

---

(١) قلت : احفظ فى هذا المعنى أبياتا لبعض الأجلة من العراقيين وهى :

أسـفى على فضـلى ولم أكن	أبصرت عارف حقـه فيبين
ومن العلوم الغامضـات ورمزها	أملى قضيت وللفنـون ديون
وأخذت فى كفنى علوما لم أجد	من يحفظن حقوقهـا ويصون
ورقيق أسرار جعلت لها الحشى	مسـتودعا هى فى الدفين دفين

(٢) ثافنه : جالسه وقيل لازمه وكالمه فهو مثافن ومثفن كمحدث وثفن الشىء يثفنه ثفنا لزمه وثفن فلانا صاحبه حتى لا يخفى عليه شىء من أمره ورجل مثفن لخصمه أى ملازم له . والمثافنة : المباطنة .

التى بها قوام المعيشة فى البادية أو تتكرر رؤيتهم لها أو تكثر حاجتهم إليها فقد يكون للشيء الواحد عدة أسماء باعتبار تعدد صفاته وأحواله ، وبكثرة الترداف عندهم اتسعت لهم دوائر الآداب الشعرية . إذ يقال إن للعسل عندهم ثمانين اسما ، وللثعبان مائتين وللأسد خمسمائة ، وللجمل ألفاً ، وكذا السيف ، وللداهية نحو أربعة آلاف اسم ولا جَرَم[1] أن استيعاب مثل هذه الأسماء يستدعى حافظة قوية ، وللعرب من قوة الحافظة ، وحدة الفكر مالا يسع أحداً إنكاره . فمن مشاهيرهم حماد الراوية الذى ذكر يوماً للخليفة الوليد أنه ينشد له فى الحال مائة قصيدة والقصيدة من عشرين إلى مائة بيت فتعب المستمع قبل المنشد . انتهى نقل ما هو المقصود مما اعترف به هذا الفاضل مع كونه من صميم أهل أوربا مما للعرب من قوة الحافظة التى لم تكن لغيرهم من الأمم . وإنما يعرف ذا الفضل ذووه . والحق يعلو ولا يعلى عليه . فلذلك اكتفينا فى هذا الباب بهذا المقدار .

* * *

وأما كون العرب أقدر على البيان من غيرهم

فلأن لسانهم أتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعانى جمعاً وفرقاً يجمع المعانى الكثيرة فى اللفظ القليل إذا شاء المتكلم الجمع ، ثم يميز بين كل شيئين بلفظ آخر مميز مختصر ، كما نجده من لغتهم فى جنس الحيوان ، فإنهم مثلا يعبرون عن القدر المشترك بين أنواعه فى أسماء كل أمر من أموره من الأصوات والأولاد والمساكن والأظفار إلى غير ذلك من خصائص اللسان العربى التى لا تستراب فيها . وقد أفردها أئمة اللغة بكتب معتبرة ، مطولة ومختصرة . مع ما اشتملت عليه هذه اللغة الجليلة من المزايا التى لم توجد فى غيرها من لغات الأمم . انظر إلى المفرد والجمع وأسباب اختلاف العلامات الدالة على الجمع واختصاص كل محل بعلامته

---

(١) قال فى القاموس : لاجرم ولا ذا جرم ولا ان ذا جرم ولا عن ذا جرم ولا جر ولا جرم ككرم ولا جرم بالضم أى لابد أو حقا أو لامحالة أو هذا أصله ثم كثر حتى تحول الى معنى القسم فلذلك يجاب عنه باللام فيقال لآتينك .

ووقوع المفرد موقع الجمع وعكسه . وأين يحسن مراعاة الأصل وأين يحسن العدول عنه . وهذا فصل نافع جداً يُطلعك على سر هذه اللغة العظيمة القدر المفضلة على سائر لغات الأمم ، وذلك أن الأصل هو المعنى المفرد وأن يكون اللفظ الدال عليه مفرداً لأن اللفظ قالبُ المعنى ولباسه يحتذى حذوه والمناسبة الحقيقية ثابتةٍ بين اللفظ والمعنى طولا وقصراً وخفةً وثقلا وكثرةً وقلةً وحركةً وسكوناً وشدة ولينا ، فإن كان المعنى مفرداً أفردوا لفظه ، وإن كان مركبا ركبوا اللفظ ، وإن كان طويلا طولوه كاَلعَنَطْنَطْ والعشنَّق للطويل . فانظر إلى طول هذا اللفظ لطول معناه . وانظر إلى لفظ بُحْتُر وما فيه من الضم والاجتماع لما كان مسماه القصير المجتمع الخلق . وكذلك لفظ الحديد والحجر والشدة والقوة ونحوها تجِدُ فى ألفاظها ما يناسب مسمياتها ، وكذلك لفظى الحركة والسكون مناسبتهما لمسمييهما معلومة بالحس ، وكذلك لفظ الدوران والثَّوَران والغليان وبابه فى لفظهما من تتابع الحركة ما يدل على تتابع حركة مسماها . وكذلك الدخَّال والخرَّاج والضرّاب والأفَّاك فى تكرر الحرف المضاعف منها ما يدل على تكرر المعنى . وكذلك الغضبان والظمآن والحيران وبابه مما صيغ على هذا البناء الذى يتسع النطق به ويمتلئ الفم بلفظه لامتلاء حامله من هذه المعانى فكان الغضبان هو الممتلئ غضباً الذى قد اتسع غضبه حتى ملأ قلبَه وجوارحَه . وكذلك بقيتها ولا يتسع المقام لبسط هذا فإنه يطول ويَدِقّ حتى يكسع عنه أكثر الأفهام وتنبو عنه للطافته . لأنه ينشأ من جوهر الحرف تارة ومن صفته ومن اقترانه بما يناسبه ومن تكرره ومن حركته وسكونه ومن تقديمه وتأخيره ومن إثباته وحذفه ومن قلبه وإعلاله . إلى غير ذلك من الموازنة بين الحركات وتعديل الحروف وتوخى المشاكلة والمخالفة والخفة والثقل والفصل والوصل . وهذا باب يقوم من يتبعه بسفر ضخم . ولنذكر منه مسألة واحدة وهى اللفظ فى إفراده وتغييره عند زيادة معناه بالتثنية والجمع دون سائر تغيراته . فنقول لما كان المفرد هو الأصل والتثنية والجمع تابعان له جعل لهما

فى الاسم علامة تدل عليهما وجعلت آخره قضاء لحق الأصالة فيه والتبعية فيهما والفرعية فالتزموا هذا فى التثنية ولم ينخرم عليهم . وأما الجمع فإنهم ذهبوا به كل مذهب وصرفوه كل مصرف فمرة جعلوه على حد التثنية وهو قيـاس الباب كالتثنية والنسب والتأنيث وغيرها . وتارة اجتلبوا له علامة فى وسطه كالألف فى جعافر والياء فى عبيد والواو فى فلوس . وتارة جعلوا اختصار بعض حروفه وإسقاطها علامة عليه نحو عنـكبوت وعناكب فإنه لـما ثقل عليهم المفرد وطالت حروفه وازداد ثقلا بالجمع خففوه بحذف بعض حروفه لئلا يجمعوا بين ثقلين . ولا يناقض هذا ما أصلوه من طول اللفظ لطول المعنى وقصره لقصره فإن هذا باب آخر من المعادلة والموازنة عارض ذلك الأصل ومنع من طرده . ومنه جمعهم فعيل وفعول وفعال على فعل كرغيف وعمود وقذال على رغف وعمد وقذل لثقل المفرد بالمدة . فإن كان فى واحدة تاء التأنيث فإنها تحذف فى الجمع فـكرهوا أن يحذفوا المدة فيجمعوا عليه بين نقصين فقلبوا المدة . ولم يحذفوها كرسـالة ورسائل وصحيفة وصحائف فجبروا النقص بالفرق لا إنهم تناقضوا وتارة يقتصرون على تغيير بعض حركاته فيجعلونها علامة لجمعه كفلك وفلك وعبد وعبد . وتارة يجتلبون له لفظاً مستقلا من غير لفظ واحده كخيل وأنام وقوم ورهط ونحوه . وتارة يجعلون العلامة فى التقدير والنية لا فى اللفظ كفلك للواحد والجمع فإن ضمة الواحد فى النية كضمة قفل وضمة الجمع كضمة رسل وكذلك هجان ودلاص وأسمال وأعشار مع أن غالب هذا الباب إنما يأتى فى الصفات لحصول التميز والعلامة بموصوفاتها فلا يقع لبس ولا يكاد يجىء فى غير الصفات إلا نادراً جداً . ومع هذا فلابد أن يكون لمفرده لفظ يغاير جمعه ويكون فيه لغتان لأنهم علموا أنه يثقل عليهم ، أما فى الجر والنصب فَلِتَوَالى الـكسرات ، وأما فى الرفع فَلِثقَل الخروج من الـكسرة إلى الضمة فعدلوا إلى جمع تـكسيره . ولا يرد هذا عليهم فى راحمين وراحمون لفصل الألف الساكنة ومنعها من توالى الحركات فهو كمسلمين وقائمين . وكذلك عدلوا عن جمع فعل المضاعف من صفات العقلاء كفظّ وبَرٍّ فلم يجمعوه

جمع سلامة . ولم يقولوا بَرُّون وفظُّون لئلا يشتبهَ بكلوب وسفود لأنه بزنته فكسروه وقالوا أبرار فلما جاءوا إلى غير المضاعف كصعب جمعوه جمعَ تصحيح ولم يخافوا التباساً إذ ليس فى الكلام فعلول ، وصعفوق[1] نادر ، فتأمل هذا التفريق ، وهذا التصور الدالّ على أن أذهان العرب قد فاقت أذهان الأمم كما فاقت لغتهم لغاتهم . والكلام فى هذا المقام واسع جداً فأين لغير لغة العرب من هذه الأسرار ، والفرق واضح بين الليل والنهار .

وأما ما اشتمل عليه كلام العرب وتراكيبهم ، وما حازته من فنون البراعة أساليبهم ، فقد تكفل ببسطه كتب المعانى والبيان . وما ألف فى بيان إعجاز القرآن . وقد سأل أبو إسحق المتفلسف الكندى أبا العباس المبرّد ، فقال : إنى أجدُ فى كلام العرب حشواً يقولون عبد الله قائم . ثم يقولون إن عبد الله قائم . ثم يقولون إن عبد الله لقائم ، والمعنى واحد ، فأجابه أبو العباس : إن المعانى مختلفة فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه . وقولهم إن عبد الله قائم جوابٌ عن سؤال سائل . وقولهم إن عبد الله لقائم ، جواب عن إنكار منكرٍ قيامه . فانظر إلى تفاوت هذه المعانى مع تغيير يسير فى اللفظ . وأما ما فصح من لغاتهم ، وما ملح من بلاغاتهم ، وما سمع من الأعراب فى بواديها ، ومن خطباء الحلل فى نواديها[2] ، ومن قراضبة[3] نجد فى أكلائها ومراتعها ، ومن سماسرة[4] تهامة فى أسواقها

(١) الصعفوق : اللئيم ، قال فى القاموس : ليس فى الكلام فعلول سواه ، وأما خرنوب فضعيف وأما الفصيح فيضم خاؤه أو يشدد راؤه (٢) جمع ناد وهو المجلس ؛ وقد ادعى بعض العصريين أن هذا الجمع وان كان هو القياس الا أنه غير مستعمل وانما يقال فى جمعه الأندية وهو فى الأصل جمع ندى بمعنى النادى استغنوا به عن جمع النادى كما استغنوا بالأحاديث الذى هو جمع الأحدوثة عن جمع الحديث، ولا يخفى بطلان هذا القول على من له أقل مسكة من العلم (٣) القراضبة : اللصوص من الفقراء والواحد قرضوب وقرضاب (٤) سماسرة جمع سمسار بالكسر . المتوسط بين البائع والمشترى ومالك الشىء وقيمة السفير بين المحبين وسمسار الأرض العالم بها وهى بهاء والمصدر السمسرة .

ومجامعها ، وما تراجزت به السقاة على أفواه قُلُبها[١] وتساجعت به الرعاة على شفاه عُلَبها[٢] ، وما تقارضته شعراء قيس وتميم فى ساعات المماتنة[٣] ، وترامت[٤] به سفراء ثقيف وهذيل فى أيام المفاتنة ، فذاك الذى تنفد عند ذكره المحابر ، ولا تستوعب محاسنه صحائف الدفاتر ، وهم الأحرياء بذلك ، والأحقاء بما هنالك ، أليس قرى الأضياف سجيتهم ، ونحر العشار للناس دأبهم وهِجّيراهم[٥] ، لا مزقت أيدى الأدوار لهم أديما . ولا أباحت لهم حريما . أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنون قرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد . فإن الكلام المفيد عند الإنسان بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاء لروحه . وأطيبُ قرى لها غَبوقه وصَبُوحه[٦] .

وقد سمعتُ بعض من لاخلاق له من الناس أنه ادعى إن لغاتِ الإفرنج اليوم أوسع من لغة العرب بناء على ما حدث فيها من ألفاظ وضعوها لمعانٍ لم تكن فى القرون الخالية . والأزمنة الماضية . فضلا عن أن تعرفه العرب فتفوه به . أو تتخيله فتنطق به . ولا يخفى عليك أن هذا كلام يشعر بعدم وقوف قائله على منشأ السعة وأنه لم يخض بحار فنون اللغة حتى يعلم أن المزية من أَيْنَ حصلت . وأما ما ذكر من أن مفردات العربية غير تامة بالنظر إلى ما استحدث بعد العرب من الفنون والصنائع مما لم يكن يخطر ببال الأولين فهو غير شين على العربية . إذ لا يسوغ لواضع اللغة أن يضع أسماء لمسميات غير موجودة وإنما الشين علينا الآن فى أن نستعير هذه الأسماء من اللغات الأجنبية مع قدرتنا على صَوْغها من لغتنا . على أن

---

(١) قلبها جمع قليب وهى البئر (٢) علبها جمع علبة بالضم قدح ضخم من جلود الابل أو من خشب يحلب فيها قال جرير .

لم تتلفع بفضل مئزرها دعد ولم تسق دعد فى العلب

(٣) المماتنة . المماطلة والمباعدة فى الغاية (٤) ترامت : تراجزت .

(٥) يقال هذا هجيراه واهجيراه واهجيراؤه وهجيره وأهجورته وهجرياه . أى دأبه وشأنه ، قال الشاعر :

رمى فاخطأ والاقدار غالبة فانصعن والويل هجيراه والحرب

(٦) الغبوق كصبور ما يشرب بالعشى ، والصبوح ما يشرب بالغداة .

أكثر هذه الأسماء هو من قبيل اسم المكان أو الآلة وصوغ اسم المكان والآلة في العربية مطرد من كل فعل ثلاثي فما الحاجة إلى أن نقول : فبريقة أو كَرْخانة ، ولا نقول مَعْمل أو مصنع أو أن نقول بيمارستان[١] ولا نقول مستشفى . أو نقول ديوان ولا نقول مأمر ، أو نقول أسطرلاب[٢] ، ولا نقول منظر ، والعرب اليوم بخسوا اللغةَ حقَّها فإنهم عدلوا عنها إلى اللغات العجمية من غير سبب موجب ، فإن من يستعير ثوباً من آخر وهو مستغنٍ عنه يحكم عليه بالزيغ والبطر[٣] . وإذا اعترض أحد بأن دخول الألفاظ العجمية في العربية غير منكر ، وأن كلَّ لغةٍ من اللغات لابد أن يكون فيها دخيل ، فاللغة هي بمنزلة المتكلمين بها فلا يمكن لأمةٍ أن تعيش وحدها من دون أن تختلِطَ بأمةٍ أخرى ، فإن الإنسان مدني بالطبع أي محتاج في تمدنه إلى الاختلاط مع أبناء جنسه . والجواب أن هذا الدخيل إنما يُغْضَى عنه إذا لم يوجد في أصل اللغة ما يرادفه ، أو لم يمكن صوغ مثله فأما مع وجود هذا الإمكان فالإغضاء عنه بخس لحق اللغة لا محالة ، وإلا لزم المستعربين أن ينطقوا بالباء أو الكاف الفارسيتين ، أو أن يقدموا المضاف إليه على المضاف . وهناك وجه آخر في العربية لصوغ ألفاظ تسد مسد الألفاظ العجمية التي اضطررنا إليها وهو باب النحت . قال ابن فارس في فقه اللغة : العرب تَنْحَتُ منْ كلمتين كلمةً واحدة وهو جنس من الاختصار ، وذلك كقولهم : « رجل عَبْشَمِيّ » منسوبٌ إلى اسمين ، وهما عبد شمس .

وأنشد الخليل

أقول لها ودمع العين جارٍ ألم تَحْزُنْكِ حيْعَلَةُ المنادى ؟

---

(١) بيمارستان . قال الخفاجي . لفظة فارسية استعملها العرب ومعناها مجمع المرضى لان بيمار معناه المريض وستان هو الموضع وأول من صنعه بقراط وسماه اخشتدوكين .

(٢) اسطرلاب قال الخفاجي الآلات التي يعرف بها الوقت اسطرلاب والطرجهارة وهي آلة مائية ، وبنكام وهي رملية وكلها الفاظ غير عربية ذكرها في نهاية الارب .

(٣) البطر : مجاوزة الحد .

من قولهم : « حيَّ على كذا » وهذا مذهبنا فى أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد « ضَبْطر » من « ضَبَطَ » و « ضبَر » . وفى قولهم « صَهْصَلِقْ »[1] إنه من « صَهل » و « صَلَق » وفى « الصِلْدِم » إنه من « الصلْد » و « الصدْم » إلى آخر ما قال مما يدل على أن اللغة العربية أحسن اللغات صيغاً وأساليب وأتمها وأكملها نسقاً وتأليفاً مع تسويغ استعمال النحت عند اقتضاء الضرورة . ولو أن العرب الأولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد وأسلاك التلغراف والغاز والبوستة ونحو ذلك مما اخترعه الأفرنج لوضعوا له أسماء خاصة ناصة فهم على هذا غير ملومين : وإنما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم وشاهدنا هذه الأمور بأعيننا ولم نتنبه لوضع أسماء لها على النسق الذى ألفته العرب وهو الاختصار والإيجاز . « وأما العمل » فإن مبناه على الأخلاق وهى الغرائز المخلوقة فى النفس وغرائز العرب أطوع للخير من غيرهم فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء والغيرة وغير ذلك من الأخلاق المحمودة .

* * *

أما كون العرب أقرب للسخاء من غيرهم

فذاك الذى لا يحتاج إلى بيان ، ولا يعوز إلى إقامة دليل ولا برهان . قد شهد لهم به الأوداء والأعداء ، واعترف لهم الأقربون والبعداء ، إذا ألم بهم ضيف حكموه على أنفسهم ، واستهانوا له ما وجدوه من نفيسهم ، وهذا شعرهم ينْطِق بما جُبلوا عليه ويُعرب عما ألفوه وجنحوا إليه ، وهو مما لا يمكن استيعابه فى هذا المقام ، ومن أين لنا الإحاطة بالبحر المحيط وقد ضاقت عنه دوائر الأفهام ؟ غير أن المعسور . لا يسقط بالميسور . فلا بد من تحلية عاطل جيد هذا الكتاب ، ببعض من عقود نظام در ذلك العباب[3] .

---

(١) صهصلق : العجوز الصخابة كالصهصليق (٢) الصلدم: كزبرج الاسد والصلب والشديد الحافر كالصلادم فيهما والصلدام بالكسر وهى صلدامة
(٣) العباب كغراب معظم السيل وارتفاعه وكثرته أو موجه .

قال عتيبة بن بجير المازنى من بنى الحارث بن كعب :

ومستنبحٍ باتَ الصدَى يَستتيهُهُ ... إلى كلِ صوتٍ فهو فى الرحلِ جانحُ[1]

فقلتُ لأهلى : ما بُغـامُ مطيةٍ ... وسارٍ أضافته الـكلابُ النوابحُ[2]

فقالوا : غريبٌ طارقٌ طوَّحتْ به ... مُتُونُ الفيافى والخطوبُ الطوارحُ[3]

فقمتُ ولم أجْثِمَ مكانى ولم تَقُم ... مع النفسِ عِلاّتُ البخيلِ الفواضحُ[4]

وناديتُ شِبْلاً فاســـتجاب وربما ... ضمنّا قِرَى عَشْرٍ لمن لا نُصافحُ[5]

فقام أبو ضيفٍ كريمٌ كأنّه ... وقد جَدّ من فرطِ الفـكاهةِ مازحُ[6]

(١) المستنبح : من يطلب نباح الكلب ليستهدى بذلك فى طريقه ، والصدى: الطائر الذى يصيح بالليل وأكثر مايقولون فيه انه ذكر البوم وجمعه أصداء وقد يوقعون الصدى على ضرب من الجنادب يصيح بالليـــل والنهـار ، — ويستتيهه — هو يستفعه من تاه يتيه اذا ضل والجانح : المائل (٢) البغام : قطع مد الصوت بالحنين ، واضافته : جاوبته ، والمعنى : فقلت ما هذا البغام الذى اسمع ومن هذا السارى الذى اضافته الكلاب (٣) قال التبريزى : كان يجب ان يقول والخطوب المطوحات فى الجمع بالالف والتاء لأن اسم الفاعل من طوح مطوح ولكنه اخرج الطوائح على حذف الزيادة من الفعل ومثله قوله عز وجل : « وارسـلنا الرياح لواقح لان اصله ان يجىء ملاقح او ملقحـات لكونها ملقحة للاشجار والفعل منه القح فاخرجه على حذف الزوائد فصــار لقح ولواقح وكذلك الطوائح قياسه ان يكون اذا عدل عن الجمع بالتاء مطاوح وارتفع غريب على انه خبر مبتدأ محذوف كأنه قال هو غريب طارق ومعنى طوحت به حملته على المهالك والطائح الهالك . اهـ

وكتب بالهامش قوله كان يجب الخ حله يفيد ان القافيـــة الطوائح بدل الطوارح ولعلهما روايتان والمتن الصلب من الارض والفيافى جمع فيفاة وهى المكان المستوى أو المفازة لا ماء فيها .

(٤) الجثوم اصله الصاق الصدر بالارض ولزومها ويستعمل كثيرا فى الطير والسباع والجثمان الشخص منه اشتق ، وقوله لم تكن مـع النفس علات البخيل يريد ان نفسى لما تهيأت للاضافة لم تقم معها العلات التى تفضح اربابها

(٥) يريد بشبل ابنه ، قال ابو العلاء: اشبه ما روى فى هذا البيت قرى عشر لمن لا نصافح بفتح العين اى عشر ليال لمن ليس له بيننا وبينه مصادقة توجب مصافحة وبعض الناس يضم العين وله وجه اى ربما ضمنا قرى عشر أموالنا لمن لا نعرف وقد يمكن ان يكون عشر جمع عشير وهو الذى يعاشره من الغرباء أو يكون من عشيرته مثل ما يقال صديق وصدق وكريم وكرم ، وقوله لمن لا نصافح يجوز ان يكون من المصافحة المعروفة ويجوز ان يكون من صفحت الناس أى نظرت فى أحوالهم .

(٦) عنى بابى الضيف نفسه وارتفع مازح على انه خبر كأن وموضع وقد جد موضع الحال كانه قال يشـــابه المازح من فرط الصـــبابة وهو جاد ويقال فاكهته بملح الكلام وهى الفاكهة .

إلى جِذْمِ مال قد نَهَكْنا سَوامَهُ ... وأعراضُنا فيه بواقٍ صَحائحُ (١)

جعلناه دون الذمّ حتى كأنه ... إذا عُدّ مال المكثيرين المنائحُ (٢)

لنا حَمْدُ أرباب المئين ولا يُرَى ... إلى بيتنا مالٌ مع الليل رائحُ (٣)

وقال مُرَّة بن محكان التميمى السعدى (٤) :

يا ربّةَ البيت قومى غير صاغرةٍ ... ضُمّى إليكِ رحال القوم والقُرُبا (٥)

فى ليلةٍ من جمادى ذاتِ أنديةٍ ... لا يُبصِرُ الكلبُ من ظلمائها الطُنُبا (٦)

لا ينبح الكلب فيها غير واحدةٍ ... حتى يَلفَّ على خَيشومه الذنَبا (٧)

ما ذا تَرَيْنَ أنُدْنيهم لأرحُلِنا ... فى جانب البيت أم نبنى لهم قببا

لمُرْمِلِ الزاد مَعْنِىٌّ بحاجته ... من كان يَكْره ذماً أو يَقِى حسبا (٨)

وقمت مستبطناً سيفى فأعرضَ لى ... مثلَ المجادِلِ كُومٌ بُرّكت عُصبا (٩)

(١) الجذم : الاصل ، ونهكنا سوامه : أى اثرنا فى السائمة من المال بما عودناها من النحر من قولهم نهكه المرض اذا أضر به ، والسوام : الابل الراعية وجملة الى جذم مرتبط بـ (قام) فى البيت قبله والمعنى فقمت الى الابل التى انفدنا السوام منها فى الضيافة وحمل الديات مع نقاء عرضنا .

(٢) المنائح جمع منيحة وهى الناقة أو الشاة تدفع الى الجار لينتفع بلبنها ما دام بها لبن فاذا انقطع لبنها ردت ، وقوله جعلناه دون الذم يريد صيرناه دون الذم (٣) يعنى انها على قلتها باركة بالفناء الحقوق لا تبلغ ان تصير سارحة ورائحة ولكن لنا حمد ارباب الابل الكثيرة لجودنا وكرمنا .

(٤) محكان علم مرتجل فعلان من م ح ك ، ومرة هذا من بطن يقال لهم بنو ربيع بن سعد بن زيد مناة بن تميم وهو شاعر اسلامى مقل من شعراء الدولة الاموية ، عاصر جريرا والفرزدق فاخملا ذكره وكان شريفا جوادا ولا عقب له ، وهو أحد من حبس فى القرى والاطعام ، قتله مصعب بن الزبير فى ولايته لامر كان بينهما حبسه ثم دس اليه من قتله .

(٥) القرب جمع قراب السيف وهو كالجراب يوضع السيف فيه بغمده وغير السيف وانما امرها بضم الرجال والقرب لانهم لما نزلوا عنده فقد امنوا لا يحتاجون الى حضور السلاح عنده .

(٦) قوله لا يبصر الكلب مبالغة من شدة الظلمة والكلب قوى البصر بالليل فاذا بلغ امره الى ما وصف فهو نهاية الظلم والطنب حبل البيت .

(٧) قوله حتى يلفى انتصب الفعل باضمار ان وحتى بمعنى الى كأنه قال الى ان يلف الذنب على خرطومه الا نبحة واحدة .

(٨) المرمل : الذى قد انقطع زاده .

(٩) يقال استنبطت فلانا دونك أى خامصته وتبطنت كذا دخلت فيه حتى عرفت باطنه وقوله فاعرض لى أى ابدت لى عرضها نوق كانهن قصور ، والكوم جمع أكوام وكوماء وهى العظام الاسنمة ، وعصب جمع عصبة .

فصادف السيفُ منها ساقَ مَتْليةٍ جلْسٍ فصادف منه ساقُها العَطبا[١]

زيّافةٍ بنتِ زيّافٍ مذكَّرةٍ لـمَّا نَعَوْها لراعى سَرْحِنا انتحبا[٢]

أمطيتُ جازِرَنا أعلى سناسِنِها فصار جازرُنا من فوقها قتَبا[٣]

يُنَشْنِش اللحم عنها وهى باركة كما تنشنش كفا قاتلٍ سلبا[٤]

وقلتُ لـمـا غَدَوْا أوصى قعيدتنا غَدّى بنيك فلن تلْقَيهمُ حَقبا[٥]

أدعى أباهم ولم أُقْرَفْ بأمّهمِ وقد عمرْتُ ولم أعرف لهم نسبا

أنا ابن مَحْـكان أخوالى بنو مَطرٍ أنمى إليهم وكانوا معشراً نجُبا[٦]

« وقال آخر »

ومستنبحٍ قال الصدى مثل قوله حضأتُ له ناراً لها حطبٌ جزْلُ[٧]

فقمت إليه مُسْرعاً فغنمتهُ مخافة قومى أن يفوزوا به قبل

فأوسعنى حمـداً وأوسعته قرىً وأرخِصْ بحمدٍ كان كاسبَهُ الأكل

« وقال آخر »

تركتُ ضأنى تَوَدُّ الذئبَ راعيَها وأنها لا ترانى آخرَ الأبدِ[٨]

---

(١) اراد انه عرقب ناقة منها ، والمتلية هى التى لها ولد يتلوها وقيل هى الحامل ، والجلس : الصلبة المشرفة وقيل هى الواسعة الاخذ من الارض والجلس المكان المرتفع (٢) الزيافة : التى تزيف فى مشيها وتتبختر، والمذكرة المتشبهة بالجمل، ونعوها : اخبروا بنحرها، والسرح : المال الراعى، والانتحاب رفع الصوت بالبكاء ، وانما بكى عليها لانها من خيار المال واعزه عنده .

(٣) يقال أمطيت البعير اذا ركبت مطاه وهو الظهر وامطيته غيرى وانما يصف اشراف ناقته التى نحرها فيقول ركبها جازرنا لما نحرها اذ كان أعلى سناسنها لم تصل يده اليه فصار منها لما عالاها بمكان القتب ، والسناسن أعلى السنام والخارج من نقار الظهر واحدتها سنسنة .

(٤) ينشنش : أى يكشف ويفرق وقيل النشنشة مباشرة الشىء حتى تأخذه كما تريد . (٥) الحقب : السنون وأحدتها حقبة .

(٦) بنو مطر بن شيبان رهط معن بن زائدة .

(٧) حضأت له نارا : فتحت عينها لتلتهب وقد أوقدت بغلاظ الحطب وكبارها وحضأت له نارا جواب رب .

(٨) الضأن : ذوات الصوف من الغنم الواحدة ضائنة والذكر ضائن ، قال ابن الانبارى : الضأن مؤنثة والجمع اضؤن مثل فلس وأفلس وجمع الكثرة ضئين مثل كريم .

الذئبُ يَطْرُقها فى الدهر واحدةً   وكلَّ يوم ترانى مُدْيَةٌ بيَدِى(١)

« وقال آخر »

ما أنا بالساعى إلى أم عاصم   لأضربَها إنى إذًا لَجَهُولُ(٢)
لكِ البيتُ إلا فَيْنَةً تُحْسنينها   إذا حان من ضيفٍ علىَّ نزول(٣)

« وقال بعض بنى أسد »

وسوداءَ لا تُكْسَى الرقاعَ نَبيلةٍ   لها عند قَرَّاتِ العشياتِ أزْملُ(٤)
إذا ما قَرَيْناها قِراها تضمَّنتْ   قِرَى من عرانا أو تزيد فتفضلُ

« وقال آخر وهو عروة بن الورد »

سلى الطارقَ المعترَّ يا أم مالك   إذا ما أتانى بين قِدْرى ومَجْزَرى(٥)
أيُسْفِرُ وجهى أنه أول القِرَى   وأبذُلُ معروفى له دون مُنكرى(٦)

« وقال آخر »

وإنا لَمَشَّاؤونَ بين رحَالنا   إلى الضيف منا لاحِفٌ ومُنِيم(٧)
فذو الحلم منا جاهلٌ دون ضيفه   وذو الجهل منا عن أذاهُ حليم

« وقال ابن هرْمَةَ »

أغشَى الطريقَ بقبَّتى ورِوَاقِها   وأَحُلُّ فى نَشَزَ الرُبى فأقيمُ(٨)
إنَّ امرأً جعل الطريقَ لبيته   طُنُباً وأنكَرَ حقه للئيمُ(٩)

---

(١) المدية : الشفرة والجمع مدى ومديات .
(٢) قوله وما أنا بالساعى كانه رأى انسانا يضرب امرأته ويحول بينها وبين تدبيرها دارها فنفى عن نفسه مثل ذلك بفعله المتناهى فى الجهل .
(٣) الفينة : الوقت . (٤) القرة الشعر بعينه، والازمل : الصوت الشديد، والسوداء يعنى قدرا والرقاع يعنى الثياب ، ونبيلة : عظيمة الشأن وخص قرات العشيات لأنها وقت الاضياف . (٥) الطارق : الآتى ليلا ، والمعتر المتعرض ولا يسأل ، وقوله : بين قدرى ومجزرى يريد اذا أتانى فى موضع الضيافة أعطيته اما لحما نيأ وذلك من المجزر واما مطبوخا وذلك من القدر .
(٦) قوله انه أول القرى يريد أن اظهار البشاشة للضيف من أوائل قراه والمنكر ههنا أن يسأله عن اسمه ونسبه وبلده ومقصده وكل هذا مما يجلب عليه حياء . (٧) أى يلبسه اللحاف ومنيم يحدثه حتى ينام .
(٨) يعنى أنه يضرب قبة على الطريق ، ويروى فى قلل الربى .
(٩) يعنى حق الطريق ولم يرض بالحلول على الطريق حتى وصله بالاقامة، وقوله جعل الطريق لبيته طنبا أراد جعل الطريق موضع طنب بيته فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه .

« وقال آخر »

ومستنبحٍ تَسْتَكْشِطُ الريحُ ثوبَهُ ليسقط عنه وهو بالثوب مُعْصِمُ[١]
عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه لينبحَ كلبٌ أو ليفزعَ نُوَّمُ[٢]
فجاوبه مستسمعُ الصّوت للقرَى له عند إتيان المهبينَ مَطْعَمُ[٣]
يكاد إذا ما أبصر الضيفَ مقبلا يكلمه من حبه وهو أعجَمُ[٤]

« وقال سالم بن قُحْفان العنبرى »

لا تعذُلينى فى العطآء ويسّرى لـكل بعير جاءَ طالبه حَبْلا[٥]
فإنى لا تبكى علىّ إفالها إذا شَبِعت من روض أوطانها بقلا[٦]
فلم أر مثل الإبل مالا لِمُقْتَنٍ ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا[٧]

« ومن خبر هذه الأبيات » أن سالم بن قحفان أتاه أخو امرأته فأعطاه بعيراً من إبله وقال لامرأته هاتى حبلا يقرن به ما أعطيناه إلى بعيره . ثم أعطاه بعيراً آخر وقال هاتى حبلا ثم أعطاه ثالثاً فقال هاتى حبلا فقالت ما بقى عندى حبل . فقال علىَّ الجمال . وعليك الحبال . فرمَتْ إليه بخمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها فأنشأ يقول لا تعذلينى فى العطاء ، الأبيات . فأجابته امرأته .

حلفتُ يميناً يا ابنَ قحفان بالذى تكفَّل بالأرزاق فى السهل والجبل

---

(١) كشط واستكشط بمعنى وهو كعجب واستعجب والكشط والقشط يتقاربان وأصل الكشط للبعير وان استعمل فى غيره والجلد يقال له الكشاط والمعصم والمستعصم واحد وهو المستمسك بالشىء .

(٢) الاعتساف : الاخذ فى الطريق على غير هداية وانما يقال ليفزع نوم لانهم اذا انتبهوا لصوته أجابوه وتلقوه أو رفعوا النار له .

(٣) قوله له عند اتيان المهبين مطعم ، يعنى سعة عيش الكلب فيما ينحر للضيف والمهبون الاضياف يقال هب من نومه واهببه .

(٤) أى يكاد الكلب يكلم الضيف حبا له اذا أقبل على عجمته .

(٥) يسرى أى هيئى وأعدى .

(٦) افالها : صغارها الواحد أفيل وفى معناه قولان أحدهما أن الابل بهائم لا تهتم لى اذا مت بل ترتع وتشبع فموتى عندها وموت من لا ينحرها سواء ، والآخر أن ابلى لا تبكى بعد موتى بل تفرح بموتى لانى أنحرها فاذا مت فاعله يأخذها من لا ينحرها .

(٧) المقتنى الذى يقتنى المال ونفس المال المدخر قنوة .

تَزالُ حبالٌ محصدات أعدُّها لها ما مشى منها على خفهِ جمل (١)

فأعطِ ولا تبْخلْ لمن جاء طالباً فعندى لها خُطُمٌ وقد زاحت العلل (٢)

« وقال آخر »

ألا تَرَيْنَ وقد قَطَّعْتنى عَذَلاً ماذا مِنَ البعد بين البخْل والجودِ

إلا يكُنْ وَرَقى غَضّا أراحُ به للمُعتفين فإنى ليّنُ العـــود (٣)

« وقال قيس بن عاصم المنقرى »

إنى امرؤ لا يعترى خُـــلُقى دنَس يفنّده ولا أفْنُ (٤)

من مِنقَر فى بيت مَــكْرُمة والغصن ينبُت حوله الغصن

خطباء حين يقـــول قائلهم بيضُ الوجوه مصاقع لُسن (٥)

لا يفطنونـــ لعيبِ جارهم وهُمْ لحفظ جواره فطُنُ (٦)

« وقال ابن عنقاء الفزارى »

رآنى على مابى عُمَيْلَة فاشتكى إلى مالِهِ حالى أسَرَّ كما جَهَر (٧)

دعانى فآسانى ولو ضَنَّ لم ألُمْ على حين لا بَدْوٌ يُرَجَّى ولا حَضَر (٨)

غـــلامٌ رماه الله بالخير يافعاً له سيمياء لا تَشُقُّ على البصر (٩)

---

(١) أى ما تزال وجاز حذفها لدلالة اليمين عليها . (٢) زاحت بمعنى زالت وازحتها ازلتها . (٣) الورق المال من الابل والوراق الرجل الكثير الورق ، يقال رحت له اراح أى ارتحت وقيل الاريحى افعلى من هذا وذكر الورق كناية عن المـال كثير فى كلامهم ، قال زهير :

وليس مانع ذى قربى ولا رحم يوما ولا معدم من خابط ورقا

لما استعار الورق للمال وصله بالخابط تحسينا لكلامه وكذلك هذا لماكنى عن معروفه بالورق وصله بالعود واذا لان العود اهتز وعن الاهتزاز للخير يحصل الندى . (٤) يفنده : يفحشه والفند الفحش ويقال افند الرجل اذا أتى بالفحش والافن اصله استخراج اللبن من الضرع حتى يخلو منه ثم قيل افن الرجل فهو مأفون اذا زال عقله .

(٥) المصاقع جمع مصقع واصل الصقع الضرب وهو هنا رفع الصوت ، اللسن جمع لسن يقال اسن يلسن لسنا اذا تناهى فى البلاغة والفصاحة .

(٦) يقول هم يلابسون الجار على ظاهر أمره ولا يتحسسون عليه وان اتفق له ما يوجب عليهم حفظه بعقد الجوار فطنوا له ، والفطن جمع فطن .

(٧) اشتكى الى ما له مجاز جعل رجوعه الى ما له فى اصلاح أمره شكاية منه اليه ، وقوله اسر كما جهر أى لم ينافق يعنى انه اسر الاهتمام بامرى كما أظهره . (٨) قوله فآسانى أى جعلنى أسوة له بأن أعطانى من ماله واو ضن أى بخل لم المه لضيق الزمان . (٩) السيمياء الحسن والبهجـة أى قد وسمه الله تعالى بسيمى حســنة مقبولة يلتذ الناظر اليها .

كأن الثريا علقت في جبينه وفى خده الشعرى وفى وجهه القمرْ
إذا قيلت العوراء أغضى كأنه ذليل بلا ذل ولو شاء لانتصر[١]
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه تردى رداءً واسع الذيل واتزر
فقلت له خيراً وأثنيت فعله وأوفاك ما أسديت من ذمٍّ أو شكر[٢]

قال أبو رياش : مر عميلة الفَزارى على ابن عنقاء الفَزارى وهو يحتش[٣] لغنمه . وقيل يحفر عن البقل ويأكله ، فقال : ياابن عنقاء ما أصارك إلى هذه الحال ؟ فقال له ابن عنقاء : تغير الزمان ، وتعذر الأخوان ، وضَنُّ[٤] أمثالك بما معهم فقال عميلة لاجرم والله لاتطلع الشمس غداً إلا وأنت كأحدنا ثم انصرف كل واحد منهما إلى أهله . وكان عميلة غلاماً حين بقل وجهه[٥] فبات ابن عنقاء يتململ على فراشه لايأخذه النوم اشتغالا بما قال له عميلة فقالت له امرأته ما شأنك ؟ فاخبرها الخبر فقالت : قد خَرِفت وذهب عقلك حتى تعلق نفسك بكلام غلام حديث السن لايحفل بما يجرى على لسانه . ويحكى أنه لما أصبح قالت له ابنته لو أتيت عميلة فقد وعدك أن يقاسمك ماله فقال . يابنية إن الفتى كان سكران ولا أدرى لعله لم يعقل ما قاله فبينما هى تراجعه الكلام إذ أقبل عليهم كالليل من إبل وغنم وخيل ، وإذا عميلة قد وقف عليه فقال : يا ابن عنقاء أخرج إلىَّ نخرج إليه . فقال : هذا مالى أجمع هلم نقتسمه فقاسمه إياه بعيراً وبعيراً وفرساً وفرساً وشاةً وشاةً وجاريةً وجاريةً وغلاماً وغلاماً . ثم انصرف فقال ابن عنقاء الأبيات .

« وقال آخر »

سأشكر عمراً إن تراخت منيتى أيادى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

(١) العوراء الكلمة القبيحة ، واغضى طبق أجفانه .
(٢) أسدى من سدى البعير اذا قدم يديه فى السير ومن أسداك خيرا فكأنه بسط به اليك يده مقبلا .
(٣) يقطع الحشيش بعد جفافه .
(٤) ضن : اى بخل . (٥) بقل وجهه اى خرج شعره .

رأى خلّتى من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلّتِ (١)

« وقال رجل من بهراء واسمه فَدَكِىّ »

إنْ أجزْ علقمةَ بن سيفٍ سعيهُ لا أجزِهِ ببلاءِ يومٍ واحد
لأحبّنى حبَّ الصبى ورَمَّنى رَمَّ الهدِىّ إلى الغنىّ الواجد (٢)
وأجابنى يوم الصُّراخ بهجْمةٍ مائةٍ تشقُّ على عِصىّ الذائِد
ولقد نَضَحْتُ مليلتى فتميثت عن آل عتّاب بماء باردِ (٣)

« ومن خبر فَدَكى » أنه كان مجاورا فى بنى تغلب لبنى عتاب بن سعد ابن زهير ابن جُشَم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غُنْم بن تغلب فأقام فيهم مدةً ثم إن علقمة ابن سيف العتابى غزا فى بعض مغازيه فأغار حنش بن معبد أحد بنى ثعلبة بن بكر ابن حبيب فأخذ إبل البهرانى فكان إذا ورد بنو عتاب نعمهم حوّض حوضاً واستق فيه حتى يملأه ثم يغمز فيه ذكره ويقول : اشرب فمالى مال غيرك وإذا حضر مجالسهم أنشأ يقول :

هل أنا إلا معزب لياليا لياليا من رجب ثمانيا
ثم تجىء جيرتى بماليا

فلما قدم علقمة بن سيف أخبروه شأن البهرانى ، فقال إن حنش بن معبد لى صديق وإن وفدت عليه رد على الإبل ، فوفد عليه فى جماعة من بنى تغلب ، فيهم رجل من بنى الأوس بنى تغلب ، وهم أشأم حى فى العرب بسبب رجل منهم وقعت حرب البسوس وبسبب رجل آخر منهم وقعت حرب ابنى بغيض ذبيان وعَبْس . فلما قَدِموا على حنش بن معبد فَرح بهم وبنى عليهم قبة وأكرمهم

(١) الخلة : الفقر هنا ، وقوله فكانت قذى عينيه أى لم يصبر عليها كما لا يصبر الرجل على قذى عينيه حتى يخرجه .

(٢) رمنى : أصلح حالى ، رم الهدى : الهدى العروس اذا زفت العروس الى الغنى تكلف أهلها فى حسن تجهزها لئلا يعيرها أهل زوجها خللا وقع فى أمرها ولا يعير زوجها تزوجه اياها .

(٣) المليلة : شدة العطش والحرارة ، وتميثت : بردت وذابت من ماث الدواء اذا أذابه .

ووعدهم أن يرد على علقمة بن سيف الإبل إذا أصبحوا فلما كان الليل استسمع عليهم حنش بن معبد وهم يتحدثون ويذكرون ما صنع بهم حنش ووعده إياهم برد الإبل وسمع الأوسى وهو يقول ألم أحدثكم أنها كالمصبة ازدردتها[1] اللَبْوةُ إن لا تقئها تخراها فأغضب ذلك حنشاً وحلف أن لا يَرُدَّ منها بعيراً فلما رجعوا أخرج علقمة بن سيف من ماله مائة بعير فأعطاها البهرانى وقال هذا بدل ما أخذ منك ، فقال البهرانى : سأشكر عمراً الأبيات .

وقال الحسين بن مطير الأسدى فى بعض العرب

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ويوم نعيم فيه للناس أنعُمُ[2]

فيمطر يوم الجود من كفه الندى ويمطر يوم البأس من كفه الدم

ولو أن يوم البأس خلى عقابه على الناس لم يصبح على الأرض مجرم

ولو أن يوم الجود خلَّى يمينه على الناس لم يصبح على الأرض معدم

وقال أبو الطَّمَحان القينى واسمه حنظلة بن الشرقى[3]

إذا قيل أى الناس خيرٌ قبيلةً وأصبرُ يوماً لا توارى كواكبه[4]

فأنَّ بنى لام بن عمرو أرومةٌ سمت فوق صَعْب لاتنال مراقبه[5]

---

(١) زرد اللقمة وازدردها : بلعها ، واللبوة كعنوة ، ويكسر وكسمرة وكقناة الاسدة ، قال فى المصباح : الهاء فيها لتأكيد التأنيث كما فى ناقة ونعجة لانه ليس لها مذكر من لفظها حتى تكون فارقة ، ويقال : أجرى من اللبوة .

(٢) يقول ايام هذا الممدوح مقسمة بين انعام وانتقام يوم بؤس تشقى به أعداؤه ويوم نعيم تحيا به وتسعد أولياؤه ثم جاء بما عنده من الابيات مشروحا فقال : فيمطر يوم الجود الخ .

(٣) ترجمته فى الخزانة (٣ء٢٦٦) .

(٤) قبيلة منصوب على التمييز والمراد باليوم يوم الحرب والقتال، وتوارى أصله تتوارى فحذف احدى التاءين ، وأراد بكواكبه شدة ذلك اليوم ، قال التبريزى : والاصل فى هذا ان يوم حليمة لشدة القتال صعد الغبار فى ذلك اليوم وانعقد فى الجو حتى ستر الشمس فرؤيت الكواكب ظهرا — والمعنى ان سأل سائل عن خير قبيلة واصبرها يوم القتال الشديد قيل له بنو لام .

(٥) المراقب : جمع مرقبة وهى المكان المشرف العالى يقف عليه الحارس ، اى سمت فوق صعب يشق الارتقاء اليه ، الارومة : الاصل .

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجَى الليل حتى نَظَّم الجَزْعَ ثاقبه (١)

وقال آخر

يا أيها المتمنى أن يكون فتى مثل ابن زيد لقد خلَّى لك السُبُلا (٢)

اعدُدْ نظائر أخلاق عُدِدْنَ له هل سَبَّ من أحد أو سُبَّ إذ بَخِلا ؟

إن تنفق المال أو تكلف مساعِيَهُ يَصْعُبْ عليك وتفعل دون ما فعلا

لو يُبْعَثُ الناس أدناهم وأبعدهم فى ساحة الأرض حتى يحرثوا الإبلا (٣)

كى يطلبو فوق ظهر الأرض لم يجدوا مثلَ الذى غيبوا فى بطنه رَجلا

وقال شقران مولى سلامان من قضاعة

لو كنتُ مولى قيس عيلانَ لم تجد علىّ لإنسان من الناس درهما

ولكننى مولى قضاعةَ كلّها فلستُ أُبالى أن أدينَ وتغرَما

أولئك قومى بارك الله فيهم على كل حال ما أعفّ وأكرما (٤)

ثقالُ الجفان والحلوم رَحاهُمُ رحى الماء يكتالون كيلا غذَمذما (٥)

جفاة المحزِّ لا يصيبون مَفْصلا ولا يأكلون اللحم إلا تخذُّما (٦)

وقالت ليلى الاخيلية ويقال بل قالها أبوها

نحن الأخايل لا يزال غلامنا حتى يَدِبّ على العصا مذكوراً (٧)

(١) الجزع بالفتح ، فيه بياض وسواد ، الواحد جزعة مثل ثمر وثمرة ، والثقوب الاضاءة ، يقال نار ثاقبة وكوكب ثاقب وحسب ثاقب وقد ثقب أى اشتد ضوؤه وتلألؤه . (٢) أراد بابن زيد عروة بن زيد الخيل أى لقد خلى لك الطرق فى اكتساب مناقب الفتوة .

(٣) قوله حتى يحرثوا الابل أى يهزلوها ويضعفوها بالاسفار ، وقوله لم يجدوا جواب لو ، ومعنى البيتين : لو طاف الناس بالارض حتى تتعب ابلهم لكى يصادفوا عليها مثل هذا الممدوح الذى أودعوه بطنها لم يجدوا له نظيرا.

(٤) قوله على كل حال متعلق بقوله بارك الله فيهم أى بارك الله فيهم فى سائر أحوالهم ، ثم قال مستأنفا ما أعف وأكرما أى أعفهم وأكرمهم — والمعنى انه يدعو بالبركة ويتعجب من عفافهم وكرمهم. (٥) الغذمذم كسفرجل الجزام

(٦) الخذم : سرعة القَطع وفى التخذم زيادة تكلف ، يقول اذا أكلوا اللحم على موائدهم لم يتناولوه الا قطعا بالسكاكين لا نهشا بالاسنان ، وقيل المراد بالاختذام هو طيب النفس يقال رجل خذم أى طيب النفس والخذم السمح

(٧) الاخايل : جمع وهى قبيلة ، ويقال للشاهين الاخيل والجمع الاخايل ومراد الشاعر نحن المعروفون المشهورون ، وقوله لا يزال غلامنا أى الغلام منا رفيع الذكر من صباه الى أن يهرم .

تبكي السيوفُ إذا فقدنَ اكفَّنا جزعاً وتعلَمنا الرفاقُ بُحورا
ولَنَحْنُ أوثقُ فى صدور نسائكم منكم إذا بكر الصُّراخ بكورا(١)

وقال عمرُو بنُ الاطنابةَ أحد بنى الخزرج(٢)

إنّى من القوم الذين إذا انتدَوْا بدأوا بحق الله ثم النائل(٣)
المانعين منَ الخنا جاراتهم والحاشدين على طعام النازل(٤)
والخالطين فقيرَهم بغنيهم والباذلين عطاءَهم للسائل
الضاربين الكبش يبرقُ بيضه ضربَ المُهَجهِج عن حياض الآبل(٥)
والقاتلين لدى الوغى أقرانَهم إن المنية من وراء الوائل(٦)
والقائلون فلا يعاب كلامُهم يوم المقامةِ بالقضاء الفاصل(٧)
خُزْرٌ عيونُهُمُ إلى أعدائهم يمشُون مشى الأسْدِ تحت الوابل(٨)
ليسوا بأنكاسٍ ولا ميلٍ إذا ما الحربُ شُبتْ أشعلوا بالشاعل(٩)

---

(١) انما خص الصراخ بالبكور لأن الغارة تقع صباحا (٢) الاطنابة . سير الحزام يكون عونا لسيره اذا قلق ، قال سلامة : (يركضن قد قلقت عند الأطانيب) والاطنابة سير يشد فى وتر القوس العربية والاطنابة المظلة ، واسم أم عمرو هذا وهو أحد من ملك الحجاز فى الجاهلية وكان شاعرا مجيدا وهو القائل :

أقول لها وقد جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

تمثل به معاوية (رضى الله عنه) فى احدى وقعاته مع على (رضى الله عنه) وكاد ينهزم فما لبث أن ثبت مكانه ، وأما الخزرج فالريح الجنوب (٣) انتدوا تصدروا فى النادى وهو المجلس ، وقوله بدأوا بحق الله يعنى الواجبات ، النائل : يعنى العطاء للسائل (٤) قوله الحاشدين أى الذين لايفترون عن القيام بذلك ، والخنا : الفحش ، والنازل أراد به الضيف (٥) المهجهج الذى يطرد الابل عن الحوض اذا رويت فيقول لها جوه أو جاه وعندهم أن جوه من زجر الاناث وجاه من زجر الذكور ، والآبل صاحب الابل كالتاجر واللابن ، والكبش سيد القوم والبيضة بيضة الحديد التى تلبس للحرب (٦) يقول ان المنية من وراء الهارب أى تلحقه على كل حال لامنجى منه ، والوغى : الحرب (٧) المقامة : المجلس (٨) الخزر ضيق العين كأنه ينظر بمؤخرها ، والوابل : المطر الشديد — معناه أنهم ينظرون الى أعدائهم نظر استزراء ولا يكترثون بهم ولا يفزعون من شىء لشدة ثباتهم (٩) الانكاس جمع نكس وهو الذى لاخير فيه ، والميل جمع أميل وهو الذى لايثبت على الفرس ، والمعنى أنهم ليسوا بالضعفاء بل هم فرسان اذا أوقدت نار الحرب أشعلوها بمن يشعلها

وقال حجْر بن خالد يمدح النعمانَ بن المنذر

سمِعْتُ بفعل الفاعلين فلم أجد كمثل أبى قابوس حزما ونائلا(١)
فساق إلهى الغيث من كل بلدة إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فأصبح منه كل وادٍ حللتهُ من الأرض مسفوح المذانبِ سائلا(٢)
متى تُنْع يُنْع الجودُ والبأس والتقى وتُصبحْ قلوص الحرب جرباء حائلا(٣)
فلا ملِكٌ يُدْركَنَّكَ سعيُهُ ولا سوقةٌ ما يمدحنّك باطلا(٤)

وقال آخر

ومستنبح بعد الهدوء دعوته بشقراءَ مثلِ الفجر ذاكٍ وقودُها(٥)
فقلتُ له : أهلاً وسهلاً ومرحباً بمُوقِدِ نارٍ مُحْمِدٍ من يرودها
نَصبْنا له جوفاء ذات ضبابةٍ من الدهم مبطاناً طويلاً رُكُودُها(٦)
فإن شئت أثْوَيناكَ فى الحىّ مكرما وإن شئت بلغناكَ أرضاً تريدها(٧)

وقال آخر

ومستنبح تهوى مساقط رأسه إلى كل شخص فهْوَ للسمع أصْوَرُ(٨)

(١) أبو قابوس كنية النعمان والكاف من كمثل زائدة ومثله (لواحق الأقراب فيها كالمقق) اراد فيها المقق كما أن هذا يريد لم ار مثل أبى قابوس (٢) فأصبح منه أى من الغيث وانتصب مسفوح المذانب على انه خبر أصبح والمذانب المسايل (٣) ليس للحرب قلوص انما هو مجاز استعمله اضعف الحرب بعده لأن القلوص اذا جربت لم تركب واذا حالت لم تحلب (٤) السوقة سموا سوقة لأن الملك يسوقهم على حكمه والواحد والجمع فى اللفظ سواء ، وقوله مايمدحنك باطلا أى مدحا باطلا وانتصب باطلا على انه صفة لمصدر محذوف (٥) بعد الهدوء أى بعد قطعة من الليل يهدأ فيها الناس ، وشقراء نار شبهها بالفجر لارتفاعها وانتشارها وقوله ذاك وقودها أى متقد ايقادها وهذا من باب جنونك مجنون وشعرك شاعر ومعنى دعائه الى النار الهابه اياها ليبصر ضوءها فيجيء اليها (٦) جوفاء : أى قدرا واسعة الجوف كثير الأخذ ، والضبابة : مايتعقب المطر من الظلمة الرقيقة والسحاب الركيك وذكر ههنا مثلا والدهم السود ، وركودها لبثها على النار لعظمها وكثرة اللحم فيها (٧) يقول ان اردت الاقامة أقمت مكرما معظما وان اردت التوجه فى مقصدك بلغناك مقرك (٨) المساقط جمع مسقط ويريد به المصدر أى يميل رأسه الى كل شخص يقدره انسانا ليلتجيء اليه لأنه ضل الطريق

يُصَفِّقُه أنف من الريح باردٌ ونكباء ليلٍ من جُمادى وصرصرُ (١)

حبيبٌ إلى كلبِ الكريم مُناخه بغيضٌ إلى الكوماء والكلب أبصرُ (٢)

حضأت له نارى فأبصرَ ضوءها وما كاد لولا حضأة النار يُبصِرُ (٣)

دعته بغير اسم هلمَّ إلى القِرى فأسرى يبوُع الأرض والنار تزْهَرُ (٤)

فلما أضاءت شخصه قلتُ مرحباً هلمَّ وللصّالين بالنار أبشروا (٥)

فجاء ومحمود القرى يستفزه إليها وداعى الليل بالصبح يصْفِرُ (٦)

تأخرت حتى لم تكد تصطفى القِرى على أهله والحق لا يتأخر (٧)

وقمت بنصْلِ السيف والْبرْكُ هاجدٌ بهازرهُ والموت بالسيف ينظر (٨)

فاعضضتهُ الطولى سناماً وخيرها بلاءً وخيرُ الخير ما يتخيَّر (٩)

فأوفضْن عنها وهى ترغو حُشاشةً بذى نفسها والسيف عُريان أحمر (١٠)

والاصور . المائل (١) يصفقه . يضربه ، والأنف من الريح أولها ، والنكباء . كل ريح تهب بين ريحين من الرياح الأربع ، والصرصر : الريح الباردة (٢) الكوماء الناقة العظيمة السنام ، وابصر بمعنى أعلم من بصر القلب لابصر العين ، معناه ان كلب الرجل الكريم يحب الضيف ليأكل من طعامه وأن ناقته تكره الضيف لأنه ينحرها له (٣) حضأت له نارى أى رفعتها له ليستدل بها ولولا رفعها له ما كان يبصر الطريق ولا يهتدى (٤) يبوع الأرض . أى يقطعها بخطو واسع وحركة سريعة ويقال بعت أبوع بوعا من هذا وفرس بيع واسع الخطو والنار تزهر الواو واو الحال وتزهر تضىء فى صعود (٥) أى لما دنا منى وتراآى لى شخصه بضوء النار تلقيته بالترحيب وقلت لمن حول النار من المصطلين ومن الأهل والخول استبشروا بالضيف ، وقوله مرحبا تسليم عليه ، وهلم أمر بالدنو له فكأنه استأنف بعد التسليم بهذا الكلام ولم يجمعهما اللفظ به فى حالة واحدة (٦) يستفزه : أى يستحثه ، وداعى الليل . مايصوت بالسحر مثل الديك وغيره ، والصفير : كل صوت يمتد مع رقة (٧) أى قلت للضيف تأخرت حتى كاد غيرك يسبق الى القرى فينال صفوة القرى أى خياره دونك ولكن حق الضيف لايؤخر عنه بتأخر حضوره (٨) البرك : الابل ، والهاجد : النائم ، والبهازر جمع بهزرة وهى الناقة العظيمة (٩) فاعضضته الطولى أى جعلت السيف يعضها والطولى مؤنثة الأطول وخيرها بلاء أى واحسنها نعمة ومن نعمة الناقة أن تكون كريمة الأولاد غزيرة اللبن سريعة السير وغير ذلك من الصفات المحمودة فيها ، ومعناه أنه نحر من الابل أطولها سناما وأطيبها لحما واكرمها عنده منزلة (١٠) أوفضن أى تفرقن بسرعة وأصل الايفاض الاسراع وترغو من الرغاء أى تصوت ، والحشاشة بقية الروح ، وبذى نفسها أى بخالصة نفسها ، وعريان أحمر أى مجرد من غمده متلطخ بدم الناقة

فباتت رُحابٌ جَوْنَةٌ من لحامها   وفوها بما فى جوفها يتغرغر(١)

وقال آخر

وما يكُ فىَّ من عيبٍ فإنى   جبان الكلب مهزول الفصيل(٢)

وقال آخر

سأقدحُ من قدرى نصيباً لجارتى   وإن كان ما فيها كفافاً على أهلى(٣)
إذا أنت لم تشرك رفيقك فى الذى   يكون قليلا لم تشاركه فى الفضل(٤)

وقال عمرو بن الأهتم

ذرينى فإن الشحَّ يا أم هيثم   لصالح أخلاق الرجال سروق(٥)
ذرينى وحطى فى هواى فإننى   على الحسب الزاكى الرفيع شفيق(٦)
ذرينى فإنى ذو فعال تهمنى   نوائب يغشى رزؤها وحقوق(٧)
وكلُّ كريم يتقى الذم بالقرى   وللحق بين الصالحين طريق(٨)
لعمرك ما ضاقت بلادٌ بأهلها   ولكن أخلاق الرجال تضيق(٩)

---

(١) الرحاب الواسعة وأراد بها القدر ، والجونة السوداء ومن لحامها خبر باتت كقولك أنت منى ، وفوها أى فمها ، ويتغرغر أى يصوت من شدة غليانها ويسيل بما فيها على النار (٢) جبان الكلب أى كلبى جبان وفصيلى مهزول انما قال جبان الكلب لأنه تعود أن يسالم الطراق لئلا تتأذى به الضيوف اذا وردوا وقال مهزول الفصيل لأنه يؤثر بلبن أمه غيره أو تنحر عنه .

(٣) القدح : الغرف ، والكفاف : ما يكف الانسان عن السؤال ويكون على قدر حاجته لايزيد عنها ولا ينقص (٤) الفضل مازاد عن الحاجة ومثل هذا البيت قول الآخر

ليس العطاء من الفضول سماحة   حتى تجود وما لديك قليل

(٥) يقول ذرينى أجر على كرمى فان الشح يزين للانسان العذر الكاذب والعلل الباطلة فكأنه يسرق كل أخلاقه الحميدة (٦) حطى فى هواى أى ساعدينى على الجود ، والزاكى : الزائد ، وشفيق ومشفق والشفقة عطف مع خوف ولهذا لايوصف الله تعالى بالشفقة (٧) يغشى رزؤها أى يغشانى رزؤها فحذف المفعول ومعنى الرزء هنا اصابة الناس من ماله وانتفاعهم به ويقال منه وهو يرزأ اذا كان سخيا ينال الناس أفضاله (٨) القرى طعام الضيافة ، معناه ان كل كريم يبذل ماله دون عرضه ويتبع سبيل الحق ويسلك طريقه ليستوجب المدح والشكر (٩) تضيق : اى تضيق بهم فحذف ذلك لأن ماتقدمه يدل عليه ، معناه أن أرض الله واسعة لم تضق على امرىء وانما تضيق اخلاق الرجال وصدورهم

وقال آخر

أجلَّك قوم حين صرت إلى الغنى وكلُّ غنيّ فى القـلوب جليل(١)

وليس الغنى إلا غنًى زيَّنَ الفتى عشيةَ يَقْرى أو غداة يُنيل

وقال المثلم بن رياح المرى(٢)

بكر العواذل بالسواد يلمننى جهلا يقلنَ ألا ترى مايصنَع(٣)

أفنيتَ مالك فى السفاه وإنما أمر السفاهة ما أَمَرْنك أجمعُ(٤)

وقتود ناجية وضعت بقفرة والطيرُ غاشية العوافى وُقَّعُ(٥)

بمُهَنَّدٍ ذى حِلْية جردته يَبْرى الأصمَّ من العظام ويقطع(٦)

لتنوب نائبةٌ فتعـلم أننى ممن يغرُّ على الثناء فيُخدع

إنى مقسم ما ملكت فجاعلٌ أجراً لآخرةٍ ودنيا تنفع

وقال أرطاة بن سهية المرى

فلو أن ما نعطى من المال نبتغى به الحمد يعطى مثله زاخر البحر(٧)

اظلت قراقيرٌ صياماً بظاهرٍ من الضَحْلُ كانت قبل فى لجج خضر(٨)

ولا نكسر العظم الصحيح تعززاً ونغنى عن المولى ونجبرُ ذا الكسر

---

(١) يقول لما استغنيت عظمت فى عيون الناس فأجلوا قدرك وليس الغنى الا مايضاف به القوم عشية اذا نزلوا ويصلهم بالغداة اذا ارتحلوا (٢) هو شاعر جاهلى وهو الذى التجأ بالحصين بن الحمام المرى لما قتل حباشة الذى كان فى جوار الحرث بن ظالم فأجاره الحصين وغرم عنه دية القتيل ، هذا وقال دعبل ان هذه الأبيات لشبيب بن البرصاء (٣) انما قال بكر العواذل لأن العرب تشرب ليلا وتسكر وتهب فاذا أصبحت لامها من أراد لومها على ذلك بالسواد قبل الاسفار وقوله ألا ترى اى أى شىء تصنع (٤) السفاه والسفاهة الخفة والطيش معناه قالت لى العواذل ضيعت مالك فى السفاهة وليس بى سفاهة وانما السفاهة ماقلته من عذلى ولومى (٥) وقتود مجرور برب بمقدرة والقتود جمع قتد وهو خشب الرحل ، والناجية . الناقة القوية السريعة ، والعوافى : الطير جمع عافية وهو من قولهم عفاه واعتفاه اذا طلب معروفه (٦) ومهند تعلق بقوله وضعت بقفرة لأنه فى معنى عرقبت والمراد بالحلية دم الناقة الذى تلطخ به السيف جعله كالحلية له . ويبرى يقطع . والأصم : ماليس بأجوف فاذا قطع الاصم فهو للمجوف اقطع معناه انه عرقب الناقة بسيف ماض (٧) زاخر البحر اى طافى البحر (٨) اى اظلت سفن راكدة وواحد القراقير قرقور وهى السفن ، والضحل : الماء القليل يترقرق على وجه الأرض ، واللجج جمع لجة ، وهى معظم البحر ، والخضر : السود والبحر الأخضر الأسود

غلبنا بنى حواءَ مجداً وسؤدداً ولكننا لم نستطع غلب الدهرِ[١]

وقال حُجْرُ بن حيةَ العَبْسى

ولا أدَوِّمُ قِدْرِى بعد ما نضجتْ بُخْلاً لتمنع ما فيها أثافيها[٢]

حتى تقسم شتى بين ما وسِعتْ ولا يؤنَّب تحتَ الليل عافيها[٣]

لا أَحرِم الجارةَ الدنيا إذا اقتربت ولا أقوم بها فى الحى أُخزيها[٤]

ولا أكلمها إلا علانيـــةً ولا أخبّرها إلا أناديهـا[٥]

وقال المساور هند بن قيس بن زهير

فِدىً لبنى هندٍ غداةَ دعوتهم بجوٍّ وبالَ النفس والأبوانِ[٦]

إذا جارةٌ شُلّتْ لسعد بن مالك لهـا إبل شُلّت لهـا إبلانِ[٧]

إذا عقدت أفناء سعدِ بن مالكٍ لهاذمةً عزتْ بكل مكانِ

إذا سُئلوا ما ليس بالحق فيهم أبى كل مجنىٍّ عليه وجانى

ودارِ حفاظٍ قد حللتم مهانةٍ بها نِيبُكم والضيف غير مُهانِ[٨]

وقال آخر

جزى الله خيراً غالباً من عشيرةٍ إذا حدثان الدهر نابت نوائبه[٩]

فكم دفعوا من كربةٍ قد تلاحمت علىَّ وموج قد علتنى غواربه[١٠]

إذا قلت عُودوا عاد كل شمرْدلٍ أشمَّ من الفتيان جَزلٍ مواهبُهْ[١١]

---

(١) المراد ببنى حواء جميع الناس (٢) أى لا أطيل ادامة قدرى بعد ادراكها على الاثافى بخلا بما فيها وجعل المنع للأثافى لأنها لم تغرف مادامت عليها منصوبة ، والأثافى جمع أثفية وهى الحجارة التى توضع عليها القدر (٣) ولا يؤنب أى لايلام . والعافى طالب المعروف (٤) الدنيا : أى القربى ولا أقوم بها تقول العرب قام بى فلان وقعد اذا تثنا عنك قبيحا . وأخزيها أى أهينها (٥) العلانية ضد السر (٦) وبال . اسم ماء لبنى عبس أضيف اليه الجو والجو ما اطمأن من الأرض (٧) شلت : طردت (٨) دار الحفاظ : هى التى يقيم بها أهلها فى الجدب والخصب يحافظ على صيانتها مهانة . والنيب جمع ناب وهى الناقة المسنة (٩) الحدثان . نوائب الدهر وشدائده مصدر حدث (١٠) الكربة اسم لما يأخذ بالنفس من الهم والحزن . وتلاحمت . اشتدت ولزمت . والغوارب جمع غارب وهو اعلى الموج واعلى الظهر (١١) اذا قلت عودوا أى الى الحرب . والشمردل : الطويل ، والأشم . من

إذا أخذت بُزْلُ المخاض سلاحها تجرد فيها متلف المال كاسبه[١]

وقال آخر

وليس فتى الفتيان من جُلُّ همه صبوح وإن أَمسى ففضل غبوق[٢]

ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا لضرِّ عدوٍّ أو لنفع صديق

وقال خراز بن عمرو من بنى عبد مناف

لنا إبلٌ لم تُهن ربَّها كرامتها والفتى ذاهب

هجانٌ يكافأُ منها الصديقُ ويدرك فيها المنى الراغب[٣]

ونطعن عنها نحور العدى ويشربُ منّا بها الشارب[٤]

ونؤلفها فى السنينَ الكلولَ إذا لم يجد مكسباً كاسب[٥]

ولم تك يوماً إذا روّحت على الحى يلقى لها جادب[٦]

حبانا بها جدُّنا والإله وضربٌ لنا خِذْمٌ صائب[٧]

وقال مضرس بن رابعى

وإنى لأدعوا الضيف بالضوء بعد ما كسى الأرض نضاح الجليد وجامده[٨]

لأكرمه إن الكرامة حقه ومثلان عندى قُربُهُ وتباعده

أبيت أعشّيهِ السديفَ وإننى بما نال حتى يترك الحى حامده[٩]

---

(١) البزل جمع بازل وهوالمتناهى قوة وشبابا . والمخاض . النوق الحوامل والمراد بسلاحها محاسنها وأمارات عتقها وكرمها . ومتلف المال كاسبه هو كقولهم مخلف متلف ومخلاف متلاف الشمم كناية عن الكرم وأصله ارتفاع الأنف (٢) من جل همه أى أكبر همه وقصده والصبوح الشرب فى أول النهار ؛ والغبوق : الشرب فى آخره (٣) الهجان الابل البيض ويقع على الواحدوالجمع ؛ ويكافأ من المكافأة وهى المجازاة والمراد بالصديق جنسه . والمراد بالراغب طلب الخير والمعروف (٤) معناه ندفع عنها الغارات ونحامى دونها والمراد بالشارب هنا شارب الخمر (٥) أراد بالكلول الضعفاء الواحد كل . وقوله اذا لم يجد مكسبا كاسب بدل من قوله فى السنين أى اذا اشتد الزمان جعلنا ابلنا يألفها كلول الناس فينالون منها (٦) الجادب العائب (٧) حبانا من الحباء وهو العطاء بلا جزاء ولا من . والخذم . القاطع أى بضرب قاطع صائب (٨) دعوة الضيف بالضوء هى أن العرب كانوا يوقدون النار فى اعالى الجبال ليراها المارة ويأتوها فيضيفوهم ويكرموهم . والنضاح الرشاش . والجليد ماسقط على الأرض من الندى فيجمد لبرد الهواء (٩) السديف شحم السنام وقوله واننى بما نال الخ يريد أن أقترح على شيئا أعده نعمة يستوجب منى

وقال حماس بنُ ثامل

ومستنجٍ فى لُجّ ليلٍ دعوتهُ ... بمشبوبةٍ فى رأس صمدٍ مقابل[1]

وقلت له : أقبل فإنك راشدٌ ... وإن على النار الندى وابنَ ثامل[2]

وقال النَمَرِىُّ ويقال إنها لرجل من باهلة

وداعٍ دعا بعـد الهدوءِ كأنما ... يقاتل أهوال السُرى وتُقاتلهْ[3]

دعا بائساً شبه الجنون وما به ... جنونٌ ولـكنْ كيدُ أمرٍ يحاوله[4]

فلما سمِعت الصوتَ ناديت نحوه ... بصوت كريم الجدِ حلوٍ شمائله[5]

فأبرزت نارى ثم أثقبت ضوءها ... وأخرجت كلبى وهو فى البيت داخله[6]

فلمّا رآنى كبَّر الله وحـــده ... وبشّر قلباً كان جمًّا بلابله[7]

فقلت له : أهلًا وسهلا ومرحباً ... رشدْتَ ولم أقعد إليه أسائله[8]

وقمتُ إلى بِرْكٍ هجانٍ أعدهُ ... لوجبة حقٍّ نازلٍ أنا فاعله[9]

بأبيض خطت نعله حيث أدركت ... من الأرض لم تخطل على حمائله[10]

فجال قليلًا واتّقانى بخيرهِ ... سناماً وأملاه من النيّ كاهله[11]

حمدا وشكرا عليها وذلك له طول مقامه الى أن يفارقنى . وقال النمرى هو منصور بن الزبرقان أحد بنى نمر بن قاسط من شعراء الدولة العباسية وكان مع الرشيد ومقدما عنده كما فى مختصر شرح الحماسة (١) المستنبح من يطلب نباح الكلب ليهتدي بذلك فى طريقه ولج الليل معظم ظلمته وأصله لمعظم الماء ، والمشبوبة : النار المضرمة ، والصمد : الجبل أو الأرض المرتفعة (٢) راشد مهتد ، والندى : الجود (٣) الهدوء السكون ، والسرى السير ليلا ، وقوله كأنما يقاتل الخ يريد أن الحال بلغ به حدا رأى فيه أن أهوال السرى تغالبه عن نفسه ويصارعها عنها ويدفعها (٤) البائس . هو الذى نزلت به شدة ، والمراد به الكلب ، والكيد الحيلة . ويحاوله يطلب دفعه والخلاص منه (٥) حلو شمائله أى أخلاقه كريمة (٦) أثقبت ضوءها أنرته ، والاثقاب الانارة وهو فى البيت مبتدأ وخبر وداخله خبر ثان (٧) جما بلا بله أى همومه كثيرة (٨) أى وجدت أهلا وسهلا وسعة ، ورشدت اهتديت (٩) البرك اسم جمع لما يبرك من الابل ، والهجان كرائم الابل . ووجبة الحق نزوله (١٠) بابيض متعلق بقوله قمت فى البيت قبله . والأبيض السيف ونعل السيف ماتكون فى أسفل غمده من حديد أو غيره من المعادن . ولم تخطل أى لم تضطرب ولم تظل . وحمائل السيف علاقاته (١١) فاعل جال عائد على البرك المتقدم ذكره . والنىء : الشحم ، والكاهل مابين الكتفين

بقرم هجان مصعب كان فحلها طويل القرى لم يعد إن شق بازله(١)
فخرَّ وظيفُ القَرْم فى نِصفِ ساقه وذاك عقالٌ لا يُنَشَّطُ عاقله(٢)
بذلك أوصانى أبى وبمِثله كذلك أوصاهُ قديماً أوائله

وقال النابغة الذبيانى

له بفناءِ البيتِ سوداءُ فَخْمَةٌ تلقَّمُ أوصال الجزور العُراعِرِ(٣)
بقيةُ قدرٍ من قدورٍ تُوُرِّثَتْ لآلِ الُجلَاحِ كابراً بعد كابر
تَظَلُّ الإماءُ يبتدرْن قَدِيحها كما ابتدرت سعدٌ مياهَ قُراقرِ(٤)

وقال الفرزدق

وداعٍ بلَحْنِ الكلبِ يدعو ودونهُ من الليل سجفا ظلمةٍ وغيومُها(٥)
دعا وهو يرجوا أن يُنبَّهَ إذ دعا فتى كابن ليْلى حين غارت نجُومُها(٦)
بعثتُ له دهماءَ ليست بلِقْحةٍ تدُرُّ إذا ماهبَّ نحساً عقيمُها(٧)
كأن المحَالَ الغُرَّ فى حَجَراتها عذارى بدتْ لما أصيب حميمُها(٨)

---

(١) القرم : الجمل الشاب وهو بدل من خبره فى البيت قبله ، والمصعب الفحل الكريم الذى لا يبتذل فى العوارض بل يقصر على الضراب والضمير فى فحلها راجع الى البرك فيما تقدم . والقرى الظهر ، وشق بازله طلع سنه وذلك سن يطلع للجمال فى السنة التاسعة من أعمارها (٢) فخر أى فسقط ، والوظيف : مستدق الذراع ، والعقال ما يعقل ويربط به من حبل ونحوه ، ولا ينشط أى لايحل (٣) فناء البيت : هو ماامتد من جوانبه ، ويعنى بالسوداء القدر ، والفخمة العظيمة ، والأوصال المفاصل ، والجزور الناقة ، والعراعر العظيم الخلق وجعل اشتمالها على الأوصال كتلقهما اياها (٤) القديح فعيل بمعنى مفعول وهو المرق المقدوح ، وقراقر واد بالدهناء وشبه تبادر الاماء نحو القدر بتبادر بطون سعد الى تلك المياه (٥) يعنى مستنبحا تكلف نبح الكلب فى صورته وفعل ذلك اذ حال بينه وبين المناظر من الليل ستران من الظلم والتباس الغيوم (٦) غارت نجومها : أى غابت وذهبت (٧) الدهماء : السوداء وأراد بها القدر ، والعقيم الريح التى ليس معها مطر لأنها لاتنفع الأشجار ، وقوله ليست بالقحة أى ليست هى بناقة وانما هى قدر تدر بمرقها اذا ذهب عقيم الرياح بالنحس (٨) المحال : فقر الظهر واحده محالة ، والغر : البيض ، والحجرات : الجوانب ، والعذارى : الابكار ، والحميم : القريب الذى يهتم لأمره وشبه المحال وفقر الظهر فى نواحى القدر وجوانبها وهى بيضاء سمينة مع تضمن القدر السوداء لها بالعذارى الأبكار وقد لبسن ثياب السواد لما أصبن بمن يعز عليهن

غضوباً كحيزوم النعامة أُحمشت ... بأجواز خُشبٍ زال عنها هشيمها[١]

مُحَضَّرَةٌ لا يُجعلُ السترُ دونها ... إذا المُرْضع العوجاء حال بريمُها[٢]

وقال شُرَيْحُ بنُ الأحوص

ومستنبحٍ يبغى المبيتَ ودونه ... من الليل سِجْفا ظلمةٍ وستورُها

رفعت له نارى فلما اهتدى بها ... زجرت كلابى أن يَهِرَّ عقورُها[٣]

فبات وإنْ أسْرى من الليل عُقْبةً ... بليلةِ صدقٍ غاب عنها شرورُها[٤]

وقال مسكين الدارمى

كأنَّ قدورَ قومى كلَّ يومٍ ... قبابُ الترك ملبسةَ الجلالِ[٥]

كأنَّ الموفدين بها جِمالٌ ... طلاها الزفت والقِطرانِ طالى[٦]

بأيديهم مغارفُ من حديدٍ ... أشبّهها مقيّرةَ الدوالى[٧]

وقال العُكْلىّ

أعاذل بكينى لأضيافِ ليلةٍ ... نزور القِرى أمست بليلًا شمالها[٨]

أعامرُ مهلا لا تلمنى ولا تكن ... خفيًّا إذا الخيرات عدت رجالها

أرى إبلى تجزى مجازِىَ هَجْمَةٍ ... كثيرٍ وإن كانت قليلًا إفالها[٩]

مثا كيلُ ما تنفكّ أرحلَ جُمّةٍ ... تُرَدُّ عليهم نوقها وجمالها[١٠]

---

(١) غضوبا صفة لدهماء وجعل غليانها بمنزلة الغضب ، وحيزوم النعامة : صدرها وأحمشت أى أشبعت وقودا تحتها ، والاجواز : الاوساط ، والهشيم : اليابس المتكسر من النبات . (٢) محضرة أى لا يمنع منها أحد ، والعوجاء : التى أعوجت هزالا وجوعا ، والبريم : خيط أو سير ينظم فيه خرز فتشده النساء فى أوساطهن وانما يجول البريم اذا أثر الهزال فيها .

(٣) أراد ان لا يهرهر الكلب اذا صوت وموضع قوله أن يهر نصب على البدل من كلابى . (٤) انتصب عقبة على الظرف وأصلها أن يتعاقب اثنان على بعير فاذا ركب أحدهما مشى الآخر ثم كثر استعماله فاجرى مجرى النوبة والفرصة . (٥) المعنى انه يشبه قدور قومه فى عظمها واتساعها واسوداد ظواهرها بقباب الترك التى البست اغطية سودا .

(٦) يريد بالموفدين المزاولين لها فى نصبها وانزالها وطبخها وأصل الموفد المشرف على الشيء العالى عليه . (٧) المقيرة : المطلية بالقار وهو الزفت ، والدوالى جمع دالية وهى دلو يستقى بها . (٨) اعاذل منادى مرخم عاذلة ونزور القرى أى قليل القرى : البليل الريح الباردة مع المطر .

(٩) الهجمة : القطعة من الابل من الاربعين الى المائة والافال جمع افيل وهو ابن مخاض والآنثى افيلة . (١٠) مثاكيل جمع مثكال وهى الناقة التى

وقال جابر بن حيان

فإن يقتسم مالى بنىَّ وإخوتى فلن يقسموا خُلق الكريم ولا فعلى[١]
أهينُ لهم مالى وأعلمُ أننى سأورثهُ الأحياء سيرةَ من قبلى
وما وَجد الأضيافُ فيما ينوبُهم لهم عند علاّت الزمان أباً مثلى[٢]

وقال عُتْبَةُ بنُ بُجَيْر

لحافى لحافُ الضيف والبيتُ بيتهُ ولم يُلهنى عنه غزالٌ مقنعُ[٣]
أحدثهُ إن الحديث من القِرى وتعلم نفسى أنه سوف يهجع

وقال المرَّارُ الفقعسى

آليتُ لا أُخفى إذا الليل جَنَّنى سنا النارِ عن سارٍ ولا متنور[٤]
فياموقِدى نارى ارفعاها لعلها تُضىءُ لسارٍ آخرَ الليل مقتر[٥]
وماذا علينا أنْ يواجِه نارَنا كَريمُ المُحَيَّا شاحبُ المُتحَسَّر[٦]
إذا قال : من أنْتُم ليعرِفَ أهلها رفَعْتُ له باِسْمى ولم أتنكَّرِ
فبتنا بخيرٍ من كرامة ضيفنا وبتنا نُهَيِّىء طُعْمَهُ غير مَيْسِر[٧]

وقال يزيدُ بنُ الطثريَّةِ

إذا أرسلونى عندَ تقديرِ حاجةٍ أمارِسُ فيها كنتُ نِعْمَ الممارسُ[٨]
ونفعى نفعُ الموسرين وإنما سَوَامى سوام المقترين المفالس[٩]

اعتادت ان تثكل ولدها أى تفقده بنحر أو موت أو نحوه ، الجمة الجماعة ترد فى الصلح بين الناس والارحل جمع رحل وهو المثوى والمنزل .

(١) يقول ان اقتسم مالى أولادى فلن يقتسموا ما تفردت به من خلق كريم وفعل جميل اعدهما لزوارى . (٢) علات الزمان : مكارهه وشدائده وجعل نفسه ابا للاضياف لانه يحنو عليهم حنو الاب وهذا على عادتهم فى تسمية الضيف ابا المثوى . (٣) كنى بالغزال المقنع عن ذى الوجه الجميل ويهجع ينام ومعنى البيتين كل ما أملكه فهو ملك للضيف وليس يلهينى عنه ما يلهى الناس وانى لا أقتصر على اطعامه بل لا ازال أحدثه وأسامره وأونسه حتى تطيب نفسه فاذا رأيته يميل الى النوم خليته . (٤) آليت : حلفت ، وجنة الليل ستره ، والسنا : الضوء ، والسارى : المسافر ليلا . (٥) المقتر : البائس المفتقر (٦) شاحب المتحسر أى متغير ما يبدو منه كالوجه واليد والرجل وانما شحب لتعب السفر . (٧) الطعم : الطعام والميسر : القمار .

(٨) امارس : اعانى وجملة امارس صفة لحاجة يصف نفسه بحسن التأنى فى الامور يرسل فيها . (٩) السوام : الانعام الراعيـة ، والمقتر : الفقير ، والمفالس جمع مفلس وانما قيل للفقير مفلس لأنه من قولهم أفلس الرجل اذا

وقال عروة بن الورد العبسي

أرى أمَّ حسانَ الغداةَ تلومُنى تُخَوِّفُنى الأعداءَ والنفسُ أخْوفُ(١)

لعل الذى خوّفتِنا من أمامنا يُصادفه فى أهلهِ المُتَخَلّف

إذا قلت قد جاءَ الغنى حال دونه أبو صِبْيَةٍ يشكو المفاقرَ أعْجفُ(٢)

له خَلّةٌ لا يدْخُلُ الحقُّ دونَهَا كريمٌ أصابته حوادثُ تَجْرُفُ(٣)

وقال الاقرع بن معاذ

إنَّ لَنا صِرْمةً تُلْفى مُخَيَّسَةً فيها معادٌ وفى أربابها كرمُ(٤)

تُسَلّفُ الجارَ شِرباً وهْىَ حائمة ولا يبيت على أعناقها قسَمُ(٥)

ولا تُسفّهُ عند الحوض عطشتُها أَحلامنَا وشرِيب السَوْءِ يحتدِمُ(٦)

وقال يزيدُ بنُ الجهم الهلالى ويروى لحُمَيْدِ بن ثَوْر

لقد أَمَرَتْ بالبُخْلِ أُمُّ محمدٍ فقلت لها حُثّى على البخل أَحمَدَا

فإنّى امروٌ عودتُ نفسىَ عادةً وكلُّ امرىءٍ جارٍ على ماتعَوَّدَا

أحينَ بدا فى الرأس شيبٌ وأقبلت إلىّ بنو عَيْلان مَثْنَى ومَوْحَدا(٧)

رَجَوْتِ سِقاطى واعتلالى ونَبْوَتى وراءَكِ عنى طالقاً وارحلى غدا(٨)

صار صاحب فلوس بعد أن كان صاحب أموال وتفليس الحاكم معروف وهو من هذا كأنه ينسبه الى ذلك فهذا كالتعديل والتفسيق يقول عطائى كثير ومالى قليل لأنى غنى النفس .

(١) المعنى أن أم حسان تعذلنى وتخوفنى الخروج الى أعدائى والنفس أخوف من أن تحذر ولكن الموت لا بد منه والذى تخوفنى منه لعله يصادف المتخلف فى أهله . (٢) المفاقر الحاجات جمع فقر على غير قياس ، وأعجف هزيل من الضر . (٣) الخلة : الحاجة ، والحق : القرابة هنا وتجرف أى تذهب بالمال كما تذهب المجرفة بما يجرف بها . (٤) الصرمة : من الابل نحو الاربعين والمخيسة التى لم تسرح ولكنها حبست للنحر أو القسم وقوله فيها معاد أى يعود فيها العفاة يصيبون منها مرة بعد أخرى .

(٥) تسلف أى تقدم والجار نصب على نزع الخافض أى تقدم الى الجار والشرب الماء واراد به هنا اللبن والحائم العطشان الذى يحوم حول الماء ولا يبيت على اعناقها قسم يريد لانقسم عليها ان لا تنحر أو توهب .

(٦) يقول اذا اوردناها الماء وبها عطش لا نواثب الموردين ولا نجفوهم فيكون عطشها سفه احلامنا أى عقولنا وأصل الاحتدام الاحتراق .

(٧) مثنى معدول عن اثنين اثنين وموحد معدول عن واحد واحد .

(٨) السقاط ان لايفعل الانسان فعل الكرام وان لايذهب مذهبهم فيسلك

وقال آخر

إنى لم ينَلْ مالى مَـدى خلُقى فيّاضُ ماملـكتْ كفّاىَ من مالِ
لا أحبِسُ المالَ إلا ريْثَ أُتْلِفهُ ولا تُغَيّرنى حالٌ إلى حالِ (١)

وقال سوادةُ اليَرْبوعى

ألا بكَرَتْ مَىٌّ علىَّ تلومنى تقولُ ألا أهلـكتَ من أنت عائله
ذَرينى فإن البُخْلَ لا يُخلِدُ الفتَى ولا يُهلِكُ المعروفُ من هو فاعِلهُ

وقالَ المقنّع الـكِنْدِىّ

نزَلَ الشيبُ فأيْنَ تذهبُ بعدَهُ وقدِ ارْعَوَيْتَ وحانَ منك رحيلُ (٢)
كان الشّبابُ خفيفةً أيّامهُ والشيبُ مَحْمَلُهُ علىَّ ثقيلُ (٣)
ليس العطاءُ من الفضول سماحةً حتي تجودَ وما لديكَ قليلُ (٤)

إلى غير ذلك من الشعر الذى هو على هذا المسلك وكله يدل على ما كان متنافساً فيه بين العرب من الصفات المحمودة . وعلى ما كانوا عليه من الـكرم والسخاء والسماحة . وقد ألف بعض المتقدمين من أئمة أهل اللغة والأدب كتاباً فيما ورد من أخبار ضيوف العرب . وما اتفق فى ذلك من النوادر والقصص الغريبة والشعر المنتخب . والذى كتبته من الشعر كان من رواية أبى تمام فى حماسته . ولذلك أعرضت عن شرحه فإن شروح الـكتاب كثيرة مشهورة فمن أشكل عليه شىء فليراجعها .

ومما يدلك على مزيد سخاء العرب أنه كانت لهم نار تسمى نار القرى وهى نار الضيافة توقد لاستدلال الأضياف بهـا على المنزل . وكانوا يوقدونها على

طريقهم . والاعتلال التعلل واراد بالنبوة البعد وقوله وراءك عنى أى أبعد عنى وطالقا انتصب على الحال من قوله وراءك عنى ولم يقل طالقة لانه اخرج مخرج النسب .

(١) الريث البطء . (٢) ارعوى عن الشىء انصرف عنه ، وحان : قرب
(٣) محمله أى حمله . (٤) الفضول ما فضل عنك بعد حوائجك والمعنى ان العطاء من الفضول لا يقال له جود وسماحة وانما الجود والسـماحة ان يجود الانسان بكل شىء له فلا يبقى قليله ايضا .

الأماكن المرتفعة لتكون أشهرَ . وربما أوقدوها بالمندلى الرطب وهو عطْر ينسب إلى مندل وهى بلدة من بلاد الهند ونحوه مما يتبخر به ليهتدى إليها العميان . وهذه النار عندهم أجل سائر نيرانهم التى سنفصلها على أتم وجه إن شاء الله تعالى ولم تزل مذكورةً على ألسنة شعرائهم . قال أبو زياد الأعرابى الكلابى يصف بعض أجواد العرب :

له نار تُشَبُّ على يفَاعٍ إذا النيران ألبست القِناعا (١)

ولم يكُ أكثرَ الفتيان مالاً ولكن كان أرحَبهمْ ذراعا (٢)

وقال آخر

إنى إذا خَفِيَتْ نار لمُرْمِلة أُلْفَى بأرفع تلّ رافعاً نارى (٣)

ذاك وإنى على جارى لذوحدب أحنو عليه كما يُحْنى على الجار

وأنهم كانوا يقتنون الكلاب لأمورٍ منها أنها تدل الأضياف على منازلهم بنُباحها وكانو يمدحونها على ذلك ، قال قائل منهم فى كلب له .

أوصيكَ خيراً به فإنّ له خلائقاً لا أزال أحْمَدُها

يدل ضيفى علىَّ فى غَسَق الليل إذا النار نام موقدها (٤)

وكان لَعِبُهم بالميسر منبعثاً عن السخاء وكرم الطبع فإن أهل الثروة والأجواد منهم فى شدة البرد وكَلَب الزمان (٥) ييسرون أى يتقامرون بالقِداح وهى عشرة على جزور يجزئونها ثمانيةً وعشرين جزءاً وسيجىء إن شاء الله تعالى كيفية عملهم فى ذلك عند الكلام على أعمالهم التى جبها الإسلام فإذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوى الحاجة وأهل المسكنة واستراش الناسُ وعاشوا . وكانت العرب تمدح بأخذ القِداح وتَعيب من لا ييسر وتسميه البرم .

---

(١) تشب أى توقد ، واليفاع المكان المرتفع . والبست القناعة كناية عن اخمادها . (٢) الذراع والذرع يراد به النفس . (٣) المرملة : الجماعة التى نفد زادها وافتقرت والتل ما ارتفع من الأرض وايقاد النار فى الاماكن المرتفعة من اخلاق الكرام حتى يهتدى الضيف اليه فى الليل المظلم ويأتى .
(٤) غسق الليل : ظلمته . (٥) كلب الزمان : شدته .

قال متمم بن نُوَيْرة يرثى أخاه مالـكا

ولا بَرما تُهدى النساء لعرسه إذا القِشْع من برد الشتاء تقعقعا(١)

وقال العَرَنْدَس فى قوم من العرب(٢)

هَيْنُوْن لينون أيسار ذوو كرم سُوّاس مَكرُمةٍ أبناء أيسار(٣)

إن يسألوا الحقَّ يُعْطوه وإن خُبرُوا فى الجَهْدِ أدركَ منهم طيب أخبار(٤)

وإن تودّدتَهم لانوا وإن شُهِمُوا كشَّفْتَ أذمار شرّ غير أشرار(٥)

فيهم ومنهم يُعدّ المجدُ مُتّلداً ولا يعد نثا خزيٍ ولا عار(٦)

لا يَنطِقون عن الفحشاء إن نطقُوا ولا يُمارون إن ماروا بإكثار(٧)

من تلقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سيدَهم مثلَ النجوم التى يسرى بها السارى

وقال لبيد بن مالك فى معلقته

وجزورِ أيسارٍ دعوتُ لِحَتْفِهاَ بمَغالقٍ متشابهٍ أجسامُها(٨)

أدعو بهنَّ لعاقر أو مُطفِل بُذِلَت لجيران الجميع لِحامُها(٩)

فالضيفُ والجارُ الجَنيبُ كأنما هَبَطا تبالةَ مُخصباً أهضامُها(١٠)

---

(١) هذا البيت من قصيدة له فريدة فى بابها يرثى بها أخاه مالـكا وكان خرج مع خالد بن الوليد مرجعه من اليمامة يظهر الاسلام فظن به خالد غير ذلك فأمر ضرار بن الازور الاسدى فقتله وكان مالك من ارداف الملوك ومن متقدمي فرسان يربوع ، وقوله ولا برما البرم الذى لا ينزل مع الناس ولا يأخذ فى الميسر ولا ينزع الا نكدا ، قال النابغة :

هلا سألت بنى ذبيان ما حسبى اذا الدخان تغشى الاشمط البرما

والقشع الجلد اليابس ويقال لكناسة الحمام القشـع ، قال أبو هريرة وكذبت حتى رميت بالقشع. (٢) العرندس هو أحد بنىبكر بن كلاب ويمدح بهذا الشعر بنى عمرو الغنويين وكان أبو عبيدة اذا أنشدها يقول هذا والله محال كلابى يمدح غنويا. (٣) الايسار جمع يسر وهمالذين يجيلون القداح، وقوله سواس مكرمة اى يروضـون المكارم ويلون أمرها . (٤) الجهـد : الشدة ، والحق هنا ما أوجبوه على أنفسهم من مالهم ، وخبروا يريد اختبروا

(٥) توددتهم : اى طلبت مودتهم وشهموا مبنى للمجهول من شـهمه اذا أفزعه ، والاذمار جمع ذمر وهو الشجاع والشر الحرب وقوله غير اشرار جمع شرير على غير قياس . (٦) المتلد : القديم . والنثا ما يخبر به عن الرجل من حسن أو سيء اى نثاسوٌ يذل صاحبه اذا ذكر به . (٧) لا يمارون أى لا يجادلون . (٨) المغالق : سهام الميسر سميت بها لان بها يغلق الخطر من قولهم غلق الرهن يغلق غلقا اذا لم يوجد له تخلص وفكاك .

(٩) العاقر : التى لا تلد ، والمطفل التى معها ولدها ، واللحام جمع لحم .

(١٠) الجنيب : القريب وتبـالة واد مخصب من أودية اليمن والهضـم المطمئن من الارض والجمع الاهضام والهضوم .

تأوى إلى الاطْناب كل رذِيَّةٍ مثل البليّةِ قالصٍ أهْدامُها[1]
ويكلّلونَ إذا الرياح تناوَحَتْ خُلُجا تُمَدُّ شوارعاً أيتامها[2]

والشعر فى ذلك كثير . ثم إن السخاء لا يتوقف على بذل المال فإنه هيئة للإنسان داعية إلى بذل القنيات حصل معه البذل أو لم يحصل . ويقابله الشح والجود بذل المقتنى ويقابله البخل . هذا هو الأصل . وإن كان كل واحد منهما قد يستعمل فى موضع الآخر . ويدلك على هذا الفرق أنهم جعلوا الفاعل من السخاء والشح على بناء الأفعال الغريزية . فقالوا شحيح وسخى وقالوا جواد وباخل . وأما قولهم بخيل فمصروف عن لفظ الفاعل للمبالغة كقولهم راحم ورحيم . ولكون السخاء غريزةً لم يوصف البارى تعالى به .

***

من اشتهر بالجود والسخاء وضُرِب بهم المثل فى الكرم من عرب الجاهلية ، منهم :

حاتم الطائى

قالوا فى المثل : أجود من حاتم ، يريدون به حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج ابن امرىء القيس بن عدى بن أحزم الطائى الجواد المشهور وأحد شعراء الجاهلية ويكنى أبا عدى وأبا سَفّانة « بفتح السين وتشديد الفاء » . وابنه أدرك الإسلام وأسلم . أخرج أحمد فى مسنده عن ابنه عَدِيٍّ قال قلت يا رسول الله إن أبى كانَ يصل الرحم ويفعل كذا وكذا قال إن أباك أراد أمراً فأدْرَكَه يعنى الذكر . وكانت سفّانة بنتَه أتى بها إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت يا محمد هلك الوالد . وغاب الرافد . فإن رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فإن

---

(١) الاطناب : حبال البيت واحدها طنب والرذية الناقة التى ترذى فى السفر أى تخلف لفرط هزالها وكلالها والجمع الرذايا استعارها للفقيرة ، والبلية : الناقة التى تشد على قبر صاحبها حتى تموت والجمع البلايا والاهدام الإخلاق من الثياب واحدها هدم . وقلوصها : قصرها .

(٢) تناوحت : تقابلت ومنه قولهم الجبلان متناوحان أى متقابلان ومنه النوائح لتقابلهن والخلج جمع خليج وهو نهر صغير يخلج من نهر كبير أو من نهر كبير أو من بحر والخالج الجذب وتمد : تزاد وشرع فى الماء خاضه .

أبى سيدُ قومه كان يفك العانى ويحمى الذمار(١) . ويفرج عن المكروب . ويطعم الطعام ويفشى السلام . ولم يطلب إليه طالب قط حاجةً فرده أنا ابنة حاتم طىّء فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يا جارية هذه صفة المؤمن لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق .

قال ابن الأعرابى : كان حاتم من شعراء الجاهلية ، وكان جواداً يشبِه جوده شعرِه . ويصدق قولَهُ فعله ، وكان حيثما نزل عرف منزله ، وكان مظفراً إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ، وإذا ضرب بالقِداح فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق ، وكان أقسم بالله لا يقتل واحدَ أمّه ، وكان إذا أهلَّ رجب نحر فى كل يوم عشرة من الإبل وأطعم الناس واجتمعوا عليه ، وكان أوّل ما ظهر من جوده أن أباه خلفه فى إبله وهو غلام فمر به جماعة من الشعراء ، فيهم عَبيد بنُ الابرص وبِشر بن أبى حازم ، والنابغة الذبيانى ، يريدون النعمانَ بن المنذر ، فقالوا له : هل من قِرَى ولم يعرِفهم ، فقال : أتسألونى القرى وقد رأيتم الإبل والغنم ، انزلوا فنزلوا فنحر لكل واحد منهم وسألهم عن أسمائهم فأخبروه ففرق فيهم الإبلَ والغنم وجاء أبوه ، فقال : ما فعلت ؟ قال : طوقّتك مجدَ الدهر طوقَ الحمامة وعرفه القضية فقال أبوه : إذاً لا أساكنك بعدها أبداً ولا آويك . فقال حاتم إذاً لا أبالى .

« ومن حديثه » . أنه خرج فى الشهر الحرام يطلب حاجة فلما كان بأرض عَنَزَة ناداه أسير لهم يا أبا سفّانة أكلنى الأسار والقمل . فقال : ويحك ما أنا فى بلاد قومى وما معى شىء وقد أسأتَ بى إذْ نوهتَ باسمى وما لك مَتْرَك . ثم ساوم به العنزيين واشتراه منهم نخلاه وأقام مكانه فى قيده حتى أتى بفدائه فأداه إليهم .

« ومن حديثه » أن ماوية امرأة حاتم حدثت أن الناس أصابتهم سنة(٢)

---

(١) الذمار بالكسر : مايلزمك حفظه وحمايته (٢) سنة أى أقحطوا

فأذهبت الخف والظلف فبتنا ذاتَ ليلة بأشد الجوع فأخذ حاتم عَدِيّا وأخذت سفّانة فعللناهما حتى ناما ثم أخذ يعللنى بالحديث لأنام فرققت لما به من الجهد فأمسكت عن كلامه لينام ويظن أنى نائمة فقال لى أنمت مراراً فلم أجِبْهُ فسكت ونظر من وراءِ الخِباء فإذا شىء قد أقبل فرفع رأسه فإذا امرأة تقول يا أبا سفَّانةَ قد أتيتك من عند صبية جياع فقال احضرينى صبيانك فو الله لأشبعنهم قالت فقمت سريعاً فقلت بماذا يا حاتم فو الله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل فقام إلى فرسه فذبحه. ثم أجَّج ناراً ورفع إليها شَفْرة وقال اشتوى وكلى واطعمى ولدك . وقال لى أيقظى صبيّيك فأيقظتهما ثم قال : واللهِ إن هـذا للؤم أن تأكلوا وأهل الصِرْم[1] حالهم كحالـكم فجعل يأتى الصِّرْمَ بيتاً بيتاً ويقول عليكم النار فاجتمعوا وأكلوا وتقنع بكسائه وقعد ناحية حتى لم يوجد من الفرس على الأرض قليل ولا كثير ولم يذق منه شيئاً . وقد روى هذه القصة الفاضل شهاب الدين فى العقد على غير هذا الوجه فلتراجع[2] والتى ذكرناها رواية الميدانى فى مجمع الأمثال . وأخبار كرم حاتم كثيرة وشهيرة ونذكر قضية قِراه بعد موته وهى من العجائب .

روى محرز مولى أبى هريرة قال مرنفر من عبد القيس بقبر حاتم فنزلوا قريباً منه فقام إليه رجل يقال له أبو الخيبرى وجعل يركض برجله[3] قبره ويقول : اقرنا فقال له بعضهم : ويلك ما يدعوك أن تعرض لرجل قد مات قال أن طيأً تزعم أنه ما نزل به أحد إلا قراه ثم أجنَّهم الليل فناموا فقام أبو الخيبرى فزعاً وهو يقول : واراحلتهاه فقالوا له مالك قال أتانى حاتِم فى النوم وعقَرَ ناقتى بالسيف وأنا أنظر إليها ثم أنشدنى شعراً حفِظته يقول فيه :

أبا الخيبرى وأنتَ امرؤٌ ظلومُ العشيرة شـتّامها
أتيت بصحبك تَبغى القِرَى لدى حُفرة قـد صدتْ هامها

---

(١) الصرم بالكسر أبيات من الناس مجتمعة والجمع اصرام واصارم
(٢) ج ١ ص ١٤٥ من طبعة الجمالية (٣) ركض الرجل ركضا من باب قتل ضرب برجله .

أتبغى لى الذمَّ عند المبيت وحولك طى وأنعامها
فإنا لنشبع أضيافَنا وتأتى المطى فنعتامُها[1]

فقاموا وإذا ناقة الرجل تكوس[2] عقيراً فانتحروها وباتوا يأكلون وقالوا قرانا حاتم حياً وميتاً وأردفوا صاحبهم وانطلقوا سائرين وإذا برجل راكب بعيرا ويقود آخر قد لحقه وهو يقول أيكم أبو الخيبرى قال الرجل أنا ، قال خذ هذا البعير أنا عدىٌّ بنُ حاتم جاءنى حاتم فى النوم ، وزعم أنه قراكم بناقتك ، وأمرنى أن أحملك فشأنك والبعير ودفعه إليهم وانصرف . وإلى هذه القضية أشار ابن دارةَ الغطَفانى فى قوله يمدح عدىّ بن حاتم :

أبوك أبو سَفّانةَ الخير لم يزل لدُنْ شبَّ حتى مات فى الخير راغبا
به تضرب الأمثال فى الشعر ميتاً وكان له إذ ذاك حياً مصاحبا
قرى قبرُهُ الأضيافَ إذ نزلوا به ولم يقرِ قبرٌ قبله الدهر راكبا

ولحاتم الطائى شعر كثير وهو من البلاغة بمكان والمذكور فى ديوانه بعض منه ، ومن شعره يخاطب امرأته ماوية بنت عبد الله :

أيا ابنةَ عبدِ الله وابنةَ مالكٍ ويا ابنة ذى البُردَيْنِ والفرس الوَرْدِ[3]
إذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسى له أكيلا فإنى لستُ آكلهُ وحدى[4]
أخاً طارقا أو جار بيتٍ فإننى أخاف مذماتِ الأحاديث من بعدى[5]
وإنى لعبْدُ الضيفِ ما دام ثاوياً وما فىّ إلا تلك من شيمةِ العبد[6]

---

(١) عتمت الابل واعتمت واستعتمت اذا حلبت عشاء وهو من الابطاء والتأخر قال أبو محمد الحذلمى :

فيها ضوى قد رد من اعتامها

(٢) كاس البعير : مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب .

(٣) ابنة مالك هى ماوية بنت عبد الله زوجة حاتم الطائى والمراد بذى البردين عامر بن احيمر بن بهدلة اعطاه المنذر بن ماء السماء بردين حين سأله عن حقيقته فوجده من اشرف العرب واشجعهم كما فصل فى الاصل والورد من الخيل بين الكميت والاشقر . (٤) الاكيل من يواكلك .

(٥) الطارق : الذى يأتى ليلا . (٦) ثاويا : مقيما .

عنى بذى البردين عامر بن أُحيمر بن بَهْدَلة . وكان من حديث البردين حين لقب به أن الوفود اجتمعت عند المنذر بن ماء السماء . وهو المنذر ابن امرىء القيس وماء السماء ، قيل : أمه نسبَ إليها لشرفها ، وقيل لقبت بماء السماء لصفاء نسبها ويقال لنقاء لونها ، ويراد أنها كماء السماء لم يحتمل كدورةً ، وأخرج المنذر بُردين يوماً يبلو الوفود . وقال ليقم أعزُّ العرب قبيلةً فليأخذهما فقام عامر بن أحيمر فأخذهما وائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، فقال له المنذر أأنت أعز العرب قبيلة ؟ قال : العز والعدد فى معد ، ثم فى نزارٍ ، ثم فى مُضَر ، ثم فى خِنْدِف ، ثم فى تميم ، ثم فى سعد ، ثم فى كعب ، ثم فى عوف ، ثم فى بهدلة ، فمن أنكر هذا فلينافرنى فسكت الناس ، فقال المنذر : هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى أهل بيتك وفى نفسك ؟ فقال : أنا أبو عشرة وأخو عشرة وخال عشرة وعم عشرة ، وأما أنا فى نفسى فشاهد العز شاهدى ، ثم وضع قدمه على الأرض فقال من أزالها عن مكانها فله مائة من الإبل فلم يقم إليه أحد من الحاضرين ففاز بالبردين . ومن شعر حاتم أيضاً قوله :

وعاذلةٍ قامت علىَّ تلومُنى ... كأنى إذا أعطيتُ مالى أضيمُها

أعاذلُ إن الجودَ ليس بِمُهلكى ... ولا مُخلدِ النفس الشحيحة لؤمها[١]

وتُذْكَرُ أخلاق الفتى وعظامُه ... مُغيبةٌ فى اللحد بالٍ رميمها[٢]

ومن يبتدعْ ماليس من خِيم نفسه ... يَدَعْهُ ويغلبْهُ على النفس خِيمُها[٣]

ومن ذلك قوله أيضاً :

أكفّ يدى عن أن ينالَ التماسُها ... أكفَّ صحابى حينَ حاجتُنا معا[٤]

أبيتُ هضيمَ الكشْح مُضطمَرَ الحشا ... من الجوع أخشى الذَّمَّ أن أتضلّعا[٥]

---

(١) أعاذل مرخم عاذلة. (٢) الرميم : العظم البالى. (٣) الخيم : الطبيعة والخلق . (٤) اكف يدى أى اقبضها ، وقوله حاجتنا معا أى كلنا جائع فحاجته الى الطعام كحاجة صاحبه . (٥) الهضيم : الضامر ، والكشح : ما بين الخاصرة الى الضلع، والمضطمر المهزول، وتضلع الرجل اذا امتلأمن الزاد

وإنى لأستحيي رفيقَ أنْ يَرَى   مكان يدى من جانب الزاد أقرَعا[١]

وإنك مهما تُعْطِ بطنَك سؤلَهُ   وفرجكَ نالا منتهى الذمّ أجمعا[٢]

وقال أيضاً

أما والذى لا يعلمُ السرَّ غيرُهُ   ويُحيي العظامَ البيضَ وهْيَ رَميم

قد كنت أختار القِرَى طاوىَ الحشا   محافظةً من أن يقالَ : لئيمُ

وإنى لأستحيي يمينى وبينها   وبين فمى داجى الظلام بهيم[٣]

وقال أيضاً

ولما رأيتُ الناسَ هَرَّتْ كلابُهم   ضربتُ بسيفى ساقَ أفعى نخرَّتِ

وقلتُ لأصباء صغار ونسوةٍ   بشهباءَ من ليل الثمانين قرَّتِ :

عليكم من الشَّطْين كل وَرِيّة   إذا النار مست جانبيها ارمعلّتِ[٤]

ولا ينزل المرءُ الكريمُ عيالَه   وأضيافَه ما ساق مالاً بضرت

وقال أيضاً

لا تسترى قدرى إذا ما طَبَخْتِها   علىَّ إذا ما تطبُخين حرام

ولكن بهذاك اليفاعِ فأوقدِى   بِجَزْلى إذا أوقدتِ لا بِضِرام[٥]

وقال أيضاً

وقائلةٍ أهلكتَ بالجود مالَنا   ونفسكَ حتى ضرَّ نفسَك جودُها

فقلت : دعينى إنما تلك عادتى   لكل كريمٍ عادةٌ يستعيدها

وهو القائل لغلامه يسار ، وكان إذا اشتد البرد وكَلَب الشتا[٦] أمر غلامه

---

(١) أراد بالاقرع الخالى من الطعام والمعنى انى لاستحيى ممن يجالسنى على الطعام أن يرى مايلينى من المائدة خاليا . (٢) السؤل المسئول واراد به ما يشتهيه والمعنى ان الشخص اذا اعطى بطنه وفرجه ما يشتهى واتبع هواه بقضاء ما تزينه له نفسه من شهواتها اصابه من الناس منتهى الذم والشتم ولقد صدق . (٣) بهيم أى شديد الظلمة لا وضح فيه . (٤) الشط جانب السنام أو نصفه ، والورية القطعة من الشحم السمين وارمعل الشواء سال دسمه . (٥) اليفاع ما ارتفع من الأرض ، والجزل الحطب اليابس أو الغليظ العظيم منه والضرام ككتاب دقاق الحطب أو ما ضعف ولان أو ما لا جمر له أو ما اشتعل من الحطب . (٦) كلب الشتاء : أى اشتد .

فأوقد ناراً فى يفاعٍ من الأرض لينظر إليها من أضلَّ الطريقَ ليلا فيصمدَ نحوه[١] :

أوقد فإن الليل ليلٌ قرٌّ والريح ياواقدُ ريحٌ صِرٌّ[٢]

عَلَّ يرَى نارَكَ من يَمُرُّ إن جلبت ضيفاً فأنت حُرٌّ[٣]

وقال أيضاً

أماويَّ قد طال التجنبُ والهجر وقد عذرتنا فى طلابكم العذرُ[٤]

أماويَّ إن المـالَ غادٍ ورائحٌ ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ

أماويَّ إما مانع فمبـين وإما عطاء لا يُنَهْنِهُهُ الزجر[٥]

أماويَّ إنى لا أقولُ لسـائلٍ إذا جاء يوماً حل فى مالى النزْرُ[٦]

أماوى لا يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر[٧]

أماويَّ إن يُصبح صداىَ بقَفْرَةٍ من الأرض لا ماءٌ لدىَّ ولا خمرُ[٨]

ترَىْ أنّ ما أنفقتُ لم يكُ ضرَّنى وإن يدى مما بخلت به صِفْر[٩]

إذا أنا دلاّنى الذين يلوننى بمظلـمة لجٍّ جوانبهـا غبر

وراحوا سراعا ينفضُون أكفَّهم يقولون قد أدمى أظافِرَنا الحفرُ

أماوىّ إن المـال مالٌ بذلته فأوّله شـكرٌ وآخره ذكرُ

وقد يعلم الأقوامُ لو أن حاتمـا أراد ثراءَ المـالِ كانَ له وفْرُ

فإنى وجدى ربّ واحد أمة أخذت فلا قتلٌ عليه ولا أسرُ

---

(١) الصمد : القصد . (٢) ليل قر : بارد ، وريح صر وصرصر : شديدة الصوت أو البرد . (٣) عل بلام مشددة مفتوحة أو مكسورة لغة فى لعل وهى أصلها عند من زعم زيادة اللام ، قال الشاعر :

لا تهين الفقير علك ان تركع يوما والدهر قد رفعه

وهما بمنزلة عسى فى المعنى وبمنزلة ان المشددة فى العمل .

(٤) الهمزة للنداء وماوى منادى مرخم ماوية وهى زوجته ، وقوله وقد عذرتنا الخ عذرته فيما صنع رفعت عنه اللوم فهو معذور أى غير ملوم .

(٥) نهنهه : كفه ومنعه . (٦) حل فى مالنا النزر : أى القلة .

(٧) الحشرجة أو له حاء مهملة وآخره جيم الفرغرة عند الموت وتردد النفس

(٨) الصدى ما يبقى من الميت فى قبره ، والقفرة الأرض الخالية من السكان والنبات . . (٩) صفر وزان حمل أى خال من المتاع وهو صفر الولدين ليس فيهما شيء — مأخوذ من الصفير وهو الصوت الخالى عن الحروف كما فى المصباح

ولا أظلم ابنَ العمّ إن كان إخوتى شهوداً وقد أوْدى بإخوتهِ الدهرُ
غنينا زماناً بالتقصد والغنى وكل سقانا وهو كاسبنا الدهر(١)
فما زادنا مأوى على ذى قرابةٍ عنانا ولا أزرى بأحلامنا الفقرُ

وله قصيدة طويلة تتعلق بالكرم ومكارم الأخلاق وهى مسطورة فى (الحماسة البصرية) وهى هذه :

وعاذلتين هبتا بعد هجمةٍ تلومان مِتلافا مفيداً ملوّماً(٢)
تلومان لما غوّر النجمُ ضلةً فتى لا يرى الإنفاق فى الحمد مَغرماً(٣)
فقلت وقد طال العتابُ عليهما وأوعدتمانى أن تبينا وتصرِما
ألا لا تلومانى على ما تقدما كفى بصروف الدهر للمرء محكما
فإنكما لا ما مضى تُدْركانهِ ولستُ على ما فاتنى متندِّما
فنفسَكَ أكرِمْها فإنك إن تهُنْ عليك فلن تلقى مدى الدهرِ مكرما
أهن للذى تهوى التلاد فإنه إذا متّ كان المال نَهْباً مُقسَّما
ولا تشقين فيه فيسعدَ وارث به حين تغشى أغبر الجوف مظلماً(٤)
يقسمه غنماً ويَشْرى كرامةً وقد صرت فى خطٍ من الأرض أعظُما
قليلا به ما يحمدنك وارث إذا نال مما كنتَ تجمع مَغْنَما
تَحلّم عن الأدنين واستبق ودَّهم ولن تستطيعَ الحلمَ حتى تحلّما(٥)
وعوراء قد أعرضتُ عنها فلم تضر وذى أوَد قوّمته فتقوّما(٦)
وأغفرُ عوراء الكريم ادخاره وأعرضُ عن شتم اللئيم تكرّما
ولا أخذُلُ المولى وإن كان خاذلا ولا أشتم ابن العم إن كان مفحما

---

(١) غنى كفرح عاش وغنى بالمكان : أقام به . (٢) هبتا أى استيقظتا ؛ وهذا البيت من شواهد مغنى اللبيب . (٣) غور النجم اى غابت الثريا ؛ وقوله ضلة هو قيد فى اللوم لامه ضلة اذا لم يوفق للرشاد فى لومه ، والمغرم بالفتح الغرامة . (٤) أغبر الجوف : القبر ومثله خط من الارض .
(٥) تحلما أى تتحلم أى تتكلف . (٦) قوله فلم تضر من ضار يضير ضد نفع والاود بفتحتين الاعوجاج .

ولا زادنى عنه مناىَ تباعدا   وإن كان ذا نقص من المـال مصرما
وليل بهيمٍ قد تسربلتُ هَوْلهُ   إذا الليل بالنِـكْس الدنىء تجهَّما[١]
ولن يكسب الصُعلوكُ حمداً ولا غنى   إذا هو لم يركبْ من الأمر معظما[٢]
لحا الله صُعلوكا مُناه وهمُّه   من العيش أن يلقى لَبُوسا ومَغْنَما[٣]
ينام الضحى حتى إذا نومهُ استوى   تنبَّهَ مثلوجَ الفؤادِ مورّما[٤]
مقيماً مع المُثرين ليس ببارحٍ   إذا نال جَدْوى من طعام ومجثما[٥]
ولله صُعلوكٌ يساور همه   ويمضى على الأحداث والدهر مقدما[٦]
فتى طلباتٍ لا يرى الْخَمصَ ترحةً   ولا شَبْعة إن نالهـا عَدَّ مغنما[٧]
يرى الخَمصَ تعذيباً ولم يلق شَبعة   يَبِتْ قلبه من قلة الهم مبهما
إذا ما رأى يوما مكارمَ أعرضت   تيمَّمَ كبراهن ثمَّتَ صمَّما[٨]
ويعشى إذا ما كان يومُ كريهةٍ   صدورَ العوالى فهو مختضِبٌ دما
يرى رمحه ونبله وَمِجنَّه   وذا شُطَبٍ عَضب الضريبة مِخْذَما
وأحناء سرجٍ قاتر ولجامه   عتادَ فتى هيجا وَطرْفاً مُسوَّما

---

(١) النكس بكسر النون الردىء وأصله السهم الذى كسر فوقه ، وتجهم : كلح وجهه . (٢) الصعلوك بالضم الفقير . (٣) لحا الله : قبح الله .

(٤) مثلوج الفؤاد من المجاز ، ثلج قلبه : بلد وذهب والمثلوج الفؤاد البليد ، قال أبو خراش الهذلى :

ولم يك مثـلوج الفـؤاد مهيجـا   أضاع الشباب فى الربيلة والخفض

(٥) المجثم بفتح الميم وكسر المثلثة مكان الجثوم وهو بروك الطائر .

(٦) قوله ولله صعلوك تعجب ومدح يقال عند استغراب الشىء واستعظامه أى هو صنع الله ومختاره اذ له القدرة على خلق مثله ، ويساور : يواثب ، وهمه أى عزمه مفعول ، وقوله : ويمضى على الاحداث أى لا يشغله الدهـر وحوادثه فى حالة اقدامه على ما يريد . (٧) قوله فتى طلبات اشارة الى علو همته ، والخمص بالفتح الجوع . والترحة ضد الفرحة ، والشبعة المرة من الشبع . (٨) ثمت حرف يعطف الجمل ورمحه وما عطف عليه مفعـول أول ليرى . (٩) وعتاد هو المفعول الثانى وذا شطب هو السيف جمع شطبة وهى الطريقة فى متن السيف والمجن بالكسر الترس والدرقة والعضب القاطع والضريبة موضـع الضرب والمخذم بكسر اوله وبالمعجمتين السيف القاطع وباعجام الثانى فقط من الحذم وهو القطع السريع .

فذلك إن يهلِكْ فَحُسْنَى ثناؤه   وإن عاش لم يقعُدْ ضعيفاً مُذَمّمًا[1]

وقد أعرضت عن شرح ما أوردته من شعره فإن الغالب منه مشروح فى شواهد كتب العلم ، ومنهم :

كعب بن مامة الإيادى

وكان ممن يضرب بهم المثل أيضاً فى الجود ، ومن حديثه أنه خرج فى ركبٍ فيهم رجل من النمر بن قاسط فى شهر ناجِر[2] فضلوا فتصافنوا ماءهم وهو أن يطرح فى القعب[3] حصاة ، ثم يصب فيه من الماء بقدر ما يغمر الحصاة وتلك الحصاة هى المقلة[4] فيشرب كل إنسان بقدر واحد فقعدوا للشرب فلما دار القعب فانتهى إلى كعب أبصر النمرى يحدد النظر إليه فآثره بمائه ، وقال للساق : اسْق أخاك النَمرِى فشرب النمرى نصيبَ كعب ذلك اليوم من الماء ، ثم نزلوا من غدهم المنزل الآخر فتصافنوا بقية مائهم فنظر إليه النمرى كنظرة أمسه . فقال كعب كقوله أمس وارتحل القوم . وقالوا يا كعب ارتحل فلم تكن به قوة للنهوض . وكانوا قد قربوا من الماء فقيل له رِدْ كعب إنك ورّاد ، فعجز عن الجواب فلما يئِسوا منه خيلوا عليه بثوب يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه مكانه ففاض . فقال أبوه مامة يرثيه :

= الاحناء جمع حنو بالكسر يطلق على ما فيه اعوجاج من القتب والسرج وغيرهما، والقاتر بالقاف وبالمثناة الفوقية الواقى والحافظ لا يعقر ظهر الفرس، وعتاد بالفتح العدة ، وطرفا معطوف على رمحه الذى هو أول مفعول يرى وهو الكريم من الخيل ، والمسوم المعلم تشهير لعفته واكرمه من السومة وهى العلامة أو المسيب فى الرعى ولا يركب الا فى الحروب .

(1) الحسنى مصدر كالبشرى وقيل اسم للاحسان والمعنى سرت بليل فقير يواثب همته ويمضى مقدما على الدهر والحال انه فتى طلبات يتجدد طلبه كل ساعة والدهر يسعف بمطاوبه بجده ورشده ولا يرى الجوع شدة ولا الشبع غنيمة لعلو همته فان يهلك فله ثناء حسن وان يعش يعش ممدحا معززا. (2) هو رجب أو صفر وكل شهر من شهور الصيف، كذا فى القاموس

(3) اناء ضخم كالقصعة والجمع قعاب وأقعب . (4) المقلة بفتح الميم ويقال مقلها اذا ألقاها فى الاناء وصب عليها الماء .

ما كان من سوقة اسقى على ظمأ   خمراً بماء إذا ناجودها بردا[١]

من ابن مامةَ كعب ثم عىَّ به   زوّ المنية إلا حرة وقدا

أوفى على الماء كعبٌ ثم قيل له   رِدْ كعب إنك ورّاد فما وردا

زو المنية قدرها . وعى به أى عيت الأحداث إلا أن تقتله عطشاً . وقال الأصمعى : زو المنية ما يحدث من هلاك المنية . ويقال الزو القدر . ويقال قضى علينا وقدر وحم وزى . وهذا أكثر من كل ما أثنى لغيره . وله يقول حبيب :

يجود بالنفس إذ ضنَّ البخيلُ بها   والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود

وله ولحاتم الطائى يقول القائل :

كعب وحاتم اللذان تقسَّما   خِطَطَ العُلى من طارفٍ وتليدِ[٢]

هذا الذى خلفَ السحابَ ومات ذا   فى الجهد ميتةَ خِضْرِمٍ صِنْديد[٣]

إن لا يكن فيها الشهيد فقومه   لا يسمَحون بهِ بألف شهيدِ

ومنهم :

أوس بن حارثة بن لام الطائى

كان أوس هذا ممن يضرب به المثل فى الكرم والجود يقال له ابن سعدى .

قال جرير :

وما كعبُ بن مامةَ وابن سعدى   بأجودَ منك يا عمر الجواد[٤]

---

(١) الناجود أول ما يخرج من الخمر اذا بزل عنها الدن ، قاله الأصمعى واحتج بقول الاخطل :

كانما المسك نهبى بين أرجلنا   مما تضوع من ناجودها الجارى

وقيل الخمر الجيد وهو مذكر والناجود أيضا اناؤها وعن الليث الناجود هو الراووق نفسه . وفى حديث الشعبى : وبين أيديهم ناجود خمر أى راووق واحتج على الاصمعى بقول علقمة :

ظلت ترقرق فى الناجود يصفقها   وليد أعجم بالكتان ملثوم

يصفقها يحولها من اناء الى اناء لتصفو . (٢) الطارف : المال المستحدث وهو خلاف التليد . (٣) الخضرم : الكثير من كل شىء والواسع والجواد المعطاء والسيد الحمول ، والصنديد : السيد الشجاع أو الحليم أو الجواد أو الشريف. (٤) هذا البيت من قصيدة له مدح فيها عمر ابن عبدالعزيز وأولها :

أبت عيناك بالحسن الرقادا   وأنكرت الأصادق والبلادا

الحسن نقا فى بلاد بنى ضبة سمى بالحسن لحسن شجره .

وكان بشر بن أبى خازم الأسدى أولا يهجو أوساً وكان أوس نذر لئن ظَفِر به ليحْرِقنَّه فلما تمكن أطلقه وأحسن إليه فمدحه بمدة قصائد ، وسبب هجاء بشر لأوس ، هو ما حكاه أبو العباس المبرد فى الكامل قال : أوس بن حارثة ابن لام الطائى ، كان سيداً مقدماً وفد هو وحاتم بن عبد الله الطائى على عمرو بن هند وأبوه المنذر بن المنذر بن مآء السماء فدعا أوساً فقال : له أأنت أفضل أم حاتم فقال أبيتَ اللعنَ[1] لو ملكنى حاتم وولدى ولحمتى لوهبنا فى غداة واحدة ثم دعا حاتماً أأنت أفضل أم أوس فقال : أبيت اللعن إنما ذكرت بأوس وَلأَحد ولده أفضل منى . وكان النعمان بن المنذر دعا بحُلَّةٍ وعنده وفودُ العرب من كل حَيٍّ فقال : احضُروا فى غدٍ فإنى مُلْبِسٌ هذه الحُلَّةَ أكرمَكم فحضر القوم جميعاً إلا أوْساً فقيل له : لم تتخلف ؟ فقال : إن كان المراد غيرى فأجمل الأشياء أن لا أكونَ حاضراً وإن كنتُ المرادَ فسأُطلب ويعرف مكانى ، فلما جلس النعمان لم يَرَ أوساً فقال : اذهبوا إلى أوس فقولوا له : احضر آمناً مما خفت فحضر فألبسه الحُلَّةَ فحسده قوم من أهله فقالوا للحطيئة : اهجُهُ ولك ثلاثمائة ناقة فقال الحطيئة كيف أهجو رجلا لا أرى فى بيتى أثاثا ولا مالا إلا من عنده ، ثم قال :

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لام بظهر الغيب تأتينى

فقال لهم ابن أبى خازم أحد بنى أسد بن خزيمة أنا أهجوه لكم فأخذ الإبل وفعل فأغار أوس عليها فاكتسحها فجعل لا يستجير حياً إلا قال قد أجرتك إلا من أوس . وكان فى هجائه قد ذكر أمه فأتى به فدخل أوس على أمه فقال : قد أتينا ببشر الهاجى لك ولى . قالت : أو تطيعنى ؟ قال نعم . قالت : أرى أن ترد عليه

لعمرك ان نفع سعاد عنى لمصروف ونفعى عن سعادا
وهى طويلة لا يسعنا ايرادها فى هذا المقام .

وهذا البيت من شواهد النحو يستشهد به على جواز نصب المنادى الموصوف بغير ابن عند الكوفيين وأوله المانعون بالقطع أى انه مفعول لفعل محذوف . (١) كان العرب فى الجاهلية يخصون ملوكهم عند التحية بقولهم أبيت اللعن أى أبيت أن تأتى من الاخلاق المذمومة ما تلعن عليه وكانت هذه تحية ملوك لخم وجذام .

ماله وتعفو عنه وتحبوه وافعل مثل ذلك فإنه لا يغسِل هجاءه إلا مدحه فخرج فقال : إن أمى سعدى التى كنت تهجوها قد أمرت فيك بكذا وكذا فقال لا جرم والله ألا مدحتُ حتى أموتَ أحداً غيرَكَ ففيه يقول :

إلى أوس بن حارثة بن لام ليقضى حاجتى فيمن قضاها
فما وطىء الثَّرَى مثلُ ابن سعدى ولا لِبس النعال ولا احتذاها

هذا ما أورده المبرد ولم يذكر كيف تمكن منه أوس . وقد حكاه معمر بن المثنى فى شرحه قال : إن بشر بن أبى خازم غزا طيئاً ثم بنى نبهان فجرح فأثقل جراحه وهو يومئذ بحمى أحد أصحابه وإنما كان فى بنى والبةَ فأسرته بنو نبهان فخبؤوه كراهيةَ أن يبلغ أوساً فَسَمِع أوس أنه عندهم فقال : واللهِ لا يكون بينى وبينهم خيراً أبداً أو يدفعوه ثم أعطاهم مائتى بعير وأخذه منهم ، فجاء به وأوقد له ناراً ليحرقه ، وقال بعض بنى أسد لم تكن نار ولكنه أدخله فى جلد بعير حين سلخه ويقال جلد كبش ثم تركه حتى جف عليه فصار فيه كأنه العصفور . فبلغ ذلك سعدى بنت حصين الطائية وهى سيدة فخرجت إليه فقالت : ماتريد أن تصنع ؟ فقال أحرق هذا الذى شتمنا فقالت : قبح الله قوما يسودونك أو يقتبسون من رأيك . واللهِ لكأنما أخذت به أما تعلم منزلته فى قومه ؟ خل سبيله وأكرمه فإنه لا يغسل عنك ما صنع غيرُه فحبسه عنده وداوى جرحه وكتمه ماتريد أن يصنع به . وقال ابعث إلى قومك يفدونك فإنى قد اشتريتك بمائتى بعير فأرسل بشر إلى قومه فهيئوا له الفداء وبادرهم أوس فأَحسنَ كسوته وحمله على نجيبه الذى كان يركبه وسار معه حتى إذا بلغ أدنى أرض غَطَفان جعل بشر يمدح أوساً وأهلَ بيته بمكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة ، فهجاهم بخمس ، ومدحهم بخمس ، ومنهم .

هرم بن سنان

وكان من أشهر أجواد زمانه وأرغبهم فى الإحسان والمعروف وهو ممن يضرب به المثل فى ذلك . وهو صاحب زُهَيْر الذى يقول فيه :

متى تلاق على عِلاَّته هَرِماً ... تلق السماحة فى خلق وفى خلق

وكان سنان أبو هَرِم سيدَ غَطَفان وماتت أمه وهى حامل به ، وقالت : إذا أنا مُتُّ فشقوا بطنى ، فإن سيد غَطَفان فيه فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منه سنانا ، وفى بنى سنان يقول زهير :

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا

لو كانَ يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

جنّ إذا فزعوا إنس إذا أمنوا ... مرزؤن بهاليلٌ إذا قصدوا [١]

محسدون على ما كان من نعم ... لاينزع الله منهم ماله حسدوا

وقال زهير فى هرم بن سنان

وأبيض فَيَّاضٍ يداه غمامةٌ ... على مُعْتَفِيه ما تُغِبّ فواضله [٢]

تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله [٣]

أخو ثقة لا تتلف الخمرُ مالَهُ ... ولكنه قد يتلف المالَ نائلُه [٤]

وقال زهير أيضاً فى هرم بن سنان وأهل بيته :

إليك أعملتها فتلا مرافقها ... شهرين يجهض من أرحامها العَلَقُ [٥]

حتى دفعن إلى حلو شمائله ... كالغيث تنبت فى آثاره الورق

من أهل بيت يرى ذو العرش فضلَهُم ... يُبْنى لهم فى جنان الخلد مرتَفَقُ [٦]

---

(١) بهاليل جمع بهلول كسر سور الضحاك والسيد الجامع لكل خير .

(٢) قوله وابيض يريد رجلا نقيا ، والفياض : الكثير العطاء وأصله من الفيض ، وقوله يداه غمامة أى تمطر يداه بالاعطاء كما تمطر الغمامة ، والمعتفون : الطالبون ما عنده ، وقوله ما تغب فواضله أى هى دائمة لا تنقطع ولا تأتى فى الغب ويقال غبه وأغبه اذا أتاه غبا ، وفواضله : عطاياه لانها تفضل كل عطاء . (٣) المتهلل : الطلق الوجه المستبشر يقول هو مسرور بمن سأله مستبشر به كما يستبشر الانسان بأن يوصل ويعطى ولم يرد انه حريص على الاخذ مستبشر به ولكنه قال هذا على ما جرت به العادة من محبة النفس للاخذ وكراهيتها للاعطاء . (٤) قوله أخو ثقة أى يوثق بما عنده من الخير لما علم من جوده وكرمه ، والنائل : العطاء ، يقول لا يتلف ماله بشرب الخمر ولكن يتلفه بالعطاء . (٥) أعملتها أى الناقة يقال أعملت الناقة اذا حثثتها وسقتها ، والفتل بالتحريك اندماج فى مرفق الناقة ، والنعت مرفق أفتل بين الفتل وهى فتلاء وقوم فتل الايدى ، وأجهضت الناقة ولدها أسقطته ناقص الخلق ، والعلق جمع علقة الدم الجامد . (٦) المرتفق : المتكأ .

المطعمين إذا ما أَزْمَةٌ أَزَمَتْ والطيبين ثياباً كلما عرقوا[١]

كأن آخرَهُمْ فى الجود أولهم إن الشمائل والأخلاق تتفق

إن قامروا أقمروا أو فاخروا فخروا أو ناضلوا نَضَلوا أو سابقوا سبقوا[٢]

تَنافس الأرض موتاهم إذا دفنوا كما تنفس عند الباعة الورق

قال الميدانى فى مجمع أمثاله عند قولهم « أجود من هَرِم » : هو هرِم بن سنان ابن أبى حارثة المرّى وقد سار بذكر جوده المثل ، قال زهير بن أبى سلمى فيه :

إن البخيل مَلُومٌ حيث كان ولـكنَّ الجواد على عِلاّته هَرِمُ[٣]

هو الجوادُ الذى يعطيك نائله عفواً ويَظْلم أحياناً فيظَّلم[٤]

ووفدت ابنة هرم على عُمَرَ ، فقال لها : ما الذى أعطى أبوك زهيراً حتى قابله من المديح بما قد سار فيه ؟ فقالت : أعطاه خيلا تنضى[٥] ، وإبلا تتوى[٦] وثيابا تبلى ، ومالا يفنى . فقال عمر : لـكن ما أعطاكم زهير لا يبليه الدهر ، ولا يفنيه العصر ؟ ويروى أنها قالت : ما أعطى هَرِمٌ زهيراً قد نسى . قال لـكن ما أعطاكم زهيراً لا ينسى . ومنهم :

عبد الله بن حبيب العنبرى

وكان يُضرب به المثل فى الجود . فيقولون أقرى من آكل الخبز وهو أحد

---

(١) أزم الزمان : اشتد بالقحط ، والأزمة اسم منه (٢) ناضلت عنه : حاميت ، وناضلته راميته فنضلته نضلا غلبته فى الرمى (٣) قوله على علاته اى علىماينوبه من قلة ذات يد وعوز (٤) الجواد : الكريم المكثر فى العطاء ، والنائل العطية ، وعفوا اى من غير طلب يتقدمه او سهلا بلا مطل ولا تعب وهذا البيت من شواهد الصرف يستشهد به على أن أصل يظلم يظتلم قلبت التاء طاء لمجاورتها الطاء فاذا أدغم فمنهم من يقلب الطاء ظاء ثم يدغم ومنهم من يدغم الظاء فى الطاء على القياس فيصير يطلم وقد روى البيت بالوجهين وروى بالاظهار أيضا قال ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) : قد سبق زهير الى هذا المعنى ، لاينازعه فيه أحد غير كثير فانه قال يمدح عبد العزيز بن مروان :

رأيت ابن مالى يعترى صلب ماله مسائل شتى من غنى ومصرم

مسائل ان توجد لديه تجد بها يداه وان يظلم بها يتظلم

والمصرم القليل المال (٥) اى تبلى (٦) تهلك

بنى سمرة سمى آكل الخبز . لأنه كان لا يأكل التمر ولا يَرْغَبُ فى اللبن . وكان سيدَ بنى العنبر فى زمانه وهم إذا افتخروا قالوا منا آكل الخبز ، ومنا مُجير الطير . فأما مجير الطير ، فهو ثور بن شحمة العنبرى . وأما السبب فى تلقيبهم عبد الله ابن حبيب بآكل الخبز فلأن الخبز نفسه عندهم ممدوح ، وذكر أبو عبيدة أن هَوْذَةَ بنَ على الحنفى دخل على كِسْرَى ابْرَوِيزَ ، فقال له : أىّ أولادك أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر والغائب حتى يقدم والمريض حتى يبرأ . قال : ما غذاؤك ببلدك ؟ قال : الخبز . فقال كسرى : هذا عقل الخبز لاعقل اللبن والتمر . فصار الخبز عندهم ممدوحا كما صار ما يناسبه بعض المناسبة ممدوحا وهو الفالوذج لأنه أشرف طعام وقع إليهم ولم يطعم الناس هذا الطعام أحد من العرب إلا عبد الله ابن جُدْعان فمدحه أمية بن الصلت بذلك فقال :

إلى رُدُحٍ من الشيزى مِلاّءٍ لُبابَ البُرِّ يلبك بالشِهاد[1]

ولهم الثريد وهو فى أشرافهم عام ، وغلب عليه هاشم حين هشم الخبز لقومه فمدح به فى قول الشاعر :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجالُ مكة مُسْنِتون عِجافُ[2]

قال حمزة : فهذا المثل مع ما يتلوه حكاه عمرو بن بحر الجاحظ فى كتابه الموسوم بكتاب (أطعمة العرب) . ومنهم :

عبد الله بن جدعان التيمى

وقد كان من مشاهير الأجواد . وممن سارت بجوده الأمثال فى الأقطار والبلاد ، وكان يسمى بحاسى الذهب لأنه كان يشرب فى إناء من الذهب ، وقالوا فى المثل : « أقرى من حاسى الذهب» وكان من قريش . وفيه قال أبو الصلت الثقفى :

له داعٍ بمكةَ مُشْمَعِلٌّ وآخَرُ فوقَ دارتِهِ يُنادى

(١) يأتى شرحه فى الأصل (٢) عمرو والعلا اسم هاشم بن عبد مناف ، والمسنتون الذين أصابتهم السنة المجدبة الشديدة ، والعجاف جمع أعجف وهو الذى ذهب سمنه والبيت لابن الزبعرى

إلى رُدُح من الشيزى مِلآءٍ　　لُبَابَ البُرِّ يُلبك بالشهاد

الردحة سترة تكون فى مؤخر البيت أو قطعة تزاد فيه والرداح الخفيفة العظيمة. وروى الجوهرى البيت هكذا إلى رُدُح من الشيزى عليها ففيه عليها بدل ملاء والشيز والشيزى خشب أسود يتخذ منه القِصاع، وقوله لُباب البر: أى من لباب البر. وأخبارُ عبد الله بن جدعان فى السخاء والكرم كثيرة، وقد ذكر طرفاً منها الزبيرُ بنُ بكار فى كتابه الذى ألفه فى فضائل قريش. ومن خبره أنه كان فى ابتداء أمره صعلوكا[1] تَرِب اليَدَيْن وكان مع ذلك شريراً فاتكا لايزال يجنى الجنايات فيعقل[2] عنه أبوه وقومه حتى أبغضه عشيرته ونفاه أبوه وحلف لا يُؤْوِيهِ أبداً فخرج فى شِعابِ مكةَ حائراً ثائراً يتمنى الموت أن ينزل به فرأى شقاً فى جبل فظن أن به حية فتعرض للشق يريد أن يكون فيه ما يقتله فيستريح فلم يرَ شيئاً فدخل فإذا به ثعبان عظيم له عينان تَقِدانِ كالسراجين فحمل عليه الثعبان فأفرج له فانساب[3] عنه مستديراً بدارة عند بيت ثم خطا خطوة أخرى فصفر به الثُعبان فأقبل إليه كالسهم فأفرج له فانساب عنه فوقف ينظر إليه يفكر فى أمره فوقع فى نفسه أنه مصنوع فأمسكه بيديه فإذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان فكسره وأخذ عينيه ودخل البيت فإذا جثث طوال على سُرُر لم يرَ مثلهم طولا وعظماً وعند رءوسهم لوح من فضة فيه تاريخهم وإذا هم رجال من ملوك جرهم وآخرهم موتاً الحرث بن مُضاض صاحب الغذبة الطويلة وإذا عليهم ثياب من وشى لايَمَسُّ منها شىء إلا انتثر كالهباء[4] من طول الزمان مكتوب فى اللوح عظات. قال ابن هشام كان اللوح من رخام[5] وكان فيه أنا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان ابن نبى الله هود عليه السلام عشت من العمر خمسمائة عام وقطعت غَوْرَ الأرض ظاهرها

(١) الصعلوك بالضم الفقير، والترب الذى لا مال له (٢) عقل عنه أدى جنايته (٣) فانساب أى مشى مسرعا (٤) الهباء بالمد دقاق التراب والشىء المنبث الذى يرى فى ضوء الشمس وليس له مس ولا يرى فى الظل (٥) حجر معروف الواحدة رخامة

وباطنها فى طلب الثروة والمجد والملك فلم يكن ذلك ينجينى من الموت . وتحته مكتوب :

قد قطعتُ البلادَ فى طلب الثر ... وة والمجد قالصَ الأثواب[1]
وسريت البلاد قفراً لقفرٍ ... بقناة وقوة واكتساب
فأصاب الرَدَى بناتَ فؤادى ... بسهامٍ من المنايا صيابِ
فانقضت مدتى واقصر جهلى ... واستراحت عواذلى من عتابى
ودفعت السفاه بالحلم لما ... نزل الشيب فى محل الشباب
صاح هل ريت أو سمِعتَ براعٍ ... ردَّفى الضَرْع ماقرى فى الحلاب[2]

وإذا فى وسط البيت كوم عظيم من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة والزبرجد فأخذ منه ماأخذ ثم علم على الشق بعلامة وأغلق بابه بالحجارة وأرسل إلى أبيه بالمال الذى خرج به منه يسترضيه ويستعطفه ووصل عشيرته كلهم فسادهم وجعل ينفق من ذلك الكنز : ويطعم الناس ويفعل المعروف . وفى القاموس وربما كان يحضر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم طعامهُ . وكانت له جَفْنة يأكل منها القائم والراكب لعظمها ، بل كانت جفنته يأكل منها الراكب على البعير ، وسقط فيها صبى فغرق ومات . وفى غريب الحديث لابن قتيبة : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : كنت أستظل بظل جَفْنة عبد الله بن جُدْعان صكة عُمَىّ يعنى فى الهاجرة وسميت الهاجرة صكة عمى لخبر ذكره أبو حنيفة فى الأنواء وهو أن عميا رجل من عَدْوان ، وقيل : من إياد ، وكان فقيه العرب فى الجاهلية فقدم فى قومه معتمراً أو حاجاً فلما كان على مرحلتين من مكة قال لقومه وهم فى وسط الظهيرة من أتى مكة غداً فى مثل هذا الوقت كان له أجر عمرتين فصكوا

---

(١) قوله قالص الأثواب أى قصير الثياب يقال قلص الثوب بعد الغسل أى انزوى (٢) قوله ريت أصله رأيت فخففت بحذف الهمزة ، والحلاب بالكسر اناء يحلب فيه ، ويروى فى العلاب جمع علبة والعلبة محلب من جلد ، والضرع لذات الظلف كالثدى للمرأة والجمع ضروع كفلس وفلوس ، وقرى : اجتمع

الإبل صكة شديدة حتى أتوا مكة من الغداة وعمى تصغير أعمى على الترخيم فسميت الظهيرة صكة عمى .

وعبد الله بن جدعان تيمى يكنى أبا زهير ، وهو ابن عم عائشةَ رضى الله تعالى عنها ، ولذلك قالت : يارسول الله . إن ابن جُدْعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف ويفعل المعروف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ قال صلى الله تعالى عليه وسلم : لا . إنه لم يقل يوماً رب اغفرلى خطيئتي يوم الدين كذا قاله السهيلى فى الروض الأنف[1] . وفى كتاب رى العاطش وأنس الواحش لأحمد بن عمار : إن ابن جُدْعان ممن حرم الخمر فى الجاهلية بعد أن كان بها مغرى . وذلك أنه سَكِرَ ليلة فصار يمد يديه ويقبض على ضوء القمر ليأخذه فضحِك منه جلساؤه فأخبر بذلك حين صحا فحلف أن لا يشربهَا أبداً . فلما كبر وهرم أراد بنوتيم أن يمنعوه من تبذير ماله ولاموه فى العطاء فكان يدعو الرجلَ فإذا دنا منه لطمه لطمة خفيفة ثم يقول له قم فأنشد لطمتك واطلب دِيتَها فإذا فعل ذلك أعطته بنوتيم من مال ابن جُدعان . ومنهم :

***

قيس بن سعد

وهو من أسخياء العرب وأجوادِهم المذكورين . قيل له يوماً هل رأيت قط أسخى منك ؟ قال : نعم نزلنا بالبادية على امرأة فحضرها زوجها فقالت أنه نزلت بك ضيفان فجاءَ بناقة فنحرها ، وقال شأنكم فلما جاء الغد جاء بأخرى ونحرها ، وقال شأنكم فقلت ما أكلنا من التى نحرت البارحة إلا اليسير ، فقال : إنى لا أطعم

---

(١) هذا الكتاب شرح على السيرة الهاشمية وقد طبع بمصر سنة ١٣٣٢ ، وروضة أنف كعنق لم ترع ، قال الشاعر :

أو روضة أنف تضمن نبتها　　غيث قليل الدمن ليس بمعلم

وكذلك كأس أنف لم تشرب

أضياف الغابّ[١] فأقمنا عنده أياماً والسماء تُمطر وهو يفعل كذلك . فلما أردنا الرحيل وضعنا فى بيته مائةَ دينار ، وقلنا للمرأة : اعتذرى لنا منه ومضينا فلما مَتَع النهار[٢] ، إذا رجل يصبح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام أعطيتمونا ثمن القِرَى[٣] . ثم إنه لحقنا وقال لتأخُذُنَّها وإلا طعنتكم برمحى فأخذناها وانصرف . ومنهم :

عبرة الكلبية

وهى امرأة من العرب كانت مذكورة بالسخاء . فقد روى أبو بكر بن دريد بسنده إلى أبى عبيدة . قال مرّ رجل من أهل الشام بامرأة من كلب . فقال هل من لبن يباع فقالت : إنك للئيم أو قريب عهد بقوم لئام ، هل يبيع الرِسل[٤] كريم ، أو يمنعه إلا لئيم . إنا لنَدَع الكومَ[٥] لأضيافنا تكوس[٦] . إذا عكف الدهر الضروس . ونغلى اللحم غريضاً[٧] . ونهينه نضيجاً[٨] . ومنهم :

قتادة بن مسلمة الحنفي

كان هذا أيضاً من أسخياء العرب ومشاهيرهم فى الكرم وبه يضرب المثل فى الجود ، وكان يسمى غيث الضريك . وقالوا : هو « أقرى من غيث الضَريك » وهو الفقير . ومنهم :

مطاعيم الريح

زعم ابن الأعرابى أنهم أربعة أحدهم عم أبى مِحْجَن الثَقَفِىّ ولم يسم الباقين .

---

(١) يقال غب الطعام والتمر يغب غبا وغبا وغبوبا وغبوبة فهو غاب : بات ليلة فسد أو لم يفسد وخص بعضهم اللحم ، وقيل غب الطعام تغيرت رائحته ، قال جرير يهجو الأخطل :

والتغلبية حين غب غبيبها ... تهوى مشافرها بشر مشافر

اراد بقوله غب غبيبها ما انتن من لحوم ميتتها وخنازيرها (٢) اى ارتفع (٣) الضيافة (٤) اللبن (٥) القطعة من الابل (٦) يقال كاس البعير اذا مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب (٧) اى طريا (٨) يقال : نضج اللحم كسمع نضجا ونضجا أدرى ، فهو نضيج وناضج

قال أبو النَدى هم كِنانَةُ بنُ عبد ياليل الثقفى عم أبى مِحْجن . ولَبيد بن ربيعة وبوأه كانوا إذا هبت الصَّبا أطعموا الناس وخصُّوا الصَّبا لأنها لا تهبُّ إلا فى جَدْبٍ . قالت بنت لَبيد بن ربيعة العامرى :

إذا هَبَّتْ رِياحُ أبى عقيل ذكرنا عند هبَّتِها الوَليدا
أشمَّ الأنف أبيضَ عبشمياً أعان على مروءته لبيدا[1]

وكانت العرب تضرب بهم الأمثال . لما جُبِلوا عليه من سخاء الطبع وكريم الخصال . وخلدوا لهم الذكر الجميل . والثناء الجزيل . وهو أحسن ما يُدَّخر . وأجلّ ما يُقْتنى ويؤثر . ومنهم :

ازواد الركب

قال ابن بكار فى أنساب قريش : كان أَزْوادُ الركب من قريش ثلاثةً ، مسافر ابن أبى عمرو بن أمَيَّة بن عبد شمس . الثانى زَمَعَة بن الأسود بن المطلب بن أسَد بن عبد العزَّى . الثالث أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وإنما قيل لهم أزواد الركب لأنهم كانوا إذا سافروا لم يتزود معهم أحد ولم يسمَّ بذلك غير هؤلاء الثلاثة . وكان عند أبى أمية بن المغيرة أربع عواتك عاتكة بنت عبد المطلب وهى أم زهير ، وعبد الله وهو الذى قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . وعاتكة بنت جِذْل الطعان[2] ، وهى أم أم سلمة والمهاجر . وعاتكة بنت عتبة بن ربيعة . وعاتكة بنت قيس من بنى نهشل بن دارم التميمية انتهى . وبهم كانت قريش تضرب المثل . قال الميدانى عند قولهم أقرى من زاد الركب : زعم ابن الأعرابى أن هذا المثل من أمثال قريش ضربوه لثلاثة من أجوادهم وعدد أسماءهم على الوجه

---

(١) الشمم ارتفاع فى قصبة الأنف مع استواء أعلاه ، وقوله عبشميا أى منسوبا الى عبد شمس (٢) هو علقمة بن فراس من مشاهير العرب لقب بذلك لجوده يقال للرجل العالم بالأمر القائم به المثابر عليه هو جذله

السابق . وأخبار هؤلاء كثيرةٌ . وما ورد فيهم من شعر المديح أكثر والمقام لا يسع ذلك ، وكان أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم زوج اخته عاتكة بنت عبد المطلب فخرج تاجراً إلى الشام فمات بموضع يقال له سَرْوُ سحيم ، فقال أبو طالب عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هذه الأبيات يرثيه بهـا وهي :

ألا إنَّ زادَ الركبِ غير مدافَعٍ ... بِسَرْوِ سُحَيم غيبته المقابرُ

بِسَرْوِ سُحَيمٍ عارف ومنا كِرٌ ... وفارسُ غارات خطيبٌ وياسِر [(١)]

تنادوا بأن لاسيد الحى فيهم ... وقد فجع الحيان كعب وعامر

فـكانَ إذا يأتى من الشام قافلا ... بمقدمه تَسعى إلينا البشائِر [(٢)]

فَيُصْبح أهلُ اللهِ بيضاً كأنمَّا ... كستهم حَبيراً رَيْدة ومعَافِرُ [(٣)]

ترى داره لا يبرح الدهر عندها ... مُجَعْجَعَة كُومٌ سمانٌ وباقِرُ [(٤)]

إذا أكلتْ يوماً أتى الدهر مثلها ... زواهق زهم أو مخاضٌ بهازرُ [(٥)]

ضَرُوبٌ بنَصْلِ السيفِ سُوقَ سِمانِها ... إذا عَدِموا زاداً فإنك عاقِرُ [(٦)]

وإلاَّ يكن لحم غريض فإنه ... تـكب على أفواههن الغرائر [(٧)]

---

(١) سحيم بضم السين موضع فى طريق الشام من مكة ، وسروه أعلاه وحذف حرف العطف من خطيب ضرورة ؛ مناكر اسم فاعل من ناكره أى قاتله ، وياسر اللاعب بقداح الميسر ، والميسر قمار العرب بالأزلام وهو مما يفتخر به عندهم كانوا يقامرون بها فى أيام الغلاء والقحط ويفرق الغالب لحم الجزور على الفقراء (٢) القافل : الراجع من السفر ، والبشائر جمع بشارة (٣) أراد بأهل الله قريشا سموا بذلك لأنهم أرباب مكة ، والحبير بفتح الحاء المهملة ثياب ناعمة كانت تصنع باليمن ، وريدة بفتح الراء وسكون المثناة التحتية بلدة من بلاد اليمن ، ومعافر بفتح الميم وكسر الفاء هى من همدان الى اليمن (٤) قوله مجعجعة اسم فاعل من جعجعت الابل اذا صوتت ، والباقر اسم لجماعة البقر كالجامل لجماعة الابل (٥) زواهق جمع زاهقة وهى السمينة ، والزهم : الكثيرات الشحم جمع زهمة بفتح فكسر وكلاهما بالزاى المعجمة ، والمخاض : الحوامل من الابل واحدها خلفة من غير لفظها ، والبهازر جمع بهزرة وهى الناقة الجسيمة (٦) قوله ضروب أى هو ضروب ، ونصل السيف شفرته فلذلك أضافه الى السيف وقد يسمى السيف كله نصلا ، مدحه بأنه كان يعرقب الابل للضيفان عند عدم الازواد وكانوا اذا أرادوا نحر الناقة ضربوا ساقها بالسيف فخرت ثم نحروها ، وقوله فاذا عدموا الخ الجملة الشرطية التفات الى الخطاب من الغيبة ، والسوق جمع سـاق (٧) الغريض : الطري من اللحم ، والغرائر جمع غرارة وهى العدل يكون فيها الدقيق والحنطة وغيرهما

فيالك من ناعٍ حبيت بألّةٍ شِراعيّةٍ تصفرُّ منها الأظافر(١)

ومن كان يضرب به المثل من أجواد عرب الجاهلية لا يمكننا أن نستوعبهم ، ومن وقف على أَخبارهم تبين لديه أَن كلّ واحد منهم كان يستحق أن يُضْرَبَ به المثل .

وأما بعد ظهور الإسلام فقد تأكد ذلك لديهم واستوجبته عليهم نصوص الشريعة فانضم هـذا الداعى إلى الداعى الطبيعى فـكان فيهم من أهل القرون الثلاثة من أنسى ذكر كعب بن مامَةَ وابنِ سُعدى . قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد : أجواد الحجاز ثلاثة فى عصر واحد عبيد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص . فمن جود عبيد الله بن العباس أنه أول من فطر جيرانه ، وأول من وضع الموائد على الطُرُق ، وأول من حيّ على طعامه ، وأول من أنهبه ، وفيه يقول شاعر المدينة :

وفى السنة الشهباء أطعمتَ حامضاً وحلواً ولحماً تامكا ومُمزّعا(٢)

وأنت ربيعٌ لليتامى وعصـمة إذا المحـل من جو السماء تطلعا

أبوك أبو الفضل الذى كان رحمة وغيثاً ونوراً للخلائق أجمعا

« ومن جوده » أنه أتاه رجل وهو بفناء داره فقال : يا ابنَ عباس إن لى عندك يداً وقد احتجت إليها فَصعَّد بصره وصوَّبه فلم يعرفْه ، ثم قال : ما يدك عندنا ؟ قال : رأيتك واقفا بزمزم وغلامك يمتح لك(٣) من مائها والشمس قد صَهَرَتْك(٤) فظللتك بطرف كسائى حتى شربتَ . قال : إنى لأذكرُ ذلك وأنه يتردد بين خاطرى وفـكرى . ثم قال لِقَيّمه : ماعندك ؟ قال : مائتا دينار وعشرة آلاف درهم . قال : ادفعها إليه وما أراها تفى بحق يده عندنا قال له الرجل :

---

(١) حبيت : خصصت من الحباء وهى العطية ، والالة بفتح الهمزة واللام المشددة الحربة ، وشراعية بالكسر الطويلة ، وقوله تصفر منها الخ أى تموت منها لأن الميت يصفر ظفره دعاءعلى من أخبر بموت أبى أمية بالقتل (٢) السنة الشهباء التى لاخضرة فيها أو لامطر ، وتامكا أى سمينا ، ومزع اللحم تمزيعا فتمزع أى فرقه فتفرق (٣) المتح الاستقاء (٤) أى آلمت دماغك

والله لو لم يكن لإسمعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ثم شفعه بك وبأبيك .

« ومن جوده أيضاً » أن معاوية حبس عن الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما صلاته حتى ضاقت عليه حاله فقيل لو وجهت إلى ابن عمك عبيد الله فإنه قدم بنحو من ألف ألف درهم فقال الحسين : وأين تقع ألف ألف من عبيد الله ؟ فهو والله لهو أجود من الريح إذا عصفت[1] وأسخى من البحر إذا زخر[2] ، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه حبس معاوية عنه صلاته وضيق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم ، فلما قرأ عبيد الله كتابه وكان من أرق الناس قلباً ، وألينهم عطفاً ، انهملت[3] عيناه . ثم قال : ويلكَ يا معاويةُ مما اجترحَتْ[4] يداك من الإثم حين أصبحت لين المهاد ، رفيع العماد ، والحسين يشكو ضيق الحال ، وكثرة العيال ، ثم قال لقهرمانه[5] : احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من فضة وذهب وثوب ودابة ، وأخبره أنى شاطرتهُ مالى ، فإن أقنعه ذلك وإلا فارجعْ واحمل إليه الشطر الآخر . فقال له القيِّم : فهذه المؤن التى عليك من أين تقوم بها ؟ قال : إذا بلغنا ذلك دللتك على أمر تقيم به حالك . فلما أتى الرسول برسالته إلى الحسين قال : إنا لله حملت والله على ابن عمى ، وما حسبته يتسعْ لنا بهذا كله فأخذ الشطر من ماله وهو أول من فعل ذلك فى الإسلام .

« ومن جوده » أن معاوية أهدى إليه وهو عنده بالشام من هدايا النيروز حُلَلا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها مع حاجبه فلما وضعها بين يَدَيْهِ نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها ، فقال : هل فى نفسك منها شىء ؟ فقال : نعم والله إن فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف

---

(١) يقال عصفت الريح تعصف عصفا وعصوفا اشتدت فهى عاصفة وعاصف وعصوف وأعصفت فهى معصف ومعصفة (٢) أى طمى وتملا (٣) أى فاضت (٤) أى اكتسبت (٥) هو المسيطر الحفيظ على ماتحت يديه قال ابن برى : القهرمان من أمناء الملك وخاصته فارسى معرب وقال أبو زيد يقال قهرمان وقرهمان مقلوب بلغة الفرس القائم بأمور الرجل قاله ابن الأثير

عليهما السلام فضحك عبيد الله قال فشأنك بها فهى لك . قال جعلت فِداكَ أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيجد على . قال : فاختمها بختامك وادفعها إلى الخازن فإذا حان خروجنا حملها إليك ليلا ، فقال الحاجب : والله لهذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم ، ولوددت أنى لا أموت حتى أراك مكانه يعنى معاوية فظن عبيد الله أنها مكيدة منه ، قال دع عنك هذا الكلام فإناقومٌ نَفى بما وعدنا ولا ننقض ماأكدنا

« ومن جوده » أنه أتاه سائل وهو لا يعرفه فقال له : تصدق فإنى نبئت أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر إليه ؟ فقال له وأين أنا من عبيد الله ، فقال أين أنت منه فى الحسب أم كثرة المال ؟ قال فيهما . قال أما الحسب فى الرجل فمروءته وفعله ، وإذا شئت فعلت وإذا فعلت كنت حسيبا فأعطاه ألفى درهم واعتذر إليه من ضيق الحال فقال له السائل إن لم تكن عبيد الله بن عباس فأنت خير منه وإن كنتَ هو فأنتَ اليوم خيرٌ منك أمس فأَعطاه ألفاً أخرى فقال السائل هذه هزة كريم حسيب واللهِ لقد نقرت حبة قلبى فأفرغتها فى قلبك فما أخطأت إلا باعتراض الشك من جوانحى .

« ومن جوده أيضاً » أنه جاءه رِجل من الأنصار فقال يا ابن عم رسولِ الله إنه ولد لى فى هذه الليلة مولود وإنى سميته باسمك تبركا منى به وأن أمه ماتت ، فقال عبيد الله بارك الله لك فى الهبة ، وأجزل لك الأجر على المصيبة ، ثم دعا بوكيله وقال انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه وادفع إليه مائتى دينار للنفقة على تربيته ثم قال للأنصارىّ عُدْ إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفى العيش يبس وفى المال قلة ، قال الأنصارى لو سبقتَ حاتماً بيوم واحد ما ذكرتْهُ العرب أبداً ، ولكنه سبقَك فصرت له تالياً ، وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده ، وطَلّ كرمك أكثر من وابله انتهى ما فى العقد من حديث عبيد الله . وروى أبو فرج الأصبهانى فى الأغانى بسنده ، قال : مرَّ عبيدُ اللهِ بن عباس بن عبد المطلب بمَعن ِبن أوس المزَنىّ وقد كف بصره فقال له يامعن : كيف حالك ؟ فقال :

ضَعُف بصرى وكَثُر عيالى وغلبنى الدَّيْن . قال : وكم دينك ؟ قال : عشرة آلاف درهم فبعث بها إليه ، ثم مر به من الغد فقال كيف أصبحتَ يا معن ؟ قال :

أخذت بعين المـال حتى نهكته ... وبالدَّيْن حتى ما أكاد أُدان[١]

وحتى سألتُ القرض عند ذوى الغنى ... وردَّ فـــلان حاجتى وفلان

فقال له عبيد الله . اللهُ المستعانُ إنا بعثنا إليك لقمةً فالُكْتَهَا حتى انتزعت من يديك فأىّ شيء للأهل والقرابة والجيران ، وبعث إليه بعشرة آلاف درهم أخرى فقال معن يمدحه :

إنك فرعٌ من قريشٍ وإنمـا ... يمجّ الندى منها البحور الفوارعُ[٢]

ثووا قادة للنـــاس بطحاء مكة ... لهم فى سقاياتِ الحجيج الدوافعُ[٣]

فلمـا دُعوا للموت لم تبك منهم ... على حادث الدهر العيونُ الدوامعُ

ثم إن ابن عبد ربه ذكر نبذة من أخبار جود عبد الله بن جعفر ، وجود سعيد بن العاص ، وجود عبيد الله بن أبى بكرة . وجود عبيد الله بن معمر القُرَشى التيمى ، وذكر جود جماعة كثيرة من أهل الطبقة الثانية من الأجواد وأتى من ذلك بما يستغرب ويوجب العجب ولا بدع فإن لهم أسوةً بسيدهم بل سيد ولد عَدْنان وقحطان ونورِ حَدَقة عالم الإمكان ، صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه قد منح من السخاء والجود ، ما فاق به حتى جاد بكل موجود ، وآثر بكل مطلوب ومحبوب . ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على آصُع[٤] من شعير لطعام أهله ، وقد ملك جزيرة العرب ، وكان فيهـا ملوك وأقيال[٥] لهم خزائن وأموال ، يقتنونها ذخراً ، ويتباهون بها فخراً ، ويستمتعون بها أشراً وبطراً ، وقد حاز ملك

---

(١) نهكته أى صرفته حتى فنى (٢) هو مخروم ويروى وانك بالواو فلا خرم والفرع مستعار من فروع الشجرة وهى أغصانها والفوارع جمع فارع وهو العالى (٣) السقاية بالكسر الموضع يتخذ لسقى الناس ، والحجيج جمع حاج (٤) آصع جمع صاع وهو يذكر ويؤنث مكيال (٥) اقيال جمع قيل وهو الملك أو من ملوك حمير يقول ماشاء فينفذ أو هو دون الملك الأعلى

جميعهم ، فما اقتنى ديناراً ولا درهما ، لا يأكل إلا الجشب[1] ، ولا يلبس إلا الخشن ، ويعطى الجزل الخطير ، ويَصِلُ الجم الغفير ، ويتجرع مرارةَ الإقلال ويصبر على سغَب[2] الاختلال ، وقد حاز غنائم هوازن ، وهى من السَّبْيِ ستة آلاف رأس ، ومن الإبل أربعة وعشرون ألف بعير ومن الغنم أربعون ألف شاة ، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية ، فجاد بجميع حقه وعاد خِلْوًا .

روى أبو وائل عن مسروق عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت . ما ترك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ديناراً ولا درهماً ولا شاةً ولا بعيراً ولا أوصى بشيء . وروى عمرو بن مرة عن سويد بن الحارث عن أبى ذَرٍّ قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما يسرنى أن لى أُحُدا ذهبا أنفقه فى سبيل الله أموت يوم أموت وعندى منه دينار إلا أن أعده لغريم . وكان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا سئل وهو مُعْدم وَعَدَ ولم يَردَّ وانتظر ما يفتح الله . روى حماد بن زيد عن المعلى بن زياد عن الحسن أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسأله فقال : اجلس سيرزقك الله . ثم جاء آخر ثم آخر فقال لهم : اجلسوا فجاء رجل بأربع أواق فأعطاه إياها وقال يا رسول الله هذه صدقة فدعا الأول فأعطاه أوقيةً ، ثم دعا الثانى فأعطاه أوقيةً ، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقيةً ، وبقيت معه أوقيةٌ واحدة فعرض بها للقوم فما قام أحد فلما كان الليل وضعها تحت رأسه وفراشه عباؤه فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصلى فقالت له عائشة يارسول الله حل بك شيء ؟ قال لا قالت : فجاءك أمر من الله ؟ قال لا قالت إنك صنعت منذ الليلة شيئاً لم تكن تفعله فأخرجها وقال : هذه التى فعلت بى ما تَرَيْنَ إنى خشيت أن يحدث أمر من الله ولم أمضها ، وروى الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن ترك دَيْناً فعلىَّ ومن ترك مالا فلورثته . فهل مثل هذا الكرم والجود كرماً وجوداً ، أم لمثل هذا الإعراض والزهادة

---

(١) أى الغليظ من الطعام (٢) جوع

إعراضاً وزهداً ، هيهاتَ هيهاتَ هل يُدرَكُ شأوُ[١] مَنْ هذه شذورٌ من فضائِلِه ، ويسيرٌ من محاسِنه ، وهي التي لا يحصى لها عدد ، ولا يُدْرَكُ لها أمد ، وحقيق لمن بلغ من الفضائل غايتها ، واستكمل لغايات الأمور آلتهـا ، أن يكون لزعامة العالم مؤهلا ، وللقيام بمصالح الخلق موكلا .

وأما كون العرب أقرب للحلم من غيرهم

فَلِأَنَّ الحلمَ إمساكُ النفس عن هَيَجان الغَضَب كما أن التحلُّمَ إمساكُها عن قضاء الوَطَر[٢] والحلم من آثار العقل وغير مُنْفَكٍّ عنه ، ولهذا يعبر به عن كل عقل ظهر فعلاً كقوله تعالى فى ذم من لم يذعن للحق على سبيل التعجب منهم : أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ . ومتى استعمل الحلم فى البارى تعالى فإنما يراد العمل بمقتضاه وهو العفو دون انفعال يعرض له . ثم إن العقل كلما كان أوفرَ كان تأثيرُهُ أَتمَّ وأثرُه أقوى وأحكم ، وقد سبق ما كانَ عليه العرب من غزارة العقل وكماله ، فلا شك أن مؤثراتِهِ كذلك . وقد اشتهر العرب لا زالت مآثرهم تتلى على مدى الدهور . وممر الأزمنة والعصور ، بكل ما يتم الحلم به فإن حلم الإنسان لا يتم إلا بإمساكِ الجوارح كلها ، اليدِ عن البطش ، واللسان عن الفحش ، والعين عن فضولات النظر . ومن دقق النظر فى شعرهم وخطبهم ، ووقف على لغتهم ، تبينَ لديه كل ما ذكرناه ، فقد كانوا يحرمون الظلم ويتحالفون على الكف عنه كما سيمر بك حلف الفضول ونحوه ، ويتناهون عن الفحشاء والمنكر ، ولغتهم تكنى عن كل ما يستقبح التصريحُ به تحرزاً من التلفظ بكلمة تأباها مروءتهم . وقد أفردَ الثعالبيُّ كتاباً كبيراً فى كناياتهم عما تتنزه ألسنتهم عن التعبير به . وما زالوا يتمدحون بالحلم فى شعرهم . ولو لم يكونوا بالغينَ فيه مبلغاً ما لهجوا به . قال خلف بن خليفة مولى قيس بن ثعلبة يذكر قوما من العرب ويمدحهم بالحلم ومكارم الأخلاق وكرم السجية :

---

(١) السبق (٢) اى الحاجة ، يقال قضيت وطرى اذا نلت بغيتك وحاجتك

عدلتُ إلى فخر العشيرة والهوَى ... إليهمْ وفى تَعداد مجدِهِمُ شُغُلُ
إلى هَضْبةٍ من آل شيبانَ أشرفت ... لها الذِرْوةالعلياء والكاهِل العَبْلُ (١)
إلى النفرِ البيض الأُلآءِ كأنهّم ... صفائحُ يومَ الرَوْع أَخْلصَهاالصَّقْلُ (٢)
إلى مَعْدِنِ العزّ المؤيَّدِ والندى ... هناك هناكَ الفضلُ والُخلق الجَزْلُ
أحب بقاء القــوم للناس أنهم ... متى يظمنوا من مَصْرَع ساعة يخلو
عِذَابٌ على الأفواه ما لم يذقْــهمُ ... عدوٌ وبالإفواه أسماؤهم تحلو (٣)
عليهم وقارُ الحــلم حتى كأنّمـا ... وليدُهُمُ من أجْل هيبته كَهْلُ (٤)
إن استجهلوا لم يعزب الحلمُ عنهمُ ... وإن آثروا أَنْ يجهلوا عَظم الجهل (٥)
هم الجبل الأعلى إذا ما تنا كرت ... ملوكُ الرجالِ أو تخاطرتِ البُزْلُ (٦)
ألم ترَ أن القتلَ غالٍ إذا رضوا ... وإنْ غَضِبوا فى موطِنٍ رخصَ القتلُ
لنا فيهمُ حِصْنٌ حَصينٌ ومعقِلٌ ... إذا حرّكَ الناسَ المخاوفُ والأَزْلُ (٧)
لعمرى لَنِعْمَ الحىُّ يدعو صريخهم ... إذا الجار والمأكول أَرْهَقَه الأكل (٨)
سعــاة على إفناء بكر بن وائلٍ ... وتَبْلُ أقاصى قومِهِمُ لهمُ تَبْلُ (٩)
إذا طلبوا ذَحْلا فلا الذَحْل فائت ... وإن ظلموا أكفاءهم بَطَلَ الذَحْل (١٠)
مواعيدُهم فِعْلٌ إذا ما تــكلموا ... بتلك التى إنْ سُمِّيَتْ وجَبَ الفعل (١١)

---

(١) الهضبة : الجبل من صخرة واحدة ، والذروة : أعلى شيء ، والكاهل : مابين الكتفين ، والعبل : الضخم الممتلىء يعنى بذلك بنى شيبان وكنى عنهم بالهضبة لأنهم ملجأ وحصن (٢) النفر : البيض الانقياء الأعراض ، والآلاء بمعنى الذين وما بعده صلة ، والصفائح : السيوف ، والروع : الفزع (٣) عذاب على الأفواه يريد أن طعمهم حلو فى الأفواه ، وقوله مالم يذقهم عدو معناه الأعلى أفواه الأعداء فان مذاقهم مر فيها وهذا كله كناية عن اللين والشدة وخشونة الجانب (٤) الكهل : من الرجال من جاوز الثلاثين (٥) لم يعزب : أى لم يبعد ، وآثروا اختاروا وفضلوا (٦) قوله تخاطرت البزل قال فى التاج : يجوز أن يكون من الخطر الذى هو الوعيد ويجوز أن يكون من خطر البعير بذنبه اذا ضرب به انتهى ، والبزل جمع بازل وهو البعير الذى بلغ السنة التاسعة من عمره (٧) المعقل : الملجأ ، والأزل : الضيق والشدة (٨) أرهقه : ضيق عليه وغشيه (٩) التبل : الذحل والثأر ، والأقاصى الأباعد (١٠) الذحل : الثأر (١١) بتلك أى بلفظ نعم يصفهم بالوفاء فيقول اذا قالوا نعم وجب الفعل فلم يتأخر

بحورٌ تلاقيها بحورٌ غزيرة إذا زَخَرت قيس وإخوتها ذُهْلُ

وكانت عندهم كلمة تقال فى مواطن الغضب والتشاجر فإذا سمعها أحدهم كف عما كان بصدده من التشفى وأخذ الانتقام . وهى « إذا ملكتَ فَأَسْجِحْ » يُقْصَدُ بها طلب العفو والحلم عند ثوران القوة الغضبية ولو لم يكونوا أملكَ لنفوسهم ، وأقدرَ على مجاراة عقولهم ، لما تمكنوا على الارتداع ، إذا قارنت تلك الكلمة منهم السماع ، فهم أحلم فى النفار من كل حليم ، وأسلم فى الخصام من كل سليم ، وإذا منوا بجفوة أحد لم يوجد منهم نادرة ، ولم يخفر عليهم ببادرة[١] . ولا حليم غيرهم إلا ذو عَثْرة ، ولا وقور سواهم إلا ذو هَفْوة . يصبرون على الأذى والإقلال ، ويتحملون نغص العيش وضيق الحال ، وما كانت بينهم من الحروب والمشاجرات ، والتخاصم والمنازعات ، فهى محاماة لشرفهم ، وصيانة لعزهم ومنزلتهم ، ومحافظة على مجدهم أن يستذل ، وملاحظة على علوِّ حسبهم أنْ يُسْترذل ، والحلم فى غير موطنه ذلة ، والصبر على ما لا يُحْمَدُ زلة . هؤلاء رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، وهم أكملُ الخلق فى كل صفة محمودة ، وأعذب المناهل المورودة ، قد انتصبوا لجهاد الأعداء ، وقاتلوا من زاغَ عن المحَجَّةِ[٢] البيضاء ، حتى زاد بهم من قل ، وعز بهم من ذل ، وصادوا بإثخانهم فى الأعداء منصورين ، وبالرعب منهم محذورين ، وهذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد ضرب رِقاب بنى قُرَيْظَةَ صبرا فى يوم أحد ، وهم نحو سبعمائة[٣] وانتقم منهم انتقام من لم يعطفه عليهم رحمة ، ولا داخلته لهم رِقَّة ، وإنما فعل ذلك فى حقوق الله تعالى . وقد كانت بنو قريظة رضوا بتحكيم سعدِ بن معاذ عليهم فحكم أن من جرت عليه المُوسَى قتل ومن لم تجر عليه استرق فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هذا حكم الله من فوق سبعة أرقعة . فلم يجز أن يعفو عن حق وجَب لله

---

(١) هى ما يبدر من حدتك من قول أو فعل . (٢) جادة الطريق .

(٣) هذه المذبحة حدثت بعد انصراف النبى عن الخندق فى غزوة الاحزاب. لا فى غزوة أحد كما توهم المؤلف .

تعالى عليهم ، وإنما يختص عفوه بحق نفسه . روى أن قيس بن عاصم المنقرى وهو أحد من يضرب به المثل فى الحلم من العرب كان يحدث أصحابه يوما وهو محتب إذ جاؤا بابنٍ له قتيل ، وابن عمٍ له كتيف . فقالوا · إن هذا قتَل ابنَكَ هذا ، فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته حتى إذا فرغ من الحديث التفتَ إليهم فقال أين ابنى فلان ، فجاءه فقال يا بنى قم إلى ابن عمك فأطْلِقْه وإلى أخيك فادفنه وإلى أمّ القتيل فأعْطها مائة ناقة فإنها غريبة لعلها تسلو عنه . ثم اتـكأ على شقه الأيسر فأنشأ يقول :

إنى امرُؤٌ لا يعترى خُلق ... دَنَسٌ يُفَنِّدُهُ ولا أفَنُ
من مِنْقَرَ فى بيت مَـكْرُمَةٍ ... والغصن ينبُتُ حولَهُ الغصنُ
خطباءُ حين يقول قائلهم ... بيضُ الوجوه مصاقِعٌ لُسْنُ
لا يفطنون لعيبِ جارِهِم ... وهم لحفظ جِواره فُطْنُ

وكان الأَحنف حليما موصوفاً بذلك ، فمن حلمه أنه أشرف عليه رجل وهو يعالج قدراً له يطابخها ، فقال الرجل قدر كـكفّ القرد لا مستعيرها يُعار ، ولا من يأتيها يتدسم ، فقيل ذلك للأحنف فقال : لو شاء لقال أحسن من هذا . وقال ما أحب أن لى بنصيبى من الذل حمر النعم ، فقيل له أنت أعزُّ العرب . فقال : إن الناس يرونَ الحلم ذلاًّ وكان يقول رُبَّ غيظٍ قد جرعته مخافةَ ما هو أشدُّ منه . وكان يقول كثرةُ المُزَاح[١] تذهب بالهيبة . ومن أكْثرَ من شيء عُرِف به . والسؤدد كرم الأخلاق وحسن الفعل . وقال له رجل : يا أبا بحر دلـّنى على مَحْمَدَةٍ بغير مَزْرِيَة[٢] . قال الخلق السجيح[٣] . والـكف عن القبيح . واعلم أن أدواء الداء اللسانُ البذىء ، والخلق الردىء . وأبلغ رجل مصعباً عن رجل شيئاً فأتاه الرجل يعتذر ، فقال مصعب : الذى بلغنيه ثقة . فقال الأحنف : حلا أيها الأمير فإن الثقة لا يبلغ . وكان الأحنف من أفصح خطباء العرب . ومن خطبه ما رواه

---

(١) المداعبة . (٢) المحمدة بفتح الميم نقيض المذمة ونص ابن السراج وجماعة على الكسر ، ومزرية مصدر زرى عليه أى عابه . (٣) لين سهل .

ابن دريد بسنده إلى رجل من بنى تميم قال حضرت مجلس الأحنف بن قيس وعنده قوم مجتمعون فى أمر لهم فَحَمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال : إن الكرم ، منع الجرم ، ما أقرب النقمة . من أهل البغى ، لا خير فى لذة تعقب ندما ، لن يهلك من قصد ، ولن يفتقر من زهد ، ربَّ هزل عاد جدًّا . من أمِنَ الزمانَ خانه ، ومن يعظم عليه أهانه . دعوا المزاح فإنه يرث الضغائن[1] . وخير القول ما صدّقه الفعل . احتملوا لمن أدل عليكم . واقبلوا عذر من اعتذر إليكم . أطِعْ أخاك وإن عصاك . وَصِلْهُ وإن جفاك . أنصف من نفسك . قبل أن ينتصف منك . وإياكم ومشاورة النساء . واعلموا أن كفرَ النعمة لؤم . وصحبةَ الجاهل شؤم . ومن الكرم الوفاء بالذمم . ما أقبحَ القطيعة بعد الصلة . والجفاءَ بعد اللطف . والعداوةَ بعد الود . ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ولا إلى البخل أسرعَ منك إلى البذل . واعلم أن لك من دنياك . ما أصلحت به مثواك . فأنفق فى حق ولا تكونن خازناً لغيرك . وإذا كان الغدر فى الناس موجوداً . فالثقة بكل أحد عجز . اعرفِ الحق لمن عرَفه لك ، واعلم أن قطيعة الجاهل ، تعدل منة العاقل . قال : فما رأيت كلاماً أبلغ منه . فقمت وقد حَفِظْتُهُ . وأخبار حلماء العرب والنوادر المروية عنهم بطرق صحيحة كثيرةٌ وهى فى كتب التواريخ والأدب .

***

وأما كون العرب أشجع من غيرهم

فَلِأنَّ الشجاعة من الصفات الغريزية ، والسجايا الطبيعية ، وقوة للنفس معنوية ، لا تُدرك إلا بآثارها وغاياتها ، ولا تعلم إلا بمقتضياتها وعلاماتها ، وهى الإقدام فى مواضع الإحجام . وعدم المبالاة . بالحياة ولا بالممات ، وكلما كانت هذه الآثار أعظم . كان مبدؤها أقوى وأتمَّ . والعرب لم تزل رماحهم متشابكة ، وأعمارهم فى الحروب متهالكة ، وسيوفهم متقارعة ، وأبطالهم فى ميادين الغوغاء

(١) الأحقاد .

متنازعة . قد رغبوا عن الحياة . وطيب اللذات ، وزهدوا لتأييد عزهم عن المقيل فى أفياء الشهوات ، وهم كما قال القائل فيهم :

قوم إذا نزل الغريبُ بدارهم ... تركوه ربَّ صواهِلٍ وبيان(١)

وإذا دعوتَهمُ ليومِ كَريهةٍ ... سَدُّوا شعاعَ الشمس بالفرسان

لا ينكتون الأرض عند سؤالهم ... لتطلُّب العِلاّت بالعيدان(٢)

بل يسفرون وجوههم فترى لها ... عند السؤال كأحسن الألوان

كانوا يتمادحون بالموت قطعاً ، ويتهاجون بالموت على الفراش ويقولون فيه مات فلان حتف أنفه . وعن بعضهم وقد بلغه موت أخيه : إنْ يُقْتَلْ فقد قُتِلَ أبوه وأخوه وعمه ، إنا والله لا نموت حتفاً ولكن قطعاً بأطراف الرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف .

وقال السموءل

وما ماتَ منا سيد حتْفَ أنفه ... ولا طُلَّ منا حيثُ كان قتيل(٣)

تَسيل على حد الظُّباة نفوُسنا ... وليست على غير الظُّباةِ تسيلُ(٤)

وقال آخر

وإنا لتستحلى المنايا نفوسنا ... ونترك أُخرى مرّها فنذوقها

وقال الشَّنْفَرَى

فلا تدفنونى إن دفنى محرم ... عليكم ولكن خامرى أمَّ عامر(٥)

---

(١) القيان جمع قينة وهى الامة المغنية أو اعم

(٢) النكت ان تضرب فى الأرض بقضيب فيوثر بطرفه فيها ، وفى الحديث جعل ينكت بقضيب . وفى المحكم النكت قرعك الارض بعود أو باصبع .

(٣) يقال مات فلان حتف انفه اذا مات من غير قتل ولا ضرب ، وقوله ولا طل منا الخ . أى لم يطل دم قتيل منا يقال طل دمه اذا بطل ولم يطلب به وهو مطاول وقد طله فلان ابطاله يقول انا لا نموت ولكن نقتل ودم القتيل منا لا يبطل . (٤) الظبأ جمع ظبة وهى حد السيف .

(٥) قوله خامرى أى استترى وتوارى ، وأم عامر كنية الضبع ، قال فى فرائد اللآل : ام عامر وأم عمرو وأم عويمر الضبع يشبه بها الاحمق لانهم اذا أرادوا صيدها رموا فى جحرها بحجر فتحسبه شيئا تصيده فتخرج لتأخذه فتصاد عند ذلك ويقول الصائد لها خامرى ام عامر اى الجئى الى أقصى مغارك واستترى فتنقبض فيقول لها أم عامر ليست فى وجارها ثم يقول أبشرى بجراد غطال وكمر رجال فتمد يديها ورجليها فيوثقها ويشد عراقيبها

إذا حمات رأسى وفى الرأى أكثرى وغُودِرَ عند الملتقى ثَمَّ سائرى(١)
هنالك لا أبغى حياة تسرنى سجيسَ الليالى مُبْسَلا بالجرائر(٢)

وقال حسان بن ثابت

ولسنا على الأعقاب تدمى كلُومنا ولكن على أعقابنا تقطُرُ الدِما(٣)

وقال العلوى

محرمة أكفال خيلى على القَنا ودامية لَبّاتها ونُحورها(٤)
حرام على أرماحنا طعن مدبر وتندقّ منها فى الصدور صدورها

وقال آخر

وسائلةٍ بالغيب عنى ولو درَتْ مقارعتى الأبطالَ طال نحيبُها
إذا ما التقينا كنتُ أولَ فارسٍ يجود بنفس أثقلتها ذُنوبُها

وقال الحصين بن الحمام المرى

تأخرت استبقى الحياةَ فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدَّما

وقال عمرو بن الاطنابة الانصارى

أبتْ لى شيمتى وأبى بلائى وأخذى الحمدَ بالثمن الربيح

فلا تتحرك ثم يجرها ويخرجها من قعر الوجار ، يضرب هذا المثل للذى يرتاع من كل شىء جبنا وقيل غير ذلك

(١) ثم ظرف (٢) سجيس الليالى امتداده وسلاسته فى الاتصال وهو اسم فاعل سجس والمبسل المسلم والجرائر : الجرائم (٣) الأعقاب جمع عقب وهو مؤخر القدم ، والكلوم الجراح ، يقول لانولى فنجرح فى ظهورنا فتقطر دماؤنا على أعقابنا ولكن نستقبل السيوف فان أصابنا جراح قطرت على أقدامنا ؛ والبيت من أبيات ثلاث ذكرت فى الحماسة للحصين بن الحمام بن ربيعة المرى أحد شعراء الجاهلية وفرسانها المذكورين وأوفيائها المعدودين وليس لحسان ابن ثابت وهى :

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب الخ
تعلق هاما من رجال أعزة علينا وهى كانوا أعق وأظلما

وكان من خبر هذه الأبيات أن بنى سهم رهط الحصين بن الحمام وعقيل بن علفة كان لهم جار يهودى فقتلته بنو حوشن من غطفان وكانوا متقاربى المنازل وكان عقيل بن علفة غائبا بالشام فلما بلغه الخبر كتب بأبيات الى بنى سهم يحرضهم على القتال فلما وردت الأبيات عليهم تكفل بالحرب الحصين بن الحمام وقال الى كتب وبى نوه ، خاطب أماثل سهم وأنا من أماثلهم فأبلى فى تلك الحرب بلاء شديدا فقال هذه الأبيات من قصيدة طويلة وسيأتى طرف منها فى الصفحات التالية

(٤) الأكفال جمع كفل محركة العجز أو ردفه واللبات والنحور بمعنى

وإقدامى على المكروه نفسى وضربى هامة البَطَلِ المُشِيحِ [١]
وقولى كلما جَشَأَتْ وجاشت مكانَكِ تُحْمَدِى أو تَسْتَرِيحِى [٢]
لِأَدفع عن مآثر صالحات وأحيا بعدُ عن عرضٍ صحيح

ونظير هذا قول قَطَرِىّ بن الفُجاءة

وقولى كلما جشأتْ لنفسى من الأبطال وَيْحكِ لا تراعى [٣]
فإنكِ لو سألت حياةَ يومٍ سوى الأجلِ الذى لكِ لم تطاعى [٤]

وقال عنترة وهو مما يشجع الجبان

بكرتْ تخوفنى الْحُتُوفَ كأننى أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل [٥]

---

(١) قوله البطل المشيح اى المقبل عليك والمانع لما وراء ظهره (٢) هذا البيت من شواهد النحو يستشهد به على أن العرب جزمت بعد الظرف، يعنى الواقع اسم فعل وهذا معنى قول ابن مالك فى الفبته

والأمر ان كان بغير افعل فلا تنصب جوابه وجزمه اقبلا

قال فى التصريح فجزم تحمدى فى جواب اسم الفعل وهو مكانك فانه فى معنى اثبتى وقولى مصدر مبتدأ خبره مكانك تحمدى على حد قولى لا اله الآ الله . وجشأت بالجيم والشين المعجمة والهمزة ارتفعت . وجاشت بالجيم والشين المعجمة غثت من الغثيان ، وقوله مبتدأ الا ظهر أنه عطف على وضربى الخ ، ويقال ان معاوية (رض) يوم صفين هم بالفرار فما منعه الا هذه الأبيات (٣) يروى بدل الشطر الأول من هذا البيت : (اقول لها وقد طارت شعاعا) أى أقول للنفس وقد طارت شعاعا أى متفرقة من الأبطال ويحك لا تراعى من الروع وهو الفزع ولكن تشجعى واصبرى (٤) بقاء يوم أى زيادة يوم والمعنى ان النفس اذا طلبت أن يفسح لها فى أجلها زيادة عن الأجل المسمى لها لا يجاب طلبها ، وبعد هذين البيتين :

فصبرا فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن أخى الخنع اليراع

أخو الخنع الذليل ، واليراع هنا الرجل الجبان الذى لاقلب له كأنه لاجوف له فوضع اليراع مكان الجبان لأنه بمعناه

سبيل الموت غاية كل حى فداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لايغتبط يسأم ويهرم وتسلمه المنون الى انقطاع

الاغتباط أن يموت من غير علة

وما للمرء خير فى حياة اذا ما عد من سقط المتاع

(٥) كانت العرب من عادتها تشرب ليلا فتسكر فتعطى وتهب حالة سكرها فاذا أصبحوا لامهم البخلاء فهذا معنى بكرت الخ كما قال التبريزى ، والحتوف مصدر بمعنى الحتف وهو الموت ، وهو أيضا جمع حتف

فأجبتها إن المنيةَ منْهلٌ لا بد أنْ أسقى بكأس المَنْهَلِ (١)
فاقنَىْ حياءَكِ لا أبا لك واعلمى أنى امرؤ سأموت إنْ لم أُقْتَلِ (٢)

وقد خص العرب من الشجاعة فى حروبهم ، والنجدة فى مصابرة عدوهم ، ما شهدت به تواريخ الأمم ، واعترفت به ألسن العرب والعجم . ومن راجع الكتب المؤلفة فى أيامهم ، وسيرهم فى سالف أعوامهم ، تبين لديه أنهم لم يشهدوا حرباً فى فزاع ، إلا صابروا حتى انجلت عن ظفر أو دفاع ، وهم فى موقفهم لم يزولوا عنه هرباً ، ولا حازوا فيه رغباً ، بل ثبتوا بقلب آمن ، وجأش ساكن ، وقيل لعنترة : كم كنتم يوم الفروق ؟(٣) قال : كنا مائة كالذهب لم نكثر فنتكل(٤) ولم نقل فنذل . وحيث كان العرب لا تقدم شيئاً على العز وصيانة العرض ومحاماة الحريم ، هانت عليهم نفوسهم دون ذلك . وقد اختار الغالب منهم سكنى البوادى على الحضر لما كان فقد العز فيه . والجبن إنما ينشأ من حب رغد العيش وطيب الحياة وعدم المبالاة بما يزرى بعلو الحسب وأين ذلك منهم ؟ وبهذا تعلم ما كانوا عليه من الشجاعة والإقدام على المهالك ، ولقد كابد منهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى تأليفهم واتحاد كلمتهم ما جاوز منه الحزام الطُّبْيَين(٥) وسال منه عَرَقُ القِرْبة .(٦) وهذا شعرهم ينطِقُ بما كانوا عليه من رسوخ القدم فى هذا الميدان وعلو الهمة فى هذا الباب ، ولا بأس بإيراد شىء منه ، فمن ذلك قول حيان بن ربيعة الطائى وهو أحد الشجعان المشهورين يفخر بقومه :

---

(١) المنهل بفتح الميم والهاء : المورد وهو عين ماء ترده الابل (٢) قنى الحياء : لزمه وحفظه كأقنى واقتنى وقنى بالتشديد (٣) هو يوم من أيام العرب الشهيرة (٤) الجبن والتأخر (٥) اى اشتد الأمر وتفاقم قال المبرد : فان السباع والخيل يقال لمواضع الاخلاف منها أطباء يافتى واحدها طبى كما يقال فى الظلف والخف خلف هذا مكان هذا فاذا بلغ الحزام الطبيين فقد انتهى فى المكروه (٦) كناية عن الشدة والمجهود والمشقة لأن القربة اذا عرقت خبث ريحها أو لان القربة مالها عرق فكأنه تجشم محالا أو عرق القربة منقعتها كأنه مجسم حتى احتاج الى عرق القربة وهو ماؤها يعنى السفر اليها أو عرق القربة سفينة يجعلها حامل القربة على صدره أو معناه تكلف مشقة كمشقة حامل قربة يعرق تحتها من ثقلها ، كما فى القاموس

لقد عَلِم القبائل أن قومى ذو وجدٍ إذا لُبِس الحديد[١]

وإنا نِعْمَ أحلاسُ القوافى إذا استعر التنافرُ والنشيد[٢]

وإنا نضربُ الملحاءَ حتى تولى والسيوف لنا شهود[٣]

وقال يحيى بن منصور الحنفى

وجدنا أبانا كانَ حلَّ ببلْدَةٍ سِوًى بين قيسٍ قيسِ عَيْلانَ والفِزْرِ[٤]

فلما نأتْ عنّا العشيرة كلُّها أنَخْنا فحالَفْنا السيوفَ على الدهر

فما أسلمتنا عندَ يومِ كريهةٍ ولانحن أغضَيْنا الجفونَ على وِتْرِ[٥]

وقال رجل من حمير فى وقعة كانت لبنى عبد مناة وكلب على حمير

مَنْ رأى يومَنا ويومَ بنى التَيْـمِ إذِ الْتَفَّ صيقهُ بدَمِهْ[٦]

لمّا رأَوْا أن يومهم أشِبٌ شَدُّوا حيَازيمَهُمْ أَلَمِهْ[٧]

كأنما الأسد فى عَرِينِهِم ونحن كالليل جاشَ فى قتَمِهْ[٨]

لايُسْلِمُونَ الغداةَ جارَهُمُ حتى يَزِلَّ الشِراكُ عن قدَمِهْ[٩]

ولا يَخِيمُ اللقاءَ فارسُهُمْ حتى يَشُقَّ الصُّفُوفَ من كَرَمِهْ[١٠]

مابرح التيمُ يَعْتَزُّونَ وَزُرْ قُ الخطِّ تَشْفى السقِيمَ من سَقَمِهْ[١١]

---

(١) المراد بالحديد الدروع (٢) يقال فلان حلس كذا أى ملازم له اى ويشهدون أيضا انا نعم أصحاب القوافى عند التفاخر والتناشد (٣) الملحاء : الكتيبة العظيمة (٤) سوى بمعنى متوسطة فى موضع جر صفة لبلدة والفزر لقب سعد بن زيد مناة (٥) الكريهة : الحرب ، أى فما خذلتنا فى يوم حرب ولا نحن أغضينا جفوننا على وتر وحقد يعنى انهم أدركوا كل ثأر (٦) من راى على معنى يامن رأى وهو تمام الوزن لأن البيت من المنسرح واليوم المراد به الوقعة والاستفهام الغرض منه التعجب ، والصيق : الغبار والتفافه كأن برشاش الدم القاطر من الجراح (٧) أشب أى كثير الجلبة والأصوات ، والحيازيم : الصدور والمراد القلوب وهذا مثل لصبرهم على ما لحقهم (٨) كأنما الأسد أى كأنما هم الأسد فالأسد خبر مبتدأ محذوف، والعرين : مأوى الأسد، والقتم : يطلق على الظلمة والغبار والمراد الظلمة (٩) حتى يزل الشراك فيه قلب والأصل زلت القدم عن الشراك وهذا مثل لموته لأنه لا يلبسها بعده (١٠) ولا يخيم اللقاء أى لايجبن عن اللقاء فحذف الجار تخفيفا ووصل الفعل فعمل (١١) يعتزون أى ينتسبون ويدعون يالفلان ، وزرق الخط أى الرماح تشفى المتكبر من كبره وانما جعل الفعل الرماح على المجاز والسعة

حتى تولّت جموعُ حِمْيَرَ والـــفَلُّ سريعاً تَهْوِى إلى أَمَمِهْ(١)
وكم تركنا هناكَ من بَطَلٍ تَسْفِى عليه الرياح فى لِمَمِهْ(٢)

وقال حسان بن نشْبَةَ العدوى فى ذلك(٣)

نحن أَجَرْنا الحىَّ وقد أَتَتْ لها حِمْيَرٌ تُزْجِى الوشيجَ المقوّما(٤)
تركنا لهم شقَّ الشِّمال فأصبحوا جميعاً يُزَجُّون المَطِيَّ المَخَزَّما(٥)
فلما دَنَوْا صُلْنا ففرَّقَ جَمْعَهُمْ سَحابتنا تَنْدَى أَسِرَّتُها دما(٦)
فغادَرْنَ قَيْلاً من مقاول حِمْيَرٍ كأنَّ بِخَدَّيْهِ من الدم عَنْدَما(٧)
أَمَرَّ على أَفْواهِ مَنْ ذاق طعمها مطاعمُنا يَمْجُجْنَ صاباً وعَلْقَما(٨)

وقال فى ذلك أيضاً

إنِّى وإنْ لم أفدِ حَيّا سواهُمُ فِداءٌ لِتَيْمٍ يوم كابٍ وحِمْيَرا(٩)
أبَوْا أنْ يُبيحوا جارَهُمْ لعدوّهم وقدثار نَقْعُ الموت حتى تكَوْثرا(١٠)
سَمَوْا نحو قَيْلِ القوم يَبْتَدِرونَهُ بأسيافِهِمْ حتى هَوَى فتقطَّرا(١١)
وكانوا كأنف الليث لاشَمّ مَرْغَماً ولا نالَ قطُّ الصيدَ حتى تعفَّرا(١٢)

---

(١) الفلّ مصدر وضع موضع المفعول ، والامم : القرب . (٢) موضع كم نصب على المفعولية من تركنا ويقال سفت الريح التراب حملته وذرته، واللمم جمع لمة والمراد بها ما تشعث من شعر الرأس . (٣) هو أخو بنى عــدى ابن عبد مناة ، قال أبو محمد الاعرابى هذا الاسم تصحيف والصواب جساس بن نشــبة التيمى والله أعلم . (٤) أجرنا الحى أى أدخلنا فى جوارنا هــذه القبيلة وكلبا من الحى قبله ، وتزجى الوشيج المقوما أى تسوق الرماح المثقفة (٥) شق الشمال أى جانب الشمال والعرب تجعل الشــمال كناية عن الشؤم ، والخزم الشد والقطع يقال شراك مخزوم أى مقطوع .
(٦) يقال صال فلان على قرنه اذا أوقع به واستطال عليه حتى يذل له ؛ وسحابتنا أى جيشنا الذى كانه سحابة ، وتندى أى ترشــح ، والاسرة : الاوساط والطرائق وتستعمل فى بطون الاودية أيضا . (٧) قيلا من مقاولى حمير أى ملكا من ملوكهم ، والعندم : دم الاخوين وقيــل البقم اى ابتدروه بالسيوف حتى تركوه ساقطا مضرجا بدمه . (٨) الصاب : عصارة شجر مر ، والعلقم شجر مر أيضا وقيل الحنظل . (٩) يقال فداه يفديه فداء وفدى أعطى شيئا فأنقذه . (١٠) الاباحة : التخلية بينك وبين الشيء ، والنقــع : الغبار ، وتكوثرا : أى تراكم . (١١) القيل : الملك ومر تفسيره قريبا ويقال بادره وابتدره عاجله ، والتقطر : السقوط على أحد القطرين أى علوا نحــو الملك يعاجلونه حتى هوى أى سقط على أحد جانبيه وفى الكلام اختصار كأنه قال ابتدروه بالاسياف وضربوه حتى سقط . (١٢) كانف الليث ضرب ذلك مثلا للعزة والاباء لان الاسد أحمى الحيوان أنفا والشم مجاز عن النــوال ؛ والمرغم : الذل ، وتعفر من العفر محركا وهو التراب .

وقال فى ذلك هلال بن رزين أحد بنى ثور بن عبد مناة بن أدّ

وبالبيداءِ لمّا أنْ تلاقتْ بها كابٌ وحَلَّ بها النذورُ(١)
فحانَتْ حميرٌ لما التقينا وكان لهم بها يومٌ عسيرُ(٢)
وأيقنت القبائلُ من جَنابٍ وعامرُ أنْ سيَمْنَعُها نصيرُ(٣)
أجادتْ وبْلَ مدجنَةٍ فدرَّتْ عليهم صوبَ سَارِيَةٍ درُورُ(٤)
فولّوْا تحت قِطْقِطِهَا سِراعاً تُكَبُّهُمُ المَهَنَّدَةُ الذكورُ(٥)

وقال حصين بن حُمام المرّى

فقلت لهم ياآلَ ذبيان مالكم تفاقدتمُ لاتَقْدِمون مقدَّما(٦)
مواليكمُ مولى الولادة منهمُ ومولى اليمين حابسٌ قد تقسما(٧)
وقلتُ تَبيَّنْ هل ترى بَيْنَ ضارجٍ ونهْى الاكفّ صارخاً غير أعجما(٨)
من الصَبح حتى تَغْرُب الشمس لاترى من الخيل إلا خَارِجيًّا مُسوَّما(٩)

---

(١) البيداء هنا موضع بعينه معروف وان زائدة يقول لما تلاقت قبيلة كلب وحمير بهذا المكان وحل به النذور أى سقطت الاقسام عن الحالفين لادراكهم الأوتار ونقض ما كان بين القبيلتين من العهود وجواب لما فى البيت بعده . (٢) فحانت حمير أى هلكت لان الدائرة أى الهزيمة كانت عليهم .

(٣) جناب وعامر بطون من بنى كلاب وان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف والمراد بالنصير آخر البيت بنو التيم وانما نكره ليكون أبلغ فى تعظيم النصرة كانه أراد نصيرا من النصار أى كامل فى معناه .

(٤) أجادت : أرسلت ، والوبل : المطر الشديد العظيم القطر ، والمدجنة : المظلمة ، والصوب: نزول المطر ، والسارية: السحابة التى تأتى ليلا ، والدرور: الكثيرة الدر وهو فاعل درت . (٥) القطقط : صغار البرد شبه النبل النافذ اليهم بالقطقط من السحاب . وتكبهم : تصرعهم ، والمهندة : السيوف ، والذكور جمع ذكر وهو الصلب المتين . (٦) جملة تفاقدتم معترضة بين مالكم وبين لا تقدمون وهى دعاء عليهم بأن يفقد بعضهم بعضا والمقدم مصدر قدم بمعنى تقدم وضع موضع الاقدام أى التقدم والفعلان اذا اتفقا فى المعنى جاز وضع مصدر أحدهما موضع مصدر الآخر . (٧) المولى يطلق على معان كثيرة والشاعر فى هذا البيت قسم الموالى الى بنى عم وهم الذين سماهم مولى الولادة والى حليف وهو من انضم اليك معز يعزك وهو الذى سماه مولى اليمين لانه يقسم له عند الانضمام . (٨) ضارج : ماء لبنى عبس ، ونهى الاكف : موضع والصارخ : المستغيث ، والاعجم : الذى لا يفصح .

(٩) معنى البيت انه لا ترى من الصبح الى وقت المساء الا خيلا مسومة والمسوم الذى عليه سمة أى علامة يعرف بها يريد بذلك كثرة الخيل والرجال حتى يضيق بهم الفضاء .

عليهنَّ فِتيانٌ كَساهُمْ مُحرِّقٌ وكان إذا يكسو أجادَ وأكرما[١]

صفائحَ بُصْرى أخلصتْها قيونُها ومُطَّرِداً من نسج داود مُبهما[٢]

ولما رأينا الصبر قد حيلَ دُونهُ وإن كان يوماً ذا كواكبَ مُظْلِما[٣]

صَبرْنا وكان الصَّبْرُ منا سَجيَّةً بأسيافنا يَقْطَعْنَ كفًّا ومِعْصما[٤]

نُفَلّق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما[٥]

ولما رأيتُ الوُدَّ ليس بنافعي عَمَدْتُ إلى الأمر الذى كان أحْزَما[٦]

فلست بمبتاع الحياة بذِلَّةٍ ولا مُرْتَقٍ من خشية الموت سلَّما[٧]

وقال بشامة بن حزن[٨]

ولقد غضبْتُ لِخِنْدِفٍ ولِقَيْسِها لما ونَى عن نصرها خُذّالها[٩]

دافعتُ عن أعراضها فمنعتها ولدىَّ فى أمثالها أمثالُها[١٠]

إنى امرؤ أَسِمُ القصائد للعِدى إن القصائد شرُّها إغفالها[١١]

---

(١) محرق : هو احد ملوك لخم حرق قوما فسمى محرقا ولذلك خبر طويل لا يسعنا ايراده لضيق المقام ولكل مقام مقال . (٢) الصفائح : السيوف وهو مفعول كساهم فى البيت قبله، وبصرى: موضع بالشام تباع فيه السيوف، والقيون جمع قين وهو الحداد ، والمطرد : المتتابع النسج ولم تجر العادة بقولهم كساه سيفا وانما جاز ذلك وحسن لان السيوف وقعت فى صحبة الدروع والدروع تلبس كما تلبس الكسوة من الثياب ، تدبر . (٣) وان كان يوما اسم كان يعود الى اليوم أى وان كان ذلك اليوم يوما ذا كواكب مأخوذ من قولهم أراه الكواكب نهارا وهو شىء نطقوا به فى الدهر الأول يريدون بذلك شدة الأمر وعظم الخطب . (٤) السجية : الطبيعة ، والمعصم : السوار من الساعد . (٥) نفلق اى نشق ، والهام جمع هامة وهى الراس والكتاب كثيرا ما يغلطون فى هذا من ذلك قول بعضهم : « كلل هامه الشيب » اى رأسه ولا يخفى ما فيه من الخطأ والعدول عن الصواب ، فتنبه ، والعقوق ضد البر وأغلب ما يستعمل فى الولد مع والده . (٦) كان آخر ما جعل الحزم للامر كما جعل له العزم فى قوله تعالى : « فاذا عزم الأمر » . (٧) بمبتاع الحياة اى بمشتريها . (٨) هو أحد بنى نهشل بن دارم والظاهر أنه اسلامى ، قال البغدادى ولم أر له ترجمة فى كتب الانساب . (٩) خندف لقب ليلى امرأة الياس بن مضر بن نزار وقيس هو قيس عيلان بن مضر ، وونى : فتر .

(١٠) يقول دافعت عن عزهم ومجدهم ومنعت اعراضهم ان تبتذل ولدى فى امثال هذه القبائل امثال هذه النصرة . (١١) الاغفال جمع غفل بضم الغين المعجمة وهو الخالى من العلامة يريد ان شر الشعر ما لا يعرف ويشتهر .

قومى بنو الحرب العوان بجمعهم والمشرفيّة والقَنَا إشعـالها[١]

مازال معروفاً لمرَّة فى الوَغَى عَلُّ القَنَا وعليهم إنهـالها[٢]

من عهد عادٍ كان معروفاً لنا أَسْرُ العـداة وقتلها وقتالها[٣]

وقال شريح بن قرواش العبسى وكان من أشهر الفرسان

لما رأيت النفسَ جاشت عكْرتها على مِسْحلٍ وأيُّ ساعة مَعكر[٤]

عشية نازلتُ الفوارس عندهُ وزلَّ سنانى عن شُريْح بن مُسهر

وأقسمُ لولا درعُهُ لتركته عليه عوافٍ من ضباع وأنسُر[٥]

وما غمرَات الموت إلا نزالُك الــكمىَّ على لحم الـكمىّ المُقطَّر[٦]

وقال عباس بن مرداس السلمى وهى من المنصفات

فلم أرَ مثل الحىّ حياً مُصبَّحا ولا مثلنا يوم التَقَيْنا فوارسا[٧]

أكرَّ وأحمِى للحقيقة منهمُ وأضربُ منا بالسيوف القوانسا[٨]

إذا ماشددنا شَدَّةً نصبوا لنـا صدور المذاكى والرماح المداعسا[٩]

إذا الخيل جالت عن صريعٍ نـكُرُّهَا عليهم فما يرجعنَ إلا عوابسا[١٠]

---

(١) الحرب العوان التى قوتل فيها مرة بعد مرة ، والمشرفية : السيوف ، والقنا : الرماح ، والاشعال : الاضرام وهو على حذف مضاف أى والمشرفية والقنا ذوات اشعالها . (٢) العل من عل اذا سقاه ثانيا والانهال من انهله اذا سقاه أولا وانما قال وعليهم انهالها كأنه يجعل ذلك واجبا عليهم والمراد بهذا الاثخان فى العدو والفتك به . (٣) من هنا بمعنى مذ وانما وضعت موضع مذ لقوتها وكثرة تصرفها وتمكنها فى باب الجر ، يقول ان ما اختص بنا من أسر الملوك وقتلهم ومحاربتهم أمر معروف قديم من عهد عاد . (٤) يقال عكر على الشىء كر وانصرف ، ومسحل اسم رجل ، وأى ساعة معكر برفع أى على انه مبتدأ والخبر محذوف والتقدير وأى ساعة معكر تلك الساعة والمراد بهذا التهويل ، وعشية ظرف لعكرتها وانما زل سنان رمحه عن شريح وسلم منه لان شريحا كان لابسا درعا تحت ثيابه . (٥) العوافى جمع عاف وهو طالب المعروف وهو هنا مجاز عن تعرقبها أى الطيور له ووقوعها عليه .
(٦) الغمرات الشدائد والكمى . الشجاع ، والمقطر : الساقط على أحد قطريه الى جانبيه وقد مر تفسيره قريبا . (٧) قوله مثل الحى يريد به قوما معهودين وحيا مصبحا تمييز له والمصبح الذى يغار عليه وقت الصباح
(٨) النصف الأول من هذا البيت يرجع الى اعدائه وهم بنو أسد ، الثانى يرجع الى عشيرته ، والقونس اعلى بيضة الحديد . (٩) المذاكى جمع مذك وهى الخيل التامة السن الكاملة القوة والمداعس من الدعس وهو فى الاصل الدفع ويستعمل فى الطعن . (١٠) جالت عن صريع أى دارت عنه .

وقال أبو الأبيض العبسى من أبيات

وذى أملٍ يرجو تُراثى وإنَّ ما   يصيرُ له منى غداً لَقليلُ(١)

ومالِىَ مالٌ غيرُ دِرعٍ ومِغْفَرٍ   وأبيضُ من ماءِ الحديد صقيل(٢)

وأسْمرُ خَطِّىٌّ القناة مُثقَّفٌ   وأجرد عُرْيانُ السَّراة طويل(٣)

أقيهِ بنفسى فى الحروب وأتَّقى   بهاديه إنى للخليل وَصُولُ(٤)

وقال عمرو بن كلثوم التغلبى

معاذَ الإلهِ أن تَنوحَ نساؤنا   على هالكٍ أو أن نَضِجَّ من القتل(٥)

قِراعُ السيوفِ بالسيوف أحلَّنا   بأرضٍ براحٍ ذى أراكٍ وذى أثل(٦)

فما أبقتِ الأيامُ مِلْمالِ عندنا   سِوى جذم إذ وادٍ مُحذَّفةِ النسل(٧)

ثلاثة أثلاثٍ فأثمانُ خيلِنا   وأقواتنا وما نَسوق إلى القتل(٨)

وقال بعض بنى قيس بن ثعلبة

دعوتُ بنى قيس إلىّ فشمَّرت   خناذيذُ من سَعْدٍ طوالُ السواعدِ(٩)

إذا ما قلوبُ القوم طارت مخافةً   من الموت أرسوْا بالنفوس المواجِد(١٠)

---

(١) وذى أمل أى ورب ذى أمل ، والتراث : الميراث ، وما موصول بمعنى الذى فلذلك كتب مفصولا من أن ، تنبه . (٢) المغفر زرد ينسج على قدر الراس ، والابيض : السيف . (٣) الاسمر : الرمح ، والآجرد من الخيل القصير الشعر ، والسراة : الظهر . (٤) هادى الفرس صدره وعنقه .

(٥) قوله معاذ الآله أى أعوذ بالله معاذا يصف شدة صبرهم فى المصائب .

(٦) قراع السيوف على حذف مضاف أى قراع أصحاب السيوف والمقارعة مضاربة القوم فى الحرب والأصل فى البراح الأرض التى لا بناء فيها ولا عمران، والاراك والاثل : نوعان من الشجر ينبتان فى السهل أكثر ، ومعناه انهم نزلوا بارض لا هضاب فيها ولا جبال يتمنعون بها . (٧) ململ أى من المال ، والجذم : الاصل والاذواد جمع ذود يقع على ما دون العشرة من الابل ، والمحذفة : المقطوعة . (٨) ثلاثة اثلاث خبر لمبتدأ محذوف وما بعده تفسير له وتفصيل كأنه قال اموالنا ثلاثة اثلاث ثلث نشترى به الخيل وثلث نشترى به أقواتنا وثلث نعطيه فى الديات . (٩) الخناذيذ : فحول الخيل ويستعمل فى الشجعان كما هنا . (١٠) ارسوا : اثبتوا ومفعوله محذوف كأنه قال اثبتوا قلوبهم بالنفوس الكريمة ، والمواجد جمع ماجدة .

وقال حجر بن خالد

وجدنا أبانا حلَّ فى المجد بيتهُ   وأعيا رجالاً آخرين مَطالعهُ(١)

فمن يَسْع منا لَمْ يَنَلْ مثل سَعْيهِ   ولـكن متى ماير تَحلْ فهو تابعهْ

يسُود ثُنانا من سوانا وبدؤنا   يسوُد مَعدًّا كلها لاتُدافعهُ(٢)

ونحن الذينَ لايُرَوَّعُ جارُنا   وبعضُهُمُ للغَدْر صُمٌّ مسامعهُ

نُدَهْدِقُ بَضْعَ اللحم للباع والنَدَى   وبعضُهُمُ تَغْلِى بذمٍّ مناقِعهُ(٣)

ويَحْلِبُ ضِرسُ الضيفِ فينا إذاشتا   سديفَ السنام تَسْتَرِيه أصابعهُ(٤)

منعنا حِمانا واستباحتْ رماُحنا   حِمَى كلِ قومٍ مُستجير مراتِعهُ(٥)

وقال الرقاق بن المنذر بن ضرار الضبي

إذا المُهْرَةُ الشَقْراء أدركَ ظهرُها   فشبَّ الإلهُ الحربَ بين القبائل(٦)

وأوقدَ ناراً بينهم بضِرامِها   لهـا وَهجٌ للمُصْطَلِى غيرُ طائل(٧)

إذا حملتنى والسلاحَ مُشيحَةٌ   إلى الرَوْع لم أُصْبح على سِلْمٍ وائل(٨)

فدىً لِفتىً ألْقى إلىّ برأسها   تِلادِى وأهلى من صديقٍ وجامل(٩)

وقال أبو الغول الطهَوِىّ فى قوم من العرب

فَدَت نفسى وما مَلَـكتْ يمينى   فوارِسَ صدقتْ فيهم ظُنونى

---

(١) البيت لا يحل فى المجد وانما المجد يحل فيه ولكنه رمى بالـكلام على السعة والمجاز ، واعيا اعجز ، والمطالع : المذاهب والمسالك . (٢) الثنى من يكون دون الرئيس لكنه يليه فى الرتبة مثل ولى العهد فى الاسلام والبدء السيد المتقدم فى السيادة الغير المدفوع عنها . (٣) الدهدقة : صوت القدر عند غليانها ، والبضع جمع بضعة وهى القطعة من اللحم ، والباع مثل للشرف والعز ، والمناقع : قدور صغار من حجر . (٤) قوله اذا شتا أى اذا دخل فى الشتاء وهو الجدب ، والسديف : شحم السنام ، تستريه أى تختاره .

(٥) الحمى ما يحميه الانسان ويدافع عنه ، والاستباحة هنا جعل الشيء مباحا غير ممنوع والهاء فى مراتعه ترجع الى الحمى . (٦) المهرة : ولد الفرس ، والشقراء : الحمراء ، وأدرك ظهرها من أدرك الثمر اذا أمكن الانتفاع به ، فشب الاله الحرب أى أوقدها وهذا دعاء (٧) الضرام : دقاق الحطب ، والوهج : الاشتعال ، والطائل : النافع . (٨) المشيحة : الفرس القوى الحذر ، والروع : الحرب . (٩) ألقى الى برأسها أى وهبها لى ، والتلاد : المال القديم والصديق تفسير للاهل ، والجامل أى الجمال وهى الابل تفسير للمال القديم .

فوارسَ لا يَمَلُّونَ المَنَايا إذا دارَتْ رَحَى الحربِ الزَّبُونِ[١]

ولا يَجْزُون من حَسَنٍ بِسَيْءٍ ولا يَجْزُون من غِلَظٍ بِلِينِ

ولا تَبلَى بَسالتُهُم وإن هُمْ صَلُوا بالحَرْبِ حيناً بَعْدَ حِينِ[٢]

هُمُ مَنَعوا حِمَى الوَقَبى بِضَرْبٍ يُؤَلِّفُ بين أشتاتِ المنونِ[٣]

فنَكَّب عنهمُ دَرْءَ الأعادى وداوَوْا بالجنون من الجنونِ[٤]

ولا يَرْعَوْنَ أكنافَ الهُوَيْنَى إذا حَلُّوا ولا أرضَ الهُدُونِ[٥]

وقال ربيعة بن مَقْروم الضبى

ولقد شَهِدت الخيلَ يومَ طِرَادِها بسليم أَوْظِفَةِ القوائم هَيْكَلِ[٦]

فَدَعَوْا نَزَالِ فكنتُ أولَ نازلٍ وعَلامَ أركَبُهُ إذا لم أنزِلِ[٧]

وألدَّ ذى حَنَقٍ علىَّ كأنَّما تَغْلى عداوةُ صَدْرِهِ فى مِرْجَلِ[٨]

أرْجَيْتُه عنى فأبصرَ قصدَهُ وكَوَيْتُهُ فوق النواظِرِ من عَلِ[٩]

وقال بعض بنى قيس بن ثعلبة[١٠]

---

(١) رحى الحرب : حومتها ومعظمها وهذا على المجاز لأن الحرب تحطم الرجال وتكسرهم كما تفعل الرحى . والزبون بفتح الزاى فى الأصل الناقة التى تزبن حالبها وتدفعه شبهت الحرب بها لأنها تدفع الرجال لشدة هولها (٢) البسالة الشجاعة (٣) الوقبى كجمزى اسم ماء لبنى مازن ، والأشتات جمع شت وهو المتفرق ، والمنون : الموت (٤) قوله فنكب معناه نحى وحول ، والدرء أصله الدفع ثم استعمل فى الخلاف لأن المختلفين يدافعان يعنى أن الضرب نحى وحول عن هؤلاء القوم اعوجاج الأعادى وخلافهم ، وقوله وداووا بالجنون من الجنون أى داووا الشر بالشر كما قالوا ان الحديد بالحديد يفلح فالجنون كناية عن الشر (٥) الأكناف : النواحى ، والهوينى : الدعة والخفض تصغير الهونى مؤنث الأهون ، والهدف السكون والصلح (٦) الأوظفة جمع وظيف ، وهو مستدق الذراع والساق من الخيل وغيرها ، والقوائم : الأرجل والهيكل العظيم وصف به الفرس (٧) نزال اسم فعل بمعنى انزل والمعنى أنهم تنادوا عند الحرب وقالوا نزال فكنت أول النازلين ولأى شىء أركب فرسى اذا لم انزل عند دعائى للنزال (٨) الألد الشديد الخصومة والجمع لد بضم اللام ، والحنق : الغيظ ، والمرجل : القدر بكسر القاف تكون من نحاس (٩) أرجيته : أخرته وصرفته ، قال ابو الفتح اكثر من نرى يروى هذا البيت أرجيته بالراء فاذا تعالى شيئا رواه أرجأته بالهمز وكلاهما تصحيف وانما هو أوجبته بالواو اى اذللته وقهرته ، فوق النواظر أى بين الجبين والنواظر (١٠) هو بشامة بن حزن النهشلى وليس له ترجمة فى كتب الأنساب التى بأيدينا والظاهر انه اسلامى .

إنّا مُحَيُّوكِ ياسَلْمَى فَحَيِّنــا وإن سقَيْتِ كِرامَ الناس فاسْقينا(١)
وإن دَعَوْتِ إلى جُلَّى ومَكْرُمَةٍ يوماً سَراةَ كِرام الناس فادعينا(٢)
إنّا بنى نَهْشَلٍ لا ندّعى لأبٍ عنه ولا هو بالأبنــاء يَشْرينا(٣)
أن تُبْتَدَرْ غايةٌ يوماً لِمَكْرمَــةٍ تَلْقَ السوابِقَ منا والمصَلّينا(٤)
وليس يَهْلِكُ منــا ســيد أبداً إلا افتَلَيْنا غلاماً سيداً فينا(٥)
إنا لَنُرْخِصُ يومَ الروْعِ أنفُسَنا ولو نُسَامُ بِهــا فى الأمن أُغلينــا(٦)
بيضٌ مفارقُنــا تَغْلى مراجِلنــا نأسُوا بأموالنــا آثارَ أيدينا(٧)
إنّى لمن معشر أفنى أوائِلَهم قيلُ الكماة ألا أينَ المحامونا(٨)
لو كان فى الألف منا واحدٌ فدَعوا مَنْ فارس ؟ خَالَهُمْ إياه يعنونا(٩)
إذا الكماة تنَحَّوْا أن يصيبَهُم حَدُّ الظُبَاة وصلناها بأيدينا(١٠)
ولا تَراهم وإن جَلَّت مصيبتُهم مع البُكاةِ على من مات يَبكونا(١١)
ونَرْكَبُ الكُرْهَ أحياناً فَيَفْرِجُهُ عنّا الحِفاظ وأسيافٌ تُواتينا(١٢)

وقال وَدّاكُ بن ثميل المازنى

رُوَيْدَ بنى شَيبان بعضَ وعيدكم تُلاقوا غداً خَيلى على سَفَوان(١٣)

(١) فحيينا من التحية بمعنى السلام (٢) الجلى تأنيث الأجل ، والسراة : كرام الناس (٣) بنى نهشل منصوب على الاختصاص ولو رفعه لقال انا بنو نهشل ، ومعنى لا ندعى لأب لانتسب لأب غير أبينا ، وقوله ولا هو الخ معناه انه راض بنا كما نحن راضون به ، وقوله بنى نهشل يعنى نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم (٤) يقال ابتدرنا الغاية والى الغاية أى استبقنا اليها ، وقوله المكرمة أى لاكتساب مكرمة ، والمصلى من أسماء خيل الحلبة التى تخرج للسباق وهى عشرة على قول وقد ذكر ذلك المصنف فى الجزء الثانى مفصلا (٥) الافتلاء : الانتظام والأخذ عن الأم (٦) الروع: الحرب ، والألف فى أغلينا للاشباع (٧) بياض المفارق كناية عن نقاء العرض وانتفاء الذم والعيب ، وتغلى مراجلنا أى حروبنا ، وقوله نأسو أى نداوى (٨) الكماة جمع كام كما يقال غاز وغزاة وذلك من قولهم كمن نفسه فى السلاح اذا توارى فيه (٩) خالهم أى ظنهم معناه أنهم لشدة بأسهم وقوة حماستهم لايعترفون بشجاعة غيرهم (١٠) الظباة جمع ظبة وهى حد السيف ، وقوله وصلناها بأيدينا هذا الكلام كناية عن علو همتهم فى الحرب وطول باعهم فيها (١١) البكاة جمع باك (١٢) الكرة : المكروه وركوبه كناية عن وقوعهم فيه وقصدهم اليه ، والحفاظ : المحافظة والذب عن المحارم : وقوله وأسياف تواتينا أى توافقنا (١٣) رويد تصغير الرود بالضم أى التمهل والرفق ويكون لوجوه

تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى　　اذا غدت فى المأزق المتدانى (١)
عليها الكماةُ الغر من آل مازنٍ　　ليوثُ طعانٍ عنـد كل طعان (٢)
تلاقوهمُ فتعرفوا كيفَ صبرُهم　　على ما جنتْ فيهم يدُ الحدثان (٣)
مقاديمُ وصّالون فى الروع خطوَهم　　بكل دقيق الشفرتين يمان (٤)
اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهمُ　　لأيّة حربٍ أم بأيِّ مكان (٥)

وقال بعض بنى تيم الله بن ثعلبة

ولقد شهدتُ الخيلَ يومَ طرادها　　فطعنتُ تحتَ كنانةِ المتمطر (٦)
ونطاعنُ الأبطالَ عن أبنائنا　　وعلى بصائرنا وإن لم تبصر
ولقد رأيتُ الخيلَ شلْنَ عليكمُ　　شوْل المخاضِ أبتْ على المتغبّر (٧)

وقال عامر بن الطفيل

طُلِّقْتِ إنْ لم تسألى أىُّ فارسٍ　　حليلكِ إذ لاقى صُداءً وخثعما (٨)
أكرُّ عليهم دعلجاً ولبانُهُ　　إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمحما (٩)

لوجوه أربعة اسم فعل نحو رويد زيدا أى أمهله ، وصفة نحو ساروا سيرا رويدا : وحالا نحو سار القوم رويدا ، ومصدرا كما هنا نحو رويد بنى شيبان: وقوله بعض وعيدكم انتصب بفعل مضمر دل عليه رويد واستعمال الرفق فيه كف عن بعض الوعيد ، وسفوان : اسم ماء على أميال من البصرة .

(١) تلاقوا بدل من تلاقوا فى البيت قبله ، والجياد : الخيل ، والوغى : الحرب ، والمأزق : المضيق . (٢) الغر : بيض الوجوه ، والليوث : الاسود . (٣) الحدثان : الحوادث . (٤) المقاديم جمع مقدام وهو الكثير الاقدام فى الحرب ، والروع هنا الحرب ومعنى رقيق الشفرتين ماضى الحدين، واليمانى: السيف المطبوع من حديد اليمن . (٥) الاستنجاد : الاستنصار

(٦) أراد بالخيل من عليها من الرجال ، والكنانة التى يجعل فيها السهام ولعله يريد ما تحتها حين حملها يشير بكلك الى مقتله . (٧) شلن عليكم من شال الفرس بذنبه يشول شولا أى رفعه عند الجرى ، والمخاض : النوق الحوامل ، والغبر بالتشديد البقية من اللبن فى الضرع . (٨) طلقت يحتمل أن يكون دعاء أو اخبارا ، وحليل امرأة زوجها ، وصداء خثعم قبيلتان تانا مع من أراد قتال بنى عامر فى ذلك اليوم . (٩) دعلج اسم فرسه ، واللبان اسم لما جرى عليه اللبب من المصدر ، والتحمحم : التصويت دون الصهيل وهذا البيت معيب من جهة نصب اللبان ورفعه أما عيبه من جهة النصب فهو ذكر اللبان بعد قوله أكر عليهم دعلجا لانه اذا كره فقد كر جميع جسده وأما عيب الرفع فهو جعل التحمحم للبان وانما هو للفرس والصواب بدل هذا البيت :

اقدم فيهم دعلجا واكره　　اذا أكرهوا فيه الرماح تحمحما

وقال حريث بن عناب النبهانى

تَعالوْا أُفاخِرْكم أأعْيا وفَقْعَسٌ ... إلى المجدِ أدنَى أم عشيرةُ حاتم[(١)]

إلى حَكَمٍ من قيسِ عَيْلانَ فيصَلٍ ... وآخرَ من حَيَّىْ ربيعةَ عالِم[(٢)]

ضربنا كمُ حتى إذا قام مَيْلكم ... ضربنا العِدا عنكم ببيضٍ صوارم[(٣)]

فَحُلُّوا بأكنافى وأكنافِ مَعْشرى ... أكنْ حِرْزَكم فى المأقطِ المتلاحِم[(٤)]

فقد كان أوصانى أبى أنْ أضِيفَكم ... إلىّ وأنْهَى عنكمُ كلَّ ظالم[(٥)]

وأمثال هذا الشعر مما يدل على شجاعتهم وبسالتهم قد امتلأت منه بطون الكتب الأدبية وغرضنا نقل شيء منه يؤيد ما ادعيناه فيهم وهو كاف فى المقصود وافٍ بالمرام .

بعض من ضرب بشجاعته المثل من عرب الجاهلية

إن العرب كانوا فى الشجاعة على ما ذكرناه من المنزلة التى لا تطاوَل وقد قامت الدلائل الواضحة والبراهين الجلية على ذلك فاستحق كل منهم أن يُضْرَبَ به المثلُ ، ويُنوَّه بشأنه فى القول والعمل ، غير أن كتب الأمثال والوقائع اقتصر فيها على ذكر من شاع أمره على ألسنة الشعراء واشتهر بين القبائل . ونحن نذكر بعض ذلك ، حرصاً على تنشيط المطالعين . وتطرية لمسامع السامعين . منهم :

خالد بن جعفر بن كلاب العامرى

ومن حديثه أن هوازنَ كانت لا ترى زهير بن جَذِيمةَ الاربا وهوازن يومئذ لا خير فيها ولم تكثر عامر بن صعصعة بعد فهم « أذلُّ من يدٍ فى رَحمٍ[(٦)]

(١) بنو اعياء بن طريف بن عمرو أحد بنى أسد ، وفقعس حى من بنى أسد وأسد وطيء حليفتان يقول هلم أماجدكم أأعياء وفقعس أقرب الى المجد أم عشيرة حاتم . (٢) اراد بالحكم من قيس عيلان هرم بن قطبة وبالحكم من حى ربيعة دغفلا النسابة وحيا ربيعة ذهل بن شيبان وذهل بن ثعلبة.

(٣) قام ميلكم بمعنى تقوم فتركتم الخلاف ، والبيض الصوارم : السيوف القواطع . (٤) المأقط : المضيق فى الحرب . (٥) اضيفكم : اضمكم .

(٦) يراد الضعف والهوان وقيل يد الجنين وقيل المعنى ان صاحبها يتوقى ان يصيب شيئا .

إنما هم رعاء الشاء فى الجبال وكان زهير يَعْشِرُهم[١] فكان إذا كان سوق عكاظ أتاها زهير فتأتى هوازن بالإتاوة[٢] التى فى أغنامهم فيأتونه بالسَّمْن والأقِط[٣] والغنم فجاءت عجوز من هوازن بِسَمْن فى نِحْىٍ[٤] واعتذرت إليه وشكت السنين التى تتابعت على الناس فذاقه فلم يرض طعمه فدفعها بقوس كانت فى يده فسقطت فبدت عورتها فغَضِبَتْ من ذلك هوازن وحقدته إلى ما كان فى صدرها من الغيظ وكانت قد كثرت عامر . فآلى خالد بن جعفر فقال واللهِ لأجعلنَّ ذراعى وراء عنقه حتى أَقتل أو أُقْتَلَ ، وفى ذلك قال :

أرِيغونى إراغَتكم فإنى وحَذْفَةَ كالشجا تحتَ الوريد[٥]
مُقَرَّبةً أواسيها بنفسى وألحقها رِدَائى فى الجليدِ
لعلَّ الله يقدرنى عليهـا جهاراً من زُهيْر أو أسيدِ

واتفق نزول زهير بالقرب من أرض بنى عامر . وكانت تماضر بنت عمرو ابن الشريد امرأة زهير بن جذيمة وأم ولده فمر به أخوها الحرث بن عمرو فقال زهير لبنيه : إن هذا الحمار طليعةً عليكم فأوثقوه فقالت أخته لبنيها : أيزوركم خالكم فتوثقونه ، ثم حلبوا له وطبا[٦] من لبن وأخذوا منه يمينا أن لا يخبر عنهم فخرج حتى أتى بنى عامر فأخبرهم فركب خالد بن جعفر ، وَحُنْدُج بن البكاء ، ومعاوية بن عباد ، وثلاثة من فوارس بنى عامر ، واقتصوا فرأوا إبل بنى جذيمة

---

(١) يعشرهم من باب ضرب أخذ عشر أموالهم . (٢) بالكسر الخراج .
(٣) يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل وهو بفتح الهمزة وكسر القاف وقد تسكن القاف للتخفيف مع فتح الهمزة وكسرها مثل تخفيف كبد . (٤) نحى بكسر النون وسكون الحاء سقاء السمن .
(٥) اريغونى اراغتكم أى أطلبونى طلبتكم وفى رواية اللسان فمن يك سائلا عنى فانى . وحذفة كالشجا الخ وحذفة فرس خالد بن جعفر بن كلاب من نسل مذهب أصابها من جده رياح ابن الاشل الغنوى وكانت أمة خبيئة بنت رياح ، قال أبو عبيدن وهى الشقراء التى يقال فى المثل شيئا ما يريد السوط الى الشقراء ، والوريد أو حبل الوريد عرق تزعم العرب انه من الوتين وهما وريدان مكتنفان صفحتى العنق مما يلى مقدمه غليظان ، والجليد الضريب والسقيط وهو ندى يسقط من السماء فيجمد على الأرض تقول منه جلدت الارض فهى مجلودة ، والشجا ما ينشب فى الحلق .
(٦) الوطب : سقاء اللبن وهو جلد الجذع فما فوقه .

فنزلوا عن الخيل . فقالت النساء إنا لنرى غابةَ رماح بمكان ما كنا نرى به شيئاً ثم جاءت الرِعاء نخبرت بهم وأتى أسيد أخاه زهيراً فأخبره بالخبر وقال قد رأت راعيتى خيل بنى عامر ورماحها فقال زهير « كل أزبَّ نَفور »(١) فذهبت مثلا . وكان أسيد كثير الشعر قال فتحمل عامة بنى رواحة وحلف زهير لا يبرح مكانه حتى يُصبح وتحمل من كان معه غير ابنيه ورقاء والحرث فلم يشعر إلا والخيل أحاطت به قال زهير وظنهم أهل اليمن يا أسيد ما هؤلاء ؟ قال : هم القوم الذين تغضب فى شأنهم منذ الليلة ، قال : وركب أسيد فرسه ونجا ووثب زهير على فرسه القمساء ، وكانت متمردة فلحقه خالد راكباً فرسه حَذْفَةَ . وهو يقول لانجوت إن نجا زهير ، فاعتنق خالد زهيراً ، وخرَّا عن فرسيهما ووقع خالد فوق زهير واستغاث ببنيه ، فأقبل إليه ورقاء بن زهير فضرب خالداً ثلاثَ ضربات فلم يغن شيئاً ، وكان على خالد درعان . ثم ضرب جُنْدُج رأس زهير فقتله . وفى ذلك يقول ورقاء بن زهير :

رأيت زُهَيْراً تحت كَلْكَلِ خالد ... فأقبلتُ أسعى كالعَجُول أبادِرُ(٢)

إلى بَطَلَيْن يَنْهَضان كلاهما ... يريدان نَصْل السيف والسيف داثر(٣)

فَشُلَّتْ يمينى يوم أضرب خالداً ... ويستره منى الحديد المظاهر

فياليت أنى قبل ضربةِ خالدٍ ... ويوم زهير لم تلِدْنى تماضرُ

ومنهم مجمع بن هلال بن خالد بن مالك(٤)

---

(١) وذلك ان البعير الازب وهو الذى يكثر شعر حاجبه يكون نفورا لان الريح تضربه فينفره ، يضرب فى عيب الجبان ، قال الميدانى قاله زهير بن جذيمة لاخيه أسيد وكان أزب جبانا وكان خالد يطلبه بذحل أى ثار وكان زهير يوما فى ابله يهنؤها ومعه اخوه اسيد فرأى اسيد خالد بن جعفر قد أقبل فى أصحابه فأخبر زهيرا بمكانهم فقال له المثل ، وكان أسيد أشعر . قال النابغة :

أثرت الغى ثم نزعت عنه ... كما حاد الازب عن الطعان

(٢) الكلكل والكلكال : الصدر او ما بين الترقوتين أو باطن الزور .

(٣) يقال دثر السيف صدىء فهو داثر . (٤) هو أحد بنى تيم الله بن ثعلبة وهو شاعر جاهلى ذكره ابو حاتم فى المعمرين وقال عاش تسع عشرة ومائة سنة ١١٩

وكان هذا الرجل ممن يضرب بشجاعته المثل بين العرب ومن حديثه أنه غزا مرة يزيد بن سعد بن زيد بن مناة فلم يصب شيئاً فرجع من غزاته فمر بماء لبنى تيم وعليه ناس من بنى مجاشع فقتل فيهم وأسر فقال فى ذلك :

إن أمس ما شيخاً كبيراً فطالما عمرت ولكن لاأرى العُمْرَ ينفعُ (١)

مضت مائةٌ من مولدى فَنَضَيْتُها وخمسٌ تِباع بعد ذاك وأربعُ (٢)

وخيلٍ كأسراب القطا قد وزعتها لها سَبَلٌ فيه المنية تلمع (٣)

شهدتُ وغنم قد حويتُ ولذة أتيت وماذا العيش إلا التمتّعُ

وعاثرةٍ يوم الهُيَيْمى رأيتُها وقد ضمها من داخل الحلب مجزع (٤)

لها غَلَلٌ فالصدر ليس ببارح شجى نشب والعين بالماء تدمع (٥)

تقول وقد أفردتُها من حليلها تعستَ كما أتعستنى يا مُجَمِّع

فقلت لها بل تعسَ أخت مجاشع وقومك حتى خدّك اليوم أضرع (٦)

عَبَأْتُ له رمحاً طويلاً وألّةً كأنْ قَبَسٌ يعلى بها حين تشرع (٧)

وكأن تركت من كريمة مَعْشَرٍ عليها الخموش ذات حزن تَفَجَّع (٨)

ومنهم عتيبة بن حارث ومنهم ربيعة بن مُكَدَّم وعنترة العَبْسى الشاعر الشهير وملاعب الأسنة وزيد الخيـــل وعامر بن الطفيل وعمرو بن معدى كرب وزيد

---

(١) ما زائدة ، وقوله لا ارى العمر اى اتصال العمر وطوله فحذف المضاف اليه . (٢) فنضوتها من قولهم نضا ثيابه اذا نزعها واستعاره لبقائه هذه المدة ومضيها عليه أى تجردت منها تجردى عن ثوبى ، وخمس تبـاع بكسر التاء اى تابعة للمائة فهو مصدر وصف به . (٣) الاسراب : الجماعات مفرده سرب ، والقطا : نوع من الطير لا يحب الانفراد، قد وزعتها أى كففتها لتجتمع، والسبل : المطر والمراد به هنا تتابع الخيل فى الغارة كتتابع المطر وجواب رب اول البيت بعده وهو شـهدت . (٤) الهييمى ، موضع كانت فيه هـذه الواقعة ، والمجزع : الرعب . (٥) غلل أصل الغلل الماء الجارى بين الاشجار وجعله كناية عن الشجى وهو ما ينشب فى الحلق من عظم وغيره ، والبارح : الزائل وشجى بدل من غلل ، ونشب من نشب بالشىء اذا علق به .

(٦) انتصب تعس على المصدر، وخدك أضرع من الضراعة وهى الذل والانقياد

(٧) عبأت له اى هيأت له ، والاله : الحربة العريضة النصل، والقبس : النا

(٨) وكائن تركت أى وكاى تركت ، والخمش فى البدن والوجـه مثل الخدش ، وتفجع اى تتفجع .

الفوارس وأمية بن حرثان وعمرو بن كلثوم وغيرهم ممن لا يحيط بهم الحصر . وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر شىء منْ أخبار هؤلاء فى أواخر هذا الجزء .

وأما كون العرب أوفى من غيرهم من الأمم

فاعلم أن الوفاءَ أخو الصدق والعدل ، والغَدْرَ أخو الـكَذِب والجور ، وذلك أن الوفاء صدق باللسان والفعل معاً ، والغدر كذب بهما وفيه مع الـكذب نقض العهد ، وقد جعل الله العهد من الإيمان وصيره قِواماً لأمور الناس ، فالناس مضطرون إلى التعاون ، ولاسيما العرب ، ولا يتم تعاونهم وتظاهرهم إلاّ بمراعاة العهد والوفاء ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفعت المعائش ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال تعالى : (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياىَ فارهبون) . وقال تعالى : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) وقال (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) وقال (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) وعظم حال السَمَوْءَل الشـاعر الشهير فيما التزمه به من الوفاء بدروع امرئ القيس على ما سنذكره إن شاء الله تعالى قريباً . ومن المعلوم حال العرب فى الصدق واعتناؤهم بشأنه ونفرتهم من الـكذب وتقبيحه حتى قال الرضى عند الـكلام على قولهم هو رجل صدق . المراد بالصدق فى مثل هذا المقام مطلق الجودة لا الصدق فى الحديث وذلك لأن الصدق فى الحديث مستحسن جيد عندهم حتى صاروا يستعملونه فى مطلق الجودة فيقال ثوب صدق وخل صادق الحموضة كما أن الـكذب مستهجن عندهم بحيث إذا قصدوا الإغراء بشىء قالوا كذب عليك . قال عمر بن معدى كرب لمن شكى إليه المغص : كذب عليك العسل أى العسلان بمعنى عليك به والزمه ويجوز أن يريد به العسل المعروف . وقال الشاعر :

وذُبيانيةٍ أَوْصَتْ بنيها بأنْ كَذَبَ القراطِفُ والقُروفُ(١)

---

(١) البيت من قصيدة المعقر البارقى مدح بها بنى نمير وذكر ما فعلوا ببنى ذبيان بشعب جبلة وهو يوم كانت وقعت بين بنى ذبيان وبنى عامر فظهرت بنو عامر على بنى ذبيان . فى ذلك اليوم ، ونمير أبو قبيلة من قيس وهو نمير بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن وكان معقر حليفا لهم وذكر ما فعلوا ببنى ذبيان ، والقراطف جمع قرطف كجعفر وهو القطيفة أى

أى عليكم بهما ، والأمر كما ذكر الرضى فهم أحفظ للعهد ، وأوفى بالوعد ، لأنهم ما نقضوا لمحافظ عهداً ، ولا أخلفوا لمراقب وعدا ، يرون الغدر من كبائر الذنوب ، والإخلاف من مساوئ الشيم وأقبح العيوب . انظر إلى قصة حاجب ابن زرارة إذ رهن قوسه عندَ كسْرى ، فإنها تدلك على ما كانوا عليه من الصدق والوفاء ومراعاة العهود ، وذلك كما قال الإمام المرزوقى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان دعا على مُضَر وقال : اللهم اشدد وطْأَتَكَ على مُضَر ، وابعث عليهم سنيناً كسنى يوُسُفَ فتوالت الجدوبة عليهم سبع سنين ، فلما رأى حاجب الجهد على قومه جمع بنى فَزارة ، وقال : إنى أزمعت[1] على أنى آتى المَلِكَ يعنى كسرى فأطلب أن يأْذنَ لقومنا ، فيكونوا تحت هذا البحر حتى يُحيوا . فقالوا : رشدت فافعل غيرَ أَنا نخاف عليك بكر بن وائل فقال . ما منهم : وجه إلاّ ولى عنده يد إلاّ ابن الطويلة التيمى وسأُداويه ، ثم ارتحل فلم يزل ينتقل فى الاتحاف والبر من الناس حتى انتهى إلى المـاء الذى عليه ابن الطويلة فنزل ليلا فلما أضاء الفجر ، دعا بنطع[2] ثم أمر فصب عليه التمر ثم نادى حى على الغداء ، فنظر ابن الطويلة فإذا هو بحاجب ، فقال لأهل المجلس : أجيبوه وأهدى إليه جُزُراً ، ثم ارتحل . فلما بلغ كسرى شـكا إليه الجهدَ فى أموالهم وأنفسهم وطلب أن يأذَنَ لهم فيـكونوا فى حد بلاده . فقال : أنتم معشرَ العرب غُدُر فإذا أذِنْتُ لهم عاثوا فى الرعية وأغاروا . قال حاجب : إنى ضامن للملك أن لا يفعلوا . قال : فمن لى بأن تفى أنت ؟ قال :

كساء مخمل » والقروف جمع قرف بفتح فسكون وهو وعاء من جلد يدبغ بالقرفة بالكسر وهى قشور الرمان ويجعل فيه الخلع ويطبخ بتوابل فيفرغ فيه والخلع بفتح الخاء المعجمة وسكون اللام لحم يطبخ بالتوابل ثم يجعل فى القرف ويتزود به فى الاسفار والواو واو رب يقول رب امرأة ذبيانية أمرت بنيها أن يستكثروا من نهب هذين الشيئين ان ظفروا بعدوهم وغنموا وذلك لحاجتهم وقلة حالهم .

(١) يقال ازمعت الأمر وعليه اجمعت أو ثبت عليه كزمعت .

(٢) النطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك وكعنب بساط من اديم والجمع انطاع ونطوع .

أرهنك قوسى ، فلما جاء بها ضحك من حوله ، فقال الملك : ما كان ليسلمها اقبضوها منه . ثم جاءت مُضَرُ إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موت حاجب ، فدعا لهم فخرج أصحابه إلى بلادهم وارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه ، فقال : ما أنت بالذى وضعها . قال : أَجَلْ أنه هلك ، وأنا ابنُهُ وفىّ للملك . قال : ردوا عليه وكساه حُلَّةً . فلما وفد إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أهداها إليه فلم يقبلها فباعها من يهودى بأربعة آلاف درهم . فصار ذلك فخراً ومَنْقبة لحاجب وعشيرته . وفى ذلك يقول أبو تمام من جملة أبيات :

إذا افتخرتْ يوما تميمٌ بقوسها ... فخاراً على ما وطدت من مناقب[١]

فأنتم بذى قارٍ أمالتْ سيوفكم ... عروشَ الذين استرهنوا قوسَ حاجب[٢]

وقد لمح بعضهم[٣] إلى قوس حاجب بقوله فى مليح قلندرىّ قد حلق حاجبه فقال :

حبيبى بحقّ اللهِ قل لى ما الذى ... دعاكَ إلى هذا فقالَ مجاوبى :

وعدت بوصلِ العاشقين تعطُّفاً ... فلم يثقوا واسترهنوا قوس حاجبى

والحكايات فى صدقهم ووفائهم واعتنائهم بأمر العهد وزجرهم عن الغدر قد شحن منها كتب التواريخ والأدب وما أحسن قولَ من يقول منهم :

وإذا الأمانةُ قسمت فى معشر ... أوفى بأوفر حظنا قسامُها

فهم السُّعاة إذا العشيرة أفظعتْ ... وهُمُ فوارسها وهُمْ حكامُها

وهُمُ ربيعٌ للمجاورِ فيهمِ ... والمرْملاتِ إذا تطاوَل عامُها[٤]

---

(١) وطدت أى ثبتت . (٢) يوم ذى قار يوم لبنى شيبان أول يوم انتصرت فيه العرب من العجم ، يقول اذا افتخرت تميم بذلك فأنتم قتلتم الذين كسبوهم هذا المجد مما ارتهنوه وهدمتم عزهم ، قال أبو نؤاس يهجو تميما: وانها لا مجد لها ولا عز الا قوس حاجب الذى لا يساوى شسع نعل :

أول مجد لها وآخره ... ان ذكر الفخر قوس حاجبها

(٣) العلامة الصفدى وقبل البيتين :

بدا لى فى حلق الحواجب فتنة ... فقلت بعقل ذاهل فيه ذاهب

(٤) المرمل الذى انقطع زاده .

من اشتهر من العرب بالوفاء وضرب به المثل فى ذلك ، منهم :

عوف بن محلم

كان من وفائه أن مروانَ القَرَظِ [١] بن زِنْباع غزا بكر بن وائل فقصوا أثر جيشه فأسره رجل منهم وهو لا يعرفه فأتى به أُمَّه فلما دخل عليها قالت له أمه : إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بِمَرْوان القَرَظ . فقال لها مروان : وما ترتجين من مروان ؟ قالت : عظم فدائه . قال : وكم ترتجين من فدائه . قالت : مائةَ بعير . قال مروان : ذلك لكِ على أن تؤدّينى إلى خُماعة بنت عَوْف بن مُحَلّم . والسبب فى ذلك أن لَيْثَ بن مالك المُسَمَّى بالمنزوف ضَرِطاً [٢] لما مات أخذت بنو عبس سَلَبَهَ وفرسه ، ثم مالوا إلى خِبَائه فأخذوا أهله وسلبوا امرأته خُمَاعَةَ بنت عوفِ بن محلّم ، وكان الذى أصابها عمرو بن قارب وذُؤاب بن أسماء فسألها مروان القَرَظ من أنتِ ؟ قالت : أنا خُماعة بنت عوف بن محلم . فانتزعها من عمرو وذُؤاب لأنه كان رئيس القوم ، وقال لها : غطّى وجهَكِ والله لا ينظر إليه عربى

(١) يضرب به المثل فى العز فيقال أعز من مروان القرظ ، قال الميدانى: كان يحمى القرظ وقيل بل سمى بذلك لأنه كان يغزو اليمن وبها منابت القرظ ، وصف مروان هذا للمنذر بن ماء السماء فاستوفده عليه فقال له أنت مع ما حييت به من العز فى قومك كيف علمك بهم ؟ فقال ابيت اللعن انى ان لم اعلمهم لم أعلم غيرهم ، قال : ما تقول فى عبس ؟ قال : رمح حديد ان لم تطعن به يطعنك ، قال : ما تقول فى فزارة ؟ قال : واد يحمى ويمنع ، قال : فما تقول فى مرة ؟ قال : لا حر بوادى عوف ، قال : فما تقول فى أشجع ؟ قال : ليسوا بداعيك ولا بمجيبك ، قال : فما تقول فى عبد الله بن غطفان ؟ قال : صقور لا تصيد ، قال : فما تقول فى ثعلبة بن سعد ؟ قال : أصوات ولا أنيس .

(٢) قال المجد فى مادة ضرط وفى المثل اجبن من المنزوف ضرطا وذلك أن نسوة لم يكن لهن رجل فزوجن احداهن رجلا كان ينام الصبحة فاذا اتينه بصبوح قلن قم فاصطبح فيقول لو نبهتنى لعادية فلما رأين ذلك قال بعضهن ان صاحبنا لشجاع فتعالين حتى نمر به فأتينه كما كن يأتينه فقال لو لعادية نبهتنى فقلن هذه نواصى الخيل فجعل يقول : الخيل الخيل ويضرط حتى مات ، أو رجلان منهم خرجا فى فلاة فلاحت لهما شجرة فقال احدهما أرى أن قوما قد رصدونا فقال رفيقه انما هى عشرة بضم العين فظنه يقول عشرة فجعل يقول وما غناء اثنين عن عشرة وضرط حتى نزف روحه فسمى المنزوف ضرطا ، أو هو دابة بين الكلب والسنور اذا صيح بها وقع عليها الضراط من الجبن ، وفى المثل أودى العير الا ضرطا ، يضرب للذليل وللشيخ ولفساد الشىء حتى لا يبقى منه الا مالا ينتفع به أى لم يبق من قوته الا الضراط

حتى أَرُدَّكِ إلى أبيك . ووقع بينه وبين بنى عبس شر بسببها . ويقال أن مروان قال لعمرو وذُؤاب حكمانى فى خُماعة . قالا قد حكّمناك يا أبا صهبان . قال : فإنى اشتريتها منكما بمائة من الإبل وضمَّها إلى أهله حتى إذا دخل الشهر الحرام أحسنَ كسوتها وأخدمها وأكرمها وحملها إلى عُكاظ . فلما انتهى بها إلى منازل بنى شيبان ، قال لها : هل تعرفين منازل قومك ومنزل أبيك ؟ فقالت هذه منازل قومى وهذه قبةُ أبى . قال فانطلقى إلى أبيكِ فانطلقت فخبرت بصنيع مروان ، فقال مروان فيما كان بينه وبين قومه فى أمر خُماعةَ وردها إلى أبيها :

رَدَدْتُ على عَوْفٍ خماعةَ بعدَما ... خلاها ذُؤابٌ غير خلوة خاطبِ
ولو غيرها كانت سبيئةَ رُمحِهِ ... لجاءَ بها مَقْرونةً بالذوائبِ
ولكنّه ألقى عليها حجابَهُ ... رجاء الثواب أو حذار العواقب
فدافعتُ عنها ناشباً وقبيلةً ... وفارس يَعْبوبٍ وعمرو بنَ قاربِ
ففاديتها لما تبين نصفُها ... بكُوم المتالى والعشار الضوارب
صهابيةٍ حمر العوانين والذُرى ... مهارش أمثال الصخور مصاعب

فى أبيات مع هذه . قوله تبين نصفها : أى أنصافها والكوم القطعة من الإبل . والمتالى : الذى يراسل المغنى بصوت رفيع . والأصهب من الإبل الذى يخالط بياضه حمرة . وهو أن يحمر أعلى الوبر ويبيض أجوافه . وجمل صهابى أى أصهب اللون . والعوان النَصَف فى سنها من كل شيء وذُرى الشيء بالضم أعاليه الواحدة ذروة . فكانت هذه يداً لمروانَ عند خُمَاعةَ فلهذا قال ذاك لكِ على أن تؤدّينى إلى خُمَاعةَ بنت عوف بن مُحلّم . قالت المرأة : ومن لى بمائة من الإبل فأخذ عوداً من الأرض فقال هذا لكِ بها . فمضت به إلى عوف بن محلم فبعث إليه عمرو بن هند أن يأتيه به . وكان عمرو وجد على مروانَ فى أمر فآلى أن لا يعفوَ عنه حتى يَضع يده فى يده . فقال عوف حين جاءه الرسول قد أجارته ابنتى وليس إليه سبيل . فقال عمرو بن هند قد آليت أن لا أعفوَ عنه أو يضع يده فى يدى قال عوف يضع

يده فى يدك على أن تكون يدى بينهما . فأجابه عمرو بن هند إلى ذلك . فجاء عوف مروان فأدخله عليه فوضع يده فى يده ووضع يده بين أيديهما فعفا عنه . فقال عمرو « لا حُرَّ بوادى عَوْفٍ » فأرسلها مثلا أى لا سيِّدَ به يناويه . وإنما سُمى مَرْوانَ القَرَظ لأنه كان يغزو اليمن وهى منابت القَرَظ . ومنهم :

حنظلة بن عفراء

قال القالى فى ذيل أماليه : حدثنا أبو بكر بن دريد قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال قال لى عمى سمعت يونس بن حبيب يقول كان المنذر بن ماء السماء جد النعمان بن المنذر ينادمه رجلان من العرب خالد بن المَضلَّل . وعمرو بن مسعود الأسديان وهما اللذان عناهما الشاعر بقوله :

ألا بكر الناعى بخيرىْ بنى أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

فشرِب ليلة معهما فراجعاه الكلام فأغضباه فأمر بهما فقتلا وجُعلا فى تابوتين ودفنا بظاهر الكوفة . فلما أصبح وصحا سأل عنهما فأخبر بذلك فندم وركب حتى وقف عليهما وأمر ببناء الغرَّيين[1] وجعل لنفسه فى كل سنة يومين يوم بؤس ويوم نعيم فى كل عام فكانَ يضَع سريره بينهما فإذا كان فى يوم نعيمه فأول من يطلع عليه وهو على سريره يعطيه مائة من إبل الملوك ، وأول من يطلع عليه فى يوم بؤسه يعطيه رأس ظَرِبان[2] ويأمر به فيذبح

(١) : بناآن مشهوران بالكوفة عند الثوية حيث قبر على (رض) زعموا انهما بناهما بعض ملوك الحيرة قاله ونصر ، وفيهما يقول الشاعر :

لو كان شىء له ان يبيد على   طول الزمان لما باد الغريان

وقال الجوهرى : هما بناآن طويلان يقال هما قبرا مالك وعقيل نديمى جذيمة الابرش وسيما غريين لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله اذا خرج فى يوم بؤسه ، قال الزبيدى : بعد نقل ما تقدم : فسياق الجوهرى يقتضى انهما سميا بالتغرية وهو الا لصاق وسياق المصنف انه من الحسن (٢) دوبية فوق جرو الكلب كريهة النتن وأنتن خلق الله فسوا يضرب بفسوه المثل فى النتن وقد عرف ذلك من نفسه فجعله سلاحه كما عرفت الحبارى ما فى برازها من السلاح على الصقر كذلك الظربان يدخل على الضب جحره وفيه بيضه وحسوله فيأتى أضيق موضع فى الجحر فيسده بيده ويحول دبره اليه فما يفسو ثلاث فسوات حتى يصرع الضب فيخر مغشيا عليه فيأكله ثم يقيم فى جحره حتى يأتى على آخر حسوله ، =

ويُغَرَّى(١) بدمه الغَرِيّان فلم يزل كذلك ما شاء الله فبينا هو ذات يوم من أيام بؤسه إذ طلع عليه عَبِيد بن الأبرص فقال له الملك ألا كان الذِبْحُ غيركَ يا عبيد ؟ فقال عبيد « أتتك بحائن رجلاه » فقال له الملك : « أو أَجَل قد بلغ إناه » ثم قال يا عبيد أنشدنى فقد كان يُعجبنى شعرك ، فقال « حال الجَرِيضُ دون القريض(٢) » وبلغَ الحِزام الطُبْيَين » فقال أنشدنى :

أقفر من أهله ملْحوبُ ... فالقُطَّبيـاتُ فالذنوبُ(٣)

فقال :

أقفرَ من أهله عبيدُ ... فاليوم لا يُبدِى ولا يُعيدُ

عنَّتْ له معنَّةٌ نكودُ ... وحان له منها وُرود

فقال : أنشد هبِلتك أمُّك(٤) . فقال : « المنايا ، على الحوايا » فقال بعض القوم أنشد الملك هبِلتك أمُّك فقال « لا يرْحَلُ رَحْلك ، من ليس معك » فقال له آخر ما أشدَّ جزعك من الموت فقال :

وتقول الاعراب ربما انه دخل فى خلال الهجمة فيفسو فلا يتم له ثلاث فسوات حتى تتفرق الابل وتنفر كما تنفر عن مبرك فيه قردان فلا يردهما الراعى الا بالجهد الشديد فمن أجل هذا سمت العرب الظربان مفرق النعم ويقال للرجلين يتشاتمان ويتفاحشان انهما ليتجاذبان جلد الظربان وانهما ليتماسان ظربا وقالوا للقوم اذا وقع بينهم الشر فتفارقوا فسا بينهم الظربان فلا يلتقى منهم انسان ، وقال الربيع بن ابى العقيق يهجو قوما :

وانتم ظرابين اذا تجلون ... وما أن لنا فيكم من نريد

وانتم نفوس وقد تعرفون ... بريح التيوس ونتن الجلود

ونظر أبو عبد الله العواص الى قوم جيدى الاكل خبيثى الريح فقال :

أناس أكلهم يربو ... على أكل الثعابين

ونتن رياحهم يربو ... على نتن الظرابين

هذا ما ذكره الثعالبى فى المضاف والمنسوب (١) أى يطلى (٢) يضرب لامر يعوق دونه عائق قاله حوش الكلابى حين منعه أبوه من الشعر فمرض حزنا فرق له وقد أشرف فقال انطلق بما أحببت والجرض محركة الريق جرض بريقه كفرح ابتلعه بالجهد على هم ، وقوله بلغ الحزام الطبيين مضى تفسيره.

(٣) هذا البيت مطلع قصيدته المشهورة التى عدها بعضهم من المعلقات ، ومعنى اقفر : خلا ، وملحوب بالفتح ثم السكون وجاء مهملة وواو ساكنة ماء لبنى اسد بن خزيمة وقيل قرية باليمامة لبنى عبدالله بن الدئل بن حنفية، والقطبيات بالضم ثم التشديد وبعد الطاء باء موحدة وياء مشددة اسم جبل ، والذنوب : اسم موضع بعينه . (٤) هبلته أمه كفرح ثكلته ، والثكل بالضم الموت والهلاك وفقد الحبيب أو الولد ويحرك.

لا غَرْوَ من عيشةٍ نافدَه ... وهل غيرُ ما مِيتةٍ واحده[١]
فأَبلغْ بَنِىَّ وأعمامهم ... بأنَّ المنايا هى الراصدة
لها مدَّةٌ فنفوس العباد ... إليها وإنْ كرِهتْ قاصده
فلا تجزعوا لِحمامٍ دنا ... فللموت ما تلد الوالده[٢]

فقال له المنذر لا بد من الموت ولو عَرَض لى أبى فى هذا اليوم لم أجد بداً من ذبحه فأما إذا كنتَ لها وكانت لك فاختر من ثلاث خصال إن شئت من الأكحل[٣] وإن شئت من الأبْجَل[٤] وإن شئت من الوَرِيد[٥] فقال « ثلاثُ خصالٍ مقادُها شرُّ مقادٍ ، وحاديها شرُّ حادٍ ولا خير فيها لمرتاد فإن كنتَ لا بد قاتلى فاسْقِنى الخمر حتى إذا ذهلتْ ذواهلى وماتت لها مفاصلى فشأنك وما تريد » فأمر المنذر له بحاجته من الخمر فلما أخذت منه وقرِّب ليذْبح أنشأ يقول :

وخيَّرنى ذو البؤس فى يوم بؤسه ... خِلالاً أرى فى كلها الموتَ قد بَرَقْ
كما خيِّرتْ عادٌ من الدهر مرَّةً ... سحائب ما فيها لذى خِيَرةٍ أَنَقْ
سحائب ريحٍ لم تُوَكَّلْ ببلدة ... فتَتْرُكها إلا كما لَيْلةِ الطَلَق

وأمر به فَفُصِدَ فلما ماتَ طُلِىَ بدمه الغَرِيَّان ، وكذا روى هذه الحكاية إسماعيل بن هبة الله الوصلى فى كتاب الأوائل عن الشرقى بن القطامى وقد رجع المنذر عن هذه السنة السيئة ، روى الموصلى فى أوائله : إن المنذر استمر على ذلك زماناً حتى مر به رجل من طيّئٍ يقال له حنظلة بن عَفْرآء فقال له أبيت اللعنَ أتيتك زائراً . ولأهلى من خيرك مائراً فلا تكن ميرتهم قَتْلى ، فقال : لا بد من ذلك . وسَلْنِى حاجة قبله أقضها لك . قال : تؤجّلنى سنةً أَرجع فيها إلى أهلى وأحكم أمرهم ، ثم أَرجع إليك فى حكمك . قال : ومن يتكفل بك

---

(١) لا غرو أى لا عجب ويقال لا غروى وما زائدة . (٢) الحمام : قضاء الموت وقدره . (٣) عرق فى اليد أو هو عرق الحياة ولا تقل عرق الاكحل .
(٤) هو عرق غليظ فى الرجل أو فى اليد بازاء الاكحل . (٥) عرق تزعم العرب انهمن الوتين وهما وريدانمكتنفا صفحتى العنق ممايلى مقدمه غليظان

حتى تعود ؟ فنظر فى وجوه جلسائه فعرف منهم شريكَ بنَ عمرو وأباالحوفزان . فأنشأ يقول :

يا شريكاً يا ابن عمرٍو هل من الموت محاله
يا أخا كلِّ مصاب يا أخا من لا أخاله
يا أخا شيبانَ فُكَّ اليوم رهناً قد أناله
إن شيبان قَبيلٌ أكْرمَ اللهُ رِجاله
وأبوك الخير عمرو وشراحيل الحماله
وفتاك اليوم فى المجدِ وفى حُسْن المقاله

فوثب شريك وقال : أَبَيْت اللعن يده يدى ودمه دمى إنْ لم يَعُدْ إلى أجله فأطلقه المنذر . فلما كان القابل جلس فى مجلسه ، وإذا ركب قد طلع عليهم فتأملوه فإذا هو حنظلة قد أقبل متكفناً متحنطاً[1] معه نادبتهُ وقد قامت نادبة شريك تندبه . فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وأبطل تلك السنَّة . وقد ذكر فى إبطال المنذر هذه السنة غير هذا . وقد أورده الموصلى ، والميدانى فى مثل . وهو : « إن غداً لناظره قريبُ » وهو قطعة من بيت :

فَإنْ يكُ صدر هذا اليوم وَلَّى فإنَّ غداً لناظرِه قريب

قال : إن أولَ من قال ذلك قراد بن أجْدَع ، وذلك أن النعمان بن المنذر خرج يتصيَّد على فرسه اليَحْمُوم فأجراه على أثر عيرٍ فذهب به الفرس فى الأرض ولم يقدر عليه وانفرد عن أصحابه وأخذته السماء فطلب ملجأ يلجأ إليه فدفع إلى بناء فإذا فيه رجلٌ من طيّئ يقال له حنظلة ومعه امرأة له ، فقال لهما هل من مأوى ؟ قال حنظلة : نعم فخرج إليه فأنزله ، ولم يكن للطائى غير شاةٍ وهو لا يعرف النعمان ، فقال لامرأته : أرى رجلا ذا هيئة وما أخلقه أن يكون شريفاً خطيراً فما الحيلة ؟

(١) أى متطيبا والحنوط كصبور وكتاب كل طيب يخلط للميت وقد حنطه يحنطه واحنطه فتحنط .

قالت : عندى شىء من طحين كنت ادَّخَرْتهُ فاذبح الشاة لِأتَّخِذَ من الطحين مَلَّةً(١) قال فأخرجت المرأة الدقيقَ نخبزتْ منـه مَلَّةً وقام الطائى إلى شاتِهِ فاحتلبها ثم ذَبَحها فاتخذ من لحمها مرقة مضيرة(٢) وأطعمه من لحمها وسقاه من لبنها واحتال له شراباً فسقاه وجعل يحدثه بقيّةَ ليلته . فلما أصبح النعمان لَبِس ثيابه وركب فرسه ، ثم قال ياأخا طيء اطلب ثوابَكَ أنا النعمان . قال أفعل إن شاء الله ثم لحقته الخيلُ فمضى نحو الحيرة . ومكث الطائى بعد ذلك زماناً حتى أصابته نـكبةٌ وجهْدٌ وساءت حاله ، فقالت له امرأته : لو أتيتَ الملكَ لأحسن إليك فأقبل حتى انتهى إلى الحيرة ، فوافق يوم بؤسِ النعمان فإذا هو واقف فى خيله فى السلاح ، فلمـا نظر إليه النعمان عرَفه وساءه مكانه . فقال الطائى المنزول به ؟ قال : نعم . قال أفلا جئت فى غير هذا اليوم ؟ قال : أبيت اللعن وما كان علمى بهذا اليوم قال : واللهِ لو سنَحَ لى فى هـذا اليوم قابوسٌ ابنى لم أجد بُدًّا من قتله . فاطلب حاجتك من الدنيا وسل ما بدالك فإنك مقتول . قال : أبيت اللعن وما أصنعُ بالدنيا بعد نفسى . قال النعمان : إنه لا سبيل إليها . قال فإن كان لا بُدَّ فأجِّلْنى حتى أُلِمَّ بأهلى فأوصى إليهم وأهيىء حالَهم ثم أنْصَرِف إليك . قال النعمان : فأقمْ لى كفيلا بموافاتك . فالتفت الطائى إلى شريك بن عمرو بن قيس من بنى شيبان ، وكان يكنى أبا الحوافزان ، وكان صاحب الردافة(٣) وهو واقفٌ بجنب النعمان . فقال له :

يا شريكاً يا ابن عمرو   هل من الموت محاله
يا أخا كلِّ مُصابٍ   يا أخا من لا أخاله
يا أخا النعمان فُكَّ الـــيوم ضيقاً قد أتَى له

---

(١) الملة بالفتح قيل الحفرة التى تحفر للخبز وقيل التراب الحار والرماد ومللت الخبز واللحم فى النار من باب قتل فهو مليل ومملول واطعمته خبز ملة بالاضافة وخبزة مليلة على الوصف مع الهاء (٢) مريقة تطبخ باللبن المضير أى الحامض وربما خلط بالحليب

(٣) الردافة بهاء فعل ردف الملك

طالما عالج كرب الــــموت لا ينعم باله

فأبى شريك أن يتكفل به فوثب اليه رجل من كلب يقال له قُراد بن أجدع . فقال للنعمان : أبيت اللعن هو عليّ . قال النعمان : أفعلت قال نعم فضمنه إياه . ثم أمر للطائى بخمسمائة ناقة فمشى الطائى إلى أهله وجعل الأجل حولاً من يومه ذلك إلى مثل ذلك اليوم من قابل . فلما حال عليه الحول وبقى من الأجل يوم : قال النعمان لقُراد ما أراك إلا هالـكا غداً . فقال قراد :

فإنْ يكُ صدر هذا اليوم ولىَّ فإنَّ غداً لناظره قريب

فلما أصبح النعمان ركب فى خيله ورجله متسلّحاً كما كان يفعل حتى أتى الغَرِيَّيْن فوقف بينهما وأخرج معه قُراداً وأمر بقتله . فقال له وزراؤه : ليس لك قتله حتى يستوفى يومه فتركه . وكان النعمان يشتهى أن يقتل قُراداً ليفلت الطائى من القتل . فلما كادت الشمس تَجبُ(١) وقُراد مجرد قائم فى إزار على النِّطْعِ والسيّافُ إلى جنبه أقبلت امرأته وهى تقول :

أياعينُ بكّى لى قُراد بن أجدعا رهيناً لقتلٍ لا رهيناً مُوَدَّعا
أتته المنـايا بغتة دون قومه فأمْسى أسيراً حاضر البيت أضْرَعا

فبيناهم كذلك إذ رفع لهم شخص من بعيد ، وقد أمر النعمان بقتل قراد . فقيل له ليس لك أن تقتله حتى يأتيك الشخصُ فتعلم من هو ، فـكف حتى انتهى إليهم الرجلُ فإذا هو الطائى ، فلما نظر إليه النعمان شقَّ عليه مجيئه . فقال له : ما حملك على الرجوع بعد إفلاتك من القتل ؟ قال : الوفاء . قال : وما دعاك إلى الوفاء ؟ قال : دينى . قال النعمان : وما دينُك ؟ قال : النصرانية . قال النعمان : فاعرضها علىّ فعرضها عليه فتنصّر النعمانُ ، وأهلُ الحيرة أجمعون . وكان قبـل ذلك على دين العرب ، فترك القتل منذ ذلك اليوم وأبطل تلك السُنَّة ، وأمر بهدم الغَرِيَّيْن وعفا عن قُراد والطائى ، وقال : والله ما أدرى أيهما أوفى وأكرم .

(١) أى تغيب

أهذا الذى نجا من القتل فعاد . أم هذا الذى ضمنه ؟ والله لا أكون أَلْأَمَ الثلاثة ، فأنشأ الطائى يقول :

ما كنتُ أخلِفُ ظنَّه بعد الذى أسدَى إلىَّ من الفَعال الحالى
ولقد دَعَتْنى للخلاف ضلالتى فأبَيْتُ غيرَ تمجُّدِى وفعالى
إنى امرؤٌ مِنِّى الوفاء سجيةٌ وجزاء كل مكارم بذالى

وقال أيضاً يمدحُ قراداً :

ألا إنما يسمو إلى المجد والعُلى مخاريقُ أمثالِ القُراد بنِ أجْدَعا
مخاريقُ أمثال القراد وأهله فإنهمُ الأخيارُ من رَهْطِ تُبَّعا[1]

انتهى والله أعلم بحقيقة الحال . ومنهم :

الحارث بن ظالم المرى

كان من وفائه أنَّ عياضَ بنَ دَيْهَث مرَّ برعاء الحارث وهم يسقون فسق فقصر رِشاؤه فاستعار من أرشية الحارث فوصل رِشاءه[2] فأروى إبلَهُ . فأغار عليه بعضُ حَشَمِ النعمان فاطردوا إبله فصاح ياحارِ ياجاراه ! فقال له الحارث : ومتى كنتُ جارَكَ ؟ قال : وصلت رشائى برشائك فسقيت إبلى ، فأغير عليها وذلك الماء فى بطونها ، قال : جوارٌ وربِّ الكعبة . فأتى النعمانَ . فقال : أبيتَ اللعنَ أغار حَشَمُك على جارى عياض بن دَيْهَث فأخذوا إبلَه ومالَهُ فاردد عليه . فقال له النعمان : أفلا تشد ما وهى من أديمك . يريد أن الحارث قتل خالد بن جعفر بن كلاب فى جوار أسود بن المنذر . فقال الحارث « هل تعدون الحلية إلى نفسى »

---

(١) المخراق السيد والسخى، والرهط قوم الرجل وقبيلته (٢) قال شارح رسالة ابن زيدون كان ريح العرب فى رعاية الجوار ماهو أعجب العجب ذلك أن الانسان اذا لمس طنب بيته طنب بيت آخر لزمه حرمة الجوار والذمة واذا علق له دلو بدلو آخر فى بئر لزمه حرمة الجوار والذمة والى هاتين الفضيلتين أشار أبو تمام يخاطب ابن الزيات :

لى حرمة بك لولا مارعيت وما أوجبت من حقها ماخلتها تجب
بلا اقد سلفت فى جاهليتهم الحق ليس كحقى نصره عجب
أن تعلق الدلو بالدلو الغريبة او يلامس الطنب المستحصد الطنب

فأرسلها مثلا . أى أنك لا تهلك إلا نفسى إن قتلتها . فتدبر النعمان كلمته فرد على عياض أهله وماله . وقال الفرزدق يضرب المثل لسليمان بن عبد الملك حين وفى ليزيد بن المهلب :

لعمرى لقد أوفى وزادَ وفاؤه   على كل حالٍ جارَ آلِ المُهلّب
كما كان أوفى إذ يُنادى ابن ديهث   وصِرمْته كالمغنم المتنهَّبِ(١)
فقام أبو ليلى إليه ابن ظالم   وكان متى ما يَسْلُل السيفَ يضْرِب

هذا ما ذكره الميدانى فى أمثاله . وروى الأصبهانى بسنده فى الأغانى : أن الحارث بن ظالم المُرّيّ لما كان نَزيلاً عند النعمان بن المنذر أخذ مصدق للنعمان إبلا لامرأة من بنى مرة يقال لها ديهث فأتت الحارث فعلقت دلوها بدلوه ومعها بنى لها . فقالت : يا أبا ليلى إنى أتيتك مُضامةً . فقال : إذا أورد القوم النعم فناد بأعلى صوتك :

دعوت بالله ولم تراعى   ذلك داعيك فنعم الداعى
وتلكَ ذَوْد الحارث الكساعى   يمشى لها بصارم قطّاع
يشفى به مجامع الصداع

وخرج الحارث بن ظالم فى أثرها وهو يقول :

أنا أبو ليلى وسيفى المعلوب   كم قد أجرنا من حريب محروب(٢)
وكم رددنا من سليب مسلوب   وطعنة طعنتها بالمضبوب
ذاك جهيز الموت عند المكروب

ثم قال : لا يُرَدَّنَّ عليك ناقة ولا بعير تعرفينه إلا أخذته ففعلت ورأت لَقُوحًا لها يحلبها حبَشِىٌّ . فقالت : يا أبا ليلى هذه لى ، قال الحبشى كذبتِ ، فقال الحارث

---

(١) الصرمة بالكسر القطعة من الابل مابين العشرين الى الثلاثين أو الى الخمسين والأربعين أو مابين العشرة الى الأربعين أو مابين عشرة الى بضع عشرة (٢) قال فى القاموس : المعلوب سيف الحرث بن ظالم

« است الحالب أعلم »[1] فصارت مثلا . قال أبو عبيدة : ففى ذلك يقول الفرزدق :

لعمرى لقد أوفى وزادَ وفاؤه على كلّ جارٍ جار آلِ المهلّبِ

كما كان أوفى إذْ يُنادى ابن دَيهث وصِرْمتُــهُ كالمغنم المتَنهَّبِ

فقام أبو ليلى إليه ابن ظالم وكان إذا مايسلُلِ السيفَ يَضْرِبِ

وما كان جارٌ غير دلْوٍ تعلقت بِحَبْلَيْنِ فى مُسْتَحصد القدّ مكرب

انتهى . والظاهر من الشعر أن روايةَ الأصبهانى أحقُّ بالاعتبار . ومنهم :

أبو حنبل الطائى

ومن حديثه : أن امْرَأ القيس نَزلَ به ومعه أهل وسلاحه وماله . ولأبى حنبل امرأتان جَدَليَّة ثَعْلَبيَّة[2] فقالت الجدَلية رزق آتاكَ الله به لاذمةَ له عليك ولا عقدَ ولا جوارَ ، فأرى لك أن تأكله وتطعمه قومَك . وقالت الثَّعْلبيَّة : رجل تحرَّم بك واستجارك واختارك فأرى لك أن تحفظَه وتَفىَ له . فقام أبو حنبل إلى جذعة من الغنم فاحتلبها وشرب لبنها ثم مسح بطنه وحجل ثم قال :

لقد آليتُ أغدرُ فى جذاع وإن مُنّيت أُمّاتِ الرباع

لأَن الغـدر فى الأقوام عارٌ وإنَّ الحر يجزى بالكراع

فقالت الجدلية ورأت ساقَيْه حَمِشتين تالله مارأيت كاليوم ساق واق فقال

---

(١) ورواية مجمع الأمثال : أست البائن اعلم قال : البائن الذى يكون عند حلب الناقة من جانبها الأيسر ويقال للذى يكون من الجانب الآخر المعلى والمستعلى وهو الذى يعلى العلبة الى الضرع والبائن الذى يحلب وقيل بخلاف هذا وهما الحالبان فى قولهم « خير حالبيك تنطحين » يروى هذا المثل عن الحارث بن ظالم وذلك أن الجميح وهو منقذ بن الطماح خرج فى طلب ابل له حتى وقع عليها فى قبيلة مرة فاستجار بالحارث بن ظالم المرى فنادى الحارث من كان عنده شىء من هذه الابل فليردها فردت جميعا غير ناقة يقال لها اللفاع فانطلق يطوف حتى وجدها عند رجلين يحلبانها فقال لهما خليا عنها فليست لكما وأهوى اليهما بالسيف فضرط البائن فقال المعلى والله ماهى لك ، فقال الحارث : « است البائن أعلم » فأرسلها مثلا ، يضرب لمن ولى أمرا وصلى به فهو أعلم به ممن لم يمارسه ولم يصل به ، وقيل يضرب لكل ماينكر وشاهده حاضر

(٢) فى فرائد اللآل للشيخ ابراهيم الأحدب : وتغلبية بالتاء

أبو حنبل . « هما ساقا غادرٍ شر » فذهبت مثلا . قوله منيت أى ضعفت . والرباع جمع ربع كصرد وهو الفصيل ينتج فى الربيع وهو أول النتاج . ومنهم :

الحارث بن عباد

يقال : إنه كان أسَرَ عَدِيّ بن ربيعة فى يوم قضَّةَ ولم يعرفه فقال له دُلَّنى على عدى ابن ربيعة . فقال له : إن أنا دللتك على عدى أتؤمننى قال نعم . قال : فليضمن ذلك عليك عَوْفُ بن محلِّم . فأمره الحارث بن عباد فضمن له عوف أن يؤمنه الحارث إذا دله على عدى . فقال عدى : أنا عدى فخلّاه . وقال الحارث فى ذلك :

لهفَ نفسى على عدىّ وقد أشعب للموت واحتوته اليدان(١)

ومنهم :

السموءل بن عباد بن عادياء اليهودى الغسانى

وكان من وفائه أن امرأ القيس لما أراد الخروج الى قيصر استودع السموءلَ دروعاً وأُحيْحة بن الُجلاح أيضاً دروعا ، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام فتحرز منه السموءل فأخذ الملك ابناً له وكان خارجاً من الحصن . فصاح الملك بالسموءل فأشرف عليه فقال هذا ابنك فى يدى . وقد علمت أن امرأ القيس ابنُ عمى ومن عشيرتى وأنا أحق بميراثه فإن دفعت إلىَّ الدروع و إلا ذبحت ابنك . قال أجّلنى فأجّله فجمع أهل بيته ونساءه فشاورهم فكلٌّ أشار عليه أن يدفع الدروع ويستنقذ ابنه . فلما أصبح أشرف فقال ليس إلى دفع الدروع سبيلٌ فاصنع ما أنت صانعٌ . فذبح الملك ابنه ، وهو مشرف ينظر إليه . ثم انصرف الملك بالخيبة فوافى السموأل بالدروع الموسم فدفعها إلى ورثة امرىء القيس . وقال فى ذلك :

وفيتُ بأدْرُعِ الكِنْدىّ إنى إذا ماخانَ أقوامٌ وفيتُ

---

(١) أشعب للموت أى مات أو فارق فراقا لايرجع

وقالوا : إنه كنزٌ رَغيبٌ ولا واللهِ أغـدر مامشيت
بنى لى عاديا حصْناً حصيناً وبئراً كلـا شئت استقيت

ويروى أنه ماسامنى ضيما أبيت . وقال الأعشى فى ذلك :

شريحُ لاتتركنى بعد ماعلقت حبالكَ اليوم بعد القدّ أظفارى
كن كالسموءَلِ إذ طاف الهُمامُ بهِ فى جَحْفَلٍ كسواد الليل جرّارِ (١)
خيرّه خِطّتَىْ خَسْفٍ فقـال له مهما يقله فإنى سامعٌ جارى
فشك غير طويل ثم قال له اذبحْ أسيركَ إنى مانعٌ جارى
إن له خلفاً إن كنتَ قاتلهُ وإن قتلت كريماً غير عوارِ

والسموءل هذا هو الذى يقول فى قصيدته الشهيرة :

إذا المرء يدنَسْ من اللؤم عرْضُه فـكلٌّ رداء يرْتديه جميـلُ
وإن هو لم يحْملْ على النفس ضَيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل (٢)
تعيرنا أنا قليلٌ عديدُنا فقلت لها : إنَّ الـكرامَ قليلُ
وما قلّ مَنْ كانت بقاياه مثلنا شبابٌ تَسامى فى العُلى وكُهولُ (٣)
وما ضرَّنا أنا قليـلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ (٤)
لنـا جبَلٌ يحتلُّه من نُجيرُه منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ (٥)
رسا أصلُه تحتَ الثرى وسما به إلى النجم فرْعٌ لايُنال طويلُ (٥)

(١) جحفل كجعفر الجيش الكثير . (٢) أى أن لم يصبر النفس على مكارهها فلا سبيل الى اكتساب حسن الثناء وليس معنى الضيم الغير لهم لانهم يأنفون من ذلك ويعدونه تذللا . (٣) قوله تسامى اراد تتسامى فحذف احدى التاءين ومثل هذا كثير فى كلامهم ، قال فى الخلاصة :

وما بتآءين ابتدى قد يقتصر فيـه على تا كتبين العـبر

والكهول جمع كهل وهو الذى جاوز الثلاثين ووخطه الشيب وقيـل من بلغ الاربعين . (٤) يجوز فى ما ان تكون نافية والمعنى لم يضرنا ويجوز أن تكون استفهامية على طريق التقرير والمعنى أى شىء ضرنا .

(٥) قيل انه اراد بذكر الجبل العز والسمو وقيل ان هذا الجبـل هو حصن السموأل الذى يقال له الابلق الفرد يعنى من دخل فى جوارنا امتنع على طلابه . (٦) يريد انه اثبت جبل فى الارض وأعلى طود عليها .

وانا لَقَوْمٌ ما نرى القتل سُبَّةً   اذا مارأتْهُ عامرٌ وسَلُولُ(١)
يقرّب حبُّ الموتِ آجالَنا لنا   وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتَطُولُ
وما ماتَ منّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِه   ولا طُلَّ منّا حيثُ كان قَتيلُ(٢)
تَسِيلُ على حَدّ الظُّباةِ نفوسُنا   وليست على غير الظُباة تَسِيلُ(٣)
صفَوْنَا فلم نَكْدَرْ وأخلصَ سِرَّنَا   إناثٌ أطابتْ حملَنا وفحولُ(٤)
علَوْنا إلى خيرِ الظهور وحَطَّنا   لوقتٍ إلى خيرِ البُطُون نُزُولُ(٥)
فنحن كماءِ المُزْنِ مافى نِصابنا   كَهَامٌ ولا فينا يُعدُّ بخيلُ(٦)
ونُنْكرُ إن شئنا على الناسِ قولَهُم   ولا يُنْكرون القولَ حينَ نقولُ
إذا سيّدٌ منّا خلا قامَ سيّدٌ   قَئُولٌ لما قال الكرامُ فعولُ
وما أُخمِدَتْ نارٌ لنا دونَ طارقٍ   ولا ذمَّنَا فى النازلين نَزيلُ(٧)
وأيامُنَا مشهورةٌ فى عدوّنا   لها غررٌ معلومةٌ وحجول
وأسيافنا فى كل غَرْبٍ ومشْرقٍ   بها من قِراع الدارعين فلُول(٨)
معوّدةٌ أن لاتُسَلَّ نصالها   فتُغْمَدَ حتى يستباح قبيلُ(٩)
سِلِى إن جَهِلْتِ الناسَ عنَّا وعنهُمُ   فليْس سواءٌ عالمٌ وجهُولُ
فإنّ بنى الدّيان قُطْبٌ لقومِهم   تدُورُ رَحاهم حوْلَهُمْ وتجُولُ(١٠)

(١) السبة : العار ، وعامر وسلول قبيلتان ، يقول اذا حسب هؤلاء القتل عارا عده عشيرتى فخرا . (٢) يقال مات فلان حتف انفه اذا مات من غير قتل ولا ضرب ، ومعنى البيت انا لا نموت على الفراش ولكن نقتل ودم القتيل منا لا يذهب هدرا . (٣) الظبات جمع ظبة وهى حد السيف وقيل اراد بالظبات السيوف كلها فاضاف الحد اليها . (٤) المراد بالسر هنا الاصل الجيد ومعنى ذلك صفت انسابنا فلم يشبها كدر . (٥) يشير به الى صريح نسبهم وخلوصه مما يحط بشرفهم . (٦) قوله كماء المزن يريد بذلك تشبيه صفاء انسابهم بصفاء ماء المطر ، والنصاب الاصل ومنه نصاب السكين ، والكهام الكليل الحد وهو مجاز عن الضعيف هنا . (٧) يشير بذلك الى انهم لكثرة كرمهم يديمون ايقاد نار الضيافة ولايطفئونها دون طارق ليل وانهم يثنى عليهم كل نزيل (٨) القراع: المقارعة والمضاربة، والدارعين:اصحاب الدروع، والفلول جمع فل وهو الثلم فى حد السيف (٩)القبيل : الجماعةمن آباء شتى وجمعه قبل والقبيلة الجماعة من أب واحد وجمعها قبائل .
(١٠) القطب الحديد الذى فى الطبق الاسفل من الرحى يدور عليه الطبق الاعلى منها ، والمعنى ان أمر قبيلتهم لا يستقيم ولا يتم الا بهم مثل الرحى لا يتم أمرها

ومنهم فُكَيْهَة بنت قتادة بن مَشْنُوء

كانت فكَيْهَة هذه خالة طَرَفَةَ لأَنَّ أم طَرَفَةَ وردة بنت قتادة وكان من وفائها أنَّ السُلَيْكَ بن سُلَكة غزا بكر بن وائل فأبطأ ولم يجد غفلة يلتمسها. فرأى القوم أثر قدم على الماء لم يعرفوها فكمنوا له وأمهلوه حتى ورد وشرب فامتلأ فهاجوا به فعدا فأثقله بطنه فولج قبَّةَ فكيهة فاستجار بها فأدخلته تحت درْعِها فجاؤا فى أثره فوجدوه تحت ثوبها فانتزعوا خمارها، فنادت إخوتها وولدها فجاءوا عشرة فمنعتهم عنه. وكان سُلَيْك يقول بعد ذلك كأنى أجد خشونةَ استها على ظهرى حين أدخلتنى تحت درعها. وفيه قال سُلَيْك:

لَعَمْرُ أبيكَ والأنباء تُنْمَى ... لَنِعْمَ الجارُ أختُ بنى عوارا

عَنَيْتُ بها فُكَيْهَة حين قامَتْ ... لِنَصْلِ السيف وانتزعوا الخمارا

من الخفَرات لم تَفْضَحْ أخاها ... ولم تَرْفَعْ لوالدِها شَنارا[1]

ومنهم:

أم جميل

وهى من رَهْط أبى هُرَيْرة من دُوسٍ وهم من أهل السراة وكان من وفائها أن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومى قتل أبا زهير الزهْرانى من أزد شَنوءَةَ وكان صهر أبى سفيان بن حرب. فلما بلغ ذلك قومه بالسراة وثبوا على ضِرار ابن الخطاب ليقتلوه فسعى حتى دخل بيت أم جميل وعاذَ بها فضربه رجل منهم فوقع ذُباب السيف على الباب. وقامت فى وجوههم فذبَّتْهم ونادت قومها فمنعوه لها فلما قام عُمَرُ بن الخطاب رضى الله عنه ظنت أنه أخوه فأتته بالمدينة وقد عرف القصة، فقال: إنى لست بأخيه الاَّ فى الإسلام وهو غازٍ وقد عَرَفنا مِنَّتك عليه فأعطاها على أنها ابنةُ سبيل.

---

(١) يقال خفرت الرجل حميته وأجرته من طالبه، والشنار أقبح العيب والعار والأمر المشهور بالشنعة الا بالقطب، والديان هو يزيد بن قطن بن زياد بن الحرث الأصغر

وأما كونُ العربِ أغْيَرَ من غيرهم

فلأنَّهم كانوا أشدَّ الناس حاجةً إلى حفظِ الأنساب ، ولذلك اعتَنَوْا بضبطها غايةَ الاعتناء ، لما امتنعوا عن سلطانٍ يَقْهَرُهم . ويكفُّ الأَذى عنهم ليكونوا به متظافرينَ على من ناوأهم متناصرين على من شاقهم وعاداهم حتى بلغوا بألفة الأنساب تناصرهم على القويّ . وتحكموا به حكم المتسلط المتشطط . فإن الرَحِمَ إذا تماسَّتْ تعاطَفَتْ والغيرة أساسُ ذلك ومنها ينشأ ضبطُ الأنساب وحفظها كما لايخفى فإنها ثَوران الغضب حمايةً على إكرام الحرم . وجعل الله سبحانه هذه القوة فى الإنسان سبباً لصيانة الماء وحفظاً للأنساب ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها . وقد وصل العرب فى الغيرة إلى أن جاوزوا الحد ، حتى كانوا يَئِدُونَ البناتَ مخافةَ لحوق العار بهم من أجلهنّ أى يدفنونهن وهن أحياء . وسيجىء تفصيل مذهبهم فيها فى الأعمال التى أبطلها الإسلام .

وأول قبيلة وَأَدت من العرب ربيعة . وذلك أنَّهم أُغير عليهم . فنهبت بنت لأمير لهم فاستردّها بعد الصلح فخيّرت رضى منها بين أبيها ومَنْ هى عنده فاختارت مَنْ هى عنده وآثرتْهُ على أبيها فغَضِب وسَنَّ لقومه الوأْدَ ففعلوه غيرةً منهم ، ومخافةَ أنْ يَقَعَ لهم بعد ذلك مثلُ ما وقع وشاع فى العرب غيرهم . ومن نخوة العرب وغيرتهم أنهم يَكْنونَ عن حرائر النساء بالبيض ، وقد جاء القرآن العزيز بذلك فقال سبحانه (كأنهنَّ بيض مكنون) وقال امرؤ القيس :

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤها   تمتَّعْتُ عن لَهْوٍ بها غير معجل[1]

ويكنون عنهن أيضاً بالنخلة ، وعلى ذلك قول بعض العرب :

ألا يا نخلةً من ذاتِ عِرقٍ   عليكِ ورحمةُ اللهِ السلامُ[2]

---

(١) أى رب امرأة كبيضة الخدر فى حسنها وصيانتها لايرام سترها ، ومعجل اسم مفعول اعجله فهو معجل يعنى أنه لعزه لايتعرضه من يغارعليها

(٢) هذا البيت من شواهد النحو يستشهد به على أن النكرة الموصوفة تنصب فنخلة نكرة موصوفة بالجار والمجرور وفيه شاهد آخر وهو تقديم المعطوف بالواو على المعطوف عليه والأصل عليك السلام ورحمة الله

سألتُ الناسَ عنكِ فخبّرونى هنا من ذاكَ تكرهُهُ الكرامُ
وليس بما أحلّ اللهُ بأسٌ إذا هو لم يُخَالِطْهُ الحرامُ

فإن هذا الشاعر كنى عن المرأةِ بالنخلة وبالهناة عن الرفث . فأما الهناة فمن عادة العرب الكناية بها عن مثل ذلك . وأما الكناية بالنخلة عن المرأة فمن طريف الكناية وغريبها ، وأنشد ابن الأعرابى لرجل من بنى مُرَّة بن عوف يكنى عن امرأتين :

أيا نخلتى أول إذا كان فيكما جنى فانظرا من تطعمان جناكما
ويا نخلتى أول إذا هبت الصبا وأمسيت مقروراً ذكرت ذراكما

وقال وضاح اليمنى

أيا نخلتَىْ وادى بُوانَةَ حبَّذاَ إذا نام حُرّاسُ النخيلِ جَناَكما

وبوانة بضم الباء الموحدة من أسفل : موضع . ويكنون عنهن بالسرحة[1] قال حميد بن ثور :

أبى الله إلا أن سَرْحَةَ مالك على كل أفنان العِضاه تروقُ[2]
فياطيبَ رياها ويا بردَ ظلِّهـا إذا حان من شَمْس النهار شُروقُ
فهل أنا إنْ عَلَّلْتُ نفسى بسرحة من السَّرْح مسدود علىّ طريقُ
حمى ظلَّها شكْسُ الخليقة طائفٌ عليها عُرام الطائفينَ شفيقُ[3]
فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفَىْء من برد العشى تذوق

وقال أيضاً فى مثله

تجرم أهلوها لئن كنت مشعراً جنونا بها يا طول هذا التجرم
ومالىَ من ذنب إليهم علمته سوى أنى قدقلت يا سرحة اسلمى[4]

---

(١) هى الشجرة العظيمة من العضاة (٢) العضاه وزان كتاب من شجر الشوك كالطلح والعوسج واستثنى بعضهم القتاد والسدر فلم يجعله من العضاه، والهاء أصلية ، والافنان جمع فنن : الاغصان ، والسرحة : الشجرة العظيمة من العضاه (٣) قوله عرام بالضم أى سىء الخلق (٤) السرحة مر تفسيرها . والمعنى لا ذنب لى أعترف به غير اننى قلت ياسرحة اسلمى وكأن هذا الشاعر لما قال ياسرحة اسلمى علم أهل المرأة انه يريد صاحبتهم فغضبوا لذلك

نعم فاسلمى ثم اسلمى ثمة اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلمى[١]

ويكنون عنهن بشجرة أو شاة ونعجة وجؤذر . وهو ولد البقرة الوحشية وريم وما شاكل ذلك . قال المسيب بن علس :

دعا شجر الأرض داعيهم لينصره السدر وإلا ثاب[٢]

فكنى بالشجر عن النساء . وهم يقولون جاء فلان بالشوك والشجر إذا جاء بجيش عظيم . وقال عنترة :

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت علىّ وليتها لم تحرم

وإنما ذكر عبلة جارية أبيه فلذلك حرمها على نفسه . وكذلك قوله والشاة ممكنة لمن هو مرتم . والعرب تجعل المهاة شاة لأنها عندهم صائنة الظباء ولذلك يسمونها نعجة . وعلى هذا التعارف فى الكناية جاء قول الله تعالى فى إخباره عن خصم داود عليه السلام « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة » كنى بالنعجة عن المرأة . وروى ابن قتيبة أن رجلا[٣] كتب إلى عمر رضى الله تعالى عنه :

قلائصَنا هداك الله أنا شغلنا عنكم زمن الحصار[٤]

فما قلص وجدن معقلات قفا سلع بمختلف النجار[٥]

---

(١) نعم فاسلمى نعم يجاب به فى الاستفهام المحض ويتوصل به الى بسط الكلام وصلته كما هنا وثلاث تحيات انتصب على المصدر من فعل محذوف تقديره احيى ، والمعنى حييتها ثلاثا بقولى اسلمى ولم ترد الجواب .

(٢) الاثاب ، شجر الواحدة اثابة قال الكميت :

وغادرن المقاول فى مكز كخشب الاثاب المتغطر سينا

(٣) هو على ما فى التاج وغيره ابو المنهال بقيلة الأكبر وكان وجهه سيدنا عمر (رض) الى احدى الغزوات بنواحى فارس وكان ترك عياله بالمدينة فبلغه أن رجلا من بنى سلم اسمه جعدة يختلف الى النساء الغائبات أزواجهن فكتب الى سيدنا عمر (رض) يشكو منه (٤) قلائصنا منصوب بالاضمار أى احفظ قلائصنا وهى فى الأصل جمع قلوص للناقة الشابة واراد بها النساء (٥) قوله معقلات يعنى نساء معقلات لأزواجهن كما تعقل — أى تشد — النوق للضراب ، وسلع جبل فى المدينة وجبل لهذيل وحصن بوادى موسى من عمل الشوبك بقرب بيت المقدس ، ونجار ككتاب موضع عن العمرانى ، وكغراب موضع ببلاد تميم وقيل من مباههم وماء بالقرب من صفينة حذاء جبل الستار فى ديار سليم عن نصر

يعقلهن جعد شيظمى وبئس معقل الذود الظؤار[١]

قال فإنما كنى بالقلص وهى النوق الشواب عن النساء ففهم عمر ما أراده وجلد جعدة ونفاه . ومن نخوة العرب وغيرتهم أنه كان من عادتهم إذا وردوا المياه أن يتقدم الرجال . ثم العضاريط[٢] والرعاء ثمّ النساء إذا صدرت كل فرقة عنه فكنّ يغسلن أنفسهن وثيابهن ويتطهرن آمنات مما يزعجهن فمن تأخر عن الماء حتى تصدر النساء فهو الغاية فى الذل . وإلى ذلك أشارت كبشة[٣] أخت عمرو بن معدى كرب . بقولها من أبيات :

ولا تردوا إلا فضول نسائكم إذا ارتملت أعقابهن من الدم

وقد تستعمل الغيرة فى صيانة كل ما يلزم الإنسان صيانته فى السياسات الثلاث التى هى سياسة الرجل نفسه . وسياسة أهله ومنزله . وسياسة مدينته

(١) الجعد الكريم من الرجال ، والشيظمى : الفتى الجسيم ، والظؤار جمع ظئر بالكسر الناقة العاطفة على ولد غيرها المرضعة له ، والذود : ثلاثة ابعرة الى التسعة وقيل الى العشرة أو العشرين وفويق ذلك وقيل غير ذلك ويروى بدل جعد

شيظمى أو جعدة من سليم معيدا يبتغى سقط العذارى

أراد انه يتعرض لهن فكنى بالعقل عن الجماع أى ان ازواجهن يعقلونهن وهو يعقلهن أيضا كان البدء للازواج والاعادة له (٢) جمع عضروط وهو الخادم على طعام بطنه والأجير (٣) كانت كبشة من النساء الشاعرات المتوسطات فى الشعر وكانت متزوجة فى بنى الحرث بن كعب وكان عبد الله اخاها لأبيها وأمها دون عمرو وهذا البيت من أبيات لها وهى :

ارسل عبد الله اذ حان يومه الى قومه لاتعقلوا لهم دمى
ولا تأخذوا منهم افالا وابكرا واترك فى بيت بصعدة مظلم
ودع عنك عمرا انعمرا مسالم وهلبطن عمروغيرشبر لمطعم
فان انتم لم تثأروا واتديتم فمشوا بآذان النعام المصلم

ولا تردوا الخ

والسبب فى هذا الشعر ان عبد الله بن معد يكرب مر براع للمحزم بن سلمة من بنى مالك بن مازن ابن زبيد فاستقاه لبنا فأبى واعتل عليه فشتمه فقتله عبد الله فثارت بنو مازن بعبد الله فقتلوه وجاءوا الى عمرو فقالوا ان اخاك قتله رجل منا سفيه ونحن يدك وعضدك فنسألك الرحم الا اخذت الدية ما احببت وهم عمرو بذلك فغضبت كبشة وقالت هذه الأبيات وذكر علماء الأدب أيضا غير ذلك فى سبب هذا الشعر وقولها اذا ارتملت يقال ترمل وارتمل اذا تلطخ بالدم وجعلت النساء متلطخات بدم الحيض تفظيعا للامر وكان من عادتهم اذا وردوا المياه أن تتأخر النساء حتى تصدر كل فرقة عنه الى آخر ما بين فى الأصل ومعنى هذا الكلام انه لا شرف لكم بعدأخذكم الدية

وضيعته . ولذلك قيل ليست الغيرة ذبه عن كل ضعيف وتسمى كراهة النعمة عند من لا يستحقها غيرة . والغيرة وإن كانت قوة إنسانية يجب وجودها فى كل جيل قد كثرت فى العرب حتى إن من دخل دار أحدهم والتجأ إلى فنائه عدوا فعله حرمة وجواراً وذماراً بل إن تعلق ذلك بالوحشيات والهوام . حتى إنهم كانوا يسمون بذلك مجير الجراد ومجير الغزال ومجير الذئب ونحو ذلك . وفى الأمثال « أحمى من مجير الجراد » قالوا هو مدلج بن سويد الطائى . ومن حديثه فيم ذكر ابن الأعرابى عن ابن الكلبى أنه خلا ذات يوم فى خيمته فإذا هو بقوم من طيّء ومعهم أوعيتهم ، فقال : ما خطبكم ؟ قالوا جراد وقع بفنائك فجئنا لنأخُذه فركب فرسه وأخذ رمحه وقال : والله لا يعرضنّ له أحد منكم إلا قتلته ؛ إنكم رأيتموه فى جوارى ثم تريدون أخذه فلم يزل يحرسه حتى حميت عليه الشمس وطار فقال شأنكم الآن . وقد تحول عن جوارى ، ويقال : إن المجير كان حارثة ابن مر أبا حنبل . وفيه يقول شاعر طيّء :

ومنا ابن مر أبو حنبل   أجار من الناس رجل الجراد

وزيدٌ لنا ولنا حاتم   غياث الورى فى السنين الشداد

وفى الأمثال أيضاً أحمى من مُجير الظُّعْن وهو ربيعة بن مكدَّم الكنانىّ ومن حديثه فيما ذكر أبو عبيدة أن نُبَيْشَةَ بن حبيب السلمىّ خرج غازيا فلقى ظعناً من كنانة بالكديد فأراد أن يَحْتَوِيَها فمانعه ربيعة بن مكدَّم فى فوارس . وكان غلاماً له ذوابة فشد عليه نبيشه فطعنه فى عضُده فأتى ربيعة أمه فقال :

شدّى على العصْب أمَّ سيارْ   فقد رزئت فارساً كالدينار

فقالت له أمه

إنا بنى ربيعة بن مالك   مرزءوا خيارنا كذلك

من بين مقتولٍ وبين هالك

ثم عصبته فاستسقاها ماءً فقالت : اذهب فقاتل القوم فإن الماء لا يفوتك فرجع

وكرّ على القوم فكشفهم ورجع إلى الظعن وقال إنى هالك لما بى وسأحميكن ميتاً كما حميتكن حياً بأن أقِفَ بفرسى على العقبة وأتّكئ على رمحى فإن فاضت نفسى كان الرمح عمادى فالنجاء النجاء فإنى أردّ بذلك وجوه القوم ساعةً من النهار فقطعن العقبة ووقف هو بإزاء القوم على فرسه متكئاً على رمحه ونزفه الدم ففاض أى مات، والقوم بإزائه يحجمون عن الإقدام عليه. فلما طال وقوفه فى مكانه ورأوه لا يزول عنه رموا فرسه فقمص وخرّ ربيعة لوجهه فطلبوا الظعن فلم يلحقوهن، ثم إن حفصَ بنَ الأخيف الكنانى[1] مرّ بجيفة ربيعة فعرفها فأمال عليها أحجاراً من الحرة، وقال يبكيه:

لا يبعدنَّ ربيعةُ بنُ مُكدَّمٍ ... وسقَى الغَوادِى قبرَهُ بذَنُوبِ[2]

نفرَتْ قَلوصى من حجارةِ حَرَّةٍ ... بُنِيَتْ على طَلْقِ اليدَيْنِ وَهُوبِ[3]

لا تنفُرِى يا ناقُ منه فإنَّه ... شِرِّيبُ خمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُروبِ[4]

لولا السفارُ وبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ ... لتركتُها تحبو على العُرْقوبِ[5]

قال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء: مانعلم قتيلا حمى ظعائن غير ربيعة بن مكدم. وقصة مجير أم عامر شهيرة إلى غير ذلك مما يطول ذكره. ويسمى الغضب المقتضى للغيرة الحفيظة فقالوا احفظنى فلان أى أغضبنى الغضب الذى أثار منى قوة الحفظ.

---

(١) قال محمد بن سلام: الصحيح ان هذه الأبيات لعمرو بن شقيق أحد بنى فهر بن مالك ومن الناس من يرويها لكرز بن حفص بن الأخيف العامرى وعمرو بن شقيق أولى بها وهذا الشعر قيل فى قتل ربيعة بن مكدم الكنانى أحد فرسان مضر المعدودين وشجعانهم المشهورين قتله نبيشة بن حبيب السلمى فى يوم الكديد (٢) الغوادى جمع غادية وهى سحابة الصباح، والذنوب: الدلو العظيمة استعير هنا للغيث يتفجع على ربيعة ويدعو له بالرحمة والرضوان (٣) نفرت: فزعت، والقلوص من النوق الشابة، وقوله من حجارة حرة المراد بها قبر ربيعة والحرة أرض ذات حجارة سود (٤) مسعر على وزن مفعل آلة فى ايقاد الحرب (٥) السفار: السفر، والخرق: الأرض الواسعة، والمهمه: المفازة البعيدة الأطراف، والحبو: المشى على اليدين والبطن، وعرقوب الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها، والمعنى لولا أنى محتاج اليها فى السفر لطوله لنحرتها عند قبره لتأكلها الناس كما كانت عادتهم اذا اجتازوا بقبر كريم

والحاصل أن العرب لما كانوا أتم الناس عقولا وأحلاما ، وأطلقهم ألسنة وأوفرهم أفهاما ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة ، وأورثهم كل منقبة جليلة فإن العقل المشرق فى الإنسان يحصل عنه العلم والمعرفة والدراية والحكمة والذكاء والذهن والفهم والفطنة وجودة الخاطر وجودة الفهم والتخيل والبداهة والكيس والخير وإصابة الظن والفراسة[١] والزكانة[٢] والكهانة[٣] والعرافة[٤] والإلهام ودقة النظر والرأى والتدبير وصحة الفكر وجودة الذكر وجودة الحفظ والبلاغة والفصاحة وسائر الأخلاق المحمودة والأعمال الممدوحة ، ولكن كانوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله ليس عندهم علم منزل من السماء ولا شريعة موروثة عن نبى ، ولاهم أيضاً مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة ، كالطب والحساب ونحوهما إنما علمهم ماسمحت به قرائحهم من الشعر والخطب ، أو ماحفظوه من أنسابهم وأيامهم ، أو مااحتاجوا إليه فى دنياهم من الأنواء[٥] والنجوم ، أو من الحروب ونحو ذلك مما سيجىء تفصيله عند الكلام على علومهم إن شاء الله تعالى . فلما بعث الله تعالى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم بالهدى الذى جعله علماً فى الأرض ولا يجعل أجلَّ منه وأعظم قدراً وتلقوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم ومعالجتهم عن نقلهم عن تلك العادات الجاهلية . والظلمات الكفرية التى كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها . فلما تلقوا عنه ذلك الهدى العظيم زالت تلك الريون واستنارت بهدايته فأخذوا هذا الهدى العظيم . لتلك الفطرة الجيدة فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم ، والكمال الذى أنزله الله إليهم ، فهم بمنزلة أرضٍ جيّدة فى نفسها لكنها معطلة عن الحرث أو قد نبت فيها شجرة العضاه

---

(١) الاستدلال بهيئة الانسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله (٢) هى أن تزكن شيئا بالظن فتصيب (٣) الكهانة بفتح الكاف ويجوز كسرها قيل هى ادعاء علم الغيب كالاخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد الى سبب (٤) قسيمة للكهانة عند كثير من العلماء وقال بعضهم الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة والعرافة بالأمور الماضية (٥) جمع نوْ وهو النجم اذا مال للغروب أو سقوط النجم فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من ساعته فى المشرق

والعوسج ، وصارت مأوى الخنازير والسباع ، فإذا طهرت عن المؤذى من الشجر والدواب وازدرع فيها أفضل الحبوب والثمار جاء فيها من الحرث ما لا يوصف مثله فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضلَ خلق الله تعالى بعد الأنبياء وصار أفضل الناس بعدهم من اتبعهم بإحسان من العرب والعجم بمقتضى الشريعة الغراء ، وورد فيها أيضاً أن قريشاً أفضلُ العرب ، وأن بنى هاشم أفضل من قريش وأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل بنى هاشم ، فهو أفضل الخلق نفساً وأعلاهم نسباً وليس فضل العرب ثم قريش بنى هاشم ، لمجرد كون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منهم ، وإن كان هذا من الفضل ، بل هم فى أنفسهم أفضل . وبذلك يثبت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أفضل نفساً ونسباً وإلا لزم الدور[1] .

* * *

مناظرة جرت بين النعمان بن المنذر وكسرى ملك الفرس فى شأن العرب

ذكر كثير من المؤرخين ، ومنهم ابن عبدِ ربّهِ فى تاريخه ما رواه ابن القطامى عن الكلبى ، قال قَدِمَ النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين فذكروا من ملوكهم وبلادهم ما ذكروا . فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم . ولم يستثن فارسَ ولا غيرها . فقال كسرى وأخذته عزة الملك : يانعمان لقد فكرت فى أمر العرب وغيرهم من الأمم ونظرت فى حال من يقدم علىّ من وفود الأمم ، فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وأن لها ديناً يبيّن حلالَها وحرامَها ويرد سفيهها ويقيم جاهِلَها .

---

(١) توقف الشيء على نفسه

ورأيت الهند نحواً من ذلك فى حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعاتها وطيب أشجارها ودقيق حسابهـــا وكثرة عددها . وكذلك الصين فى اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكا يجمعها . والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال فى المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم . ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة . ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التى هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التى يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها . وإن قَرَى أحدهم ضيفاً عدها مَكْرُمَةً . وإن أطعم أكلة عدها غنيمة تَنْطِق بذلك أشمارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه التنوخيةَ التى أسس جدى اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوها . فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا . وأن لها مع ذلك آثاراً ولبوساً وقرى وحصوناً وأموراً تُشْبه بعض أمور الناس يعنى اليمن ، ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

قال النعمان

أصلح الله الملك حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ويعظم حظها وتعلو درجتها إلا أن عندى جواباً فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ولا تكذيب له فإن أمننى من غضبه نطقت به ، قال كسرى : قل فأنت آمن . قال النعمان . أما أمتك أيها الملك فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها وبسطة محلها وبُحْبُوحَةِ عزها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأمم التى ذكرت فأي أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها . قال كسرى : بماذا ؟ قال

النعمان : بعزها ومَنَعتِها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنَفتها ووفائها « فأما عزها ومَعنَتُها » فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ، ووطّدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور « وأما حسن وجوهها وألوانها » فقد يعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة . « وأما أنسابها وأحسابها » فليست أمةٌ من الأمم إلا وقد جَهِلت آباءها وأصولهَا وكثيراً من أولها حتى إن أحدهم ليسأل عمن وزاء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه . وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا أحاطوا بذلك أحسابهم وَحفِظوا به أنسابهم . فلا يدخل رجل فى غير قومه ، ولا ينتسب إلى غير نسبه ، ولا يدعى إلى غير أبيه « وأما سخاؤها » فإن أدناهم رجلا الذى تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه فى حموله وشبعه وريّه فيطرقه الطارق الذى يكتفى بالفِلْذة[1] ويجتزى بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسنَ الأحدوثةوطيبَ الذكر . «وأما حكمة ألسنتهم» فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم فى الصفات ما ليس لشىء من ألسنة الأجناس . ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجَزْعُ[2] ، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سفن ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر . « وأما دينها وشريعتها » فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه أن لهم أشهراً حُرُماً وبلداً محرماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى . « وأما وفاؤها » فإن أحدهم

(١) القطعة من الشىء والجمع فلذ مثل سدرة وسدر (٢) خرز فيه بياض وسواد الواحدة جزعة مثل تمر وتمرة .

يلحظ اللحظة ويومىء الإيماء ، فهى وَلْث[١] وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه ، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يُغْلَق[٢] رهنه ولا تخفر ذمته[٣] وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره ، فيصاب فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التى أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره ، وأنه ليَلْجَأُ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله . وأما قولك أيها الملك : يئدون أولادهم ، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار وغيرةً من الأزواج . وأما قولك : إن أفضل طعامهم لحومُ الأبل على ما وصفت منها فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له فعمدوا إلى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحوما ، وأطيبها لحوما ، وأرقها ألبانا ، وأقلها غائلةً ، وأحلاها مضغةً ، وإنه لا شىء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه « وأما تجاربهم » وأكلُ بعضهم بعضاً وتركُهم الانقيادَ لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوضَ عدوها إليها بالزحف وإنه إنما يكون فى المملكة العظمية أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمتهم وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوطف[٤] بالعسف وأما اليمن التى وصفها الملك فلما أتى جدُّ الملك إليها الذى أتاه عند غلبة الحبش له على ملك متسق وأمر مجتمع فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخا قد تقاصر عن إيوائه ، وصغر فى عينه ما شيد من بنائه ولولا

---

(١) العهد بين القوم وقيل العهد المحكم ، وقيل الشىء اليسير من العهد وفى حديث ابن سيرين : أنه كان يكره شراء سبى (زابل) — بلد بالسند — وقال ان عثمان ولث لهم ولثا اى أعطاهم شيئا من العهد ، وقال الجوهرى الولث العهد بين القوم يقع من غير قصد ويكون غير مؤكد يقال ولث له عقدا
(٢) غلق الرهن غلقا من باب تعب استحقه المرتهن فترك فكاكه وفى حديث « لايغلق الرهن بما فيه » اى لايستحقه المرتهن بالدين الذى هو مرهون به
(٣) يقال خفرت بالرجل أخفر من باب ضرب غدرت به (٤) اى استحصال المال منهم بالجبر والظلم يقال سحابة وطفاء أى مسترخية الجوانب بكثرة مائها

ماوتر[1] به من يليه من العرب لمال إلى مجال ، ولو جد من يجيد الطعان ، ويغضب للأحرار ، من غلبة العبيد الأشرار . قال فعجب كسرى لما أجابه النعمان به . وقال : إنك لأهل لموضعك من الرياسة فى أهل إقليمك ولما هو أفضل ثم كساه من كسوته وسرحه إلى موضعه من الحيرة . فلما قدم النعمان الحيرة وفى نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم . بعث إلى أكثم ابن صيفى ، وحاجب بن زرارة التميميين . وإلى الحارث بن ظالم . وقيس بن مسعود البكريين ، وإلى خالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، وإلى عمرو بن الشريد السلمى ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدى ، والحارث ابن ظالم المرى ، فلما قدموا عليه فى الخورنق قال لهم : قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غوراً ويكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولا[2] كبعض طماطمته[3] فى تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله ، فاقتص عليهم مقالات كسرى وما رد عليه . فقالوا : أيها الملك وفقك الله ماأحسن مارددت وأبلغ ما حججته به فمرنا بأمرك وادعنا إلى ما شئت . قال : إنما أنا رجل منكم وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم ، وليس شىء أحب إلىّ مما سدد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم ، والرأى أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وَتَنْطَلِقُوا إلى كِسْرى فإذا دخلتم نَطَقَ كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ماظن أو حدثته نفسه . ولا يَنْطِقْ رجل منكم بما يُغْضِبُه فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه ولا تنخزلوا له انخزال الخاضع الذليل وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم ، وفضل منزلتكم وعظيم أخطاركم ، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفى لسنىّ حاله ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتكم بها فإنما دعانى إلى التقدمة إليكم على

---

(١) أخذ ثاره والترة كذلك (٢) أى عبيدا (٣) جمع طمطم بالكسر الذى فى لسانه عجمة لايفصح

بجميل كل رجل منكم على التقدُّم قبل صاحبه فلا يكونن ذلك منكم فيجد فى آدابكم مطعنا فإنه ملك قادر مسلط . ثم دعا لهم بما فى خزائنه من طرائف حُلَلِ الملوك كل رجل منهم حُلَّة وعممه عمامة وختمه بياقوتة وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مهرية وفرس نجيبة وكتب معهم كتابا : « أما بعد فإن الملك ألقى إلىّ من أمر العرب ماقد علم ، وأجبته بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علمٍ ولا يتلجلج فى نفسه أن أمة من الأمم التى احتجزت دونه بمملكتها وحمت مايليها بفضل قوتها تبلغها فى شىء من الأمور التى يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة وقد أوفدت أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل فى أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم فليسمع الملك وليغامض عن جفاء إن ظهر من منطقهم وليكرمني بإكرامهم وتعجيل سراحهم . وقد نسبتهم فى أسفل كتابى هذا إلى عشائرهم » ، فخرج القوم فى أهبتهم حتي وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، ، فدفعوا إليه كتاب النعمان فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر مرازبته(١) ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسى عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التى وصفهم النعمان بها فى كتابه وأقام الترجمان ليؤدى إليه كلامهم . ثم أذن لهم فى الكلام. فقام أكثم بن صيفى فقال :

إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعاً ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب . والعجز مركب وطىء ،

---

(١) جمع مرزبان بضم الزاى وهو رئيس الفرس تكلموا به قديما ، كذا فى شفاء الغليل وفى لسان العرب : وأما المرازبة من الفرس فمعرب ، وقال ابن برى حكى عن الأصمعى أنه يقال للرئيس من العجم مرزبان ومرزبران بالراء والزاى وأنشد فى المعجم لبعض الشعراء :

الدار داران ايوان وغمدان	والملك ملكان ساسان وقحطان
والأرض فارس والاقليم بابل وال	اسلام مكة والدنيا خراسان

الى أن قال :

قد رتب الناس جم فى مراتبهم	فمرزبان وبطريق وطاخان

آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطانته كان كالغاص بالمـاء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء . المرء يعجز لا محالة ، أفضل الأولاد البررة . خير الأعوان من لم يُراءِ بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر حَسُنت سريرته . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، حَسْبكَ من شر سماعه[١] ، الصمت حكم ، وقليل فاعله . البلاغة الإيجاز ، من شدد نفّر ، ومن تراخى تألف . فتعجب كسرى من أكثم . ثم قال : ويحك يا أكثمُ ما أحكمك وأوثق كلامك ، لولا وضعك كلامك فى غير موضعه . قال أكثم : الصدق ينبئ عنك لا الوعيد . قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لـكفى . قال أكثم : رُبَّ قول ، أنفذ من صَوْل[٢] .

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى فقال : وَرِى زندك ، وعلت يدك ، وهيب سلطانك . إنَّ العربَ أمة قد غلظت أكبادُها ، واستحصدت مِرّتها ،[٣] ومنعت درتها ، وهى لك وامقة[٤] ما تألفتها ، مسترسلة ما لا ينتها ، سامعة ما سامحتها ، وهى العلقم مرارةً ، وهو الصاب[٥] غضاضةً ، والعسل حلاوةً ، والمـاء الزلال سلاسةً . نحن وفودها إليك ، وألسنتها لديك ، ذمّتنا محفوظة ، وأحسابنا ممنوعة ، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة ، إنْ نؤُبْ لك حامدين خيراً فلك بذلك عموم مَحْمَدتنا ، وإن نذم لم نخض بالذم دونها . قال كسرى : يا حاجب ما أشبهَ حجرَ التلال بألوان صخرها . قال حاجب : بل زئير الأسد بصولتها . قال كسرى : وذلك .

(١) اى اكتف من الشر بسماعه ولا تعاينه ويجوز ان يريد يكفيك سماع الشر وان لم تقدم عليه ولم تنسب اليه مثل قالته فاطمة بنت الخرشب الانمارية ام الربيع بن زياد العبسى لما اراد قيس بن زهير أخذها براحلتها ليرتهنها بالدرع التى كان ابنها أخذها منه ، يضرب عند العار والمقالة السيئة ويخاف منها كما فى فرائد اللآل (٢) ويروى رب قول أشد من صول ، الصول: الحملة والوثبة عند الخصومة والحرب ــ يضرب عند الكلام يؤثر فيمن يواجه به وقد يضرب فى ما يتبقى منه ، وأشد نعت قول كما فى الفرائد الاحدب .

(٣) المرة بالكسرة القوة والشدة ، واستحصدت : استحكمت

(٤) اى محبة (٥) شجر مر

ثم قام الحارث بن عبار البكرى فقال : دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلو سنائها ، من طال رشاؤه[١] كثر مَتْحُهُ ، ومن ذهب ماله قل منْحه[٢] تناقل الأقاويل يعرف اللب . وهذا مقام سيوجف[٣] بما تنطق به الركب وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب ، ونحن جيرانك الأدنون ، وأعوانك المعينون ، خيولنا جمَّة ، وجيوشنا نخمة . إنْ استنجدتنا فغير رُبض[٤] وإنْ استطرقتنا فغير جُهْض[٥] ، وإن طلبتنا فغير غُمْض لا ننثنى لذُعْر ، ولا نتنكر لِدَهْر ، رماحنا طوال ، وأعمارنا قصار ، قال كسرى : أنفُس عزيزة والله ضعيفة . قال الحارث : أيها الملك وأنَّى يكون لضعيف عزة أو لصغير مرة . قال كسرى : لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك . قال الحارث : أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغرراً بنفسه على الموت فهى منية استقبلها ، وجنان استدبرها ، والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قدما وأحبسها ، وهى تصرف بها حتى إذا جاشت نارها ، وسعرت لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلتُ مقادها رمحى ، وبرقها سيفى ، ورعدها زئيرى ، ولم أقصر عن خوض ضحضاحها[٦] . حتى أنغمس فى غَمَرات لججها ، وأكونَ فلكا لفرسانى إلى بحْبوحة كبشها[٧] . فاستمطرها دما وأترك حماتها جزر السباع وكل نَسْرٍ قشْعم[٨] . ثم قال كسرى لمن حضره من العرب : أكذلك هو ؟ قالوا : فعاله انطلق من لسانه . قال كسرى : ما رأيت كاليوم وفداً أحشد ، ولا شهوداً أوفد .

ثم قام عمرو بن الشريد السلمى فقال : أيها الملك نعم بالك ، ودام فى السرور حالك ، إنّ عاقبة الكلام متدبرة . وإشكالَ الأمور معتبرة ، وفى كثير ثقلة ، وفى قليل بُلْغة[٩] . وفى الملوك سوْرَةُ العز ، وهذا منطِقٌ له ما بعده ، شرف فيه

---

(١) الرشاء : الحبل والجمع ارشية مثل كساء واكسيه ، والمتح : الاستقاء
(٢) المنح العطاء (٣) وجف يجف وجيفا : اضطرب (٤) رجل ربض عن الحاجات والاسفار بوزن جنب لاينهض فيها (٥) أى فغير مانعين
(٦) الضحضاح من الماء الذى يظهر منه القمر (٧) بحبوحة المكان : وسطه
(٨) قشعم كجعفر المسن من الرجال والنسور (٩) مايتبلغ به من العيش

من شرف ، وخمل فيه من خمل ، لم نأت لضيمك ، ولم نفد لسخطك ، ولم نتعرض لرِفْدِكِ[١] إن فى أموالنا منتقداً ، وعلى عزنا معتمداً ، إنْ أَوْرَيْنا ناراً أثقبنا ، وإنْ أَرْوَدَ[٢] دهر بنا اعتدلنا ، إلا أنا مع هذا لجوارك حافظون ، ولمن رامك كافحون حتى يحمد الصدر ، ويستطاب الخبر . قال كسرى : ما يقوم قصد منطقك بإفراطك ، ولا مدحك بذمك ، قال عمرو : كفى بقليل قصدى هاديا ، وبأيسر إفراطى مخبراً ، ولم يلم من عزبت نفسه عما يعلم ، ورضى من القصد بما بلغ . قال كسرى : ما كل ما يعرف المرء ينطق به ، اجلسْ .

ثم قام خالد بن جعفر الكلابى فقال : أحضر الله الملك إسعاداً ، وأرشده إرشاداً ، إن لكل منطقٍ فرصةً ، ولكل حاجةٍ غصةً : وعىّ المنطق أشدُّ من عىّ السكوت . وعثار القول أنكأ من عثار الوعث[٣] وما فرصة المنطق عندنا إلاّ بما نهوى ، وغصة المنطق بما لا نهوى غير مستساغة ، وتركى ما أعلم من نفسى ويعلم من سمعنى أننى له مطيق أحبُّ إلىَّ من تكلفى ما أتخوف ويتخوف منى . وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان ، وهو لك من خير الأعوان ، ونِعْمَ حامل المعروف والإحسان ، أنفسنا بالطاعة لك باخعة[٤] . ورقابنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة . . قال له كسرى : نطقت بعقل ، وسمرت بفضل . وعلوت بنُبْل .

ثم قام علْقمة بن علاثة العامرى فقال : نهجت لك سبل الرشاد ، وخضعت لك رقاب العباد ، إنَّ للأقاويل مناهج ، وللآراء موالج ، وللعويص مخارج ، وخير القول أصدقه ، وأفضل الطلب أنجحه ، إنّا وإن كانت المحبة أحضرتنا . والوفادة قربتنا ، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك . بل لو قست كل رجل منهم وعلمت

---

(١) الرفد : العطاء (٢) أى رفق والا رواد الامهال وفى المثل : الدهر ارود مستبد أى لين المعاملة غالب على أمره (٣) المكان السهل الدهس تغيب فيه الاقدام والطريق العسر ووعث الطريق كسمع وكرم تعسر سلوكه واوعث وقع فى الوعث وأسرف فى المال . (٤) يقال بخع نفسه بخعا من باب نفع قتلها من وجد أو غيظ وبخع لى بالحق بخوعا انقاد وبذله .

منهم ما علمنا ، لوجدت له فى آبائه دنيا أنداداً وأكفاءً كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ معروف ، يحْمى حماه ، ويروى نداماه ، ويذود أعداه ، لا تخمد ناره ، ولا يحترز منه جاره ، أيها الملك من يبل العرب يعرف فضلهم فاصطنع العرب فإنهم الجبال الرواسى عزا ، والبحور الزواخر طميا ، والنجوم الزواهر شرفا ، والحصى عدداً ، فإن تعرف لهم فضلهم يعزّوك ، وإن تستصرخهم لا يخذلوك ، قال كِسْرَى وَخشِيَ أن يأتى منه كلام يحمله على السخط عليه : حَسْبُكَ ، أبلغت وأَحْسنْت .

ثم قام قيس بن مسعود الشيبانى فقال : أطاب الله بك المراشد ، وجنبك المصائب ، ووقاك مكروه الشصائب(١) ما أحقنا إذ أتيناك بإسماعك ما لا يحنق صدرك ، ولا يزرع لنا حقْداً فى قلبك ، لم نقدم أيها الملك لمساماة ، ولم ننتسب لمعاداة ، ولكن لتعلم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنا فى المنطق غيرُ محجمين ، وفى الناس غير مقصرين ، إنْ جورينا فغير مسبوقين ، وإنْ سومينا فغير مغلوبين . قال كسرى : غيرَ أنكم إذا عاهدتم فغير وافين ، وهو يعرض به فى تركه الوفاء بضمانه السواد ، قال قيس : أيها الملك ما كنت فى ذلك إلا كوافٍ غدر به أو كخافر أخفر بذمته . قال كسرى : ما يكون لضعيف ضمان ولا لذليل خفارة . قال قيس : أيها الملك ما أنا فيما أحفر من ذمتى أحق بإلزامى العار منك فيما قتل من رعيتك ، وانتهك من حرمتك ، قال كسرى : ذلك من ائتمن الخانة ، واستنجد الأئمة . ناله من الخطأ ما نالنى ، وليس كل الناس سواء ، كيف رأيت حاجب بن زُرارة لم يحكم قواه فيبرم ويعهد فيوفى ويعد فينجز . قال : وما أحقّه بذلك وما رأيته إلا لى . قال كسرى : القوم بزل فأفضلها أشدها .

ثم قام عامر بن الطفيل العامرى فقال . كثر فنون المنطق وليس القول أعمى من حِنْدِس الظلماء ، وإنما الفخر فى الفعال ، والعجز فى النجدة ، والسؤدد مطاوعة

---

(١) أى الشدائد .

القدرة ، وما أعلَمَكَ بقدرنا ، وأبصَرَكَ بفضلنا ، وبالحرى إن أدالت الأيام ، وثَابتِ الأحلام ، أن تحدث لنا أموراً لها أعلام . قال كسرى : وما تلك الأحلام ؟ قال مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر ، على أمر يذكر ، قال كسرى : وما الأمر الذى يذكر ؟ قال : مالى علم بأكثر مما خبرنى به مخبر . قال كسرى : متى تكاهنت يا ابن الطفيل ؟ قال : لست بكاهن ، ولكنى بالرمح طاعن . قال كسرى : فإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟ قال : ماهيبتى فى قفاى بدون هيبتى فى وجهى وما أذهب عينى فى عبث ولكن مطاوعة العبث .

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدى فقال : إنما المرء بأصْغَرَيْه قلبِهِ ولسانِهِ ، [١] فبلاغ المنطق الصواب ، ومِلاك النجدة الارتياد ، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة ، خير من اعتساف الحيرة ، فاجتبذ[٢] طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك[٣] وألِنْ لنا كَنَفَكَ[٤] يسلس لنا قِيادنا[٥] ، فإنا أناس لم يوقس صَفاتنا قراع مناقير مَنْ أراد لنا قضما ، ولكن معنا حمانا من كل من رام لنا هضما .

ثم قام الحارث بن ظالم المرى فقال : إنّ من آفة المنطق الكذب ، ومن

---

(١) هما القلب واللسان لصغر حجمهما وقيل سميا بذلك لانهما أكبر مافى الانسان معنى وفضلا من باب التصغير للتعظيم كانه قيل المرء يقوم معانيه بهما أو يكمل بهما ، قاله شقة بن ضمرة حين قال له النعمان بن المنذر : لان تسمع بالمعيدى خير من ان تراه ، فقال ابيت اللعن ان الرجال ليسوا بجزر تراد منها الاجسام وانما المرء باصغريه قلبه ولسانه ان قال قال بلسان وان قاتل قاتل بجنان ، فلما رأى المنذر عقله وبيانه سماه باسم ابيه ضمرة فقيل ضمرة بن ضمرة . (٢) الجبذ والاجتباذ : الجذب . (٣) يقال كظم غيظه يكظمه كظما : اجترعه كما فى الصحاح وقيل رده وحبسه واحتمل سببه وصبر عليه وهو مجاز مأخوذ من كظم البعير الجرة ومنه قوله تعالى : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » والبادرة : ما يبدر من حدتك فى الغضب بلغت الغاية فى الاسراع من قول أو فعل وبادرة الشر ما يبدرك منه يقال اخشى عليك بادرته وبدرت منه بوادر غضب اى خطأ وسقطات عندما احتد وقال النابغة :

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

(٤) الكنف بفتحتين : الجانب . (٥) يقال فلان سلس القياد وصعبه وهو على المثل أى يتابعك على هواك كما فى الاساس ، وفى حديث على (رض) : فمن اللهج باللذة السلس القياد .

لؤم الأخلاق المَلَق ، ومن حطل الرأى خفة الملك السلط ، فإنْ أعلمناك أنّ مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وإيفادَنا لك عن تصاف ، ما أنت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالعهود ، وأحكام وَلْث العقود ، والأمر بيننا وبينك معتدل . ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل . قال كسرى : من أنت ؟ قال الحارث بن ظالم . قال : إن فى أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالغدر ، وأقرب من الوزر . قال الحارث : إن فى الحق مغضبة ، والسرو التغافل ، ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة ، فلتشبه أفعالك مجلسك ، قال كسرى : هذا فتى القوم . ثم قال كسرى : قد فهمتُ ما نَطَقَت به خطباؤكم : وتفنن فيه متكلموكم ، ولولا إنى أعلم أن الأدب لم يثقف أَوَدَكم [١] ولم يحكم أمركم ، وإنه ليس لكم ملك يجمعكم فتنطِقُون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة . فنطقتم بما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم أجز لكم كثيراً مما تكلمتم به ، وإنى لأكره أن أُجْبِهَ وفودى أو أحنقَ صدورَهم ، والذى أحب من إصلاح مدبركم ، وتألف شواذكم ، والإعذار إلى الله فيما بينى وبينكم ، وقد قبِلت فيما كان فى منطقكم من صواب ، وصفحت عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته ، والتزموا طاعته ، وادعوا سفهاءكم ، وأقيموا أَوَدَهُم ، وأَحسنوا أدبهم ، فإن فى ذلك صلاحَ العامّة .

كلام لابن المقفع فى فضل العرب

روى أبو العيناء الهاشمى عن الفخدمى عن شبيب بن شبة قال : كنا وقوفا بالمِرْبد موضع بالبصرة وكان المربد مألف الأشراف ، إذ أقبل ابن المقفع فبشبشنا [٢] به وبدأناه بالسلام فرد علينا السلام ، ثم قال : لو مِلْتُم إلى نيروز

(١) يقال ثقفته بالتشديد أى اقمت المعوج منه ، والاود الاعوجاج .

(٢) قال يعقوب يقال لقيته فتهشبش بى واصلها تبشش بى فابدلوا من الشين الوسطى باء كما قالوا تجفف .

وظلها الظليل ، وسُورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيدَ الأرض ، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ، فإن الذى تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه ، فقبلْنا وملنا فلما استقربنا المكان ، قال لنا أيُّ الأمم أعقل ؟ فنظر بعضنا إلى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس فقلنا : فارس فقال ليسوا
فنظر بعضنا إلى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس فقلنا : فارس . فقال ليسوا
بذلك إنهم ملكوا كثيراً من الأرض ، ووجدوا عظيماً من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الأمر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ، ولا ابتدءوا باقى حكم فى نفوسهم . قلنا : فالروم . قال : أصحاب صنعة . قلنا : فالصين . قال : أصحاب طرفة . قلنا : فالهند . قال : أصحاب فلسفة . قلنا : السودان . قال : شر خلق الله . قلنا الترك . قال : كلاب مختلسة . قلنا : الخزر . قال : بقرسائمة قلنا : فقل . قال : العرب . قال فضحكنا قال : أما إنى ما أردت موافقتكم ، ولكن إذ فاتنى حظى من النسبة ، فلا يفوتنى حظى من المعرفة . إنّ العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ماشاء فيحسن ، ويقبح ما شاء فيقبح ، أدَّبتهم أنفسهم ورفعتهم هممهم وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم فى أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم ، فقال سبحانه « إنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ، فمن وضع حقّهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خصم ، ودفع الحق باللسان ، أكبت للجنان .

مذهب الشعوبية في العرب وإبطاله

الشعوبية فرقة من الناس ذهبوا إلى تصغير شأن العرب . وإنهم لايرون لهم

فضلا على غيرهم من سُمُّوا بذلك لانتصارهم للشعوب التى هى مغايرة للقبائل . فقد قال جمع من المفسرين فى قوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل) : إن القبائل للعرب ، والشعوب للعجم ، ومن الناس من قد يفضل بعضَ أنواع العجم على العرب ، ومنهم أبو عبيدة وكان يرى رأى الخوارج وقد ألف كتابا فى مثالب العرب وابن غَرَسية وله رسالة فصيحة فى تفضيل العجم على العرب وقد رد عليه علماء الأندلس بعدة رسائل . قال أبو عبيد البكرى فى شرح أمالى القالى : كتاب مثالب العرب أصله لزياد بن أبيه فإنه لما ادعى أبا سفيان أباً علم أن العرب لاتقر له بذلك مع علمهم بنسبه فعمل كتاب المثالب . وألصق بالعرب كل عيب وعار وباطل وإفك وبهت . ثم ثنى على ذلك الهيثم بن عدى وكان دعياً فأراد أن يعر أهل الشرف تشفياً منهم ثم جدد ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى وزاد فيه لأن أصله كان يهوديا ، أسلم جده على يدى بعض آل أبى بكر فانتمى إلى ولاء تيم ، ثم نشأ غليلان الشعوبى الوراق وكان زنديقاً ثنوياً لايشك فيه فعمل لطاهر بن الحسين كتابا خارجا عن الإسلام بدأ فيه بمثالب بنى هاشم وذكر مناكحهم وأمهاتهم ثم بطون قريش ثم سائر العرب ونسب إليهم كل كذب وزور ووضع عليهم كل إفك وبهتان ووصله عليه طاهر بثلاثين ألفا . وأما كتاب المثالب والمناقب الذى بأيدى الناس اليوم فإنما هو للنضر ابن شميل الحميرى ، وخالد بن سلمة المخزومى ، وكانا أنسب أهل زمانهما أمرهما هشام بن عبد الملك أن يبينا مثالب العرب ومناقبها ، وقال لهما ولمن انضم إليهما : دعوا قريشاً بما لها وما عليها فليس لقرشى فى ذلك الكتاب ذكر انتهى وكثير من الأعاجم يرى هذا الرأى ، روى عن بديع الزمان الهمذانى أنه قال : كنت عند الصاحب كافى الكفاة أبى القاسم إسمعيل بن عباد يوما وقد دخل عليه شاعر من شعراء العجم ، فأنشده قصيدةً يفضل فيها قومه على العرب ويذمهم وهى :

غنينا بالطبولِ عن الطُلول ... وعن عنس عذافرة ذمولِ[1]
وأذهلنى عقــارٌ عن عقارٍ ... فنى است أم القضاة مع العدولِ
فلست بتــاركٍ إيوانَ كِسْرى ... لتوضح أو لِحَوْملَ فَالدَّخُولِ[2]
وضبٍّ بالفلا ساعٍ وذئبٍ ... بها يَعْوى وليثٍ وسطَ غيل[3]
يسلّون السيوفَ لرأس ضبٍّ ... حِراشاً بالغَداةِ وبالأَصيل[4]
إذا ذَبَحُوا فذلك يومُ عيـدٍ ... وإن نَحَروا فنى عرسٍ جليل
أما لو لم يكن للفرس إلا ... نجارُ الصاحبِ القَرْمِ النبيلِ[5]
لـكان لهم بذلك خــير نخر ... وجيلُهُم بذلك خـير جيل

فلما وصل إلى هذا الموضع من إنشاده قال له الصاحب : فذاك . ثم اشرأَبَّ[6] ينظر إلى الزوايا وأهل المجلس وكنت جالساً فى زاوية من البَهْو[7] فلم يرَنى فقال : ابن أبى الفضل . فقمت وقَبَّلت الأرض وقلت : أمرك . وقال : أجب عن ثلاثتك قلت : وما هى ؟ قال : أدبك ونسبك ومذهبك . فقلت : لا فسحة للقول ولا راحةَ للطبع إلا السرد كما تسمع . ثم أنشدت أقول :

أراكَ على شفا خطَر مهول ... بما أودعت لفظك من فضولِ
تريد على مكارمنا دليلاً ... متى احتاج النهار إلى دليل ؟
ألسنا الضاربينَ جِزى عليكم ... وإن الجزى أولى بالذَّليلِ
متى قرع المنابر فارسىّ ... متى عَرَف الأَغَرَّ من الحجولِ

---

(١) العذافر كعلابط الاسد والعظيم الشديد من الابل ، والذمول الناقة التى تذمل فى سيرها والذميل السير اللين ماكان أو فوق العنق .
(٢) يشير بهذا إلى ما قاله امرؤ القيس فى معلقته وهو :
قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشـمأل
وكل هذه أسماء مواضع . (٣) الفلا جمع فلاة وهى القفر ، والغيـل : موضع الاسد . (٤) حرش الضب : صاده ، والاصيل : العشى .
(٥) النجار بالكسر الاصل ، والقرم : السيد . (٦) يقال اشراب اليه مد عنقه لينظر أو ارتفع الاسـم الشرأبيبة كالطمأنينة . (٧) البهـو البيت المقدم أمام البيوت .

متى عَرَفتْ ـ وأنت بها زعيم ـ أكفُّ الفُرس أعراف الخيول
فخرتَ بملْءِ ما ضِغْنَيْكَ هُجْراً على قَحْطَانَ والبيت الأصيلِ[1]
وتفخر أنَّ مأكولاً ولبساً وذلك فخرُ ربّاتِ الحجولِ
ففاخرهن فى خدٍّ أسيل وفرع فى مفارقها رَسيلِ
وأمجدُ من أبيك إذا تزيّا عُراةٌ كالليوثِ على الخيولِ

قال : فلما أتممت إنشادى التفت إليه الصاحب وقال له : كيف رأيت ، قال لو سمعت به ما صدقت . قال : فإذاً جائزتك جوازك إن رأيتك بعد هذا ضربت عنقك . ثم قال : لا أدرى أحداً يفضل العجم إلا وفيه عرق من المجوسية ينْزِع إليه .[2] والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوع نفاقٍ إما فى الاعتقاد وإما فى العمل المنبعث عن هوى النفس مع شبهات اقتضت ذلك ، ولهذا جاء فى الحديث « حب العرب إيمان وبغضهم نفاق » ، مع أن الكلام فى هذه المسائل لا يكاد يخلو عن هوى النفس من الطرفين ، وهذا فى الشريعة محرم فى جميع المسائل ، فإن الله تعالى قد أمر المؤمنين بالاعتصام بحبل الله ونهاهم عن التفرق والاختلاف وأمرهم بإصلاح ذات البين : وفى الحديث : مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى . وفى حديثٍ آخر : لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد اللهِ إخواناً كما أمركم الله تعالى . وإنى لا أعجب من غير المسلمين إذا نازع فى هذه المسألة ، وإنما العجب ممن يلتزم أمر الشريعة ويخالف فيما سمعت من فضل العرب مع ما ورد من النصوص الصريحة فى ذلك . فقد روى الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن العباس رضى الله تعالى عنه ، قال : بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعض ما يقول الناس ، قال فصعد المنبر فقال :

---

(١) الماضغان اصول اللحيين عند منبت الأضراس ، والهجر بالضم القبيح من الكلام . (٢) اى يميل اليه .

من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله . فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إنَّ الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلني في خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً .. فأخبر صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ما انقسم الخلق فريقين إلا كان هو في خير الفريقين . وقوله في الحديث خلق الخلق فجعلني في خيرهم ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة يحتمل شيئين . أحدهما : أن الخلق هم الثقلان أي الجن والإنس أو هم جميع ما خلق في الأرض وبنو آدم خيرهم . وإن قيل بعموم الخلق حتى تدخل فيه الملائكة ففيه تفضيل جنس بني آدم على جنس الملائكة وله وجه صحيح ، ثم جعل بني آدم فرقتين وهما العرب والعجم ، ثم جعل العرب قبائل ، فكانت قريشٌ أفضل قبائل العرب ، ثم جعل قريشاً بيوتاً ، فكانت بنو هاشم أفضل البيوت . ويحتمل أنه أراد بالخلق بني آدم ، فكان في خيرهم — أي في ولد إبراهيم أو في العرب — ثم جعل بني إبراهيم فرقتين ، بني إسماعيل ، وبني إسحاق ، وجعل العرب عدنان وقحطان ، فجعلني في بني إسماعيل في بني عدنان ، ثم جعل بني إسماعيل وبني عدنان قبائل ، فجعلني في خيرهم قبيلة وهم قريش . وعلى كل تقدير فالحديث صريح بتفضيل العرب على غيرهم ، ولهذا وردت أخبار صحيحة في محبتهم والاعتناء بشأنهم منها : أن حب العرب إيمان وبغضهم كفر . من أحب العرب فقد أحبني ، ومن أبغض العرب فقد أبغضني . ومنها : من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي . وذلك لأن الغش للنوع لا يكون مع محبتهم بل لا يكون إلا مع استخفاف أو بغض . ومنها : أحبوا العرب لثلاث لأني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة عربي . وروى الترمذي عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه أنه قال : فضلتمونا يامعشر العرب باثنتين لا نؤمكم ولا ننكح نساءكم . وهذا مما احتج به أكثر الفقهاء الذين جعلوا العربية من الكفاءة بالنسبة إلى العجمي ، واحتج

به أحمد فى إحدى الروايتين على أن الكفاءة ليست حقاً لواحد معين بل هى من الحقوق المطلقة فى النكاح حتى إنه يفرق بينهما عند عدمها . واحتج أصحاب الشافعى بهذا على أن الشرف مما يوجب التقديم فى الصلاة . وذكر أبو محمد حرب ابن إسماعيل الكرمانىّ صاحبُ الإمام أحمد فى وصفه للسنة التى قال فيها هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المعروفين بها المقتدى بهم فيها وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والشام وغيرهم عليها ، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق . وهو مذهب أحمد وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد وعبد الله بن الزبير الحميدى وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم . وكان من قولهم : إن الإيمان قولٌ وعملٌ ونية وساق كلاماً طويلا إلى أن قال : ونعرف للعرب حقَّها وفضلها وسابقتها ونحبهم لحديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : حبُّ العرب إيمان وبغضهم نفاق ، ولا نقول بقول الشعوبية وأرذال الموالى الذين لا يحبون العرب ولا يقرون بفضلهم ، فإن قولهم بدعة وضلال ، عند ذوى الفضل والكمال . انتهى . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، وللحافظ العراقى رسالةٌ فى ذلك سماها (القُرب فى محبة العرب) . وكذا لغيره من العلماء المتقدمين :

* * *

شبه الشعوبية وإبطالها

قالت الشعوبية : إنا ذهبنا إلى العدل والتسوية وإن الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجلٍ واحد ، واحتججنا بقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم . وقوله فى حجة الوداع وهى خطبته التى ودع فيها أمته وختم نبوته : أيها الناس إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية ونخرها بالآباء كلكم لآدم ، وآدم من تراب ،

ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى . وهـذا القول من النبى عليه الصلاة والسلام موافق لقوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فأبيتم إلاّ فخْراً وقلتم لا تساوينا العجم وإن تقدمتنا إلى الإسلام ثم صلت حتى تصير كالحَنِىّ وصامت حتى تصير كالأوتار . ونحن نسامحكم ونجيبكم إلى الفخر بالآباء الذى نهاكم عنه نبيكم صلى الله تعالى عليه وسلم إذ أبيتم إلاّ خلافه وإنما نجيبكم إلى ذلك لإتباع حديثه وما أمر به صلى الله تعالى عليه وسلم فنرد عليكم حجتكم فى المفاخرة ونقول : أخبرونا إن قالت لكم العجم هل تعدون الفخر كله أن يكون ملكا أو نبوة ؟ فإن زعمتم أنه ملك ، قالت لكم : وإن لنا ملوكَ الأرض كلها من الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة ، وهل ينبغى لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان عليه الصلاة والسلام الذى سخرت له الإنس والجن والطير والريح وإنما هو رجل منا ؟ أم هل كان لأحد مثل ملك الإسكندر الذى ملك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها وبنى رَدْماً[١] من حديد ساوى به بين الصَّدَفَيْن[٢] وسجن وراءه خلقاً من الناس تربو على خلق الأرض كلها كثرة ؟ يقول الله عز وجل : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون)[٣] ، فليس شىء على كثرة عددهم من هذا وليس لأحد من ولد آدم مثل آثاره فى الأرض ولو لم يكن إلا منارة إسكندرية التى أسسها فى قمر البحر وجعل فى رأسها مرآة يظهر البحر كله فى زجاجتها . وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب أحدهم إلى عمر بن عبد العزيز من ملك الأملاك الذى هو ابن ألف ملك ، والذى تحته بنت ألف ملك ، والذى فى مربطه ألف فيل ، والذى له نهران ينبتان العود والفُوَّة والجوز والكافور الذى يوجد ريحه على اثنى عشر ميلا ، إلى

---

(١) هو السد بين يأجوج ومأجوج . (٢) الصدفان ناحيتان وقوله عز وجل ساوى بين الصدفين اى ما بين الناحيتين من الجبل .

(٣) الحدب بفتحتين ما ارتفع من الارض، وينسلون اى يسرعون من النسلان وهو مقاربة الخطو مع الاسراع كمشى الذئب اذا اسرع يقال مر الذئب ينسل ويعسل .

ملك العرب الذى لا يشرك بالله شيئاً . أما بعد فإنى أردتُ أن تبعث إلىَّ رجلا يعلمنى الإسلام ويوقفنى على حدوده والسلام . . . وإنْ زعمتم أنه لا يكون الفخر إلا بنبوة فإن منّا الأنبياء والمرسلين قاطبةً من لدُنْ آدم ما خلا أربعةً هوداً وصالحاً واسماعيل ومحمداً عليهم الصلاة والسلام . ومنا المُصْطَفَوْن من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع ، وإنما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم وادعوا . ولم تزل الأمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الأرض لها ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تَدين بها وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها فى الأدوات والصناعات ، مثل صنعة الديباج وهى أبدع صنعة ، ولعب الشطرنج وهى أشرف لعبة ، ورمانة القبان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ، ومثل فلسفة الروم فى ذات الخلق والقانون والإصطرلاب الذى يعدل به النجوم ويدرك به علم الأبعاد وَدَوَرَان الأفلاك وعلم الكسوف وغير ذلك من الآثار المتقنة ، ولم يكن للعرب مَلِكٌ يجمع سوادَها ويضم قَوَاصِيَها ، ويقمع ظالمها وينهى سفيهَهَا ، ولا كان لها قط نتيجة فى صناعة ولا أثر فى فلسفة إلا ما كان من الشعر . وقد شاركتها فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض فما الذى تفتخر به العرب على العجم فإنما هى كالذئاب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض . فرجالها موثقون فى حَلَق الأَسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل ، فإذا أدركهن الصريخ استنقذن بالعشىّ ، وقد وطئن كما توطأ الطريق المَهْيَع .[1] فخر بذلك شاعر فقال : وأوثق عند المردفات عشية[2] فقيل له ويحك وأىُّ فخر أن تلحق بالعشى وقد نكحن وامتهنّ . وقال جرير يعير بنى دارم بغلبة قيس عليهم يوم رحرحان :

ورحرحان غداةَ كُبِّلَ معبد   نُكِحَتْ نساؤُكُمُ بغير مُهور

(١) الواسع الواضح . (٢) تمامه : لحاقا اذا ما جرى السيف مانع .

وقال عنترة لامرأته

إن الرِجال لهم إليك وَسيلةٌ أنْ يأخذوكِ تكحَّلى وتخضَّبى

وأنا امرؤٌ إنْ يأخذونى عنْوةً أُقرنْ إلى شدِّ الرِكاب وأجنب

ويكون مركبك القعود ورحله وابنُ النعامة عندَ ذلك مركبى

أراد بابن النعامة ، باطِنَ القدم . وسبى ابن هبولة الغسانىُّ امرأة الحارث بن عمرو الكنْدىّ فلحقه الحارث فقتله وارتجع المرأة ، وقد كان نال منها فقال لها : هل كان أصابك ؟ قالت : نعم والله فما اشتملت النساء على مثله . فأوثقها بين فرسين ، ثم استحفزها حتى قطعاها ، وقال فى ذلك :

كل أُنثى وإنْ بدا لك منها آيةُ الود حبها خَيَتْعُورُ(١)

إنَّ من غرَّه النساء بودٍّ بعدَ هندٍ لَجاهلٌ مغْرُورُ

وسبت بنو سليم ريحانة أخت عمرو بن معد يكرب فارس العرب ، فقال فيها عمرو :

أمنْ (ريحانة) الداعى السميع يُؤَرِّقُنى وأصحابى هجوع

وفيها يقول :

إذا لم تسْتطع أمراً فدعْه وجاوِزْهُ إلى ما تَسْتَطِيعُ(٢)

وأغار الحوفزان على بنى منقذ بن زيد مناة فاحتمل الزرقاءَ من بنى ربيع بن الحارث فأعجبته وأعجبها فوقع بها ، ثم لحقه قيس بن عاصم فاستنقذها وردَّها إلى أهلها بعد أن وقع بها . . فهذا كان شأن العرب والعجم فى جاهليتها ، فلما أتى الله بالإسلام كان للعجم شطر الإسلام . وذلك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعث إلى الأحمر والأسود من بنى آدم ، وكان أول من تبعه حر وعبد ، واختلف الناس

---

(١) الخيتعور : السيئة الخلق وكل ما لا يدوم على حالة .

(٢) قال الدمامينى : يحكى ان شخصا سأل الخليل أن يقرأ عليه علم العروض فاقام مدة يختلف اليه للقراءة ولم يحصل شيئا فأعيا الخليل أمره ولم ير أن يواجهه بالمنع حياء منه فقال له يوما وقد حضر للقراءة قطع قول الشاعر اذا لم تستطع البيت ففطن الرجل الى ما اراده الخليل فانصرف ولم يعد ، وانا اعجب ممن تفطن لمثل هذا كيف يصعب عليه فن العروض مع سهولته والله مقدر الامور .

فيهما فقال قوم : أبو بكر ، وبلال . وقال قوم : علىٌّ وصُهَيْب . ولما احتضر عُمَرُ ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه قدم صهيباً على المهاجرين والأنصار فصلى بالناس وقال له : استخلف . فقال : ما إخالنى ممن أستخلف ، فذكر له الستة من أهل حِراء فكلهم طعن عليه ، ثم قال لو أدركت سالمًا مولى أبى حذيفة حياً لما شككت فيه ، فقال فى ذلك شاعر العرب :

هذا صُهيْبٌ أمَّ كلَّ مُهَاجِرٍ ... وعلا جميعَ قبائلِ الأنصارِ
لم يرض منهم واحداً لصلاتنا ... وهُمُ الهداة وقادةُ الأخيارِ
هذا ولو كان المثرم سالمٌ ... حيًّا لنال خلافَةَ الأَمصارِ
مازال هذى العجم تحيا دوننا ... إن العريب لفى عَمىً وخسارِ

وقال بجير يعيّر العرب باختلافها فى النسب واستلحاقها للأدعياء :

زعمتم بأن الهند أولادُ خِندفٍ ... وبينَكُمُ قربى وبين البرابرِ
وديلمُ من نَسْلِ ابن ضَبَّةَ باسل ... وبرجان من أولاد عمرو بن عامرِ
فقد صار كلٌّ الناس أولادَ واحدٍ ... وصاروا سواءً فى أصولِ العناصرِ
بنو الأصفرِ الأملاك أكرمُ منكم ... وأولى بقربانا ملوك الأكاسرِ
أتطمع فى صهرى دَعِيًّا مجاهراً ... ولم تر ستراً من دعىٍّ مُجاهرِ
وتشتم لؤماً رهطَه وقبيلَه ... وتمدح جهلا طاهراً وابنَ طاهر

وقال الحسن بن هانىء على مذهب الشعوبية :

وجاورت قَوْماً ليس بينى وبينهم ... أواصِرُ إلاّ دعوةٌ وبطونُ
إذا ما دعى باسمى العَرِيفُ أجبتُهُ ... إلى دعوةٍ مما علىَّ يهونُ
لازد عمان بن المهلّب نزوة ... إذا افتخر الأقوام ثم تلينُ
وبكر يرى أن النبوة أنزلت ... على مسمع فى البطن وهو جنينُ
وقالت تميم : لا نَرىَ أن واحداً ... كأحنفنا حتى الممات يكونُ

فلا لمت قيسا بعدها فى قتيبةٍ إذا افتخروا إن الحديث شجون[1]

ردّ ابن قُتَيْبَةَ على الشعوبية

قال ابن قتيبة فى كتاب تفضيل العرب : وأما أهل التسوية فإن منهم قوماً أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه ، فذهبوا إلى قوله عز وجل : (يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائلَ لتعارفوا إن أكرَمَكُمْ عِنْدَ الله أتقاكم) . وقوله : (إنما المؤمنونَ إخوةٌ فأصْلحوا بين أخويْكم) . وإلى قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى خطبته فى حجة الوداع : (أيها الناس إن الله قد أَذْهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ليس لعربىٍّ على عجمى فخرٌ إلا بالتقوى ، كلُّكم لآدام وآدم من تراب) . وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (المؤمنون تتكافأُ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم) . وإنما المعنى فى هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواء فى طريق الأحكام والمنزلة عند الله تعالى والدار والآخرة ، لو كان الناس كلُّهم سواءً فى أمور الدنيا ليس لأحَدٍ فضلٌ إلا بأمر الآخرة لم يكن فى الدنيا شريف ولا مشروفٌ ، ولا فاضل ولا مفضول ، فما معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأَكْرِمُوه) . وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (أقيلوا ذوى الهيآت عثراتِهِمْ) . وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى قيس ابن عاصم : (هذا سيد الوَبَر) . وكانت العرب تقول : (لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساوَوْا هلكوا) . تقول . لا يزالون بخير ما كان فيهم أشراف وأخيار فإذا جملوا كلهم جملة واحدة هلكوا . وإذا ذمَّت العَربُ قوماً قالوا : « سواسية كأسنان الحمار » .[2] وكيف يستوى الناس فى فضائلهم والرجل الواحد لا يستوى فى نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله ، ولكن لبعضها الفضل على بعض ،

---

(١) هذا مثل ولفظه : الحديث ذو شجون أى ذو طرق الواحد شجن بسكون الجيم ، يضرب هذا المثل فى الحديث يتذكر به غيره ، وأول من قاله ضبة بن اد بن طابخة بن ایاس ابن مضر ، وقصته مذكورة فى كتب الامثال فلتراجع . (٢) قال فى الصحاح هما فى هذا الأمر سواء ، وان شئت سواآن وهم سواء للجمع وهم اسوآء وهم سواسية مثل يمانية على غير قياس ، وفى

وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس الخمس وقالوا : القلب أمير الجسد ، ومن الأعضاء خادمة ومنهـا مخدومة ، ثم قال : ومن أعظم ما ادَّعت الشعوبية فخرهم على العرب بآدم عليه السلام ، ويقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ولا تفضلونى عليه فإنما أنا حسنة من حسناته » . ثم فخرهم بالأنبياء أجمعين وأنهم من العجم غير أربعة هود وصالح وإسمعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، واحتجوا بقول الله عزوجل: (إن الله اصطفى آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عمْرانَ على العالمين ذريةً بعضها من بعض والله سميع عليم) . ثم فخروا بإسحق بن إبراهيم وأنه لسارة : وأن إسمعيل لِأَمة تسمى هاجر . وقال شاعرهم :

في بلدة لم تصل عُكْلٌ بها طُنُباً ولا خِباءً ولا عَكٌّ وهَمْدانُ[١]

ولا لجرْمٍ ولا نهدٍ بها وطن ولكنها لبنى الأحرار أوطانُ[٢]

أرض تبنى بها كسرى مساكنه فما بها من بنى اللخناء إنسانُ

فبنو الأحرار عنـدهم العجم ، وبنو اللخناء عندهم العرب ، لأنهم من ولد هاجر وهى أمة . وقد غلطوا فى هذا التأويل ، وليس كل أمة يقال لها اللخناء ،

التهذيب : قال الفراء هم سواسية يستوون فى الشر ولا أقول فى الخير ولا واحد له وحكى عن ابى القمقام سواسية اراد سوآء ثم قال سية ، وروى عن ابى عمرو انه قال ما أشد ماهجا القائل :

سواسية كاسنان الحمار

وذلك ان اسنانه مستوية انتهى ، وفى الفرائد : سواسية كاسنان الحمار، ويقال سواسية كأسنان المشط ، قيل لايعرف للسواسية مفرد وانما هى كلمة موضوعة موضع سواء فى الشر والمكروه وقيل جمع سوآء على غير قياس ، والمراد فى المثل فى الشرواول من تكلم به النبى صلى الله عليه وسلم .

(١) عكل على مافى نهاية الارب النويرى بطن من طابخة من العدنانية وهم بنو عوف بن عبد مناة بن اد بن طابخة ، والطنب بضمتين حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد والجمع اطناب وطنبة ، وعك : بطن من الازد من القحطانية ، وهمدان : بطن من كهلان من القحطانية قال فى العبر : وديار همدان لم تزل باليمن من شرقيه ولما جاء الاسلام تفرق من تفرق وبقى من بقى باليمن ، وكانت همدان شيعة أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رض) عند وقوع الفتن بين الصحابة (رض) . (٢) قال المجد : جرم بطن فى طيىء وابن زبان بطن فى قضاعة انتهى والتفصيل فى نهاية الارب للنويرى ، ونهد : بطن من قضاعة من القحطانية .

وإنما اللخناء من الإماء المُتهنة فى رعى الإبل وسقيها وجمع الحطب ، وإنما أخذ من اللخن وهو نتن الريح يقال لخن السقاء إذا تغير ريحه . فأما مثل هاجر التى طهرها الله تعالى من كل دنس وارتضاها للخليل فراشاً وللطيبين إسمعيل ومحمد عليهما السلام أماً ، وجعلهما سلالةً فهل يجوز للمحد فضلاً عن مسلم أن يسميها لخناء ؟ .

رد الشعوبية على ابن قتيبة

قال بعض من يرى رأى الشعوبية فيما يرد به على ابن قتيبة فى تباين النـاس وتفاضلهم والسيد منهم والمسود : إنا لا ننـكر تباين الناس ولا تفاضلهم ولا السيد منهم والمسود والشريف والمشروف ، ولـكننا نزعم أن تفاضل النـاس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا بأحسابهم ولـكنهم بأفعالهم ، وأخلاقهم ، وشرف أنفسهم ، وبعد هممهم ، ألا ترى أنه من كان دنيَّ الهمة ، ساقط المروة ، لم يشرف وإن كان من بنى هاشم فى ذؤابتها[١] ومن أميَّة فى أرومتها[٢] ومن قيس فى أشرف بطن منها . إن الـكريم من كرمت حاله ، والشريف من شرفت همته . وهو معنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام : (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه) . وقوله فى قيس بن عاصم : (هذا سيد أهل الوبر) إنما قال فيه لسؤدده فى قومه بالذب عن حريمهم وبذل رِفْدِه لهم ، ألا ترى أن عامرَ بنَ الطُّـفَيْل كان فى أشرف بطن فى قيس يقول :

وإنى وإن كنتُ ابنَ سيد عامر ... وفارسَها المشهورَ فى كل موكبِ[٣]
فما سوَّدتنى عامر عن وراثةٍ ... أبى اللهُ أن أسمُو بأمٍ ولا أبِ
ولـكنّنى أحمى حماها وأتقى ... أذاها وأرمى من رَماها بمنكب

(١) الذؤابة من العز والشرف وكل شيء اعلاه .
(٢) الارومة بالفتح وتضم الاصل .
(٣) يستشهد النحويون بهذا البيت على تسكين واو اسمو مع الناصب لاجل الضرورة .. والمعنى انه وان كان كريم الاصل شريف المحتد الا انه لم يرث السيادة عن آبائه وانما سيادته من نفسه لحملها على معالى الآمور ثم قال ابى الله ان اسمو بام ولا اب اي لا يكون ذلك ابدا — والموكب : الجماعة ركبانا أو مشاة أو ركاب الابل للزينة .

وقال الآخر

إنَّا وإنْ كرمت أوائِلُنا لسنا على الأحساب نتكل

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وقال قسٌ بن ساعدة « لأقضينّ بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلى ولا يردُّها أحد بعدى ، أيُّما رجل رمى رجلا بملامة دونها كرم فلا لوم عليه ، وأيما رجل ادعى كرماً دونه لؤم فلا كرم له » . ومثله قول عائشة أم المؤمنين « كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به » . تعنى بقولها أن أولى الأشياء بالإنسان طبائع نفسه وخصالها ، فإذا كرمت فلا يضره لؤم أوليته . وإن لؤمت فلا ينفعه كرم أوليته . وقال الشاعر :

نفس عصام سوَّدتْ عِصاما وعلّمته الكرَّ والإقداما[1]

وجعلته ملكاً هماما[2]

وقال آخر

مالى عقلى وهمتى حسبى ما أنا مولى ولا أنا عربى

إن انتمى منْتَمٍ إلى أحد فإننى منتمٍ إلى أدَبى[3]

وتكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كلَّ مذهب فأعجب عبد الملك ما سمع منه ، فقال : ابن من أنت يا غلام ؟ قال ابن نفسى يا أمير المؤمنين التى نلت بها هذا المقعد منك . قال : صدقت قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : حسب الرجل ماله وكرمه دينه . وقال عمر بن الخطاب

---

(١) قيل عصام هو ابن شهبر حاجب النعمان بن المنذر الذى قال له النابغة حين حجبه عن عيادة النعمان من قصيدة له :

فإنى لا الومك فى دخولى ولكن ما ورآءك يا عصام

يضرب فى نباهة الرجل من غير قديم . ويسمى الخارجى اى خرج بنفسه من غير اولية كانت له ، وفى المثل : كن عصاميا ولا تكن عظاميا ، الكر العطف والرجوع ، واقدم على الامر اقداما شجع . (٢) الهمام بالضم الملك العظيم الهمة والسيد الشجاع السخى خاص بالرجال . (٣) الانتماء الانتساب .

رضى الله تعالى عنه : إن كان لك مال فلك حسب ، وإن كان لك دين فلك كرم .

وقد تعجب شهاب الدين الأندلسى فى كتابه العقد حيث قال بعد ذكر ما سبق من الكلام : وما رأيت أعجب من ابن قتيبة فى كتاب تفضيل العرب إنَّه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب ، ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية . فنقض فى آخره كل ما بنى فى أوله ، فقال فى آخر كلامه : وأعدل القول عندى أن الناس كلهم لأبٍ وأمّ خلقوا من تراب وأعيدوا إلى التراب ، وجروا فى مجرى البول ، وطرأ عليهم الأقذار ، فهذا نسبهم الأَعلى الذى يردع به أهل العقول عن التعظيم والكبرياء ، والفخر بالآباء ، ثم إلى الله مرجعهم فتنقطع الأنساب وتبطل الأحساب ، إلا من كان حسبه التقوى ، أو كانت ما تته طاعة الله .

قول الشعوبية فى مناكح العرب

إنما كانت العرب فى الجاهلية ينكح بعضهم نساء بعض فى غاراتهم بلا عقد نكاح ولا استبراء من طمْث أى الحيض فكيف يدرى أحدهم من أبوه ، وقد فخر الفرزدق ببنى ضبّة حين يبتزون العيال فى حروبهم فى سبية سبوها من بنى عامر بن صعصعة :

فظلّتْ وظلوا يرْكبُون هَبيرَهَا وليسَ لهم إلا عواليهَا ستْرُ

والهبير : المطمئن من الأرض . وإنما أراد ههنا فرجها ، وهو القائل فى بعض ما يفخر به :

ومنـا التميمىُّ الذى قامَ أَيْرهُ ثلاثينَ يوماً ثم زادَهُمُ عشراً

الرد عليهم فى ذلك

إن جميع ما ذكره الشعوبية فى شأن مناكح العرب ، وما أوردوه فى باب الطعن على أنسابهم بما كانوا يتعاطونه فى الغارات من سَبْى النساء واسترقاقهم ووطئهم من غير استبراء من طمث ونحو ذلك لا أصل له ، وكتب التواريخ

صادحةٌ بتبرئتهم مما رماهم به خصومهم وأعداؤهم ، وقد نطق الشعر الجاهلى بما كانوا عليه من الحمية والغيرة ومزيد الاعتناء بأنسابهم وحفظ حريمهم والذب عن أحسابهم وعشائرهم ، ولم يكن من مذاهب العرب وعوائدها قديماً وحديثاً التعرض بسوء للنساء والأهل فى الغارات والمنازعات . بل كان ذلك من أكبر الكبائر لديهم . وما روته الشعوبية من الأبيات الشعرية إن صحت عن قائلها وأنه كان من صميم العرب فلا مطعن فيه فإن ما يصدر عن شخص من قوم لا يسوغ عند ذوى العقول والآراء الصائبة أن يؤاخذ به جميع أفراد نوعه (ولا تزرُ وَازرةٌ وزر أُخْرى) . ولم يدَّع أحد أن كل فرد من أفراد العرب معصوم من كل خطيئة وعيب ، وأن كل فرد منهم أفضلُ من كل فرد من غيرهم فى جميع صفات الفضائل ، هيهات ذلك فإن هذا بديهىّ البطلان . ألا ترى أن جميع أهل العقول السليمة قائلون بفضل جنس الرجال على جنس النساء مع أن بعض أفرادهن لا يعادلهن فى الكمالات النفسية والفضائل الإنسانية ألوف مؤلفة من الرجال العارين عن ذلك . وما أحسن قول الشاعر :

ولو أنَّ النساءَ كمن فقدْنا لفضِّلْنا النساءَ على الرجالِ (١)

فما كان من شخصٍ أو شخصين من أمة العرب من المنكر لا يزرى بعلو شأنهم ورفيع مجدهم لاسيما إذا كان ذلك المنكر ليس بمقطوع الصحة أو أنه مما له وجه ، فإن السبى عند غزو بعضهم بعضاً كان فى حكم الرقيق بمقتضى ديانتهم

(١) البيت للمتنبى من قصيدة يرثى بها والدة سيف الدولة وقد توفيت بميافارقين وجاءه الخبر بموتها الى حلب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة وأولها:

نعد المشرفية والعوالى وتقتلنا المنون بلا قتال
ونرتبط السوابق مقربات وما ينجين من جنب الليالى
ومن لم يعشق الدنيا قديما ولكن لا سبيل الى الوصال
نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال

وهى طويلة وكلها فرائد ودرر ، ومعنى البيت يقول لو ان نساء العالم كهذه المفقودة فى الكمال والعفاف لفضلن على الرجال ، قال ابن وكيع ينظر الى قول على ابن الجهم .

اذا ما عد مثلكم رجالا فما فضل الرجال على النساء

وعوائدهم ، ووطء ملك اليمين من غير عقد ليس بزنى عند كافة أهل الأديان .
هذا مع أن الأمر كما ذكرناه سابقاً ، ثم نقول أىّ أمة من الأمم غير العرب كانت معصومة من السبي والغارات ، وهكذا دين الخليقة من أولها إلى آخرها ، ولو ذكرنا حال مناكح سائر الأمم غير العرب فى الأيام الخاليـة لاسودّ وجه القرطاس . وما قالته الشعوبية من أن العرب كانوا يقربون النساء من غير استبراء من طمث فهو بهتانٌ عظيم ، وشعر العرب وتواريخهم ناطقة بخلافه ، وأنهم كانوا يحترزون عن الجماع فى الحيض ، وسيأتى بيان ذلك فى الكلام على عوائدهم وعباداتهم إن شاء الله تعالى .

مجمل القول فى جميع ما قالته الشعوبية فى العرب

اعلم أن جميع ما قالته الشعوبية فى مقام الاستدلال فى مدّعاهم واقع فى غير موقعه وقائم فى غير محله ، فإن المدعى إنما هو فضيلة الجنس فيما هو مناط الفضيلة بين أنواع بنى آدم ، وهو أن سبب فضل جنس العرب ما اختصوا به فى عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم وغير ذلك مما أسلفناه وأوضحناه بأتم وجه وأبسطه .
وليس المدعى أن الفضيلة بنبوّة حتى يقال إن أنبياءَ غير العرب أكثر من أنبيائهم ، فإن جميع الأنبياء كما ذكر وهب بن منبه مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي ، الرسل منهم ثلاثمائة نبي وخمسة عشر نبياً ، ومنهم خمسة عبرانيون : آدم وشيث وإدريس ونوح وإبراهيم . وخمسة من العرب : هود وصالح وإسمعيل وشعيب ومحمد صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين . وروى أبو صالح عن ابن عباس (١) قال : بعث الله إلى أهل الرسّ — والرس : البئر — نبياً منهم يقال له حنظلة بن صفوان فكذبوه وقتلوه ، فأوحى الله تعالى إلى نبي كان مع بختنصّر يقال له أرميا بن برخيا : مُرْ بُختنصر يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم

---

(١) اقول ان أبا صالح لم ير ابن عباس الأرض على ماذكر رجال الجـرح والتعديل منهم الامام الذهبى فى الميزان .

فيقتلهم بما صنعوا بنبيهم ، وخالد بن سنان كان أيضاً من أنبياء العرب كما ورد الحديث فى شأنه ، وهو قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : ذاك نبى أضاعه قومه ، وباقى الأنبياء من سائر الأمم المختلفة . فليس فضل العرب ثم قريش ثم بنى هاشم لمجرد كون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منهم وإن كان هذا من الفضل ، بل هم فى أنفسهم أفضلُ وبذلك يثبت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أفضل نفساً ونسباً وإلا لزم الدور ، مع أنه لو ادعى خصوم الشعوبية أن منشأ الفضيلة ذلك لأمكنهم أن يقولوا إن أنبياء العرب على قلتهم يساوون غيرهم من الأنبياء والرسل فى الفضل أو يرجحونهم ، وليس ذلك ببِدْعٍ فإن التفاوت ما بين إنسان وإنسان ، ظاهر لدى العيان ، فإنك قد ترى واحداً كعشرة وعشرة كمائة بل واحداً كمائة وعشرة أخرى هَدَرَة [1] دون واحد . وقيل لامرأة : أعشرة هدرة أحب إليك أم واحد كعشرة ؟ فقالت بل واحد كعشرة . قال الشاعر :

ولم أَرَ أَمثال الرجال تفاوتاً   لدى المجد حتى عُدَّ ألف بواحدِ

بل نرى واحداً كعشرة آلاف ، ونرى عشرة آلاف دون واحد ، كما قال عليه الصلاة والسلام وهو أصدق قيلا : الناس كإبلٍ مائةٍ لا تكاد تجد فيها راحلة . والإبل فى تعارفهم اسم لمائة بعير ، فمائة إبل هى عشرة آلاف بعير ، بل لو قيل قد نرى واحداً كعالم وعالماً كواحد لجاز ، كما قال عليه الصلاة السلام : وزنت بأمتى فرجحتهم ، وعلى هذا قول الشاعر :

ليس على الله بمستنكَرٍ   أنْ يَجْمعَ العالَم فى واحدِ

وليس المدعى أيضاً أن الفضيلة بملك وثروة وكثرة عَدَدٍ وعُدَد ، فإنها ليست أيضاً مما تستوجب الفضيلة ، وتقتضى الصفات الجميلة .

---

(١) هدرة محركة وكعنبة وهمزة ساقطون ليسوا بشىء والفتح اقيس لانه جمع هادر مثل كافر وكفرة وكذا الواحد والانثى يقال رجل هدرة مثل همزة ساقط قال الحصين بن بكير الربعى :

انى اذا حار الجبان الهدره   ركبت من قصد السبيل شجره

كم عاقلٍ عاقل أعيت مذاهبه   وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا[1]

وفى معنى ذلك يقول السموءل من أبيات مر ذكرها :

وما ضرَّنا أنا قليلٌ وجارنا   عزيز وجار الأكثرين ذليل

مع أنه قد بلغت مدنية العرب فى الأيام الخالية إلى ما لم يبلغها أحد إذ ذاك ، وإن انقطع عنا أخبارهم ، هذه آثار مبانيهم العظيمة ، وبقايا مدنهم الجسيمة تشهدلنا بذلك ، ومدينة تدمر كانت إحدى مدن العرب ومبانيها كما فى القاموس وغيره ، وما يشاهد من بقاياها من أعاجيب الأكوان التى تعجز أهل العصور المتأخرة عن مطاولتها فى رصانتها . وتبابعة اليمن وإذواؤها بلغ تسلطهم على البلاد واستيلاؤهم على الأقطار إلى ما يكل القلم عن وصفه . ومنهم الذى ساوى بين الصدفين ، وطاف بلاد الأرض ما بين المشرقين والمغربين ، وهو الذى كان يلقب بذى القرنين على خلاف ما يزعمه الشعوبية وغيرهم ، وهم بعض أهل العلم من أنه إسكندر الرومى ، فإن الشعر القديم شاهدٌ لما قلناه بل هو أقوى دليل على ذلك ، قال أعشى بن ثعلبة :

والصعب ذو القرنين أمسى ثاوياً   بِالْحِنْوِ فى جدث هناك مقيم

والحنو بكسر المهملة وسكون النون فى ناحية المشرق . وقال الربيع بن ضبيع :

والصعب ذو القرنين عمَّر ملكه   ألفين أمسى بعد ذاك رميما

---

(١) البيت لابن الراوندى الملحد الزنديق المشهور ، وقبله :

سبحان من وضع الاشياء موضعها   وفرق العز والاذلال تفريقا

وبعده :

هذا الذى ترك الاوهام حائرة   وصير العالم النحرير زنديقا

وعاقل الثانى صفة لعاقل الاول بمعنى كامل العقل متناه فيه كما يقال مررت برجل رجل أى كامل فى الرجولية ومعنى أعيت مذاهبه أعجزته وصعبت عليه طرق معايشه » والنحرير بكسر النون الحاذق الماهر العاقل المجرب المتقن الفطن البصير بكل شىء لانه ينحر العلم نحرا والزنديق بكسر الزاى من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة أو من يبطن الكفر ويظهر الايمان أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية .

وقال قسّ بن ساعدة الأيادى :

والصعب ذو القرنين أصبحَ ثاوياً بِاللَّحْد بين مــلاعب الأرياح

وقال تُبّـع الحميرى :

قد كان ذو القرنين قبلى مُسْلِماً مَلِـكا تدين له الملوك وتحشدُ

من بعـــده بِلقيسُ كانت عمتى ملـكتهم حتى أتاها الهُدْهُدُ

وقال بعض الحارثيين يفتخر بكون ذى القرنين من اليمن يخـاطب قوماً من مصر .

سَمُّوا لنا واحداً منــكم فنعرفه فى الجاهلية لاسم الملك محتملا

كالتُّبَّعَـيْنِ وذو القرنين يقبله أهل الحجى وأحق القول ما قبلا

وقال النعمان بن بشير الأنصارى الصحابى ابن الصحابى :

ومن ذا يعادينا من الناس معشر كرام وذو القرنين منا وحاتمُ

ويؤخذ من أكثر هذه الشواهد أن الراجح فى اسمه الصعب . ووقع ذكر ذى القرنين أيضاً فى شعر امرئ القيس وأَوْس بن حجر وطَرفَة بن العبد وغيرهم ، وفى كتاب نشر المحاسن اليمانية شيء كثير من مآثرهم بحيث يطول نقله ، وفى وصف القحطانيين يقول الـكلاعى :

ورتبنا مراتِبَ كُلِّ ملك فـكان لنا الخلائقُ مُقْتَفِينا

سَنَنَّا للبريَّة كلّ فعــل جميلٍ من فعـال الأكرمينا

فهم يتشبَّهون بما فعلنا وفى آثارنـــا يتتبعونا

وليسوا مُدْركين لنا لأنّا جعلنـا السابقينَ الأولينا

وقال فى شرح هذه الأبيات أيضاً : إن أول من لبس التاج ورتب وظائف الملك وعهد عهداً إلى عامل بلد وأمره بالعدل والإنصاف ودون الدواوين وبعث الأمراء إلى الثغور حمير بن سبأ الأكبر ، وأول من علّق السلسلة على باب قصره ليتعلق بها المتظلمون عبد شمس بن وائل ، وأول من نظر فى أمر الشاكى وعزل

عامل البلد بسبب أمر الشكاية سعد الكامل ، وأول من شفع وأفدى فى الأسارى تبع الأصغر ، ولذلك سمى ماء السماء . وأول من اتخذ الخط العربى على أبجد مُرَّة ابن مرامر[١] . وأول من قام بالضيافة عامر بن حارثة الأزدى من طيء . وأول من حكم فى الخنثى باتباع المبال عمرو بن حُمَمة الدوسى[٢] . وأول من طيب الميت بالحنوط مقسم بن بهر القضاعى . وأول من قسم للذكر مثل حظ الأنثيين عامر بن جشم الجهمى . وأول من صلى على الميت عطيرة بن صعب السكسكى . وأول من أعان مستوفداً فى حمل دية جماد بن عبد التيمى من همدان . فهذه أمور سبقت إليها بنو قحطان فى الجاهلية ، وجاء الإسلام بمثل ذلك ، وهذه غاية من ذكاء فطنهم . . ومن ذكائهم أيضاً أنهم أول من ربط الخيل وراضها ووصفها بما يَليق بها وعمل لها السروج واللجم وفى ذلك يقول مالك بن ملالة بن أرحب الهمدانى :

أمرت بايتاء اللجام فأبدعت   وأنعلت خيلى فى المسير حديدا
وأرحبُ جدى أحدث السرج قبلنا   ولو نَطَقَتْ كانت بذاك شهودا

وهم أول من أبدع جميع أنواع السلاح من سيف ورمح وقوس وسهم ودرع وغير ذلك . ولأصناف الخيل وأنواع السلاح عندهم أسماء معروفة يطول ذكرها ،

---

(١) أقول هذا وهم صراح مخالف لما ورد فى كتب الأنساب وغيرها والصحيح مرامر بن مرة أو مروة وهو أول من وضع الخط العربى على ما يقال . . قال شرقى بن القطامى : ان أول من وضع خطنا هذا رجال من طىء منهم مرامر بن مرة . قال الشاعر :

تعلمت باجـــاد وآل مرامـــر   وسودت أثوابى ولست بكاتب

قال وانما قال وآل مرامر لانه قد سمى كل واحد من أولاده بكلمـــة من (ابجد) وهى ثمانية قال ابن برى الذى ذكره ابن النحاس وغيره عن المدائنى انه مرامر بن مروة . قال المدائنى أول من كتب بالعربية مرامر بن مروة من أهل الانبار ويقال من أهل الحيرة قال وقال سمرة ابن جندب نظرت فى كتاب العربية فاذا هو قد مر بالانبار قبل أن يمر بالحيرة ويقال انه سئل المهاجرون: من اين تعلمتم الخط ؟ فقالوا : من الحيرة وسئل أهل الحيرة : من اين تعلمتم الخط فقالوا : من الانبار . قال الزبيدى وذكر ابن خلكان فى ترجمة (على بن هلال) ما يقرب من ذلك وذكر المجد فى (ج د ر) ان أول من كتب بالعربية عامر بن جدرة ولعل الجمع بينهما اما بالترجيح أو بالعموم والخصوص أو غير ذلك مما يظهر بالتأمل كما حققه شيخنا .

(٢) تأتى ترجمته فى باب الحكام .

ولم يكن لأحد بصر بالخيل ولا بالقسي والنبل والإصابة بالرمى مثل ما للقحطانية .
ومنهم رماة تبع أسعد المعروفون بالقارَة كانوا يرمون فيصيبون ما يقصدون ، وبهم يضرب المثل فيقال « قد أنصف القارة من راماها »[1] . فهذا كله ونحوه مما يدلك على ما كانوا عليه من التمدن والثروة ، وحب التآلف والترقى فى الكمالات ، وليس المدعى أيضاً أن الفضيلة بمعرفة الصنائع والحرف حتى يرجح غير العرب عليهم فى ذلك ، فإن العرب كانوا يأنفون من تعاطيها ويعدون أصحابها من الأسافل ، حيث كان التفاخر والتفاضل بينهم يومئذ بالشجاعة والفروسية والفصاحة وغير ذلك مما هو منشأ الفضيلة فى نفس الأمر ، مع أن العرب أكثر استعداداً من غيرهم لتعلم الصناعات وسائر الفنون العقلية . ألا ترى أنهم بعد ظهور الإسلام قد بلغوا منها مبلغاً تقدموا به على غيرهم وسبقوا به من سواهم . ففى تاريخ دردى وزير المعارف العمومية بفرنسا ما معناه : بينما أهل أوربا تائهون فى دجى الجهالة لا يرون الضوء إلا من سمِّ الخياط إذ سطع نور قويٌّ من جانب الأمة الإسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات وأعمال يدٍ وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ، ومنها انتشرت فى الأمم واغتنم منها أهل أوربا فى القرون

---

(١) فى كتب الامثال : القارة قبيلة وهم عضل والديش ابنا الهون بن خزيمة وانما سموا قارة لاجتماعهم والتفافهم لما اراد الشداخ أن يفرقهم فى بنى كنانة فقال شاعرهم :

دعونا قارة لا تنفرونا فنجفل مثل اجفال الظليم

وهم رماة الحبق فى الجاهلية وهم اليوم فى اليمن قيل ان رجلين التقيا احدهما قارى فقال القارى ان شئت صارعتك وان شئت سابقتك وان شئت راميتك ، فقال الآخر قد اخترت المراماة قد انصفتنى وانشد :

قد انصف القارة من راماها انا اذا ما فئة نلقاها
نرد اولاها على أخراها

وقيل ان المثل قيل فى حرب كانت بين قريش وبين بكر بن عبد مناف ابن كنانة وكانت القارة مع قريش وهم قوم رماة فلما التقى الفريقان رماهم الآخرون فقيل قد انصفهم هؤلاء اذ ساووهم فى العمل الذى هو شأنهم وصناعتهم يضرب مثلا لمساواة الرجل صاحبه فيما يدعوه اليه .

المتوسطة مكتشفات وصناعات وفنونا علمية يأتى بيانها . وفيه يقول : كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مؤاداة بلغتين الحميرية فى اليمن والقرشية فى الحجاز وبالأخيرة جاء القرآن ، ولا يخفى عليك أن الذى يقابل الحميرية هو المضرية وإن وقع الإجماع فى القراءة على خصوص القرشية ولذلك اشتهرت واستمر خلوصها إلى وقتنا هذا باستمرار كتب العلم والديانة ، إلى أن قال : ولم يكن للعرب فى أول الأمر إلا تلك الآداب ، ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات واختلطوا بالأمم الذين سبقوهم فى الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف فأخذوا من اليونان تآليف أرسطوا وشرحوها بإمعان نظر لكنهم لم يأخدوا الفلسفة من كتب اليونان الأصلية وإنما تعلموها من الكتب المترجمة بلغة أهل الشام فهم ترجموا المترجمة ! فلذلك لما نقلها الفيلسوف العربى حفيد بن رشد إلى أوربا فى القرون المتوسطة وجد بها من التحريف أكثر مما وقع فيها أولاً .

وأما العلوم الرياضية فقد صادف فيها العرب المرمى والفضل فى ذلك للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية ، وفى أوائل القرن التاسع المسيحى أمر الخليفة المشار إليه عالمين من فلكية بغداد أن يقيسا مسافة درجة واحدة من خط الطول بصحراء سنجار ويزناها ليثبت بذلك تكوين الأرض بالمشاهدة ، وقد تبين ذلك باختلاف ارتفاع القطب الشمالى عن طرفى الخط المقيس . وقد شرح العرب كتاب إقليدس ، وهذبوا زيج بطليموس ، وحرروا حساب تعريج منطقة البروج كما حرروا الفرق بين أوقات الاعتدال ، والفرق بين السنين الشمسية والزمنية ، فوجدوا بينهما عدة دقائق ، واخترعوا للتحريرات آلات جديدة إلى غير ذلك مما يدل على ما للعرب من قابلية العلوم الرياضية . ومنهم حازت مدينة سمر قند قبل أوربا بكثير محل رصد عجيب . قال : وأما ما ينسب من اختراع الجبر والمقابلة والأرقام الحسابية المسماة عندنا بالأرقام العربية فلم يثبت ، بل إنما تعلموا ذلك مع فلسفة أرسطوا بالتلقى من غيرهم وهى من العلوم التى وجدوها بالإسكندرية ، ويمكن أنهم

نقلوا إلينا على ذلك الوجه (البوصلة) أى بيت الإبرة والبارود الذى تعلموه من أهل الصين كما يعترف لهم أهل أوربا بمزية اختراع الكاغد من القماش ، وبذلك كثرت الكتب ودنت أسعارها وسهل الطبع وتوفرت نتائجه بعد وجوده .

وقد اشتهرت العرب أيضاً بمعرفة الطب الذى كان تلقوه من كتب اليونان ، ولابن رشد تعليقات عديدة على كتب جالينوس شاهدة بما ذكر . ومن فلاسفتهم عدة أشخاص صاوروا فى وقت واحد حكماء وأطباء مشاهير مثل أبى على ابن سينا المتوفى سنة ست وعشرين وأربعمائة وابن رشد المذكور ، وقد بلغا من الشهرة إلى حيث صار أعداؤهم فى ذلك الوقت يرغبون فى معالجتهم إياهم ، كما يحكى أن بعض ملوك قسطلية كان اعتراه مرض الاستسقاء فاشتهى أن تكون معالجته على يد أطباء العرب ، وحصل من لطف الخليفة على الإذن فى أن يذهب ويداويه المسلمون . ومن مآثر حكماء العرب كيفية تقطير المياه واستعمال الراوند وأدوية كثيرة .

ومن العلوم التى لهم الفضل فيها الجغرافيا ، وسبب تقدمهم فيها أن اتساع فتوحاتهم ورغبتهم فى الأسفار الخطيرة لافتراض الحج عليهم أنتجت لهم المعرفة بكثير من البلدان الشاسعة التى لم يصل إليها أهل أوربا أو نسوها بعد ما كانت معروفة لهم . ومن مشاهيرهم فى هذا الفن أبو الفداء والمسعودى والإدريسى ، وهذا الأخير هو الذى استدعاه روجير ملك صقلية ، وألف عنده كتابه الغريب الذى سماه نزهة المشتاق . ثم قال بعد ذكر ما كان لهم من علم التاريخ . وأما صناعة هندسة البناء فى اصطناع الهيئات فلم يشتغل العرب منها إلا بما يرجع إلى إتقان الأبنية حيث كانت شريعتهم تمنع التصوير ، على أن البناء نفسه لم تظهر لهم فيه اختراعات غريبة فالأصل عندهم فى الأقواس المرفوعة على الأسطوانات أن تكون أكبر من نصف دائرة ، وهذا الشكل أخذوه من أبنية البيزنطيين وهم أمة من اليونان ، واعتاض العرب عن الصور الذهنية والمجسدة التزيين بالنقش

المسمى عندهم بنقش حديدة ، وكان فى الأصل رسوما لهـا مدلولات . ثم صار مجرد خطوط متقاطعة شبيهة بالحروف العربية التى يمكن أن يصور منها أشكال جيدة ظريفة ، وكثيراً ما نتعجب من إتقان تلك الحروف حين نراها على الزرابى والأقمشة الشرقية .

ومن مآثر العرب اصطناع الجوابى والفوارات والتزويق بالذهب والأحجار الثمينة كالمرمر الذى يجلبونه من المشرق ومن مقاطع أسبانيا الجنوبية . ومن أشهر أبنيتهم الجامع العظيم الذى بناه عبد الرحمن الأول بقرطبة ، وكان به ألف وثلاث وتسعون أسطوانة وأربعة آلاف وسبعمائة قنديل . ثم قصر الزهراء الذى لايتأخر عن الجامع المذكور فى العظم ، وقد بناه عبد الرحمن الثالث على شاطىء الوادى الـكبير ، وبه ينبوع عظيم يفور منه شبه باقة من الزيبق ثم ينعكس فى قصعة من المرمر . ومن بديع أبنيتهم حمراء غرناطة التى هى فى آنٍ واحد قصروحصن وبها عدة أمور تصلح أن تـكون مثالا للطافة البناء وحسنه خصوصاً وسطها المسمى ببطحاء الأسود . وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها فى سائر الأوقات ، ثم لـما امتدت سلطنتهم من ألبرينى وهى جبال بين فرانسا وأسبانيا إلى جبال هملاى التى بأقصى شمال الهند صاروا أكبر تجار الأرض يومئذ .

وأما الفلاحة فقد كان للعرب حسن رغبة فيهـا إذ ليس لغيرهم مالهم من الاقتدار على جلب الميـاه وتوزيعها بلطف فى مزارعهم الواسـعة تحت شمسهم المحرقة . انتهى مانقل من مقدمة أقوم المسالك . وبجميع ماذكرناه يتبين أن كلام الشعوبية ساقط عن أصله ، ولا يلتفت ذو إنصاف لمثله ، ومع ذلك فإن الشريعة حاكمة بأن فضل الجنس لايستلزم فضل الشخص فربَّ حبشى أفضل عند الله من ألف قرشى ، فإن المرءَ كثير بفضله لابأهله ، ومنظور إليه بكرم أخلاقه لا بكرم أصله ، فإذا اجتمعا له كان مقابلا من طرفيه وكملت له أُبَّهة شرفيه ، ولا ينكر أن للأصول تأثيراً عظيما فى الفروع فلا تـكاد ترى ذا أصل زكى إلا وتتوهم فيـه

خلقاً وسيما ، وشأناً كريماً ، فإذا اجتمع الأصل وحسن الأفعال ، كان ذلك غاية الكمال ، فلا ينبغى لعاقل أن يفخر بنسبه ، ويتكبر على الناس بحسبه ، ففى صحيح مسلم عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : أوحى إلى أن تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد ، فنهى سبحانه على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم عن نوعى الاستطالة على الخلق وهى الفخر والبغى لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر ، وإن كان بغير حق فقد بغى فلا يحل لا هذا ولا هذا ، فإن الرجل من الطائفة الفاضلة مثل أن يذكر فضل بنى هاشم أو قريش أو العرب أو الفرس أو بعضهم ، فلا يكون حظه استشمار فضل نفسه ، والنظر إلى ذلك فإنه مخطىء فى هذا كما لا يخفى . ثم هذا النظر يوجب نقصه وخروجه عن الفضل فضلا عن أن يستملى بهذا أو يستطيل ، وإن كان من الطائفة الأخرى فليعلم أن اتصافه بالصفات المحمودة يوجب له أن يكون أفضل من جمهور الطائفة المفضلة العارين عنها ، فليفتخر المرء بجده واجتهاده ، وبعدته وعتاده وكسبه وإعداده ، لآبائه وأجداده ، وقد أتينا فى مقام المشاجرة مع الشعوبية بقدر ما يطاق .

* * *

الكلام على مساكن العرب فى الجاهلية

اعلم أن غالب مساكن العرب القديمة التى درجوا منها إلى سائر الأقطار كانت بجزيرة العرب الواقعة فى أوساط المعمور ، وأعدل أماكنه وأفضل بقاعه حيث الكعبة المعظمة ، والمدينة المنورة ، وما حول ذلك من الأماكن . وهذه الجزيرة متسعة الأرجاء ، ممتدة الأطراف يحيط بها من جهة الغرب بعض بادية الشام حيث البلقاء إلى أيلة ثم بحر القُلْزُم الآخذ من أيلة حيث العقبة الموجودة بطريق حجاج مصر إلى الحجاز إلى أطراف اليمن حيث طيىء وزبيد وما داناها . ومن جهة الجنوب بحر الهند المتصل به بحر القلزم المتقدم ذكره من جهة الجنوب إلى عدن إلى أطراف اليمن حيث بلاد مهرة من ظفار وما حولها . ومن جهة الشرق بحر فارس

الخارج من بحر الهند إلى جهة الشمال إلى بلاد البحرين ثم إلى البصرة ثم إلى الكوفة من بلاد العراق . ومن جهة الشمال الفرات آخذا من الكوفة على حدود العراق إلى عانة إلى بالس من بلاد الجزيرة الفراتية إلى البلقاء من برية الشام حيث وقع الابتداء . والحاصل أن السائر على حدود جزيرة العرب يسير من أطراف برية الشام من البلقاء جنوباً إلى أيلة ثم يسير على شاطىء بحر القلزم وهو مستقبل الجنوب ، والبحر على يمينه إلى مدين إلى الينبع إلى البروة إلى جدة أول اليمن إلى زبيد إلى أطراف اليمن من جهة الجنوب . ثم يعطف مشرقاً ويسير على ساحل اليمن وبحر الهند على يمينه حتى يمر على عدن ويجاوزها حتى يصل إلى سواحل ظفَار من مشاريف اليمن إلى سواحل مهرة ، ثم يعطف شمالا ويسير على سواحل اليمن وبحر فارس على يمينه ويتجاوز سواحل مهرة إلى عُمَان من بلاد البحرين إلى جزيرة أوال إلى القطيف إلى كاظمة إلى البصرة إلى الكوفة . ثم يعطف إلى الغرب ويفارق بحر فارس ويسير والفرات على يمينه إلى سلمية إلى البلقاء حيث بدأ كذا فى نهاية الأرب . وقال أبو عبيدة : جزيرة العرب فى الطول ما بين حفر أبى موسى إلى أقصى اليمن ، وفى العرض ما بين يبرين إلى السماوة . وقال الأصمعى : هى ما بين نجران والعُذَيْب حكاه ابن قتيبة عن الرياشى عنه . قال : وحكى عنه أبو عبيدة أنها فى الطول من أقصى عدن إلى ريف العراق ، والعرض من جُدَّة وما والاها من طراز البحر إلى طراز الشام . وأنت تعلم أن هذه الأقوال كلها متقاربة .

* * *

مساحة دور جزيرة العرب

دور هذه الجزيرة على ما ذكره السلطان عماد الدين صاحب حَمَاة فى تقويم البلدان سبعة أشهر وَأَحدَ عشَرَ يوماً تقريباً بسير الأثقال . فمن البلقاء إلى الشراة نحو ثلاثة أيام ، ومن الشراة إلى أيلة نحو ثلاثة أيام ، ومن أيلة إلى الجار وهى فرضة

المدينة النبوية نحو عشرين يوماً ، ومن الجار إلى ساحل الجُحفة نحو ثلاثة أيام ، ومن ساحل الجحفة إلى جُدَّة وهي فرضة مكة المشرفة ثلاثة أيام ، ومن جدة إلى عدن نحو من شهر ، ومن عدن إلى سواحل مهرة نحو من شهر ، ومن مهرة إلى عُمان من البحرين نحو من شهر ، ومن عمان إلى هجر من البحرين نحو من شهر ، ومن هجر إلى عبادان من العراق نحو خمسة عشر يوماً ، ومن عبادان إلى البصرة نحو يومين ، ومن البصرة إلى الكوفة نحو اثنتى عشرة مرحلة ، ومن الكوفة إلى بالس نحو عشرين يوماً ، ومنْ بالس إلى سلمية نحو سبعة أيام ، ومنْ سلمية إلى مشاريف غُوطة دمشق(١) نحو أربعة أيام ، ومنْ مشاريف غوطة دمشق إلى مشاريف حوران نحو ثلاثة أيام ، ومنْ مشاريف حوران إلى البلقاء نحو ستة أيام ، فهذا هو الدور المحيط بجزيرة العرب .

---

(١) غوطة دمشق احدى نزه الدنيا وهى الاربع : غوطة دمشق ، ونهر الابلة ، وشعب بوان ، وصغد سمرقند — يضرب بكل منها المثل فى الطيب ، قال الثعالبى : وكان الخوارزمى يقول قد رأيتها كلها فكانت غوطة دمشق أطيبها واحسنها ولم أميز بين رياضها المزخرفة بالانوار والازاهر وبين غدرانها المغمورة بطيور الماء التى هى احسن من الدوارج والطواويس ولم اشبهها وصورتها منقوشة على وجه الارض .

واما نهر الابلة فهو بالبصرة وحواليه من ميادين النخل والاترج والنارنج وسائر الاشجار وفيها من اصناف الزرع وانواع الخضروات ما لا ينظر أحسن منه وعليه من القصور المتناظرة والابنية الرائقة ما تحار فيه العيون وتهش له النفوس وفيه يقول ابن عيينة :

ويا حبذا نهر الابلة منظـرا ... اذا مد فى اثنائه المـاء أو جزر

واما شعب بوان من فارس فهو الذى يقول فيه القائل :

اذا اشرف المكروب من رأس تلعة ... على شعب بوان افاق من الكرب
والهاه بطن كالحريرة مسه ... ومطرد يجرى من البارق العذب
فبالله ياريح الجنوب تحملى ... الى شعب بوان سلام فتى صب

وفيه يقول المتنبى :

مغان طيبات فى المغانى ... كايام الربيع من الزمان

ولما نزله عضد الدولة متوجها الى العراق ومعه ابو الحسن السلامى قال له: قل فى الشعب فقد سمعت ما قاله المتنبى فيه فعاد الى خيمته وكتب :

اشرف على الشعب وانزل روضه الانفا ... قد زاد فى حسنه فازدد به شغفا
اذ البس الهيف من اغصانه حللا ... ولقن العجم من اطياره نتفا
وانظر اليه تر الاغصان مثمرة ... من قارع قرطا أو لابس شنفا

وجه تسمية هذه الجزيرة بجزيرة العرب

اعلم أنَّ الجزيرةَ فى أصل اللغة ما ارتفع عنه الماء أخذاً من الجزر الذى هو ضد المد ثم توسع فيه فأطلق على كل ما دار عليه الماء . ولما كان هذا القطر يحيط به بحر القُلْزُم من جهة الغرب ، وبحر الهند من جهة الجنوب وبحر فارس من جهة الشرق ، والفرات من جهة الشمال . أطلق عليه جزيرة وإن كان له اتصال بالبر ، وذلك على سبيل التشبيه والمجاز المشحون منه كلام الفصحاء لا أن العرب لم يفرقوا بين الجزيرة وشبهها كما زعمه بعض المؤلفين الذين لم يقفوا على أسرار كلامهم ، وأضيفت إلى العرب لنزولهم بها ابتداء وسكناهم فيها .

ما اشتمل عليه جزيرة العرب من الأقسام والنواحى

قال المدائنى جزيرة العرب هذه تشتمل على خمسة أقسام : تِهامة ونجد والحجاز وعروض ويمن . فتهامة هى الناحية الجنوبية عن الحجاز . ونجد هى الناحية التى بين الحجاز والعراق . والحجاز هو ما بين نجد وتهامة وهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام وسمى حجازاً لحجزه بين نجد وتهامة . والعروض هى اليمامة إلى البحرين وقال أبو عبيدة : الحجاز هو ما بين الجحفة وجبل طيء وإنما سمى حجازاً لأنه حجز ما بين نجد والغور ، وحكى ابن قتيبة عن الرياشى عن الأصمعى أنه قال : إذا خلفت عجلزاً صمداً فقد أنجدت ، فلا تزال منجداً حتى تنحدر من ثنايا ذات عرق ، فإذا فعلت فقد أتهمت إلى البحر ، وإذا عرضت لك

والماء يثنى على أعطافها ازرا   والريح تعقد فى أطرافه شرفا

وهى قصيدة طويلة

وأما صغد سمرقند فان قتيبة بن مسلم لما أشرف من الجبل قال لأصحابه شبهوه فلم يأتوا بشيء فقال قتيبة كأنه السماء فى الخضرة وكأن قصوره النجوم وكأن انهاره المجرة فاستحسنوا هذا التشبيه وتعجبوا من اصابته .

الجرارُ (١) وأنت مُنجدٌ فتلك الحجاز ، وإذا تصوبت من ثنايا (العرج) واستقبلك المرخ والأراك (٢) فقد أتهمت وسمى حجاز لما مر . وقال محمد بن عبد الملك الأسدى : حد الحجاز ، الأول بطن نخلة وظهر حرة ليلى . والحد الثانى مما يلى الشام شعب وبدا ، والحد الثالث مما يلى تهامة بدر والسقيا ورهاط وعُكاظ ، والحد الرابع شابة وودّان ثم ينحدر إلى الحد الأول ، وأما الشام واليمن فمن اليد اليمنى واليد الشومى وهى الشمال لأن الذى يستقبل الشمس تكون اليمن عن يمينه والشمال الشام .

ما كان فى هذه الأقطار من البلاد والمبانى المشهورة وغير ذلك

اعلم أن فى كل قطر من هذه الأقطار مدناً وبلاداً مشهورةً ومياهاً ومعادنَ مختلفةً ونباتاتٍ متنوعةً قد استقصاها المؤرخون فى كتبهم المؤلّفة فى هذه الجزيرة وأقسامها كتاريخ جزيرة العرب لعدة أناس من أفاضل المتقدمين ، وتاريخ مكة للإمام الأزرقى ، وتاريخ المدينة للإمام السمهودى ، وتواريخ اليمن ونجد وغير ذلك مما لا يسعها الحصر وفيها الغنى عن التعرض لما حوته من المطالب فإنه من تحصيل الحاصل ، ومع ذلك نشير إشارة مجملة إلى ما كانت عليه هذه الأقطار ، تنشيطاً للقارئين الأخيار (فأما الحجاز) ففيه من البلاد المشهورة المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأكمل السلام . وقيل هى من نجد وهى بلدة طيبة مباركة كثيرة الخيرات عذبة المياه وافرة النخيل والثمار أهلها وسكنتها يودون الغرباء ويحبون من هاجر إليهم ، ولها أسماء كثيرة نظمها بعض الأفاضل بقوله :

خُذْ جملةً ياصاحِ من أسماءِ مدينةِ الهادى من الأَسواءِ
(محمَّدٍ) نبينا المشرّفِ الهاشميّ المصطفى البرّ الوَفِىّ
فَطيْبَةُ طَيّبَةٌ وَوَطَابَه وطائب تعرفُ بالإطابه

---

(١) هى أرض ذات حجارة نخرة سود (٢) المرخ : شجر سريع الورى ، والاراك : شجر من الحمض يستاك به

حبيبة بيت الرسول والحرم　　وحرم الرسول فاحفظ ما انتظم
ودار الإيمان ودار الســنة　　ودار فتح مع دار الهجرة
دار السلامة ودار الأبرار　　ودار الأخيار لنفى الأشرار
حسنة مختــارة مرزوقة　　مؤمــنة مسكينة محفوظة
مدخل صدق قُبَّة الإسلام　　شافية من جمــلة الآلام
أكّالة القرى مع المقدسة　　وهى المباركة خذ ما قبسه
من نور أسماء مكان المصطفى　　نظم به أرجو موارد الصفا

وهى من البلاد القديمة الوضع والتأسيس ، ففى كتاب نشر المحاسن اليمانية كانت مدينة يثرب للعرب نخرج إليها قوم من بنى إسرائيل فى زمن موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ففتحوها من العرب العاربة وقتلوا ملكا لهم يسمى الأرقم وأقاموا فيها ما شاء الله تعالى حتى افترقت الأزد من مأرب فى حادثة سيل العَرم ، فنزل الأوس والخزرج يَثْرِبَ على الإسرائيليين ، ولهم ملك يقال له القطيعون فقتلوه ، وكان قاتله سيد الحيين أعنى الأوس والخزرج ، واسمه مالك بن العجلان وهو ابن عم سالم بن عوف الخزرجى . فلما قتل الملك وقعت الصيحة باليهود فقتلوهم أبرح القتل وأبقوا منهم بعض القوم لعمارة الأراضى ، وملك الأوس والخزرج يثرب حتى بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فهداهم الله تعالى لطاعته ولم يسلم قبلهم بطن من العرب ، فصارت تلك فضيلة لهم من أحسن الفضائل والمآثر . ثم خرب من يثرب سبعون رجلا وامرأة واحدة مهاجرين إلى مكة فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمرة العقبة جهراً ثم قالوا يا رسول الله قد اتبعناك تصديقاً لقولك وإيماناً بخالقك فاشترط لربك ولنفسك . فقال : اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسى ما تمنعون منه نفوسكم وأبناءكم ونساءكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة . قالوا : رضينا . فبايعوه بذلك على رءوس الأشهاد ، وجميع الحيين من ربيعة ومضر حاضرون إذ ذاك بِمِنى ،

ثم قالوا أتأمرنا يا رسول الله أن نميل بأسيافنا على من فى هذه الشعاب ؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أمرت بذلك . فلما رأت قريش ما كان من فعل الأوس والخزرج جاء إليهم بنو عمه الأقربين ، منهم أبو جهل وعتبة وأبو سفيان وشيبة وأبىّ وأمية وسهيل وبنوه ومنبه والنضر بن الحارث وعمرو بن العاص ، فقالوا لهم : يا أهل يثرب إنا أولى منكم به لأنا صلته ولحمته . فقال لهم الأوس والخزرج : بل نحن أولى به منكم لانّا وإياه نعبد ربًّا واحداً . فلما رأت قريش منهم صدق الهمة وقوة العزم خافوا حدوث الشر فدافعوهم بالتى هى أحسن ، وقالوا : خلوا بيننا وبينه على أن له الأمان والذمام فلا يعرض له إلا الخير ولا لمن تبعه ، ومن أحب منهم أن يلحق بكم لم نمنعه يريدون بذلك المهاجرين ، فكرهت الأوس والخزرج . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أجيبوهم يا معشر الأوس والخزرج فإن الله تعالى بالغ أمره ومنجز وعده فقالوا تطيب عن نفسك يا رسول الله أن نفعل ذلك ؟ قال نعم . قالوا : فالسمع والطاعة وضربوا بينهم أجلا أربعة أشهر ثم رجعوا إلى يثرب ، فلما افترقوا همت قريش بالغدر فكفى الله تعالى نبيه شرَّهم ، وخرج من مكة بالوحى الذى أنزل عليه خائفاً يترقب حتى ورد المدينة عن أمر الله تعالى له بذلك ، فلما وصل إليهم صلى الله تعالى عليه وسلم هو وأصحابه المهاجرون معه سمحوا له ولجميع من وصل بمشاطرة الأموال ، ومن كان له زوجتان من الأوس والخزرج طلق إحداهما وزوجها بعض المهاجرين ، فأثنى الله تعالى عليهم بذلك فقال : (وَيُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِم وَلَوْ كانَ بِهِم خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[١] .

---

(١) قوله يؤثرون على أنفسهم أى يقدمون المهاجرين على أنفسهم فى كل شىء من الطيبات حتى أن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن احداهما ويزوجها واحدا منهم ويجوز أن لايعتبره مفعول يؤثرون خصوص المهاجرين : والخصاصة : الحاجة ، والشح اللؤم وهو أن تكون النفس كزة حريصة على المنع وأضيف الى النفس لأنه غريزة فيها وأما البخل فهو المنع نفسه ، والمفلحون الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه

ثم نصروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى جميع المواطن ولم يكن لهم عسكر حتى صار بينهم. فسماهم الأنصار فصار ذلك ألزم لهم من النسب والاسم ، فهذه فضائل خصهم الله تعالى بها ، ثم إنه كان منهم ما كان من غزو المشركين وجهاد الكافرين ما هو مشهور ومذكور فى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب المبعث مما لا يحتمل بسطه هذا المختصر . وأقام بينهم حتى توفى صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة وهى دار الأوس والخزرج وهم أكثر الناس بها عدداً ، وأعلاهم فيها يداً . (وفى الحجاز) أيضاً من البلاد : (الطائف) وهو بطن من جبل غزوان بشرق مكة وهو شديد البرد كثير الفواكه لما فيه من كثرة البساتين التى تسقيها العيون والجداول المنحدرة من الجبال وأهلها من ثقيف وهم من قيس عيلان وقيل من إياد ، وقيل هم من بقايا ثمود . ومن بلاد الطائف (وَج) وهو واديها الذى يقول فيه الثقفى :

سقياً لوجٍّ و جنوب وَجٍّ واحتله غيثٌ دِرَاكُ الثَّجِّ (١)

وواد يقال له (النَّخِب) وهو من الطائف على ساعة . وواد يقال له (العرج) وهذا غير العرج الذى بين مكة والمدينة . وواد يقال له (لية) أعلاه لثقيف وأسفله لنصر ، وبين لية وبسل بلد يقال له (جلدان) تسكنه بنو نصر ، وبجلدان هضبة سوداء يقال لها (تبعة) ، وبها نقب كل نقب قدر ساعة كانت تلتقط فيه السيوف العادية والخرز ويزعمون أن فيه قبوراً لعاد ، وكانو يعظمون ذلك الجبل . ومن بلاد الطائف (الشديق) وهو واد . و (الهدّة) بينها وبين السرّاة وقرية لبنى نصر يقال لها (الفتق) و (عكاظ) نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة زادها الله تعالى شرفاً ثلاث ليال ، وبه كانت تقوم سوق العرب بالابتداء ، وبه كانت أيام الفجار . وكانوا يطوفون بصخرة هناك ويحجون إليها ، وذو المجاز ماء من أصل كَبْكب وهو لهذيل . وقال أبو عبد الله الواقدى عكاظ

(١) الدراك ككتاب اتباع الشىء بعضه على بعض ، والثج : الصب الكثير .

بين نخلة والطائف . وذو المجاز خلف عرفة ومجنة بمر الظهران . وهـذه أسواق قريش والعرب ولم يكن فيها شيء أعظم من عكاظ . وسيأتى تفصيل ذلك عند ذكر أسواقهم (وفى الحجاز) أيضاً من البلاد (خيبر) بمعجمة وتحتانية وموحدة بوزن جعفر ، وهى مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام . وذكر أبو عبيد البكرى : إنها سميت باسم رجل من العماليق نزلها وقد خرجت بعد استيلاء المسلمين عليها بقرون وكان فيها قبائل من اليهود المتعربة ، وكانوا يوصفون بالمكر والخبث ، وكان السموءل بن عاديا اليهودى ساكناً فيها . وقيل كانت للعمالقة ثم صارت لبنى عنزة بن أسد بن ربيعة . وكانت رديئة ، الهواء كثيرة الوخامة دائمة الوباء ، تولد الحميات وحماها شديدة ، قال بعض الشعراء فى ذلك :

ومن يك أمسى فى بلاد مقامه ... يسائل أطلالا بهـا لا تجاوب
وقفت بها أبكى وأشعر سخنة ... كما اعتاد محموماً (بخيبر) صالب

وخيبر هذه كانت كثيرة النخل يحمل منها التمر إلى الجهات القصوى وفى ذلك يقول خارجة بن ضرار المرى :

أخالد هـلا إذ سَفِهْتَ عشيرة ... كففْتَ لسان السوء أنْ يتدعَّرا[(١)]
فإنك واستبضاعك الشعر نحونا ... كمستبضع تمراً إلى أرض خيبرا[(٢)]

وفيها اليوم بقايا من النخيل والبساتين يسكنها على خرابها بعض الفـلاحين والعبيد السود . و (فدك) قرية من قراها كان بها نخيل وصوافى للسلطان وزروع . قال الشاعر :

من عجـوة الشق تطوف بالودك ... ليست من الوادى ولكن من (فدك)

وأما (الجار) فهى إلى الجنوب الشرقى من المدينة المنورة على نحو يوم وليلة

---

(١) نصب عشيرة على التمييز اى سفهت عشيرتك ، والدعارة : الخبث وتأتى بمعنى الشراسة فى الخلق أيضا . (٢) استبضع الشيء جعله بضاعة وهذا مثل وخص خيبر بالذكر لكثرة نخلها .

وهى فرضة المدينة وإليها ينسب جماعة ، منهم عبد الملك بن الحسن الجارى الأحول ، وإلى الجنوب الشرقى منها على نحو مرحلة ماء يقال له (بدر) وبقربه قرية (بدر) . وفى كتاب فتح البارى : هى قرية مشهورة نسبت إلى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة كان نزلها ، ويقال (بدر) اسم البئر التى بها سميت بذلك لاستدارتها أو لصفاء مائها فكأن البدر يرى فيها . وحكى الواقدى إنكارَ ذلك كله عن غَير واحد من شيوخ بنى غفار ، وإنما هى مأوانا ومنازلنا وما ملكها أحد قط يقال له بدر وإنما هو علم عليها كغيرها من البلاد انتهى . وفيها كان يوم بدر وهو اليوم الذى انتصر فيه المسلمون على المشركين من قريش ، وكان ممن قتل فى ذلك اليوم بدر بن الأسود بن زَمْعة بن المطلب بن نوفل القرشى وكان من المشركين ، فرثاه أبوه بقوله :

أتبكى أن يضلَّ لها بعير ويمنعها من النوم السهودُ
فلا تبكِ على بكر ولكن على بدر تقاصرت الجدودُ

وعلى نحو منتصف الطريق بين الجحفة التى هى الآن خراب وبين مكة عُسفان ويقال لها مدرج عثمان وهى المعنية بقول عنترة العبسى :

كأنها يومَ صَدَّتْ ما تُكَلِّمُنَا ظَبْيٌ بِعُسْفان ساجى الطرف مطروف

وإلى شرق المدينة جبلا طيئ وهما (أجا وسلمى) ذكروا أنهما اسما شخصين من العرب كأن أحدهما أجا يعشق سلمى ، وكانت العوجاء تجمع بينهما فصلبوهما على هذه الجبال فسميت بأسمائهم ، وهى المرادة بقول جابر بن رالان السنبسى :

ونحن غلبنا بالجبال وعزها ونحن ورثنا غيثاً وبدينا

أراد بالجبال أجا وسلمى وهضابهما . وبقول حسان بن حنظلة الطائى :

غضبتْ علىّ أنِ اتصلتُ بطيء وأنا امرؤٌ من طيء الأجبال

أى أجا وسلمى وعوارض ، وفى الحجاز جبال كثيرة وأودية وبلاد وقرى وعيون وآبار لا يمكننا استقصاؤها فى هذا المقام .

وأما تهامة

ففيها من البلاد مكة المكرمة شرفها الله تعالى ، والقول بأنها من الحجاز مردود . وسيأتى تفصيل الكلام عليها إن شاء الله تعالى قريباً ، وكانت تسمى (أمَّ القُرَى) لكثرة القرى التى حولها ، وكان من بلاد هذيل فى طريق مكة على ليلتين نخلتان نخلة اليمانية يصب فيها (يَدَعان)[1] وهو وادٍ به مسجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبه عسكرت هوازن يوم حنين ، و (نخلة الشامية) ومجتمعها بطن مرّ . و (سَبُوحة) وهو وادٍ يصب فى نخلة اليمانية و (أبام) و (أبيّم) ، وكانا لهذيل وهما شعبان بينهما جبل مسيرة ساعة من النهار ، وقد قال فيهما السعدى من سعد بن بكر :

وإن بهذا الشعب بين أبيّم وبين أبام شعبة من فؤاديا

ثم فوق ذلك شعب يقال له (نحا) وكان لهذيل أيضاً . ثم (المراخ) وهى لهذيل وهى ثلاثة شعاب تصب من (داءة) . وداءة هى الجبل الذى يحجز بين نخلتين ، ثم (عشر) وهو شعب لهذيل يصب من داءة أيضاً . وقبالة عشر من شق نخلة الأخرى شعبان يقال لهما (الصهياتان) يجيئان من السراة وبينهما وبين (بسوم) جبل يقال له (المرقبة) كان مرقبة لهذيل تكون رقباؤهم فيه . وشعب يقال له (هلال) يجئ من السراة أيضاً من بسوم . ثم شعب مثل هذا أيضاً يقال له (خيص) وبسوم جبل لهذيل وشعبان يقال لهما (الكفوان) الكفو الأبيض والكفو الأسود وهما طريقان مختصران يصعدان إلى الطائف . وهما مغان لا تطلع عليهما الشمس إلا ساعة من نهار وهما شعبا سار وهما بلاد مهائف تهاف الغنم من المرعى الذى فى التآر ولا يرعيان إلا فى الصيف وهذه كلها أعلى نخلة اليمانية . ثم تصير إلى (البوبات) وهى صحراء ، وهى بلاد سعد بن بكر ،

---

(١) بالياء المثناة .

وقرن وهو بين المناقب والبوبات هو أقصى البوبات ، وهى وادٍ يجيء من السراة لسعد بن بكر ولبعض قريش وبقرن منبر . قال الشاعر :

لا تقمرنَّ على قرن وليلتــه   لا إن رضيت ولا إن كنت مغتضبا

ثم تجلس إلى نجد تطلع (المناقب) والمناقب جبل معترض يقال له المناقب لأن فيه ثنايا طُرُقٍ إلى اليمن وإلى (اليمامة) وإلى أعالى (نجد) وإلى (الطائف) ففيه ثلاث معاقب ، عقبة يقال لها (الزلاّلة) ، وعقبة يقال لها (قرين) . وأخرى يقال لها (البيضاء) . وبالزلاّلة صخرة وهى التى أقحم منها (العقيلى) ناقته فاقتحمت من شق وذاك أنهم خاطروه ، ومن جبال مكة وشعابها جبل يقال له (الخندمة) وفيه بنيان مكة منهــا شعب بن عامر . ومنها (أجيادان) أجياد الصغير وأجياد الـكبير . ومنها (أبو قبيس) . ومن جبال مكة (ثور) وهو بالمفجر من خلف مكة على طريق اليمن ، و (ثبيران) وهما جبلان مفترقان يصب بينهما (أفاعية) وهوا واد يصب فى (منى) . قال الأصمعى (قُزح) هو القرن الذى يقف عنده الإمام (بالمزدلفة) قال : و (ثبير غيناء) و (ثبير الأعرج) وهما حراء . و (ثبير) و (أبو قبيس) و (الخندمة) جبال مكة وما حولها وأبناء طمر واحد وعير والجماء وذباب بالمدينة وقربها . والقموص بخيبر ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره . ومن تهامة « ينبع » وهى مدينة قريبة من البحر كانت منزلا لبنى الحسن بن علىّ بن أبى طالب ولها فُرْضَة[1] على البحر نحو مرحلة منهــا وبقربها جبل (رضوى) الذى يحمل منه حجر المسن إلى الآفاق وأما « جُدَّة » فهى على البحر الأحمر وهى فرضة مكة « والحديبية » قيل بعضها فى الحل وبعضها فى الحرام « وتَبُوك » على نصف المسافة بين المدينة ودمشق ، وفيهــا كانت الواقعة العظيمة بين المسلمين والروم ، وفى تهامة كثير من البلاد منها ما قد خرب ، ومنها ما بقى على وضعه الأول ، ومنها ما حدث فى الأزمنة الأخيرة . وبيانه على وجه التفصيل فى كتب معدَّةٍ لذلك .

---

(١) محط السفن .

وأما العروض

فقد اشتمل على ناحيتين ، الأولى « اليمامة » وهى مدينة دون مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى المقدار ، كان بينها وبين البصرة ست عشرة مرحلةً وبينها وبين الكوفة مثل ذلك ، وهى أكثر نخلاً من بلاد الحجاز وفيها مياه كثيرة ، ومنهـا كان (مُسَيْلَمَة الكذّاب)(١) الذى ادعى النبوة فى زمن النبى

(١) هو ابو ثمامة مسيلمة بن حبيب الحنفى من أهل اليمامة كان صاحب اسجاع ومخاريق وتمويهات وادعى النبوة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة فمازال يخفى ويظهر ويقوى ويضعف وأهل اليمامة فرقتان احداهما تعظمه وتؤمن به والاخرى تسخفه وتضحك منه ، وكان يقول : انا شريك محمد فى النبوة وجبريل عليه السلام ينزل على كما ينزل عليه وكان يقول يابنى حنيفة ما جعل الله قريشا احق بالنبوة منكم وبلادكم اوسع من بلادهم وسوادكم أكثر من سوادهم وجبريل ينزل على صاحبكم مثل ما ينزل على صاحبهم ولما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وجدالناس يتذاكرونه وما يبلغهم عنه من قوله وقول بنى حنيفة فيه فقام يوما خطيبا فقال بعد حمد الله والثناء عليه : اما بعد فاما هذا الرجل الذى تكثرون فى شأنه فكذاب بثلاثين كذابا قبل الدجال فسماه المسلمون مسيلمة الكذاب واظهروا شتمه وعيبه وتصغيره وهو باليمامة يركب الصعب والذلول فى تقوية أمره ويعتضد برجال ابن عنفوه وهو ينصره ويذب عنه ويصدق اكاذيبه ويقرأ اقاويله التى منها :
والشمس وضحاها ، فى ضوئها ومجلاها ، والليل اذا عداها ، يطلبها ليغشاها ، فادركها حتى اتاها ، واطفأ نورها فمحاها ، ومنها : سبح اسم ربك الاعلى ، الذى يسر على الحبلى ، فاخرج منها نسمة تسعى ، من بين احشاء ومعى ، فمنهم من يموت ويدس فى الثرى ، ومنهم من يعيش ويبقى الى اجل ومنتهى ، والله يعلم السر واخفى ولا تخفى عليه الآخرة والاولى .
وكتب مسيلمة الكذاب الى النبى صلى الله عليه وسلم كتابا قال فيه : الى النبى محمد رسول الله من مسيلمة رسول الله اما بعد فانى قد اشركت فى الأمر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصفها ولكن قريش قوم يعتدون ولا يعدلون ، وختم الكتاب وانفذه مع رسولين فلما قرىء الكتاب على النبى صلى الله عليه وسلم قال لهما ما تقولون ؟ قالا نقول كما قال ابو ثمامة ، فقال اما والله لولا ان الرسل لا يقتلون لقتلتكما ، واملى فى الجواب : من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى اما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ولما صدر الرسولان الى مسيلمة الكذاب افتعل كتابا يذكر فيه انه جعل له الامر من بعده فصدقه بنو حنيفة وبلغ من تبركهم به انهم كانوا يسألونه ان يدعو لمريضهم ويبرك لمولودهم وجاءه قوم بمولودهم فمسح رأسه فقرع وجاءه رجل يسأله ان يدعو لمولود له بطول العمر فمات من يومه ولما انتقل النبى صلى الله عليه وسلم الى جوار ربه وارتدت العرب بعث ابو بكر رضى الله عنه خالد ابن الوليد الى حرب أهل الردة فاوقع بهم وانتصف منهم ثم أمره أبو بكر (رض)

صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقتل فى زمن أبى بكر رضى الله عنه . ومنها أيضاً (زَرْقاء اليمامة)[1] وكانت مشهورة بحدّة البصر ومزيد الفطنة والذكاء ، ويقال : إنها كانت تبصر من مسيرة أيام ولها قصص شهيرة . وفى اليمامة أيضاً بلاد أخر هى اليوم خراب . الناحية الثانية بلاد البحرين ، ، وهو قطر متسع مجاور لبحر فارس كثير النخل والثمار والمشهور فيه من البلاد « هَجَر » بفتح الهاء والجيم ، وكانت هذه البلدة قاعدة البحرين وخربها القرامطة عند استيلائهم على البحرين ، وبنوا مدينة (الاحساء) ونزلوها وصارت إذ ذاك قاعدة البحرين ، وهى مدينة كثيرة المياه والنخيل والفواكه . وبينها وبين (اليمامة) نحو أربعة أيام ، وفيها غير ذلك من البلاد المتسعة والقُرى والمياه .

وأما نجد

فهى أطيبُ أرضٍ فى جزيرة العرب ، ولذلك ترى الشعراء قديماً وحديثاً يلهجون بذكرها ويترنمون بِرُباها وريّا عُطْرِها قال قائلهم :

بقصد اليمامة ومقارعة مسيلمة ففعل وزحف اليها فى وجوه المهاجرين والأنصار وتلقاه مسيلمة فى خيله ورجله ولما كان يوم اليمامة حمى الوطيس واشتدت الواقعة والتجأ بنو حنيفة وفيهم مسيلمة الى حديقة سميت من بعده حديقة الموت فاقتحمها خالد رضى الله عنه والمسلمون ووضعوا فيهم السيوف وقتل الله مسيلمة فاشترك فى قتله وحشى بحربته وعبد الله بن الزبير بسيفه وفتح الله تعالى اليمامة على المسلمين وأفاء عليهم الغنيمة

(١) العرب تضرب المثل بها فى جودة البصر وحدة النظر ويقال أن اليمامة اسمها وبها سميت بلدها اليمامة ثم أضيفت الى البلدة فقيل زرقاء اليمامة واسم البلدة جو وربما قيل زرقاء الجو كما قال أبو الطيب المتنبى :

وأبصر من زرقاء جو لأننى   اذا نظرت عيناى شاءهما علمى

وهى امرأة من جديس كانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام على مايذكر أهل الأخبار والقصص ، والنفس تنفر من تصديق مايذكرون ، قالوا : ولما قتلت جديس طسما خرج رجل من طسم الى حسان بن تبع فاستجاشه وأرغبه ، فخرج فى جيش جرار فلما كانوا من جو على مسافة ثلاثة أيام صعدت الزرقاء السطح فنظرت الى الجيش وقد أمروا أن يحمل كل رجل منهم شجرة يستتر بها ليلبسوا عليها فقالت ياقوم قد أتتكم الشجرة أو أتتكم حمير وقد أخذت أشياء تجرر أى تسحب فلم يصدقوها فقالت : أحلف بالله لقد أرى رجلا ينهش كتفا أو يخصف نعلا فلم يصدقوها ولم يستعدوا حتى صبحهم حسان فاجتاحهم وأخذ الزرقاء فشق عينيها فاذا فيها عروق سود من الأثمد والله أعلم

أقولُ لِصاحبي والعيسُ تَهْوِى بنا بينَ المُنيفَةِ فالضمارِ :(١)
تَمَتَّعْ من شَميمِ عَرارِ نَجْدٍ فما بعدَ العشيّة من عرارِ (٢)
ألا يا حبّذا نفحاتُ نجدٍ وريَّا روضهِ بعد القطارِ (٣)
وأَهْلُكَ إذ يحلُّ الحيُّ نَجداً وأنتَ على زمانِك غير زارِى (٤)
شُهورٌ يَنقضين وما شَعَرنا بأنصافٍ لهنّ ولا سِرارِ (٥)

وقال عبد الله بن الدمينة الخثعمى (٦)

ألا يا صَبا نجدٍ متى هِجْتَ من نجْدِ لقد زادنى مسراكِ وجداً على وَجْدِ (٧)
أإنْ هتفتْ ورقاء فى رَوْنَقِ الضُّحى على فَنَنٍ غضِّ النباتِ من الرَّنْدِ (٨)
بكيتَ كما يبْكى الوليدُ ولم تكن جَليداً وأبديتَ الذى لم تكن تُبْدى (٩)
وقد زعموا أن المحبَّ إذا دنا يَمَلُّ وأنَّ النأىَ يَشْفِى من الوَجْدِ
بكلٍّ تداوَيْنا فلم يَشْفِ ما بِنا على ذاكَ قربُ الدارِ خيرٌ من البعْد
على أنَّ قُرْبَ الدار ليسَ بنافعٍ إذا كان مَنْ تهواه ليس بذى وُدٍّ

وقال الصِّمة بن عبد الله

حَنَنْتَ إلى ريّا ونفسُكَ باعدت مزارك من ريّا وشعبا كما مَعَا(١٠)

---

(١) المنيفة : ماء لبنى تميم ، والضمار : اسم موضع ، وقوله فالضمار كان حق العطف أن يكون بالواو لأن بين لا تدخل الا بين شيئين متباينين أو الأشياء الا اذا أريد بين أجزاء المنيفة فيصير المنيفة كاسم الجمع نحو القوم والعشيرة (٢) الشميم مصدر ويقال تمتع بكذا ومن كذا والعرار : وردة ناعمة صفراء طيبة الرائحة ، وقوله من عرار من لاستغراق الجنس (٣) النفح تضوع الرياح بالنسيم الطيب ، والريا : الرائحة هنا ، والقطار جمع قطر وهو المطر (٤) زرى عليه : عابه وازرى به قصر به (٥) سرار الشهر آخره والمعنى أن الزمان المذكور شهور مضت وما علمناها باتصافها ولا بأواخرها لما كان فيه من اللذة وطيب العيش (٦) الدمينة أمه وهو أحد بنى عامر بن تيم الله ويكنى أبا السرى وهو شاعر اسلامى مجيد محسن وعده جرجى زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » من شعراء الجاهلية وهو خطأ بين لايخفى على ذى بصيرة فليحذر من سقطاته وزلاته ، بل ودسائسه (٧) الصبا ريح القبول . وهاجت : ثارت والمعنى الا ياصبا نجد متى كان هبوبك من نجد التى هى أرض المحبوب فلقد زادنى مسراك حزنا على حزن أى ماكان منك هبوب الا كان منى وجد (٨) الورقاء : الحمامة التى مال سوادها الى البياض ، والرونق: الضياء ، والرند : نوع من الطيب ، والفنن : الغصن الناعم والغض : الطرى (٩) الجليد : القوى ، والنأى : البعد (١٠) الحنين : تألم من الشوق ، وريا اسم امرأة ، وباعدت أبعدت والواو فى الموضعين من البيت واو الحال ، والمزار الزيارة ، والشعب : الحى

فما حَسنٌ أنْ تأتِيَ الأمْرَ طائعاً　　وتَجْزَعَ إنْ داعى الصبابةِ أسمعا
قِفَا وَدِّعا نجداً ومن حلَّ بالحِمى　　وقلَّ لنجدٍ عندنا أن يُوَدَّعا[1]
بنفسىَ تلكَ الأرضُ ما أطيبَ الرُّبا　　وما أحسنَ المَصْطافَ والمُتَرَبَّعا[2]
وليست عشياتُ الحِمى برواجعٍ　　عليك ولكن خلِّ عَيْنَيْكَ تدمعا
ولما رأيت البِشْرَ أعرضَ دوننا　　وحالت بناتُ الشوق يحْنِن نُزَّعا[3]
بَكتْ عَيْنِيَ اليسرى فلما زجرتُها　　عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا[4]
تَلَفَّتُّ نحوَ الحىِّ حتى وجدتُنى　　وجِعْتُ من الإصغاءِ ليتاً وأخْدَعا[5]
وأذكرُ أيامَ الحِمى ثم أنثنى　　على كَبِدى من خشيةٍ أنْ تَصَدَّعا

وفى نجد بلاد كثيرة ، وفيها أرض العالية التى كان يَحْميها كُلَيب بن وائل وأفْضى بذلك إلى قتله وانتشابِ حرب البَسُوس التى استقامت مدة مديدة وأعواماً عديدة ، وقد ألف أبو لغدة الأصفهانى كتاباً فيما كان فى نجد من البلاد والقُرى والجبال

(١) الحمى : موضع فيه ماء وكلاء يمنع الناس منه ، والنجد كل ما ارتفع من تهامة الى أرض العراق (٢) الألف واللام فى الربا عوض عن المضاف اليه والربا جمع ربوة وهى ما ارتفع من الأرض ، والمصطاف : مكان الصيف ، والمتربع : مكان الربيع والمعنى أفدى بنفسى تلك الأرض لطيب رباها العجيب وحسن فصلها صيفا وربيعا (٣) البشر جبل بالجزيرة ، وأعرض : أبدى عرضه وجانبه ، وحالت : تحركت ، وبنات الشوق : نوازع الحنين كأطفال الحب وهذه استعارة لطيفة جميلة وأراد بها مسببات الشوق وآثاره ، والنزع جمع نازع أى مشتاق (٤) بكت عينى جواب لما فى البيت قبله ، والعجب كل العجب من بعض ائمة اللغة المتقدمين فانه لما تكلم على هذا البيت قال « واختلف فى معناه الصحيح أنه كان أعور والعين العوراء لاتدمع » فهلا نظر الى قوله واسبلتا معا ، والذى أراه أنه لما رأى البشر أعرض دونه وتحركت مسببات الشوق بالحنين مشتاقة الى نجد دمعت عينه اليسرى والانسان كثيرا ما اذا اشتاق الى الشىء هو مغرم به وحظى برؤيته تدمع احدى عينيه فتطاوعها الأخرى ، وقوله فلما زجرتها الخ يريد أنه لما منعها من البكاء الذى يشعر بالجهل بعد الحلم وتيقن أن البكاء لايفيد مع اليأس من القرب طاوعتها اليمنى فدمعتا معا ، والظاهر أن المراد بالجهل بعد الحلم الجزع بعد الصبر (٥) تلفت التفت ، والليت صفحة العنق ، والأخدع عرق فيها ، والاصغاء الميل وليتا واخدعا منصوبا على التمييز ، والمعنى لما حان الفراق صرت أكثر من الالتفاتات جهة الحى حتى وجدت نفسى وجع الليت والاخدع لدوام التفانى تحسرا فى أثر الفائت من أحبابى وديارهم

والمعادن والمياه ومن ملكها من قبائل العرب فى سالف الأيام ، ومن جملة ما ذكر فى كتابه ؛ قال ابن الأعرابى : نجد اسمان السافلة والعالية ، فالسافلة ما ولى العراق . والعالية ماولى الحجاز وتهامة . وقال الأصمعى : إذا جُزْتَ ذات عِرْق إلى البحر فأنت فى تهامة ، وإذا جُزْتَ وَجْرة وَغَمْرَة فأنت فى نجد إلى أن تبلغ العُذيْب ، وغمْرة فى طريق الكوفة . ووجرة فى طريق البصرة إلى هنا ذكر نجد . قال : يقول بعض الناس : إذا بلغتَ العُذيْب من ناحية الكوفة وهى من الكوفة على مرحلة فأنت فى نجد إلى أن تبلغ حدّ تهامة . وقال الأصمعى : إذا جاوزت عجاز من ناحية البصرة فقد أنجدتَ ، وإذا بلغتَ من ناحية الكوفة سميراء أو دونها فقد أنجدتَ إلى أن تبلغ ذات عرق ، فإذا تصوبت فى ثنايا ذات عرق فقد أتهمت ، ويقال : إذا خرجت من المدينة على مُشَرِّفها أفضل الصلاة وأكمل السلام فأنت منجِدان تتصوَّبَ فى مدارج العرج فإذا تصوبت فيها فقد أتهمت إلى مكة المكرمة . قال : ويقول أهل المدينة أخذت التهامية أم النجدية ؛ فالتهامية التى على عُسْفان والجحفة ، والنجدية التى طريق الرَبَذَةِ . قال : وللبصرة إلى مكة طريقان : أما أحدها : فالصحراء عن يسارك وأنت مُصْعِدٌ إلى مكة ليالى ، فإذا ارتفعت فخرجت من فلج فأنت فى الرمل فإذا جاوزت النباج والقريتين فقد أنجدتَ ، وإذا أخذتَ طريق الْمُنْكَدِرِ إلى كاظمة فثلاث إلى كاظمة ، وثلاث فى الدوِّ . وثلاث فى الصمان ، وثلاث فى الدهناء . وعن غيره قال بعضهم : إذا جاوزت الحفر حفر أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه ، وهو حفر بنى العنبر كان أبو موسى احتفر فيه ركيَّةً فأنت فى نجد . وقال بعضهم : حدُّ نجد من النِّباج وهو لبنى عبد الله بن عامر ابن كريز . ويقول بعضهم : إذا جُزْتَ القصيم فأنت فى نجد إلى أن تبلغ ذات عرق ثم تتهم ، والقصيم موضع كان ذا غضى فيه مياه كثيرة ، وقرى منها القريتان قريتا ابن عامر أحدهما يقال لها : العسكران . قال : وكان أهل القصيم يسكنون فى خيام الخوص ، وهى منازل بنى عبس وغيرهم وفيه نخل كثير وهو من عمل

المدينة ويقال حد القصيم قاع بولان وهى مفازة . قال : والقصيم رمل وبالقصيم ماء لبنى أسد فى الرمل عليه خيام من الخوص كثيرة يقال له الحويرثية . قال الشاعر :

عَلى الرَّبْعِ الذى بِحُوَيْرِثاتٍ   من الله التحيةُ والسـلامُ

وبالقصيم عجلز[1] وهى ماءه لبنى مازن وهى المنصف بين البصرة ومكة قال الراجز :

الله نجّاك من العجالِزِ   ومن جبـال طَخْفَة النواشز[2]

والعجالز رحب ، وعجلز وما حولها من المياه ورحب ماء لبنى مازن بالقصيم أيضاً . وقد ذكر هـذا المؤلف رحمه الله جميع القرى والجبال والمياه والمعادن وما ورد من الشعر فى ذلك . قال بعض شعراء العرب يذكر بعض منازل نجد ويتشوّقها ، وهو قائد بن حكيم الربعى :

خليليَّ إنْ حانت بمصر مَنِيَّتى   وأزمعتما أن تحفرا لى بها قبرا[3]

فلا تنسيا أن تقرآ لى على الغضى   ونجدٍ سلاماًلا قليلاً ولا نزرا[4]

وإن سرت ياسبحان ربى بالغضى   أوالمَرْتِ من نجد مخيسة صعرا[5]

---

(١) ورد فى القاموس وشرحه التاج : عجلزة بالكسر رملة بالبادية بازاء حفر أبى موسى وتجمع على عجالز ذكرها ذو الرمة فقال :

مررن على العجالز نصف يوم   وأدين الأواصر والخـلالا

قال الصاغانى ولم أجد البيت فى شعر ذى الرمة فى قصيدته التى أولها :

أناخ فريق جيرتك الجمالا   كأنهـم يريدون احتمـالا

فى نسختى من ديوانه التى قابلتها وصححتها باليمن والعراق ولكنه يقطر منه قطرات عذوبة أنفاسه وسلاسة ألفاظه وانما هو لابن أحمر والرواية وقضين وقد وقع ذكر العجالز فى رجز أهاب بن عمير العبسى :

قاظ القريات الى العجالز   يرد شعب الجمح الجوامز

وهى جمع عجلزة التى ذكرها الجوهرى بعينها ؛ قال الزبيدى ومما يستدرك عليه برملة عجازة ضخمة صلبة وكثيب عجلز ضخم صلب والعجالز ميـاه بضة بنجد هكذا ذكره فى مختصر البلدان ويمكن أن يكون المراد فى الرجز فتأمل (٢) طخفة جبل أحمر حذاؤه أبار ومنهل ومنه يوم طخفة لبنى يربوع على قابوس بن المنذر بن ماء السماء ؛ والنواشز : المرتفعة (٣) يقال أزمعت الأمر وعليه أجمعت أو ثبت عليه كزمعت (٤) الغضى : شجر وخشبه من أصلب الخشب ولهذا يكون فى فحمه صلابة (٥) المرت : المفازة بلا نبات أو الأرض لايجف ثراها ولا ينبت مرعاها

وقال أيضاً

متى العيسُ من مصر بنا رافعاتنا إلى نجد أو باد لعينى قلالها
ومزج إليها الطرف حتى يرده قموس القرى فى البعد يخفق آلها
على متن عاديّ كأن أماره رجال تنادى أفلتتها جمالها

وقوله ومزج أى يسوق نحوها الطرف ينظر إليها ويعنى بقموس القرى هضبة . وقال عباس بن خليل النصرى ينوح على بنى جَذِيمةَ بن مالك بن نصر ، ويقال إن القائل مرار الفقعسى :

ولقد أرى الثَّلَبُوتَ يألف نبته حىّ كأنهم أولو سلطان(١)
ولهم بلاد طالما عرفت بهم صحر الملا ومدافع السبعان
ومن الحوادث لا أبا لأبيكم إن الأجيفرَ قسمة شطران
طردت مخاضَ بنى أُنَيْفٍ عنوةً سبحانك اللهمَّ ذا السبحان
طردوه إن لاقوا غلاماً واحداً ونَسُوا مواثق معقد الإيمان
فلو الهديم لقوا أو ابنى دهمج عرفوا التملّك أسرع العرفان
سكنوا شُبَيْثاً والأحصَّ وأصبحت نزلت منازلهم بنو ذبيان (٢)
وإذا يقال أتيتمُ لم يبرحوا حتى تُقيمَ الخيل سوق طِعَانِ
وإذا فلان مات عن أُكرومة رقعوا معاوزَ فقده بفلان

وقد أحلنا استيفاء بلاد نجد وقراها وجبالها ومعادنها وغير ذلك على كتاب الأصبهانى السابق ذكره .

وأما اليمن

فهذا إقليم عظيم متسع الأرجاء ، متباعد الأطراف والأنحاء ، لم تزل محمودة

(١) الثلبوت كجبروت واد أو أرض بين طىء وذبيان (٢) شبيث والأحص موضعان بتهامة وموضعان بحلب وفى المثل : تخطى الى شبيثا والأحص ، قال فى الفرائد : شبيث ماء لبنى الأضبط ببطن الجريب فى موضع يقال له دارة شبيث ، والأخص : موضع هناك ، قاله جساس لكليب حين طعنه فقال أغثنى بشربة ماء فقال تجاوزت شبيثا والأحص ، يعنى ليس حين طلب الماء يضرب لمن يطلب شيئا فى غير وقته

على ألسنة الأصفياء ، لما أودع الله فيها من البركة فى جميع الأشياء ، وكانت تسمى الخضراء لكثرة مزارعها ونخيلها وأشجارها وأثمارها ومراعيها وريعها . قال الكلاعى فى قصيدته :

هى الخضراء فاسألْ عن رُباها يُخبِرك اليقينَ المخبرونا

ويُمْطِرها المهيمنُ فى زمان به كل البرية يَظْمئُونا

وفى أجبالها عزٌّ عزيزٌ يظل له الورى متقاصرينا

وأشجارٌ منوِّرَةٌ وزرع وفاكهة تروقُ الآكلينا

وأرض اليمن مقسومة ثلاثة أقسام : قسم برارى سهلة ، وقسم جبال وعرة ، وقسم بحر . فعدَّ أبو الحسن الكلاعى من البرارى السهلة مواضع شرقية ، ومواضع غربية ، فمن الشرقية مأرب ونجران وحضر موت وجوف همدان والشحر وبيجان . وعدَّ من الغربية زبيداً وعلافقة وعسيراً وسردد ومورا وأرض حكم وهى من المبيضة إلى جلى ، قال : وفى هذه البرارى والسهول من المنافع والفضائل والخير الطائل ما لا يحصى له عدد ، ولا يبلغ له أمد ، وعدّ من قسم الجبال . جبال اليمن المشهورة بالشُموخ والسعَة ، والخصْب والمَنَعَةِ ، والجناب والرفعة ، وهى صر ومخلاف جعفر ودخر وبعدان ووصاب وعتمة وأريمة وبرع وحفاش وملحان وحضور وتيس ومسور والشرف وجبل هنوم ، وذكر أن فيها من الخيرات والفضائل ما لا يخفى إلاّ على جاهلٍ أو متجاهل ، وكم فيها من البساتين والعيون الجارية والفواكه والروعات ، والأشجار والثمرات ، والمعاقل المنيعة ، والحصون القاهرة . مما لا يوجد فى كثير من الديار مثله ، ولا يوصف شكله . وعدّ أيضاً جزء البحر وما يخرج منه إلى اليمن فقال : يخرج منه اللؤلؤ والمَرْجان والعنبر الذكىّ . قال : وأما الذى كان يصل إلى اليمن من البلدان البعيدة بواسطة البحر فالدرّ والياقوت وأصناف من المسك والكافور والعود الرطب وأنواع العطر والفُلْفُل والحديد ، هذا كله من بلاد الهند . وأما الذى كان يَصِلُ من الصين فالحرير

والقصب . وأما الذى كان يَصِل من عمان وأرض فارس فكثير من التُّحف التى يطول ذكرها .

بعض ما كان فى اليمن من المعادن

ذكر فى كتاب نشر المحاسن اليمانية إن فى اليمن كثيراً من المعادن ، منها مَعْدِنُ عَشَم وَمعْدِنُ ضنكان وهما معدنا ذهب جليلان . ومعدن القفاعة من أرض حكم وهو دونهما . ومعدن فى أرض بنى محيد وهو دونه . وأما معادن الفضة فإن فيها مَعْدن الرصاص وهو موضع بين فهم بطن من همدان وبين خولان العالية وبين مراد ، وهو معدن جليل كان اعتماد أهل اليمن عليه فلما ضعفت السلطنة تقالت العرب عليه وخربت قرية الرصاص وكان أهلها من العُرَنيين[1] فانتقلوا إلى صنعاء . وأما معادن الجزع واليقران والعقيق فهما جميعاً بأرض مقرى من مخاليفِ اليمن الشرقية . وأما حجارة الحديد فإن فى اليمن جبالا كثيرة يصلح منها الحديد بعضها بعدن أبْيَن وبعضها بأرض وادعة بين صعدة والحجاز ، وفى نجران أيضاً جبل من حديد . ومنها بيجان ضرب من حديده سيوف كثيرة كانت مع ولد سبأ بمأرب لم يكن لها فى السيوف قياس ولا مثيل .

ما كان فى اليمن من القصور والمبانى الشهيرة

كان فى اليمن حصون كثيرة ، ومساكن عامرة ، وقصور عجيبة فاخرة ، منها : قصر غُمْدَانَ الذى كان بصنعاء وهو قصر عجيب فاخر أَسَّسه — كما فى كتاب نشر المحاسن اليمانية — أزالُ بنُ قَحطان بأمر أخيه يعرب بناه عشرين طبقةً بعشرين سقفاً بين كل سقفين عشرين ذراعاً وجعل فيه مائةَ مسكنٍ ، وكان أعلى غُرَفه مُمَرَّداً بالقوارير . وذكر بعض المؤرخين : أن قصر غمدان هو بظاهر صنعاء اليمن وله غرف شهيرة يسمونها المحاريب وهو محكم البناء عجيب

---

(١) عرنة بالضم اسم قبيلة ورهط من العرنيين ارتدوا فقتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا فى الصحاح .

الارتفاع لأنه سبع طبقات وفيه مالا يوصف من الزخارف والصنائع الغريبة .
بناه الملك شُرَحْبيل بن عمرو بن غالب بن المنتاف بن زيد بن يعفر بن السكسك
ابن وائل بن حمير ، وأقام فيه مدة ملكه ثم صار بعد ذلك دار الملك للتبابعة .
وذكر بعضهم : أن غُمْدان قصر باليمن بناه يَشْرُحُ بأربعة وجوهٍ أحمر وأصفر
وأبيضَ وأخضرَ ، وبنى داخِلَهُ قصراً بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذِراعاً .
وعلى كل قول من هذه الأقوال أن قصر غُمْدان كان من أعاجيب المبانى فى وقته
فلذلك أكثر شعراء الجاهلية من ذكره فى شعرهم ونوهوا بشأنه . ومنها : ظفارِ
وهو قصر الملك أبرهة ، وقد كان أيضاً من الأبنية العظيمة . ومنها : سَلْحيْنُ وهو
قصر بناه الحارث الرائش بين صنعاء ومأرب . ومنها : ناعظ قصر ملوك همدان .
ومنها : بينون قصر بناه تُبَّعُ الذائد بأرض عنتر . ومنها : صرواخ لسعد بن خولان .
ومنها : قصر العشب . ومنها : قصر العنقاء . ومنها : موكل قصر فى المشرق
بناه أبرهة ذو المنار بن الحارث الرائش . ومنها : براقين ومعين قصران مقتبلان
بالجوف . ومنها : تلعم قصر همدان بريدة . ومنها : هكر والأهجر قصران فى أرض
عبس . ومنها : دورم لصهر أبرهة بن الصباح . ومنها : أعماد لسنام بذى شان ،
وهو من ولد سبأ الأصغر .

ومن المدن الشهيرة باليمن « صنعاء » وكانت من أحسن البلاد مساكنَ
وأطيبها وأصحها هواء ، يقال إن شتاءها فى غاية البرودة . ومع ذلك لا يحصل
منه ضرر لأحد . وكانت هذه المدينة من أشهر بلاد العرب وأنزهها وكانت تحاكى
دِمَشْق الشام لكثرة مياهها وأشجارها وهى معتدلة الهواء حسنةُ الأسواق واسعة
التجارة . وكانت كرسىّ ملوك اليمن فى الزمان القديم ، وهى شرقىّ عدن فى الجبال ،
وكانت فى الزمن القديم تسمى أزَالَ . ولما كانت هى وما حولها فى الأزمنة الأخيرة
تحت حَوْزة إمام الزيدية استحدث عليها حصن تعز ، فصارت إذ ذاك منزلا لبنى
رسول ملوك اليمن وهو حصن فى الجبال مُطِلّ على التهائم وأرض زبيد وفوقه متنزه

كان يقال له (صهلةَ) قد ساق إليه صاحب اليمن المياه التى فوقه وبنى فيه أبنية عظيمة فى وسط بستان هناك . ومنها « زبيد » وهى قصبة التهائم وموضعها فى مستوى من الأرض والبحر عنها أقل من يوم ، وفيها نخل كثير وكان عليها سور دائر فيه ثمانية أبواب ، وهى إلى الغرب من صنعاء ولها فُرْضَةٌ على البحر تسمى (علافقة) وبينها وبين البحر خمسة عشر ميلا ، وإلى الجنوب منها على شط البحر أيضاً « مدينة المخا » التى يجلب منها البن وعلى أربع مراحل من المخا بيت الفقيه وهى من الأراضى التى ينبت فيها البن أيضاً . ومنها « عدن » ويقال لها عدن أبْيَن سميت باسم بانيها وهى مدينة على ساحل البحر أعنى بحر الهند جنوبى باب المندب بميلة إلى الشرق ، وكانت مورد حط وإقلاع لمراكب الهند ومصر وغيرها ، وهى فى ذيل جبل وتمامه سور إلى البحر ، وكان لها باب إلى البر وآخر إلى البحر ، وأرضها مُجْدِبة تنقل إليها الميــاه فى الغالب على ظهور الدواب ، وهى اليوم بيد الأفرنج وهى فُرْضة اليمن . ومنها : (نجْران) بفتح النون . وسكون الجيم ، وهى قطعة عظيمة من أرض اليمن ذات نخيل وأشجار على القرب من صنعاء ، وهى بين عدن وحضرموت ، ويقال : هى جبال من شمــال اليمن إلى شمال صـعدة تبعد عن صنعاء نحو عشرة مراحل ، وكانت من بلاد همــدان بين قرى ومدائن وعمائر ومياه . وبها كان أفعى الجرهمىّ الذى تحاكم إليه مضر وربيعة وإياد وأنمار أولاد نزار بوصية من أبيهم ، على ما سيجىء إن شاء الله تعالى بيانه فى الـكلام على الفراسة . ومن مشاهير بلاده « ظفار » بالظاء المشالة والفاء وهى مدينة على ساحل (جون) يخرج من بحر الهند ويطمن فى الشمال نحو مائة ميل ، وهى على طرفه بينها وبين صنعاء أربعة وعشرين فرسخاً وعلى شمالها رمال الأحقاف التى كان بها عاد ، وهى قاعدة بلاد (الشحر) ويوجـد فى أرضها كثير من النبات الهنـدى كالنارجيل والتنبل[1] ، وفيها بساتين على سواقى ، وفى سواحلها يوجد العنبر .

(١) قال فى القاموس والتامول التانبول وهو ضرب من اليقطين طعم ورقه

ومن البلاد التى كانت فى اليمن — مأرب

وتسمى سبأ باسم بانيها ، وهو سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان أول ملوك اليمن فى قول واسمه عبد شمس ، وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبى السبى من ولد قحطان . وكان ملكه أربعمائة وأربعاً وثمانين سنة ثم سمى به الحىّ ثم سمى به مسكنهم ، وكانت هذه البلدة من أحسن بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ، وهى إلى الجنوب الشرقىّ من صنعاء لم يكن يومئذ فى بلاد العرب أَعْمَر منها . قال عبد الملك فى شرح قصيدة بن عبدون : إنّ أرضَ سبأ من اليمن كانت العمارة فيها أزيد من مسيرة شهرين للراكب الُمجِدِّ وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر فمزقوا كل ممزق . وذكر غيره من المؤرخين الثقاة : أن (مأرب) كانت لطيفةَ الهواء ، حسنةَ التربة ، لا تحدث فيها عاهة ، ولا يكون فيها هامة ، حتى إن الغريبَ إذا دخلها وفى ثيابه قمل أو براغيث ماتت ولذلك نطق القرآن فى شأنها أنها بلدة طيبة . وقيل : المراد بطيبها صحة هوائها وعذوبة مائها ، ووفور نزهتها ، وأنه ليس فيها حَرٌّ يؤذى فى الصيف ولا برد يؤذى فى الشتاء وكان عن يمين البلدة وشمالها بساتين كثيرة ، ويقال : إن لكل منزل من منازل البلد جنة عن اليمين وأُخرى عن الشمال ، وذلك بسبب ما كان من كثرة المياه فى أرضها . فقد روى أن بلقيس لما ملكت اقتتل قومها على ماء واديهم فتركت ملكها وسكنت قصرها وراودوها على أن ترجع فأبت ، فقالوا : لترجِعِنَّ أو لنقتلنك . فقالت لهم : أنتم لا عقولَ لكم ولا تطيعونى . فقالوا : نطيعك. فرجعت إلى واديهم ، وكانوا إذا مطروا أتاهم السيل من مسيرة ثلاثة أيام ، فأمرت فسدَّ ما بين الجبلين بمسناة بالصخر والقار وحبست الماء من وراء السدِّ ، وجعلت له أبواباً بعضها فوق بعض ، وبنتْ من دونه بركة منها اثنا عشر مخرجاً على عدة

كالقرنفل يمضغونه بقليل من كلس وهو مشه مطرب باهى مقو للثة والمعدة والكبد وهو خمر الهند يمازج العقل قليلا وهو ينبت كاللوبياء ويرتقى فى الشجر

أنهارهم ، وكان الماء يخرج لهم بالسوية إلى أن كان من شأنها مع سليمان عليه السلام ما كان . وقيل : إن الذى بناه هو حمير أبو القبائل اليمنية . وقيل : بناه لقمان الأكبر ابن عاد ، ورصف أحجاره بالرصاص والحديد ، وكان فرسخاً فى فرسخ ولم يزالوا فى أرغد عيش ، وأخصب أرض ، حتى إن المرأة تخْرج وعلى رأسها المِكْتلُ[1] فتعمل بيديها وتسير فيمتلىء المكتل مما يتساقط من أشجار بساتينهم إلى أن أعرضوا عن الشكر وكذبوا الأنبياء عليهم السلام ، فسلّط الله تعالى على سدّهم الُخلْدَ[2] فتوالد فيه فخرقه ، فأرسل سبحانه سيلا عظيما فحمل السّد وذهب بالجنان وكثير من الناس ، وكان ذلك السيل على ما قيل فى ملك ذى الأذعار ابن حسان فى الفترة ، وكان أول من أحس بحادثة (سيل العرِم) قبل وقوعها بزمن طويل فخرج من اليمن عمرو بن عامر مُزَيْقيَا لما أنذرته بذلك طريفة الكاهنة ، وسيأتى ذكر ما قالته من الأسجاع عند الكلام على الكهانة إن شاء الله تعالى مع بيان منْ تفرّق من القبائل والمواضع التى سكنوها . وفى أرض (مأرب) اليوم بقايا من آثارهم وكتابات كثيرة منقوشة بالخطّ الحميرى قد اهتدى إلى معرِفتها بعض السياحين من الأفرنج الذين طافوا أنحاء هذه البلاد بواسطة مقابلتهم ما نقش منه على الآثار التى اكتشفوها بالخط الحبشى والكوفى والفينيقى والعبرانى ، وعرف بذلك ما كان للقوم من المدنية والمعارف الكمالية .

وفى اليمن بلاد أخرى كثيرة لا يمكننا استيعابها فى أقسام اليمن الخمسة ، وهى : حضرموت ومهرة وعُمان وشحر ونجران ، ولذلك كتب معدة . وكان اليمن منازل العرب العاربة منْ عادٍ وطَسْم وَجَدِيس وأميم وجرهم وحضرموت ومنْ فى معناهم . ثم انتقلت ثمود إلى الحجرِ من أرض الشام ، فكانوا بها حتى هلكوا وهلك أيضاً من هلك من بقايا العرب العاربة باليمن من عاد وغيرهم ، وخلفهم فيه بنو قحطان بن

(١) بكسر الميم الزنبيل وهو ما يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره والجمع مكاتل مثل مقود ومقاود (٢) الخلد بالضم ويفتح الفأرة العمياء .

عامر على قول فعرفوا بعرب اليمن وبقوا فيــه إلى أن خرج منه عمرو فى حادثة السيل ، ثم خرج منه بقاياهم وتفرقوا فى الحجاز والشام وغيرها . وكانت الحجاز أرض بنى عدنان إلى أن غزاهم بختنصر ، ونقل من نقل منهم إلى الأنبار من بلاد العراق ، ولم تزل العرب بعد ذلك تنتشر فى الأقطار إلى أن كان الفتح الإسلامى فتوغلوا فى البلاد حتى وصلوا إلى بلاد الترك وما داناها وصاروا إلى أقصى المغرب وجزيرة الأندلس وبلاد المشرق وملأوا الآفاق ، وصار بعض عرب اليمن إلى الحجاز ، فأقاموا به وربما صار بعض عرب الحجاز إلى اليمن فأقاموا به وبقى من بقى منهم فى الحجاز واليمن إلى يومنا هذا .

***

ومن بلاد العرب ومبانيها فى بوادى الشام — تدمر

وهى بلدة قديمة ببادية الشام من أعمال حِمْص وهى على شرقيها وأرضها سباخ ، وكان فيها شجر ونخيل وزيتون ، وفيها آثار عظيمة قديمة من أعمدة وصخور ، وكان لها سور وقلعة وبينها وبين حمْص نحو ثلاث مراحل : وكذلك بين سلمية وبينها وبين دمشق تسعة وخمسون ميلا ، وبينها وبين الرحبة مائة ميل وميلان ، وكانت منزل آل ربيعة ملوك الشام . واختلف فى بانيها فقال بعض المؤرخين : إنه سليمان عليه السلام فإن هذه البلدة كانت مستقره وأن الجن قد بنتها له بالصُّفَّاح والعَمَد والرخام الأبيض والأشقر ، وفى ذلك يقول النابغة الذبيانى فى مــدح النعمان ابن المنذر :

ولا أرى فاعلاً فى الناس يُشْبِهُهُ ... وما أُحاشى من الأقوام من أَحد [١]

إلا سليمان إذ قال الآلهُ له ... قمْ فى البرية فاصددْها عن الفَنَد [٢]

---

(١) ولا أرى فاعلا الخ أى لا أرى احدا يفعل الخير يشبهه ، ولا احاشى أى لا استثنى ، ومن فى قوله من أحد زائدة (٢) يريد بسليمان ابن داود عليهما السلام وهو فى موضع نصب على البدل من موضع أحد وان شئت على الاستثناء ويروى اذ قال المليك له ، والفند الخطأ .

وخيِّس الجن أنى قد أذنت لهم   يبنون تدْمُرُ بالصفَّاح والعَمَدِ[١]

فمن أطاع فاعقبْـه معاقبـةً   كما أطاعك وادلله على الرشـد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة   تَنْهى الظلوم ولا تقعـد على ضمد[٢]

ألا لمثلك أو من أنت سابقُهُ   سبقَ الجواد إذا استولى على الأمد[٣]

ذكر ذلك الثعالبى فى تفسيره ، وهذا من مذاهب العرب على سبيل المبالغة لا الحقيقة كما كانوا يزعمون أن عبْقَراً اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شىء عجيب ، فزعموا أن (تدمر) من بناء الجن لما يرون من قوتها الباهرة وصنعها العجيب . وقال بعضهم . انها من أبنية العرب الأقدمين ، ففى القاموس تدْمر كتَنْصُر بنت حسّان بن أُذيْنة بها سميت مدينتها وهذا هو المعوّل عليه ، ولعل مراد من قال : إن بانيها سليمان عليه السلام أنه حسنها وزاد فى أبنيتها والله أعلم « ومنها تيماء » وهى حاضرة طيىء وبها الحصن المعروف (بالأبلق الفرد) المنسوب إلى السموءل ابن عاديا ، وكانت بلدة عظيمة بين الحجر أرض ثمود وبين الشام ، وفيها عين ماء ونخيل . ويقال : إن أصحاب الأَيْكة الذين بعث الله تعالى شعيباً إليهم أيضاً سكنوها ، وفى ذلك الحصن يقول السموءل فى قصيدته الشهيرة :

لنـا جبَلٌ يحتلُّه من نُجيرُهُ   منيعٌ يردُّ الطرف وهو كليلُ

هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره   يعزُّ على من رامه ويطول

رسا أصله تحت الثرى وسما به   إلى النجم فرع لا ينال طويل

ومنها « مدين » وهى قريبة من البحر إلى غربى (الحجْر) مائلا إلى الجنوب وهى التى قال فيها كثّير عزَّة :

رهبان (مدْين) والذين عهدْتهم   يبكون من حذر العذاب قعودا

لو يسمعون كما سمعت كلامها   خرّوا لعزَّة ركَّعـاً وسجودا

---

(١) الصفاح : الحجارة كالصفائح عراض ومعنى ذال ويروى وخبر الجن انى قد أمرتهم الخ (٢) الضمد : الحقد (٣) أى لاتقم على الحقد الا لمن يماثلك فى حالك أو من فضلك عليه كفضل السابق على المصلى يعنى أو من يباريك ، والأمد : الغاية

وقد خرجت هذه البلدة من أمد بعيد ، وزمان مديد ، وقد عفت طلولها ورسومها

ومنها « دُومه الجندل » كان رجل اسمه الأُكيْدر فى بلدة قرب عين التمر فى العراق تسمى (دومة) وكان يزور أخوالاً له من بنى كلب فى أطراف الشام فبينما هو يسير فى بعض الطريق ، إذ ظهرت له مدينة منهدمة لم يبق منها إلا بعض حيطانها وكانت مبنية بأرض تسمى الجندل فأعاد (الأُكيْدر) بناءها وغرس فيها الشجر وسماها (دومة الجندل) تفرقة بينها وبين (دومة العراق) وكان بنو كلب ينزلونها ، ومنهم زهير بن جناب الكلبى ، وهو القائل فى غزوهم لبنى بكر وتغلب على ماء الحنىّ :

أَين الفرارُ من حَذر المو ت وإذ تتقون بالأسلاب

إذ أسرْنا مُهَلْهِلا وأخاه وابنَ عمرو فى القيد وابن شهاب

وسبينا من تغلب كل بيضا ء رقُود الضحى بَرُود الرضاب

ومنهم زهير بن شريك الكلبى ، وهو القائل لأسماء زوجته :

ألا أصبحتْ أسماء فى الخمر تعذل وتزعم أنى بالسِّفاه موكّلُ

فقلت لها : كفى عتابك نصْطَبحْ وإلا فبينى فالتغرُّبُ أَمْثَلُ

« والحجْر » بكسر الحاء المهملة هى إلى الجنوب من (دومة الجندل) وبها كانت ديار ثمود . وأما الحجر بالفتح فهى فى اليمامة بقرب مدينة اليمامة وهما منازل بنى حنيفة وبعض مضر ، وبنو حنيفة هؤلاء من بكر بن وائل . ومنهم مسيلمة الكذاب وهم من العرب المستعربة من قبيلة ربيعة الفرس ، وكان فى دومة الجندل من المبانى العظيمة (مارد) وهو حصن للسموءل بن عاديا الغسانى ، كما أن (الأبلق) له أيضاً غير أن (مارداً) فى دومة وكان مبنياً من حجارة سود ، والأبلق كان فى أرض تيماء كما سبق وقد بنى من حجارة سود وبيض ، وقد قصدتهما (هند) ملكة الجزيرة المعروفة بالزباء وعجزت عنهما فقالت : تمرَّد مارد وعز الأبلق ، فذهب هذا القول مثلاً . ومن مبانى العرب فى بادية الشام (صرح الغدير) وهو

من أبنية ملوك غسان فى أطراف (حوران) ممايلى (البلقاء) بناه ثعلبة بن عمرو ابن جفنة الغسانى ، ومنها (القناطر) و (أذرح) و (القسطل) وهى من أبنية جبلة ابن الحارث بن ثعلبة المذكور . ومنها (الحفير) و (مصنعة) و (قصر أبير) و (معان) وهى من أبنية الحارث بن جبلة المذكور وكان يسكن فى البلقاء . ومنها قصر (الفضا) و (صفات العجلات) و (قصر منار) وهى من أبنية عمرو بن الحارث المذكور فإنه أنشأ فى دمشق وضواحيها عدةً من القصور الشامخة منها هذه الأبنية . ومنها (قصر السويداء) و (قصر حارب) بناهما النعمان بن عمرو الذى مرّ ذكره . ومنها (قصر برقع) بنى فى البرية لجبلة بن الحارث أخى عمرو المذكور سابقاً ، وكان صاحب تدمر . و (قصر بركة) و (ذات أنمار) بناه له عامله القين . ومنها (جَبَلَةَ الأيهمية) وهى بلدة بناها جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسان ، وهو الذى أسلم فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، ثم لحق بقيصر ملك الروم فتنصر وأقام عنده والقصة مشهورة[1] ، وكان يضرب به المثل فى عزة الملك فيقال أعز ملكا من جَبَلَةَ بن الأيهم .

ما جاور العراق من بلاد جزيرة العرب

اعلم أن كثيراً من العرب فى حدود العراق من أرض جزيرة العرب والبعض منهم كان فى العراق أيضاً ، واختلف المؤرخون فى سبب ذلك فذهب ابن خلدون فى تاريخه عند الكلام على الطبقة الثالثة من العرب وهم العرب التابعة للعرب أن بختنصر ملك بابل هو الذى أسكن بعضهم فى الحيرة بسبب ما كان له مع التبابعة وغيرهم من الوقائع والحروب ، وبعد موته انتقلوا منها إلى الأنبار فانتشروا بعد

(١) حدثنا استاذنا المؤلف أنه رأى ابن الشجرى فى كتابه « المختلف والمؤتلف » المخطوط ينكر على من يدعى تنصر جبلة انكارا شديدا ويبالغ فى الرد على من يقول بذلك فأحببت أن اقف على هذه المسألة الغامضة فأخبرنى أنه أرسل نسخة الكتاب — وهى قديمة وحيدة فى العالم — الى بعض الوراقين فى مصر للطبع والنشر فتجرأ ذلك الخؤون الأثيم على بيعها الى بعض المستشرقين فهى اليوم فى خزائن كتب الافرنج والأمر لله

ذلك بأرض العراق . وقال الهمدانى فى كتاب جزيرة العرب : سار تُبَّع أبو كوب فى غزوته الثانية فلما أتى موضع الحيرة خلف هناك مالك بن فهم بن غُنم بن دُوس على أثقاله وتخلف معه من ثقل من أصحابه فى نحو اثنى عشر ألفـــاً ، وقال : تحيروا هذا الموضع فسمى الموضع الحيرة ، وهو من قولهم تحير الماء إذا اجتمع وزاد ، وتحير المكان بالماء إذا امتلأ ، فمالك أول ملوك الحيرة وأبوهم . وكانوا يملكون ما بين الحيرة والأنبار وهيت ونواحيها وعين التمر وأطراف البرارى الغمير والقطقطانة وحفية . وكان مكان الحيرة أطيب البلاد ، وأرقه هواء ، وأخفه ماء ، وأعذبه تربة ، وأصفاه جوًّا ، قد تعالى عن عمق الأرياف واتضع عن حزونة الغائط واتصل بالمزارع والجنان والمتاجر العظام ، لأنها كانت من ظهر البرية على مرفأ سفن البحر من الهند والصين وغيرها ، والحيرة أرض فى العراق فيها بلدة كانت قريبة من الكوفة . وغير الهمدانى يقول إن الحيرة بلدة على حافية البادية وحافة سواد العراق وإن تُبَّعاً لمـا سار من اليمن إلى خراسان وانتهى إلى موضعها ليلاً تحير فنزل وأمر ببنائها فسميت الحيرة وصارت مقام الملوك اللخميين من آل النعمان بن المنذر ، وبها تنصر المنذر بن امرىء القيس وبنى بها الكنائس العظيمة ، وأقام قصراً سماه (الزوراء) وهو المعنىّ بقول النابغة الذبيانى :

وتسقى إذا ما شئت غير مصرد زوراء فى أكنافها المسك كارع

« والأنبار » مدينة كانت فى العراق أيضاً على شرقىّ نهر الفرات بينها وبين بغداد نحو عشرة فراسخ ، سميت بهذا الاسم لأن الأكاسرة كانوا يخزنون فيها الطعام ، وبعد الفتح الإسلامى ظهر فيها جماعة من أهل العلم ، وبعد أَنْ مصَّر سعد ابن أبى وقاص الكوفةَ نقل إليها أهل الحيرة فخربت . وكان فيها من مبانى العرب الجاهليين قصور عظيمة ، منها قصر (الخوَرْنق) وكان فى الحيرة بظهر الكوفة بناه رجل من الروم يقال له سنمار للملك النعمان الأكبر ابن امرئ القيس اللخمى الملقب بالمحرّق فى مدة عشرين سنة ، فلما فرغ من بنائه ألقاه الملك المذكور من

أعلاه فقتله لئلاّ يبنى مثله لغيره ، فضربت العرب بذلك المثل ، فقالوا : جزاه جزاء سنمّار .

جزانى جـزاه الله شر جزائه ... جزاءَ سنمّارٍ وما كان ذا ذنْبِ

سوى رصّه البنيان عشرين حجةً ... يعلى عليه بالقراميد والسكْب[١]

فلمـا رأى البنيانَ تمَّ سحوقُه ... وآض كمثل الطَّوْد والباذخ الصعب[٢]

وظن سنمّار به كل خـيرة ... وفاز لديه بالمودَّة والقرب

رمى بسـنمَّار على أمِّ رأسـه ... وذاك لعَمْرُ الله من أعظم الخطب[٣]

وقال سليط بن سعد

جزى بنوه أبا الغيلان عن كِبَرٍ ... وحسن فعل كما يُجْزى سنمّارُ

ويروى أن السبب فى قتل سنمّار غير ذلك ، وقصة قصر (الخورنق) مفصلة فى ترجمة (عدى بن زيد) من كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، وهناك أيضاً ترجمة سليط بن سعد ، ويقال : إن هذا الملك بعد أن مكث فى الملك ثلاثين سنةً كان جالساً يوماً فى هذا القصر ، فتأمل فى الملك الذى له والأموال والذخائر التى عنده وكانت على جانب عظيم ، فقال : لا خيْر فى هذا الذى ملكته اليوم ويملكه غيرى غداً ، ومن ثمَّ زهد فى الملك وأمر حجابه أن يمتزلوا عن بابه ، ولما جنَّ الليل التحف بكساء وخرج سائحاً فى الأرض فلم يره أحد بعد ذلك . ومنها (السدير) وهو قصر آخر من آخر من مبانى النعمان الأكبر أيضاً . ومنها (الصنبر) وهو حصن من مبانى امرئ القيس بن النعمان الأعور . ويقال : إن ما وقع لسنمار كان مع هذا الملك بعد أن بنى له هذا الحصن . وقد لهجت الشعراء بذكر هذه القصور وغيرها من مبانى العرب القديمة . قال الأسود بن يعفر :

أهل الخوَرنق والسَّدِير وبارقٍ ... والقصر ذى الشرفات من سنداد

---

(١) القراميد جمع قرميد وهو آجر أو شيء يشبهه وقيل شيء كالجص يطلى به وقيل حجارة محرقة أو خزف مطبوخ ، والسكب : النحاس أو الرصاص (٢) آض أى صار ، والطود : الجبل ، والباذخ : العالى : وقوله سحوقه أى ارتفاعه (٣) أم رأسه أى دماغه

وقال المنخّل اليشكرى من أبيات كانت سبب عزل عمر رضى الله تعالى عنه له عن العمل :

ولقد شربت من المُدا　　مة بالصغير وبالكبير
وإذا سكرت فإننى　　رب الخورْنق والسَّدير
وإذا صحوت فإننى　　رب الشُويْهة والبعير

وهذه الأبيات من قصيدة طويلة ، والمنخل هذا كان من شعراء الجاهلية ، وكان ينادم النعمان بن المنذر وهو الذى سمى بالنابغة الذبيانى إلى النعمان فى أمر المتجردة امرأة النعمان فلحق بآل جفنة الغسانيين ، وقال أبو العتاهية :

لَهْفى على الزمن القصير　　بين الخورْنَق والسدير

والشعر فى ذلك كثير ، وقد تركنا ذكر كثير من مبانى العرب القديمة فى العراق ، وقد ذكرت فى كتاب معجم البلدان وغيره من الكتب المؤلفة فى هذا الباب ، واعلم أن العراق ليس من جزيرة العرب ، والسواد سواد كسرى الذى فتحه المسلمون على عهد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وهو من أرض العراق سمى سواداً لسواده بالزرع والأشجار لأنه حين تاخم جزيرة العرب التى قل الزرع فيها والشجر كانوا إذا خرجوا من أرضهم إليه ظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار ، وهم يجمعون بين الخضرة والسواد فى الأسامى كما قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب ، وكان أسود اللون :

وأنا الأخضرُ منْ يعرفنى　　أخضر الجلدة من نَسْلِ العربْ

فسموا خضرة العراق سواداً ، وسمى عراقاً لاستواء أرضه حين خلت من جبال تعلو وأودية تنخفض ، والعراق فى كلام العرب هو الاستواء ، قال الشاعر :

سقتم إلى الحقّ لهم وساقوا　　سياق من ليس له عراق

أى ليس له استواء وبعضهم يقول : إنما سمى بهذا الاسم تشبيهاً له بعراق المزادة وهو موضع الخرز المستطيل فى أسفلها . وبعضهم يقول : هو جمع عرق

لاشتباك عروق النخل والشجر فى تلك الأرض . وحد السواد طولا من (حديثة الموصل) إلى (عبادان) وعرضاً من عُذَيْب القادسية إلى حلوان ، فطوله مائة وستون فرسخاً ، وعرضه ثمانون فرسخاً : فأما العراق فهو العرض مستوعباً لأرض السواد عرفا ، ويقصر عن طوله فى العرف لأن أوله من شرقىّ دجلة الملك . وفى غربيها حربى ، ثم يمتد إلى آخر أعمال البصرة من جزيرة عبادان فيكون طوله مائة وخمسة وعشرون فرسخاً يقصر عن طول السواد بخمسة وثلاثين فرسخاً ، وعرضه مع تبعه فى العرف ثمانون فرسخاً كالسواد . قال قدامة بن جعفر : يكون ذلك مكسراً عشرة آلاف فرسخ وطول الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع بالذراع المرسلة ، ويكون بذراع المساحة وهى الذراع الهاشمية تسعة آلاف ذراع ، فيكون ذلك إذا ضرب فى مثله وهو تكسير فرسخ فى فرسخ اثنين وعشرين ألف جريب وخمسمائة جريب ، فإذا ضرب ذلك فى عدد الفراسخ وهى عشرة آلاف فرسخ — بلغ مائتى ألف ألف وخمسة وعشرين ألف ألف جريب وخمسمائة جريب ، يسقط منها بالتخمين مواضع التلال والآكام والسباخ والآجام ومداس الطرق والمحاج ومجارى الأنهار وعراص المُدُن والقرى ومواضع الأرحاء والبريدات والقناطر والشاذروانات والبنادر ومطارح القصب وأتانين[1] الآجرّ وغير ذلك الثلث وهو خمسة وسبعون ألف ألف جريب يراح منها النصف ويكون النصف مزروعاً مع ما فى الجميع من النخل والكرم والأشجار . فإذا أضيف إلى ما ذكره قدامة فى مساحة العراق ما زاد عليها من بقية السواد ، وهو خمسة وثلاثون فرسخاً . كانت الزيادة على تلك المساحة قدر ربعها ، فيصير ذلك مساحة جميع ما يصلح للزرع والغرس من أرض السواد ، وفى المتعذر أن يستوعب زرع جميعه وقد يتعطل منه بالعوارض والحوادث ما لا ينحصر . وقد قيل : إنه بلغت مساحة السواد فى أيام كسرى بن قباذ مائة ألف وخمسين ألف ألف جريب ، فكان مبلغ ارتفاعه

---

(١) جمع أتون بالتشديد موقد النار مولد وتردد فيه الجوهرى .

مائتي ألف ألف وسبعة وثمانين ألف ألف درهم بوزن سبعة ، لأنه كان يأخذ على كل جريب درهماً وقفيزاً ثمنه ثلاثة دراهم بوزن المثقال . وإن مساحة ما كان يزرع منه على عهد عمر رضى الله تعالى عنه من اثنين وثلاثين ألف ألف جريب إلى ستة وثلاثين ألف ألف جريب ، والكثير من أراضى العراق اليوم مَوات وغالب البلاد خراب .

ديار بكر بن وائل وربيعة ومضر

ذكر بعض المؤرخين : أن ثلاث قبائل من عرب اليمن وهم بكر وربيعة ومضر هاجروا من اليمن عند حادثة سيل العرِم ، وسكنوا شمال ما بين نهرىْ دجلة والفرات وهو المسمى بالجزيرة . فسميت حينئذ تلك النواحي ديار بكر وديار ربيعة وديار مضر ، وفيها يجرى نهر (الخابور) وقد قتل فى هذا المحل الوليد بن طريف التغلبى ، فرثته أخته ليلى بأبيات منها قولها :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تحزَنْ على ابن طَرِيف

وصحارى هذه الديار مملوءة كلأً وأزهاراً ، ولذا اتخذها آل بكر بن وائل من بين الديار داراً ، وطيرها كثير جداً لا تكاد تستطيع له عدًّا . فما من زهر تنشقه عرانين السمع إلا وهو مزهر فى رياضها ، وما من طير يقع فى شباك الوهم إلا وهو حائم على غياضها . ولم يكن فيها اليوم ممن كان فى الأعصر الخالية من أولئك القوم بل سكنها أناس مختلفوا الملل والأجناس ، ليس فيهم مزايا من سلف ، ولا فصاحة من مضى وانصراف ، وسبحان من أخلى ديار بكر ممن يرعى زهر الأدب وربيعه ، وجلها بلاقع لا تجد فيها من يتخذ لفهم كلام العرب ذريعه ، وكم كان فيها من أديب حلا نظمه ونثره ، وأديب رمى عن قسيّ الإصابة لا شُلَّ عشره ، فنثرهم ريب المنون من كنانتها نثر السهام ، ونظمهم على الرغم منهم فى ديوان القبور تحت أطباق الرَّغام[1] ، سقى الله تعالى ثراهم ، ما يوجب فى دار

---

(١) التراب .

الإقامة ثراهم ، وهناك بلد أحدث بعد الزمن الجاهلى اسمه اليوم (آمد) هواؤه لا يهواه جسد أحد ، أسرق للصحة من شر شظاظ[١] ، وأسرى فى الأعصاب من سريان المعانى فى الألفاظ ، ولذا ترى حُمّاه فى حماه عاكفة ، والأمراض فى كل بيت من بيوته طائفة ، فلما تمرّ السنة على رضيع درّها ، ولم تهزه أم ملدم[٢] فى مهد حجرها ، فأغلب أهلها حتى الأحداث ، صفر الوجوه كأنما خرجوا من الأجداث ، ولا ترى منهم من يرد من ماء شبيبته ظمأى العين ، اللهم إلا أن يكون ذلك واحداً أو اثنين ، وربما يتفق من غلط الزمان ، واحدة من النساء عليها مسحة الجمال كنساء سائر البلدان ، وقبل أن تضحك تبكيها الأسقام ، وتطمثها[٣] على فراش الأمراض الآلام ، هكذا وصفه (الجدّ) عند مروره على هذه الديار . ثم قال بعد كلام : وسبب تغير الهواء بزعم ساكنيها ، مزيد تعفن فى أرجائها مما فيها ، فترى فى أحيائها مياهاً أنتنَ من صديد الأموات ، وأوحالًا تغيرت أحوالها مما جرى على رأسها من القاذورات ، وفى طرقاتها أيضاً مايجرى على نحو هذا الطريق . ويسرى برفيق من الجيف أمامه ألف فريق ، وكذلك يزعمون أن ارتفاع السور ، أحد أسباب تلك الأمور ، وهو فى بادى النظر كلام منحط عن القبول ، وآسن[٤] لاتشربه أفواه العقول ، ولا يبعد أن الارتفاع ، يكون سبباً لاحتباس الهواء فى تلك البقاع ، فيزداد تعفنا ، ويعظم العَنَا . ثم قال : ويقابل (آمد) من

---

(١) شظاظ ككتاب لص من بنى ضبة كان يصيب الطريق مع مالك بن الريب المازنى ، « قيل انه مر بامرأة من بنى نمير وهى تعقل بعيرا لها وتتعوذ من شر شظاظ وكان بعيرها مسنا وكان هو على حاشية من الابل وهى الصغير فنزل وقال لها أتخافين على بعيرك هذا شظاظا فقالت ما آمنه عليه فجعل يشغلها وجعلت تراعى جمله بعينها فأغفلت بعيرها فاستوى شظاظ عليه وذهب به وهو يقول :

رب عجوز من نمير شهبرة   علمتها الأنقاض بعد القرقرة

الأنقاض : صوت صغار الابل ، والقرقرة : صوت مسانها ، فهو يقول علمتها استماع صوت بعيرى الصغير بعد استماعها قرقرة بعيرها الكبير (٢) هى الحمى قال أصحاب الاشتقاق هى مأخوذة من اللدم وهو ضرب الوجه حتى يحمر ، وقال بعضهم ملذم بالذال من قولهم لذم به اذا لزمه (٣) أى تمسها والطمث النكاح بالتدمية ومنه قيل للحائض طامث (٤) أى متغير الريح والطعم

الشمال قرية نصارى تسمى (بقطربل)[1] ونهر دجلة بينهما يشبه وربّ الفلك الدوار دائرة المعدل ، وهـذه غير قطربل بغداد ، التى جاءت فى حديث ضعيف الإسناد ، وكان حانا لـكل خمرة تنسب إليه ، وتنقل إلى ما حواليه ، فتقادم الزمان ، وتغير ما كان ، واستولى الحين على الحان ، ويبس الـكرم وتـكسرت الدنان ، فلم يبق محتسب الليالى والأيام ، إلا حديثاً تدور به فى حانات الـكتب سقاة الأقلام فى كاسات الأرقام :

زمان بما فيه انقضى فهو ماترى   أحاديث تجلوه على السمع أفواه

انتهى ما هو المقصود . ويوجد فى بعض النواحى من هـذه الديار بعض بنى مضر وهم العرب الطائيون ، ومن المدن التى كانت فيها (سروج) و (الرقة) و (رحبة مالك بن طوق) أحد قواد هارون الرشيد ، و (قرقيسيا) وكانت مدينة هند بنت الريان التى قتلت جَذِيمَةَ الأبرش ، وكانت هذه البلدة من ديار مضر . ومن مدن هذه الجزيرة (دارا) التى أدار الإسكندر عليها فى فنائها من كؤس الفناء ما أدار ، قال فيها بعض الشعراء :

ولقـد قلت لِرَحْلى   بين حرّان ودارا
اصبرى يا رحلُ حتى   يرزقَ اللهُ حمـارا

ومنها مدينة (نصيبين) وهى من ديار ربيعة ، وكانت مختصة بالورد الأبيض وليس فيها وردة حمراء ، ومنها كان يجلب إلى الآفاق ويجرى إلى القرية نهران أسود وأبيض ثم أنهما يتحدان وبعـد ذلك يتشعبان ، ويكونَ منهما منافع غزيرة للحرّاث وغيرهم . وعليهما معاً قنطرة نحو مائة ذراع وغاية ارتفاعها عن وجه الماء نحو ستة أذرع أو أكثر والمـاء يجرى من تحتها بشدة ثم ينصب ما يبقى منه بعد سقى المزارع فى (الخابور) ويختلط آخر الأمر بمـاء الفرات ولرداءة مائها ، وفساد هوائها كثرت فيها الحمى حتى يقال إنه شوهد أن عصافيرها تتساقط

---

(١) قال فى شفاء الغليل أعجمية لم تسمع فى شعر قديم وهو اسم بلدة

ميتة من أعالى الأشجار ، ولولا ذلك لغدت من أوسع البلاد ولعدّت منتزها أبهى من غُوطة دمشق الشام ، لما أن ترابها ينبت مالا يكاد ينبت بمكان ، واشتهر أنها كانت قبل بلدة واسعة فضيقتها كأمثالها جيوش البلاء وحوادث الأيام والليالى وهى اليوم تشتمل من البيوت على نحو ثلاثمائة وخمسين بيتاً . وعلى غربى دجلة قرية صغيرة تسمى « جزيرة ابن عمر » ومنها ابن الأثير الجزرى وغيره من الأفاضل الأعلام ، الذين تزينت بمؤلفاتهم نحور الأيام ، وليس هذا مقام ذكرهم . وهى بلدة هلالية الشكل ، ولكن لا نور فيها ولا فضل ، وذلك لوخامة هوائها ، وذَمامة أرجائها ، ولولا أن تكون دجلة عليها شفيقة ، لجعلتها بمجازها جزيرة على الحقيقة ، وابن عمر الذى تنسب إليه ، وتعول فى الشهرة عليه ، قيل : هو يوسف ابن عمر الثقفى ، وفى معجم البلدان . جزيرة ابن عمر أحسب أن أول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبى ، وكان له إمرة بها سنة ما يتين وخمسين انتهى وفى تاريخ ابن المستوفى : ابنا عمرها أوس وكامل ابنا عمر بن أوس التغلبى ، وإليها تنسب الجزيرة المشهورة انتهى . وفى تاريخ ابن خلكان ما يتعلق بذلك . والمعول عليه ما فى معجم البلدان ، ويبعد ما فى تاريخ ابن المستوفى فى الجملة أفراد ابن دون تثنيته والله أعلم .

ومن مساكن العرب فى الجزيرة التى بين دجلة والفرات « الموصل » كان يسكن فيها وفى نواحيها كثير من قبائل العرب من أبناء ربيعة ومضر . قال فى اللباب : هى بفتح الميم وسكون الواو وكسر الصاد المهملة وفى آخرها لام ، مدينة من الرابع من الجزيرة ، وهى على دجلة فى جانبها الغربى انتهى . وفاتحها فى زمن الفاروق رضى الله تعالى عنه قيل : عياض بن غنم الأشعرى ، وقيل : خالد بن الوليد فتحها عنْوةً . وسميت بالموصل على ما هو المشهور لأن نوحاً عليه السلام سبر الماء هناك وهو فى السفينة فوصل المسبار الأرض . وفى المراصد : سميت بذلك لأنها وصلت بين الجزيرة والفرات ، وقيل : وصلت بين دجلة والفرات .

وقيل : لأنها وصلت بين (بلد) و (الحديثة) . وقيل : إن الملك الذى أحدثها كان يسمى الموصل انتهى ، ولا جزم بشىء مما ذكر والله أعلم وقريب من الموصل المعمورة اليوم محل يسمى الموصل القديمة وهـذا ظاهر فى أن المعمورة حديثة وفى معجم البلدان ما يدل على أن تلك القديمة هى حديثة الموصل فوصفها بالقديمة لعله لخرابها اليوم . وقد وصفها الجد فى كتابه غرائب الاغتراب إذ مر على هـذه البلدة بأوصاف جميلة فقال : هى عذبة الماء ، طيبة التربة والهواء ، طعامها هنىّ ، وشرابها مرىّ ، واسطة البلاد وسُرّتُها ووجهها الصبيح وغرتها ، تلدُ الربيع فى السنة مرتين ، فهى بين البلاد أم الربيعين ، فأراضيها فى فصلين قد علا جنسها ، وتجرد عن عوارض الكدر إنسها ، وهى كالعرائس فى حليهـا وزخارفها ، والقيان (١) فى وشيها (٢) ومطارفها (٣) زرا بيّها (٤) وإنماطها (٥) ناشرة حبرها (٦) ورياطها (٧) :

كأنَّ نسيم الريح فى جَنَباتها نسيمُ حبيبٍ أو لقاء مؤمّلِ

لا عيب فيها سوى أنها أيام الربيع ، تسرق العمائم الخضر من السادة فتنشرها على سطوح دورها وتبيع ، وتقول : لا بأس على أم الربيعين ، لو سرقت عمائم أبناء الريحانتين ، ولعمرى إنَّ من اختبر وامتحن ، حكم بأن كلَّ روضة بالنسبة إلى رياضها خضراء الدِّمَن ، وأنها تنبت العلماء المحققين ، كما تنبت الأقحوان (٨) والنسْرِين (٩) ، وتخرج الأخيار ، كما تخرج الأزهار ، وهذا أظهر من الشمس ، وأقوى تحققاً من الأمس ، فلا حاجة إلى التطويل ، بإقامة الدليل :

---

(١) جمع قينة وهى المغنية (٢) الوشى نوع من الثياب الموشية تسمية بالمصدر (٣) جمع مطرف ثوب من خزلة أعلام ويقال ثوب مربع من خـز وأطرفته اطرافا جعلت فى طرفيه علمين فهو مطرف وربما جعل اسما برأسه غير جار على فعله وكسرت الميم تشبيها بالآلة (٤) الزرابى الطنافس المخملة واحدتها زربية (٥) جمع نمط بفتحتين ثوب من صوف ذو اون من الألوان ولا يكاد يقال للأبيض نمط (٦) الحبر على وزن عنب جمع حبرة على وزن عنبة ثوب يمانى من قطن أو كتان مخطط (٧) جمع ريط وهو ثوب رقيق (٨) بالضم : البابونج كالقحوان بالضم والجمع أقاحى وأقاح (٩) مشموم معروف فارسى معرب وهو فعليل بكسر الفاء فالنون أصلية أو فعلين فالنون زائدة مثل غسلين ، قال الأزهرى ولا أدرى اعربى هو ام لا ؟

وليس يصحُّ فى الأعيان شىءٌ متى احتاج النهار إلى دليل

و (نفحة الشمامة) تهدى من ليس له زكام ، إلى حمى بعض أولئك العلماء الأعلام ، وفى (الروض النضر) أريج فضلاء منهم ارتدوا رداء أحسن عصر ، ولا يكاد يحيط نطاق ، بجميع من فاق منهم علماء الآفاق ، والأمر من البديهيات الأولية عند منصفى علماء العراق فهيهات أن يكون فيه بين اثنين فيهم نزاع وشقاق . . ومن مدن الجزيرة « عانات » وهى بلدة على شاطىء الفرات كثيرة النخيل والأشجار عذبة الماء والهواء ، وكانت فى الأزمنة المتقدمة موصوفة بجودة الخمر ، كما يدل ذلك قول الشاعر :

أمن بابلٍ أم من لواحظك السحرُ ومن (عانة) أم من مراشفك الخمر ؟
وهل ما أراه الموت أم حادث النوى وهل هو شوق بين جنبيَّ أم جمر ؟

واليوم قد كسرت أهلها حوادثُ الدهر ، وتركتهم لا يميزون بين الجمر والخمر ، وجرى عليها من المصائب ما جرى ، حتى غدت عاناتهم عورةً بين القرى ، هذا وفى هذه الجزيرة كثير من البلاد والقرى القديمة كانت تسكنها العرب أيام الجاهلية ، قد استوعبها أبو عبيد البكرى فى معجم ما استعجم ، والحموى فى كتاب معجم البلدان ، وغيرهما فى كتب كثيرة ألفت فى هذا الباب ، والله الموفق .

بعض ما كان دائراً على ألسنة الشعراء من المواضع

إن كثيراً من شعراء الجاهلية وغيرهم يذكرون فى بعض أشعارهم مواضع كانت تطيب بها نفوسهم ، وتهتز من بهجتها قدودهم ورؤسهم ، كالبُرَق والدارات ، والرياض والمنتزهات ، وقد ألف فيها بعض أهل الأدب كتباً مخصوصة بهذا المطلب . ولنذكر شيئاً منها فى هذا المقام ، ليكون كالمثال لذوى الأفهام ، أما الدارات فهى جمع دارة وهى الدار غير أنها أخص فكل دارة دار وليس كل دار يقال لها دارة ، ودارات العرب مخصوصة فى جزيرتهم كلها سهول بيض تنبت النِّصيَّ والصليل ، وما

طاب ريحه من النبات ، وأنهاها صاحب القاموس إلى ما يزيد على المائة ، وادعى أنها لم تجتمع لغيره مع بحثهم وتنقيرهم عنها[1] . ثم ذكر ما أضيف إليه الدارات مرتبة على الحروف فراجعها . وقد ألف الشيخ أبو الحسين أحمد بن فارس كتاباً فى المواضع المعروفة بهذا الاسم . وقد أحببت أن أذكر منها بعض ما وجدته فى شعرِهم ، وهى (دارة جُلْجُل) قال امرؤ القيس :

ألا ربَّ يومٍ لكَ منهنَّ صالحٍ ولا سيما يوم بدارةِ جُلْجل

ودارة (صُلْصلٍ) قال جرير :

ولما حلَّ أهلكِ يا سُلَيْمى بدارةِ صُلْصُلٍ شَحطوا المزَارا

ودارة (مأسَل) قال عمرو بن لجأ :

لا تَهْجُ ضبطةَ يا جرِيرُ فإنْ هُمُ قتلوا من الرؤساء مالم يقتلِ

قتلوا شتيراً وابن غولِ وابنَه وابنى هتيم يوم دارة مأسَلِ

ودارة (السَّلَم) قال البكاء بن كعب :

ما كنت أوَّلَ من تفرَّقَ شملُهُ ورأى الغداةَ من الفراق يقينا

---

(١) أقول : وقد ذكر الاصمعى وعدة من العلماءعشرين دارة واوصلها العلم السخاوى فى شرح سفر السعادة الى نيف واربعين دارة واستدل على أكثرها بالشواهد لاهلها فيها ، وذكر المبرد فى اماليه دارات كثيرة وكذا ياقوت فى المعجم والمشترك واورد الصغانى فى تملكته احدى وسبعين دارة كمافى التاج، قال السيد العلامة عبد القادر بن احمد الحسينى فى فلك القاموس المحيط : راجعت وجزءا من أصله ـ أعنى العباب ـ من نسخة محفوظة فى خزائن آبائنا (رض) وقدجرى عليها قلم مؤلفها ثم قلم المجد (رح) فرأيت تلك الدارات جميعها ممدودة فى العباب وقدسها المجد عن سبع فاهملها من قاموسه عند النسخ ولكنه زاد المجد فى هامش العباب سبع دارات فزادها فى القاموس فلا ادرى هل زادها من (المجمل) أو من غيره فلو عد مافى العباب وذلك مائة دارة ونيف ثم قال وقد وقفت على سبع دارات غير ذلك ولله الحمد ـ لكان أولى ، والدارات التى سها عن نقلها هى دارة احماد والذيب والذيبان وغور محلف والمزد وموقوع ، وظاهر مافى خطبة القاموس انه ألم بجميع معانى أصلية بعبارةوجيزة وزادعليها فانظر ماأهمله فى هذاالموضوع وقس عليه غيره ، وقال فى العباب واما دارة بغير اضافة فى قول خلف الاحمر : دويرات برد بين باب ودارة الخ ودارة ابن العمر ودارة بنجران ودارة الكلبى ودارة العبد ودارة المقطع فهذه ليست من دارات العرب وانما هى دورهم التى تختص بهم وهذه اسامى أصحاب الدور ، ودارات العرب مضافات الى جبال ومياه وامكنة

وبدارة (السَّلَم) التى شوقتها   دمن يظلُّ حمامه يبكينا

وبهذا الشعر سمى هذا الشاعر البكّاء . فإن كثيراً من الشعراء كان يسمى ببعض ألفاظ شعره . ودارة (وَشْحَى) وقد تضم الواو . قال الشاعر :

لعَمْرُكَ إنى يوم أسفل عاقلٍ   ودارة (وَشْحى) للهوى لتبُوعُ

ودارة (خنزَر) بفتح الخاء والزاى وسكون النون ، ويقال : خنزر بكسر الخاء والزاى . قال الجعدى :

أَلَمَّ خيال من أُمَيْمَة مَوْهِناً   طُروقاً وأَصحابى بدارة (خَنْزَرِ)

ودارة (الجأْب) قال جرير :

أصاح أليس اليوم منتظرِى صبحى   نحيِّي ديار الحىِّ من دارة الجاب

ودارة (مَكْمَن) قال الراعى :

عرفت بها منازل كل حىٍّ   فلم تملك من الطَّرب العيونا

بدارة مكْمن ساقت إليها   رياحُ الصيف آراماً وعِينا

ودارة (يمْعون) ويقال أيضاً يمعوز بالزاى . قال الشاعر :

بدارة يمعونٍ إلى جَنْب حشرم

ودارة (رَهْبَى) قال جرير :

بها كلُّ ذيَّال الأصيل كأَنَّهُ   بدارة رهْبى ذو سواد بن رائح

ودارة (الآرام) قال الشاعر :

فأبرق وأرعد إن العيس خلفت   بنا دارة الآرام ذات الشقائق

ودارة (الرُّهَى) قال الشاعر :

بَرِئْتُ من المنازل غير شوق   إلى الدَّار التى بلوى أبان

ومن وادى القنان وأين مِنِّى   بدارات (الرُّهى) وادى القنان

ودارة (الصَّفائح) قال الأفوه :

وتبكيها الأرامل بالمآلي   بدارات الصَّفائح والنصيل

ودارة (هضْب القليب) قال جميل :

أشاقل عاقل فإلى الكثيب   إلى الدارات من هَضْب القليب

ودارة (رُمْح) قال الشاعر :

كأنَّ النميْرىَّ الذى يتبعنه   بدارة رُمْحٍ ضالعُ الرجل أحْنَف

ودارة (مِحْصَن) ويقال : محضر . قال دُرَيْد بن الصِّمَّة :

ودارة محْصَن من ذى طلوح   فسرداح الثامن فالضَّواحِى

ودارة (واسط) قال الشاعر :

ما قد أرى الدارات دارات واسطٍ   فما قابلت ذات الصليل فجُلْجُل

ودارة (الَجْدِ) قال الشاعر :

أَلا يا ديار الحىّ من دارة الجد   سلمتِ على ما كان من قدَم العهْدِ

ودارة (الرِّمْرِم) قال الشاعر :

أعد نظراً هل ترى ظعنهم   وقد جاوزت دارة رِمْرِم

ودارة (قَرْح) قال الشاعر :

حبسنَ فى قُرْحٍ وفى داراتها   سبْعَ ليَالٍ غير معلوفاتها

ودارة (اليَعْضِيد) قال آخر :

أو ما ترى أضعانها مخروة   بين الدَّخول فدارةِ اليعضيد

ودارة (الَخرْج) قال الشاعر :

مخيسة فى دارة الخرْج لم تذق   بلالاً ولم يسمح لها ببخيل

ودارة (الرَّدْم) قال قائلهم :

لعن سخط من خالق أو لقسوة   تبدلت قرقياء من دارة الرَّدْم

وأما البرَق فهى جمع بِرقة بالضم غلظ كالأبرق ، وفى القاموس : وبُرَقُ ديار العرب تُنيفُ على مائة . منها : بُرْقة الأثماد والأَجاوِل والأَجْداد والأَجْوَل

وأَحْجار وأَحْدَبَ وأَحْواذٍ وأَخْرَمَ وأَرْمام وأروَى وأظلمَ وأَعْيارٍ وأفمى والأَملاحِ والأَمْهار وأنقدَ والأَوْجَرِ وذى الأَوْداثِ وإرٍ بالكسر وبارِق وثادِق وَثمثَمٍ وَالثَّوْر وَثهمَدِ وَالجبا وَحاربٍ والحُرْضِ وَحَسْلةَ وحِسْمَى أو حُسْنَى والحصَّاء وَحِلّيتٍ والحِمَى وَحَوْزَةَ وَخاخٍ وَالخالِ والُحبَيْبَةَ وَالخَرْجاء وَخِنْزِيرٍ وَخَوٍّ وَخَيْنَفٍ وَالدَّاثِ وَدَمْخٍ ورامَتَيْنِ وَرَحْرَحانِ وَرَعْمٍ والرَّكاء ورُوَاوَةَ وَالرَّوْحان وَسُعْدٍ وَسِعْرٍ وَسُلْمانَيْنِ وَسُمْنانَ وَشمَّاءَ وَالشواجِنِ وَصادِرٍ وَالصَّرَاةِ والصَّفَا وضاحِكٍ وَضارِجٍ وطِحالٍ وعاذبٍ وَعاقِلٍ وَعالِجٍ وَعَسْعَسٍ وذى عَلْقَى والعُنَابِ كغُرَاب وَعَوْهَقٍ والعِيرات وَعِيْهَلٍ وَعِيهَمٍ وذى غانٍ وَالغَضَى وَغَضْوَرٍ وَقادِمٍ وذى قار وَالقُلاخِ والكَبوَان وَلَعلَعٍ وَلَفْلَفٍ واللَّكيكِ واللِّوَى وَمأسَلٍ وِمجْوَلٍ وَمَرَوْراةَ وَمُكَتَّلٍ وَمُنْشِدٍ وَمَلْحُوبٍ والنَّجْدِ وَنُعْمِيٍّ والنِّيرِ ووَاحِفٍ ووَاسِطٍ وَواكفٍ وَالْوَدَّاءِ وَهارِبٍ وَهَجِينٍ وهولَى وَيَتْرَبَ واليمامةِ . هذه بُرَق العرب ، وتعيين مواضعها فى شروح القاموس وكذا ما ورد من الشعر فى ذلك كقول النعمان ابن المنذر :

وما اعتذارُكَ منه بعد ما جزعت   أيدى المطىِّ به برقاء شمليلا

وقال طَرَفَةُ بن العبد البكرى فى معلقته

لِخَوْلَةَ أطلالٌ ببرقَةِ ثهمَدِ   تلوحُ كباقى الوَشْمِ فى ظاهرِ اليَدِ

وقال الكميت

وقد فاضَ غَرْبٌ عند برقاءِ جُنْدُبٍ   لعينيك من عرفانِ ما أنتَ تعرِفُ

وقال ابن مُقْبل

طربت إلى الحىِّ الذين تَحَمَّلوا   ببرقة أحواذٍ وأنت طَرُوبُ

وقال آخر

لمن الديارُ ببُرْقَةِ الأجدادِ   عفَّتْ سوارٍ رسمَها وَغوادى

وقد ذُكرَ فى معجم البلدان كثير من أسماء المواضع المشتركة ، وكذا

فى كتاب المشترك مما يطول الـكتاب باستقصائه ، وما ذكرناه نبذة يسيرة بالنسبة إلى ما هنالك . والله الموفق لما هو الأوْلى فى الآخرة والأولى .

* * *

بيان حال مكة شرفها الله وما كانت عليه فى الجاهلية

اعلم أن الله تعالى قد ذكر مكة فى كتابه الـكريم باسمين مكة وبكة فذكر مكة فى قوله عزّ وجلّ . (وهو الذى كفَّ أيديهم عنكم وأيدكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) . ولفظ مكة مأخوذ من قولهم تمـككتُ المخ من العظم تمككا إذا استخرجته منه لأنها تمك الفاجر عنها وتخرجه منها على ما حكاه الأصمعى ، وأنشد قول الراجز فى تلبيته

يامـكةُ الفاجرَ مُكّى مَـكّا   ولا تَمُكِّى مذْحِجاً وعكّا[1]

وذكر بكة فى قوله عز وجـل : (إن أول بيت وضـع للناس للذى ببكَّة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً) . قال الأصمعى وسميت بكة لأن الناس يبكّ بعضهم بعضاً فيهـا أى يدفع ، وأنشد قول الراجز :

إذا الشريب أخذتْه أكّه   فخـلّه حتى يبكَّ بكّهْ[2]

واختلف الناس فى هذين الاسمين فقال قوم : هما لغتان والمسمى بهما واحد ، لأنَّ العرب تبدل الميم بالباء فتقول ضربة لازم وضربة لازب لقرب المخرجين ،

---

(١) عك بن عدنان اخو معد وهو فى اليمن وقال بعض النسابين انما هو معد بن عدنان فاما عك فهو ابن عدنان من ولد قحطان وعدنان بالنون من ولد اسمعيل ، ومذحج كمسجد أبو قبيلة من اليمن وهو مذحج بن يحامر بن مالك ابن زيد بن كهلان بن سبا ، قال سيبويه : الميم من نفس الكلمة ، وفى القاموس : مذحج كمجلس أكمة ولدت مالكا وطيئا أمهما عندها فسموا مذحجا ، وذكر الجوهرى اياه فى الميم غلط وان احاله على سيبويه ، انتهى ، فتدبر .

(٢) الشريب الذى يسقى ابله مع أبلك ، يقـول فخله يورد ابله الحوض فتباك عليه أى تزدحـم فيسقى ابله سـقيه ، والاكه : الضيق والزحمـة وآكه يؤكه اكا زاحمه وائتك الورد ازدحم معنى الورد جماعة الابل الواردة ، والمعنى : اذا ضجر الذى يورد ابله مع ابلك لشدة الحر انتظارا فخله حتى يزاحمك .

وهذا قول مجاهد . وقال آخرون : بل هما اسمان والمسمى بهذا شيئان لأن اختلاف الأسماء موضوع لاختلاف المسمى . ومن قال بهذا اختلف فى المسمى بهما على قولين ، أحدهما : إن مكّة اسم البلد كله وبكّة البيت ، وهذا قول إبراهيم النخعى ويحيى بن أبى أيوب ، والثانى : أن مكّة الحرم كله وبكة المسجد ؛ وهذا قول الزهرى وزيد بن أسلم . وحكى مصعب بن عبد الله الزبيرى قال : كانت مكة فى الجاهلية تسمى (صلاحا) لأَمْنها ، وأنشد قول أبى سفيان بن حرب بن أمية :

أبا مطر هلمَّ إلى (صلاح) فيكفيك الندامى من قريش[1]

وتنزل بلدة عزت قديماً وتأمَنَ أنْ يزورك رب جيش

وحكى مجاهد : أن من أسماء مكة (أم رحم) و (الباسّة) فأما أم رحم فلأنَّ الناس يتراحمون فيها ، ويروى أم زحم بالزاى من المزاحمة . وأما الباسة فلأنها تبسّ من ألحد فيها أى تحطمه وتهلكه ، ومنه قول الله تعالى « وبسَّت الجبال بساً » ويروى (الناسة) بالنون . ومعناه أنها تنس من ألحد فيها أى تطرده وتنفيه ، ولها أسماء أخر يطول شرحها . وأصل مكة وحرمتها ما عظمه الله سبحانه من حرمة بيته حتى جعلها لأجل البيت الذى أمر برفع قواعده وجعله قبلة عباده أم القرى ، كما قال تعالى (لتنذر أم القرى ومن حولها) . وحكى جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن على رضى تعالى الله عنهم أن سبب وضع البيت والطواف به أن الله تعالى قال للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء[2] ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون) . فغضب عليهم فعادوا للعرش فطافوا حوله سبعة أشواطٍ[3] يسترضون

---

(١) هلم أى تعال مركبة من ها التنبيه ومن لم أى ضم نفسك الينا واستعملت استعمال البسيطة يستوى فيه الواحد والجمع والتذكير والتأنيث عند الحجازيين وتميم تجريها مجرى رد وأهل نجد يصرفونها ، والندامى : جمع نديم ونادمه منادمة وندايا جالسة على الشراب .

(٢) سفك الدم يسفكه فهو مسفوك وسفيك صبه فانسفك .

(٣) جمع شوط وهو الجرى مرة الى الغاية وفى القاموس كره جماعة من الفقهاء ان يقال لطوفان الطواف اشواط .

ربهم فرضي عنهم ، وقال لهم : ابنوا لى فى الأرض بيتاً يعوذ به من سخطت عليه من بنى آدم ويطوف حوله كما فعلتم بعرشى فأرضى عنهم . فبنوا له هذا البيت فكان أول بيت وضع للناس . قال الله تعالى (إن أول بيت وضع للناس للّذى ببكة مباركا وهدى للعالمين) الآية ، فلم يختلف أهل العلم أنه أول بيت وضع للناس للعبادة ، وإنما اختلفو هل كان أول بيت وضع لغيرها ؟ فقال الحسن وطائفة : قد كان قبله بيوت كثيرة . وقال مجاهد وقتادة : لم يكن قبله بيت . والقول الأول مرجح عند الجمهور ، وعليه أكثر المؤرخين وجمع من المفسرين . وفى قوله تبارك وتعالى (مباركا) تأويلان ، أحدها . ان بركته ما يستحق من ثواب القصد إليه . والثانى أنه أمن لمن دخله حتى الوحش فيجتمع فيه الظبي والذئب . (وهـــدى للعالمين) يحتمل تأويلين ، أحدها : هدى لهم إلى توحيده . والثانى : إلى عبادته فى الحج والصلاة . (فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً) . وكانت الآية فى مقام إبراهيم تأثير قدميه فيه وهو حجر صلْد[1] ، والآية فى غير المقام أمْنُ الخائف وهيبة البيت عند مشاهدته وامتناع الطير من العلو عليه وتعجيل العقوبة لمن عتا[2] فيه ، وما كان فى الجاهلية من أصحاب الفيل ، وما عطف عليه قلوب العرب فى الجاهلية من تعظيمه ، وأن من دخله من الجبارة وهم غير أهل كتاب ولا متبعى شرع يلتزم أحكامه ، حتى إنَّ الرجل منهم كان يرى قاتل أخيه وأبيه ولا يطلبه بثأره فيه ، وكل ذلك آيات الله تعالى ألقاها على قلوب عباده . وأما أمْنُهُ فى الإسلام ففى قوله سبحانه وتعالى (ومن دخله كان آمناً) تأويلان أحدها . أمْنٌ من النار ، وهذا قول يحيى بن جعدة . والثانى : أمْنٌ من القتل لأن الله تعالى أوجب الإحرام على داخله وحظر عليه أن يدخله محلا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح حلالا : (أحلت لى ســـاعة من نهار ولم تحلَّ لأحدٍ من قبلى ولا تحلُّ لأحد من بعدى) . ثم قال تعالى : (ولله

---

(١) صلد : الصلب الاملس كالصلاودد كسفرجل. (٢) استكبر وجاوز الحد

على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) فجعل حجه فرضاً بعد أن صار فى الصلاة قبلة لأن استقبال الكعبة فى الصلاة فرض فى السنة الثانية من الهجرة ، والحج فرض فى السنة السادسة .

صفة الكعبة شرفها الله تعالى

اعم أن أول من تولى بناءها بعد الطوفان إبراهيم عليه السلام فإنه سبحانه قال : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) فدل ما سألاه من القبول على أنهما كانا ببنائها مأمورين . وسميت كعبة لعلوها من قولهم كعبت المرأة إذا علا ثديها ومنه سمى كعب كعباً لعلوه وكانت الكعبة بعد إبراهيم عليه السلام مع جُرهم والعمالقة إلى أن انقرضوا حتى قال فيهم عامر بن الحارث بن مضاض[1] ، ويروى أن اسمه عمرو :

وقائلةٍ والدمع سكْبٌ مبادر ... وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر[2]
فقلت لها والقلب منى كأنما ... يُلَجْلِجُهُ بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا ... صروف الليالى والجدود العوائر[3]
وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... بعزٍّ فما يحظى لدينا المكاثر[4]

---

(١) كان الحرت بن مضاض بن عمرو بن سعد بن ارقيب بن هى بن نبت ابن جرهم الجرهمى قد نزل بقنونا من أرض الحجاز فضلت له ابل فبغاها حتى اتي الحرم فاراد دخوله ليأخذ ابله فنادى عمرو بن لحى من وجد جرهميا فلم يقتله قطعت يده فسمع بذلك الحرث واشرف على جبل من جبال مكة فرأى ابله تنحر ويتوزع لحمها فانصرف بائسا خائفا ذليلا وابعد فى الأرض وهى غربة الحرث بن مضاض التى يضرب بها المثل حتى قال الطائى:

غربة نقتدى بغربة قيس بن زيد والحرث بن مضاض

وحينئذ قال الحرث هذا الشعر وهو قوله: وقائلة والدمع سكب مبادر الخ .

(٢) الحجون بفتح الحاء اسم موضع على فرسخ وثلث من مكه وهو والصفا جبلان بها ، والسامر اسم الجماعة يتحدثون بالليل وفى التنزيل سامرا تهجرون . (٣) يقال عثر جده يعثر ويعثر تعس وفى المثل أعثره الله اتعسه . (٤) نابت من ابناء اسماعيل (ع) .

ملكنا فعزّزنا فأعظمْ بمُلكنا   فليس لحيٍّ غيرنا ثَمَّ فاخر[١]

ألم تنكحوا من غير شخص علمته   فأبناؤه منّا ونحن الأصاهر[٢]

فَإنْ تنثنِ الدنيا علينا بحالها   فإنّ لها حالا وفيها التشاجُر

فأَخْرجنَا منها المليكُ بقدرة   كذلك يالناس تجرى المقادر[٣]

أقول إذا نام الخلى ولم أنم :   أذا العرش لا يبعد سهيلٌ وعامر[٤]

وبدلت منها أوجهاً لا أحبها   قبائل منها حمير ويحابر[٥]

وصرنا أحاديثاً وكنا بغِبْطة   بذلك عضَّتْنا السنون الغوابر[٦]

فسحَّت دموع العين تبكى لبلدة   بها حرم أَمْنٌ وفيها المشاعر

وتبكى لبيت ليس يؤذى حمامه   يظلُّ به أمنا وفيه العصافر[٧]

وفيه وحوشٌ لا تُرابُ أنيسةٌ   إذا خرجت منه فليست تغادر[٨]

وقال أيضاً يذكر ساكنى مكة الذين خلفوا فيها بعدهم من بكر وَغَبْشان :

يا أيها الناس سيروا إن قصركم   أنْ تُصبحوا ذات يوم لا تسيرونا[٩]

حثوا المطىَّ وأَرخُوا من أزمَّتها   قبل الممات وقضّوا ما تقضونا

كنا أناساً كما كنتم فغيّرنا   دهرٌ فأنتم كما كنّا تكونونا

وخلفهم فيها قريش بعد استيلائهم على الحرم لكثرتهم بعد القلة ، وعزتهم

---

(١) أى كانت لنا العظمة على غيرنا فلا احد يفخر علينا .

(٢) يريد بذلك مصاهرة اسماعيل لهم وهو خير شخص فأبناؤه منا ونحن الاصاهر ومعناه معلوم . (٣) يحتمل ان يريد بالمليك الله عز اسمه فهو الذى سلط عليهم من اخرجهم لما عصوه ويحتمل أن يريد عمرو بن لحى ملك خزاعة ورئيسهم . (٤) اذا العرش الهمزة للنداء وذا العرش هو الله ، وعامر جبل من جبال مكة . (٥) أى وبدلت عن مكة أو أهلها ، ويحابر قبيلة لحمير .

(٦) أى حكايات بين الناس بما جرى علينا كما قال تعالى فى أهل سبا : وجعلناهم احاديث الآية ، والسنون الغوابر القحطة لان الارض تغبر اذا اجدبت وسنون الجدب تسمى غبرا لا غبرار آفاقها من قلة الامطار .

(٧) ويظل به امنا أى ذات امن ويجوز أن يكون أمنا جمع آمن مثل ركب جمع راكب واراد بالعصافر العصافير وحذف الياء ضرورة ورفع العصافير على المعنى أى وتأمن فيه العصافير . (٨) لاتراب أى لا تخوف من الريب ، وقوله انيسة أى لا تنفر من احد : وقوله اذا خرجت الخ أى اذا تجاوزت حدود الحرم لا تغادر ولا تترك بل تصاد . (٩) ان قصركم أى غايتكم .

بعد الذلة ، تأسيساً لما يظهره الله تعالى فيهم من النبوة ، فكان أول من جدّد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام قصىّ بن كلاب وسقفها بخشب الدوْم[١] وجريد النخل . قال الأعشى :

حلفتُ بثوبى راهب الشام والذى بناه قصىّ جده وابن جُرْهم
لئن شبّ نيران العداوة بيننا ليرتحلن منى على ظهر شيْهم[٢]

ثم بناها قريش بعده ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ابن خمس وعشرين سنة وَشهد بناءها ، وكان بابها فى الأرض فقال أبو حذيفة بن المغيرة : ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخل إلا بسلم فإنه لا يدخلها حينئذ إلا من أردتم ، فإن جاء أحد ممن تكرهون رميتم به فيسقط فكان نكالا لمن رآه ففعلت قريش ذلك . وسبب بنائها أن الكعبة استهدمت ، وكانت فوق القامة فأراد تعليتها ، وكان البحر قد ألقى سفينة لرجل من تجار الروم إلى جُدَّة فأخذوا خشبها ، وكان فى الكعبة حية يخافها الناس فخرجت فوق جدار الكعبة فنزل طائر فاختطفها ، فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله سبحانه قد رضى ما أردنا فهدموها وبنوها بخشب السفينة . وكانت على بنائها إلى أن حوصر ابن الزبير بالمسجد من الحصين بن نمير وعسكر الشام حين حاربوه سنة أربع وستين فى زمن يزيد بن معاوية . فأخذ رجل من أصحابه ناراً فى ليفة على رأس رمح وكانت الريح عاصفة فطارت شرارة فتعلقت بأستار الكعبة فأحرقتها فتصدعت حيطانها واسودت وتناثرت أحجارها ، فلما مات يزيد وانصرف الحصين بن نمير شاور عبد الله بن الزبير أصحابه فى هدمها وبنائها فأشار به جابر بن عبد الله وعبيد بن عمير وأباه عبد الله بن عباس ، وقال : لاتهدم بيت الله تعالى . فقال ابن الزبير : أما ترى الحمام يقع على حيطان البيت فتتناثر حجارته ويظل أحدكم يبنى بيته ولا يبنى بيت الله ألا إنى هادمه بالغداة فقد بلغنى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لو كانت لنا سعة لبنيته على أسٍّ[٣]

---

(١) هو شجر المقل والنبق وضخام الشجر ما كان . (٢) شيهم هو الفرس السريع النشيط القوى . (٣) الاس مثلثة أصل البناء كالاساس .

ابراهيم وجعلت له بابين شرقياً وغربياً . وسأل الأسود هل سمعت من عائشة رضى الله تعالى عنها شيئاً فى ذلك ؟ فقال : أخبرتنى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها : « إن النفقة قصرت بقومك فاقتصروا ، ولو حَدَثان عهدهم بالكفر لهدمته وأعدت فيه ما تركوا » . فاستقر رأى ابن الزبير على هدمه فلما أصبح أرسل إلى عبيد بن عمير فقيل هو نائم فأرسل إليه وأيقظه وقال له : أَما بلغك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إن الأرض لتصيح إلى الله تعالى من نومة العلماء فى الضحى فهدمها ، فأرسل إليه ابن عباس إن كنت هادمها فلا تدع الناس بلا قبلة ، فلما هدمت قال الناس : كيف نصلى بلا قبلة . فقال جابر وزيد صلوا إلى موضعها فهو القبلة ، وأمر ابن الزبير بموضعها فستر ووضع الحجر فى تابوت فى خرقة حرير . قال عكرمة : رأيته فإذا هو ذراع أو يزيد وكان جوفه أبيض مثل الفضة ، وجعل حلىّ الكعبة عند الحَجَبة فى خزانة الكعبة ، فلما أراد بناءها حفر من قبل الحطيم حتى استخرج أسّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام لجمع الناس ، ثم قال : هل تعلمون أن هذا أسّ إبراهيم ؟ قالوا : نعم فبناها على أس إبراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم وأدخل فيها من الحجر ستة أذرع وترك منها أربعا . وقيل : أدخل سبعة أذرع وترك ثلاثا وجعل لها بابين ملصوقين بالأرض شرقياً وغربياً ، يدخل من واحد ويخرج من الآخر، وجعل على بابها صفائح الذهب ، وجعل مفاتيحها من ذهب . وكان ممن حضر بناءها من رجال قريش أبوالجهم بن حذيفة العدوىّ ، فقال : عملت فى بناء الكعبة مرتين واحدة فى الجاهلية بقوة غلام يافع[1] ، وأخرى فى الإسلام بقوة كبير فان . وذكر الزبير بن بكار أن عبد الله بن الزبير وجد فى الحجر صفائح حجارة خضر قد أطبق بها على قبر ، فقال له عبد الله بن صفوان : هذا قبر نبى الله إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، فكف عن تحريك تلك الحجارة .

ثم بقيت الكعبة فى أيام ابن الزبير على حالها إلى أن حاربه الحجاج وحصره

---

(١) يفع الغلام راهق العشرين كايفع وهو يافع لا موفع وهو من النوادر .

فى المسجد ونصب عليه المنجنيقات إلى أن ظفر به . وقد تصدعت الكعبة بأحجار المنجنيق فهدمها الحجاج وبناها بأمر عبدالملك بن مروان وأخرج الحجر منها ، وأعادها إلى بناء قريش على ما هى عليه اليوم فكان عبد الملك بن مروان يقول : وددت أنى كنت حملت ابن الزبير من أمر الكعبة وبنائها ما تحمله .

« وأما كسوة الكعبة » فقد روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إن أول من كسى الكعبة سعد اليمانى ، ثم كساها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الثياب اليمانية . ثم كساها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعثمان رضى الله عنه القباطى[1] ، ثم كساها يزيد بن معاوية الديباج الخسروانى[2] وحكى محارب بن زياد إن أول من كسى الكعبة الديباج خالد بن جعفر بن كلاب أصاب نظمة فى الجاهلية وفيها نمطُ ديباج فناطه بالكعبة ، ثم كساها ابن الزبير والحجاج الديباج . ثم كساها بنو أمية فى بعض أيامهم الحلل التى كانت على أهل نجران فى حربهم وفوقها الديباج ، ثم جدد المتوكل رخام الكعبة وأزرها بالفضة وألبس سائر حيطانها وسقفها بالذهب ، ثم كسا أساطينها الديباج ، ثم لم يزل الديباج كسوتها .

« وأما المسجد الحرام » فقد كان فناء حول الكعبة وفضاء للطائفين ، ولم يكن له على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه جدار يحيط به ، فلما استخلف عمر رضى الله تعالى عنه وكثر الناس وسع المسجد واشترى دوراً فهدمها وزادها فيه ، وهدم على قوم من جيران المسجد دوراً أبوا أن يبيعوا ، ووضع لهم الأثمان حتى أخذوها بعد ذلك ، واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة وكانت المصابيح توضع عليه ، فكان عمر رضى الله تعالى عنه أول من اتخذ جداراً للمسجد فلما استخلف عثمان رضى الله تعالى عنه ابتاع منازل فوسع بها المسجد وأخذ منازل أقوام ووضع لهم أثمانها فضجوا عند البيت

---

(١) جمع قبطى وهو ثوب من كتان رقيق يعمل بمصر نسبة الى القبط على غير قياس فرقا بينه وبين الانسان كما فى المصباح. (٢) نوع من الثياب.

فقال إنما جرأكم عليّ حلمي عنكم فقد فعل بكم عمر رضى الله تعالى عنه هذا فأقررتم ورضيتم . ثم أمر بهم إلى الحبس حتى كلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد نخلى سبيلهم وبنى للمسجد الأَروقةَ حين وسعه ، فكان عثمان رضى الله تعالى عنه أول من اتخذ للمسجد الأروقة ، ثم إن الوليد بن عبد الملك وسع المسجد وحمل إليه أعمدة الحجارة والرخام . ثم إن المنصور زاد فى المسجد وبناه وزاد فيه المهدى بعده وعليه استقر بناؤه إلى زمن طويل .

« وأما مكة » فلم تكن ذات منازل وكانت قريشٌ بعد جرهم والعمالقة ينتجعون جبالها وأوديتها ولا يخرجون من حرمها انتساباً إلى الكعبة لاستيلائهم عليها وتخصيصاً بالحرم لحلولهم فيه ويرون أنه سيكون لهم بذلك شأن ، ولما كثر فيهم العدد ، ونشأت فيهم الرياسة قوى أملهم وعلموا أنهم سيتقدمون على العرب ، وكان فضلاؤهم وذوو الرأى والتجربة يتخيلون أن ذلك لرياسة فى الدين ، وتأسيس لنبوة ستكون ، لأنهم تمسكوا من أمور الكعبة بما هو بالدين أخص ، فأول من شعر بذلك منهم وألهمه كعب بن لؤى بن غالب . وكانت قريش تجتمع إليه فى كل جمعة ، وكان يوم الجمعة يسمى فى الجاهلية عروبة فسماه كعب يوم الجمعة وكان يخطب فيه على قريش . ويخبرهم ببعثة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم . وهذا من فطن الإلهامات التى تخيلتها العقول فصدقت ، وتصورتها النفوس فتحققت . وسنستوفى الكلام على هذا إن شاء الله فى المجتمعات . ثم انتقلت الرياسة بعده إلى قصى بن كلاب فبنى بمكة دار الندوة ليحكم فيها بين قريش ، ثم صارت لتشاورهم وعقد الألوية فى حروبهم . قال الكلبى فكانت أول دار بنيت بمكة ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه وكلما قربوا من عصر الإسلام ازدادوا قوة وكثرة عددٍ حتى دانت لهم العرب فصدقت المخيلة الأولى فى الرياسة عليهم ، ثم بعث الله سبحانه نبيه رسولا فصدقت المخيلة الثانية فى حدوث النبوة فيهم فآمن به من هدى وجحد من عاند ، وهاجر عنهم صلى الله تعالى عليه وسلم حين اشتد به الأذى حتى عاد ظافراً بعد ثمان سنين من هجرته عنهم .

واختلف الناس فى دخوله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة عام الفتح هل دخلها عنوة أو صلحاً مع إجماعهم على أنه لم يغنم منها مالا ولم يسب فيها ذرية ، فذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنه دخلها عنوة فعفا عن الغنائم ومنَّ على السبى ، وأن الإمام إذا فتح بلداً عنوة فله أن يعفو عن غنائمه ويمنَّ على سبيه ، وذهب الشافعى رضى الله عنه إلى أنه دخلها صلحاً عقده مع أبى سفيان ، وكان الشرط فيه أن من أغلق بابه كان آمناً ، ومن تعلق بأستار الكعبة فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن إلا ستة أنفس استثنى قتلهم ، ولو تعلقوا بأستار الكعبة وهم : « عبد الله بن سعد » أخو بنى عامر بن لؤىّ لأنه كان قد أسلم . وكان يكتب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الوحى فارتدَّ مشركا راجعاً إلى قريش « وعبد الله بن خطل » رجل من بنى تيم بن غالب ، فإنه كان مسلماً فبعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مصدِّقاً وبعث معه رجلا من الأنصار ، وكان معه مولى له يخدمه وكان مسلماً فنزل منزلا ، وأمر المولى أن يذبح له تيساً فيصنع له طعاماً فنام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً ، فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركا ، وكانت له قينتان وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلهما معه « والحويرث بن نفيذ » بن وهب بن عبد قصىّ ، وكان ممن يؤذيه بمكة . « ومقيس بن صبابة » وإنما أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقتله لقتله الأنصارىَّ الذى كان قتل أخاه خطأ ورجوعه إلى قريش مشركا « وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب » وكانت ممن تؤذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة . « وعكرمة بن أبى جهل » ثم إن من هؤلاء من عفا عنه بعد حين . ومنه من ظفر به بعد الهزيمة فقتله ، ولأجل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم دخلها صلحاً لم يغنم ولم يسب . وليس للإمام إذا فتح بلداً عنوة أن يعفو عن غنائمه ولا أن يمن على سبيه لما فيها من حقوق الله تعالى وحقوق الغانمين . فصارت مكة وحرمها حين لم تغنم أرض عشر إن زرعت لا يجوز أن يوضع عليها خراج .

واختلف الفقهاء فى بيع دور مكة وإجارتها فمنع أبو حنيفة من بيعها وأجاز إجارتها فى غير أيام الحج ، ومنع منهما فى أيام الحج لرواية الأعمش عن مجاهد أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال مكة حرام لا يحل بيع رباعها ولا أجور بيوتها . وذهب الشافعى رحمه الله تعالى إلى جواز بيعها وإجارتها ، لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقرهم عليها بعد الإسلام على ما كانت عليه قبله ، ولم يغنمها ولم يعارضهم فيها . وكذلك بعده « هذه دار الندوة » وهى أول دار بنيت بمكة صارت بعد قصىّ لعبد الدار بن قصىّ ، وابتاعها معاوية فى الإسلام من عكرمة ابن عامر بن هشام بن عبد الدار بن قصىّ ، وجعلها دار الإمارة ، وكانت من أشهر دار ابتيعت ذكراً ، وأنشرها فى الناس خبراً ، فما أنكر بيعها أحد من الصحابة . وابتاع عمر وعثمان رضى الله تعالى عنهما ما زاده فى المسجد من دور مكة وتملك أهلها أثمانها ، ولو حرم ذلك لما بذلاه من أموال المسلمين ، ثم جرى به العمل إلى وقتنا هذا فكان إجماعاً متبوعاً ، وتحمل رواية مجاهد مع إرسالها على أنه لا يحل بيع رباعها على أهلها تنبيها على أنها لم تغنم فتملك عليهم فلذلك لم تبع وكذلك حكم الإجارة .

« وأما الحرم » فهو ما أطاف بمكة من جوانبها ، وحدّه من طريق المدينة دون التنعيم عند بيوت بنى نفار على ثلاثة أميال ، ومن طريق العراق على ثنية جبل بالمنقطع على سبعة أميال . ومن طريق الجعرانة بشعب أبى عبد الله بن خالد على تسعة أميال ، ومن طريق الطائف على عرفة ومن بطن نمرة على سبعة أميال . ومن طريق جُدَّة منقطع المشاز[1] على عشرة أميال . فهذا حَدُّ ما جعله الله تعالى حرماً لما اختص به من التحريم وباين بحكمه سائر البلاد . قال الله عز وجل :

---

(١) ونظم ذلك بعضهم فقال :

وللحرم التحديد من أرض طيبة ثلاثة أميال اذا رمت اتقانه
وسبعة أميال عراق وطائف وجدة عشر ثم تسع جعرانه

وزاد الدميرى فقال :

ومن يمن سبع وكرر لها اهتدى فلم يعد سبل الحل اذ جاء تبيانه

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً (يعنى مكة وحرمها) وارزق أهله من الثمرات) لأنه كان وادياً غير ذى زرع ، فسأل الله تعالى أن يجمع لأهله الأمن والخصب ليكونوا بهما فى رغد من العيش ، فأجابه الله تعالى إلى ما سأل فجعله حرماً آمناً يتخطف الناس من حوله . وجبى إليه ثمرات كل بلد حتى جمعها فيه . واختلف الناس فى مكة وما حولها هل صارت حرماً آمناً بسؤال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، أو كانت قبله كذلك على قولين . أحدهما : أنها لم تزل حرماً آمناً من الجبابرة والمتسلطين ومن الخسوف والزلزال ، وإنما سأل إبراهيم عليه السلام ربه سبحانه أن يجعل حرمه آمناً من الجدب والقحط ، وأن يرزق أهله من الثمرات لرواية سعيد بن أبى سعيد . قال : سمعت أبا شريح الخزاعى يقول إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما افتتح مكة قام خطيباً فقال : (أيها الناس إن الله سبحانه حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى يوم القيامة لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ، أو يعضد[1] بها شجراً ، وإنها لا تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ، ألا وهى قد رجعت على حالها بالأمس ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فمن قال رسول الله قتل بها فقولوا : إن الله تعالى قد أحلها لرسوله ولم يحلها لك) . والقول الثانى : إن مكة كانت حلالا قبل دعوة إبراهيم عليه السلام كسائر البلاد ، وإنها صارت بدعوته حرماً آمناً حين حرمها كما صارت المدينة بتحريم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حرماً بعد أن كانت حلالا ، لرواية الأشعث عن نافع عن أبى هريرة قال قال رسول صلى الله تعالى عليه وسلم : (إن إبراهيم عليه السلام السلام كان عبد الله وخليله ، وإنى عبد الله ورسوله ، وإن إبراهيم حرم مكة ، وإنى حرمت المدينة ما بين لا بتيها[2] غضاها وصيدها ، ولا يحمل بها سلاح

---

(١) عضد الشجرة عضدا من باب ضرب : قطعها .

(٢) تثنية لابة وهى الحرة والحرة ارض ذات حجارة سود والمدينة لابنان شرقية وغربية وهى بينهما فحرمها ما بينهما عرضا وما بين جبليهـا طولا وهى عير وثور ، وعضاها بكسر العين وتخفيف الضاد كل شجر فيه شوك .

لقتال ، ولا يقطع بها شجر إلا لعلف بعير) . وأما « مروة » فجبل بمكة يعطف على الصفا يميل إلى الحمرة ، وأما « مزدلفة » فهو مبيت الحاج ومجمع الصلاة إذا صدروا من عرفات ، وهو مكان بين بطن مُحَسِّر والمازمين وإذا أفضت من عرفات فأنت فيه حتى تبلغ القرن الأحمر دون محسر « وقزح » هو الجبل الذى عند الموقف ومزدلفة على فرسخ من منى بها مصلى وسقاية ومنارة وعدة برك إلى جنب جبل يثرب . وأما « منى » فهى بليدة على فرسخ من مكة ، طولها ميلان تعمر أيام الموسم وتخلو بقية السنة إلا ممن يحفظها ، وقل أن يكون فى الإسلام بلد مذكور إلا ولأهله بمنى مضرب ، وعلى رأس منى من نحو مكة عقبة ترمى عليها الجمرة يوم النحر . والمسجد فى الشارع الأيمن ومسجد الكبش بقرب العقبة . وبها مصانع وآبار وهى بين جبلين مطلين عليها . قال الأصمعى وهو يذكر الجبال التى حول حمى ضَرِيّة ومنى جبل ، وأنشد :

أتبعتهم مقــلة إنسانها غَرِق كالفص فى رفرف الدمع مغمورُ(١)
حتى تواروا لشعف والجمال بهم من هضبتيها وعن جنبى منى زُورُ

وعرفات والصفا ونحو ذلك . كلها مواضع تؤدى الحجاج فيها المناسك وهى مفصلة أتم تفصيل ، فى الكتب المعدة لهذا القبيل .

نبذة مما ورد فى فضل مكة

وذكر شىء من حال رؤسائها وأشرافها

قد سبق أن لها عدة أسماء ، وقد سماها الله تعالى (البلد الأمين) أيضاً فقال : (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) . وفى هداية الحيارى قوله (والتين والزيتون) : هما فى الأرض المقدسة التى بعث منها المسيح عليه السلام

---

(١) المقلة وزان غرفة : شحمة العين التى يجمع سوادها وبياضها وانسان العين حدقتها .

وأنزل فيها الإنجيل ، وطور سينين هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى تكليما وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة التى فيه ، وأقسم بالبلد الأمين وهو مكة التى أسكن إبراهيم إسمعيل وأمه فيه ، وهذا مثل ما ورد فى التوراة : (تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران) . قال ابن قتيبة : ليس بهذا خفاء على من تدبره ولا غموض لأن مجىء الله من طور سيناء إنزاله التوراة على موسى من طور سيناء كالذى هو عند أهل الكتاب وعندنا ، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى (ناصرة)[1] وباسمها تسمى من اتبعه نصارى . وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلاؤه من جبال (فاران) إنزاله القرآن على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وجبال فاران هى جبال مكة ، ولما كان مافى التوراة خبراً عن ذلك أخبر به على الترتيب الزمانى فقدم الأسبق ثم الذى يليه . وأما القرآن فإنه أقسم بها تعظيما لشأنها واظهاراً لقدرته وآياته وكتبه ورسله ، فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة ، فبدأ بالعالى ثم انتقل إلى أعلى منه ثم إلى أعلى منهما ، فإن أشرف الكتب القرآن ، ثم التوراة ، ثم الإنجيل وكذلك الأنبياء الثلاثة انتهى بتلخيص . وقال تعالى (لا أقسم بهذا البلد وأنت حلّ بهذا البلد) . وقال تعالى (وليطوفوا بالبيت العتيق) . وقال سبحانه (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس وأمنا) . وكذلك قول إبراهيم عليه السلام (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات) . ولما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة وقف على الحزورة[2] وقال : إنى لأعلم أنك أحب البلاد

---

(١) هى قرية بالشام ويقال لها نصرانة ونصورية ينسب اليها النصارى أو جمع نصران كالندامى جمع ندمان أو جمع نصرى كمهرى ومهارى .

(٢) قال ابن الاثير : هو موضع عند باب الحناطين وهو بوزن قسورة ، قال الامام الشافعى (رض) الناس يشددون الحزورة والحديبية وهما مخففتان وفى روض السهيلى : هو اسم سوق كانت بمكة وأدخلت فى المسجد

إلىّ وانك أحب أرض الله إلى الله الحديث . وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها : (لولا الهجرة لسكنت مكة فإنى لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة ولم يطمئن قلبي ببلدة قط ما اطمأن بمكة ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة) . تريد بقرب السماء منها قرب الرحمة ونحوها ، وإلا فجميع أجزاء الأرض بالنسبة إلى بعدها عن السماء سواء كما حقق فى محله . وقال ابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنه وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الطواف :

ياحبذا مكة من وادى　　أرضٌ بها أهلى وأولادى
أرضٌ بها ترسخ أوتادى　　أرضٌ بها أمشى بلا هادى

ولما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة وعك[1] أبو بكر وبلال رضى الله تعالى عنهما فكان أبو بكر إذا أخذته الْحُمَّى يقول :

كلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ فى أهله　　والموتُ أدْنَى من شراكِ نَعْلِه[2]

وكان بلال إذا أقْشَعَتْ عنه الحمى رفع عقيرته وقال :

ألا ليتَ شعرى هل أبيتنَّ ليلةً　　وعندى منها إذْخرٌ وجليل[3]
وهل أرِدَنْ يوما مياه مجنة　　وهل يبدون لى شامةٌ وطفيل

اللهم العن شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، كما أخرجونا من مكة . ووقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عام الفتح على جمرة العقبة ، وقال : (والله إنك لخير أرض ، وإنك لأحب أرض الله إلىّ ، ولو لم أخرج منك ماخرجت إنها لم تحل لأحد كان قبلى ، ولا تحل لأحد بعدى ، وما أحلت لى

= لما زيد فيه ونقل بعضهم عن مشارق عياض مثل ذلك وفيه عن الدارقطنى مثل قول الشافعى ونسب التشديد للمحدثين قال وهو تصحيف ، ونسبه صاحب المراصد الى العامة وزاد انهم يقولون عزورة بالعين بدل الحاء ، وقال القاضى عياض وقد ضبطنا هذا الحرف على ابن السراج بالوجهين .

(١) اى أخذته الحمى . (٢) شراك النعل سيرها الذى على ظهر القدم .

(٣) الاذخر بكسر الهمزة والخاء نبات معروف ذكى الريح واذا جف ابيض ، والجليل الثمام وهو نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت الواحد جليلة والجمع جلائل ، قال الشاعر :

يلوذ بجنبى مرخة وجلائل

إلا ساعة من نهار ثم هى حرام لايُعْضَدُ شجرها ولا يختلى خلاها ولا تلتقط ضالتها إلا لمنشد) قال رجل : يارسول الله إلا الإذخر . وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم (من صبر على حرّ مكة ساعة تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام وتقربت منه الجنة مائتى عام) . ووجد على حجر مكتوب فيه : (أنا الله رب مكة الحرام وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لاتزول أخشابها مبارك لأهلها فى اللحم والماء) ، ومما يدل على فضلها قوله تعالى (وما كان ربك مهلكَ القرى حتى يبعث فى أمها رسولا) . وقوله سبحانه (ولتنذر أم القرى ومن حولها) . ومن شرفها أنها كانت لقاحاً[1] لاتدين لدين الملوك ولم يؤد أهلها إتاوةً ، تحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم فيدينون للحُمْس[2] من قريش ويزيدون فى تعظيمهم ، ويرون الاقتداء بآثارهم من الشرف والفرائض . وكان أهلها آمنين يغزون الناس ولا يُغزون ويحكمون على الناس ولا يحكم عليهم أحد ، وقد ذكر الشعراء كل ذلك فى شعرهم حين مدحوهم . قال الزبرقان بن بدر لرجل من بنى عوف هجا أبا جهل وتناول قريشاً :

أتدرى من هجوت أبا حبيب   سليل خُضارم سكنوا البطاحا[3]
وزادَ الرَكْب تذكر أم هشاماً   وبيت الله والبلد اللقاحا[4]

وقال حرب بن أمية ودعا الحضرمى أن لاينزل خارجا من الحرم . وكان يكنى أبا مطر ، فقال حرب :

---

(١) سيأتى تفسيرها قريبا (٢) لقب قريش ومن ولدت قريش ، وكنانة وجديلة قيس وهم فهم وعدوان ابنا عمرو بن قيس عيلان وبنو عامر بن صعصعة ومن تابعهم فى الجاهلية ، هؤلاء الحمس وانما سموا لتحمسهم فى دينهم أى تشددهم فيه وكذا فى الشجاعة فلا يطاقون أو لالتجائهم بالحمساء وهى الكعبة لأن حجرها أبيض الى السواد وقيل غير ذلك

(٣) الخضارم بالضم الجواد المعطاء والسيد الحمول

(٤) يقال قوم لقاح وحى لقاح لم يدينوا الملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سبأ ، وانشد ابن الاعرابى :

لعمر أبيك والانباء تنمى   لنعم الحى فى الجلى رياح
ابو دين الملوك فهم لقاح   اذا هيجوا الى الحرب اشاحوا

وقال ثعلب : الحى اللقاح مشتق من لقاح الناقة لان الناقة اذا لقحت لم تطاوع الفحل وليس بقوى

أبا مطر هلمَّ إلى (صلاح) فيكفيك الندامى من قريش
وتنزل بلدة عزت قديماً وتأمن أن يزورك ربُّ جيش
فتأمن وسطهم وتعيش فيهم أبا مطر هديت بخير عيش

ومما زاد فى فضلها فضل أهلها لأنهم كانوا حلفاء متألفين متمسكين بكثير من شريعة إبراهيم الخليل عليه والصلاة والسلام ، ولم يكونوا كالأعراب الذين لايوقرهم دين ، ولا يزينهم أدب . وكانوا يحبون أولادهم ويحجون البيت ويقيمون المناسك ويكفنون موتاهم ويغتسلون من الجنابة ويتبروءن من الهربذة[1] ويتباعدون فى المناكح من البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت غيرة وبعداً من المجوسية ، ونزل القرآن بتأكيد صنيعهم وحسن اختيارهم ، وكانوا يزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثا ، ولذلك قال عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما — وقد سأله رجل عن طلاق العرب — : (كان الرجل يطلق امرأته تطليقة ، ثم هو أحق بها ، فإن طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضاً ، فإن طلقها ثلاثا فلا سبيل له إليها . قال الاعشى :

أيا جارتى بينى فإنك طالقه كذاكِ أمور الناس غادٍ وطارقه
وبينى فقد فارقت غير ذميمةٍ وموموقة منا كما أنت وامقه
وبينى فإن البينَ خيرٌ من العصا وإلا ترى لى فوق رأسك بارقه

وممـا زاد فى شرفهم أنهم كانوا يتزوجون من أى قبيلة شاءوا ولا شرط عليهم فى ذلك ، ولا يزوجون أحداً حتى يشترطوا عليه أن يكون متحمساً على دينهم . يرون أن ذلك لايحل لهم ولا يجوز لشرفهم حتى يدان إليهم وينقاد ، والتحمس التشدد فى الدين ، ورجل أحمس أى شجاع . فحمسوا خزاعة ودانت لهم إذ كانت فى الحرم ، وحمسوا كنانة وجديلة قيس وهم فهم ، وابنا عمرو بن قيس عيلان إلا أنهم ساكنوا الحرم ، وعامر بن صعصعة وإن لم يكونوا من ساكنى الحرم ، فإن

(١) الهرابذة قومة بيت النار التى للهند فارسى معرب وقيل عظماء الهند أو علماؤهم

أمهم قرشية . وهى مجد بنت تيم بن مرة . وكان من سنة الحمس أنهم لا يخرجون أيام الموسم إلى عرفات إنَّما يقفون بالمزدلفة، وكانوا لا يسلأون[١] ولا يأقطون[٢] ولا يرتبطون عنزاً ولا بقرة ولا يغزلون صوفا ولا وبراً ، ولا يدخلون بيتاً من الشعر والمدر ، وإنما يكتنون بالقباب الحمر فى الأشهر الحرم . ثم فرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم ، وأن يتركوا ثياب الحل ويستبدلوها بثياب الحرم إما شراء وإما عارية وإما هبة ، فإن وجدوا ذلك فبها وإلا طافوا بالبيت عرايا ، وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك غير أن المرأة كانت تطوف فى درج مفرج القوائم والمآخير .

قالت امرأة وهى تطوف بالبيت :

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحِلُّه
أخثم مثل القَعْب بادٍ ظلُّه   كأنَّ حُمَّى خيبر تَمَلَّه[٣]

وكلفوا العرب أن يفيضوا من مزدلفة وقد كانوا يُفيضون من عرفة ، وقد كان الملك فى جُرهم وخزاعة وصدر من أيام قريش . فلولا أنهم أمنعُ حىّ من العرب مع نخوة العرب فى إبائها لما أجلى قصى خزاعة جرها ، ولم يكونوا يهتبدون الهبيد[٤] ويأكلون الحشرات كسائر الأعراب ، بل منهم الذى هشم الثريد ، وفيه يقول ابن الزبعرى :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه   قوم بمكة مسنتون عجاف[٥]

---

(١) سلا السمن : طبخة وعالجه (٢) الاقط شيء يتخذ من المخيض الغنمى واقط الطعام يأقطه أقطا عمله به فهو مأقوط ، قال ابن هرمة :

لست بذى ثلة مؤنقة   آقط ألبانها واسلؤها

وائتقط اتخذت الاقط (٣) قال ثعلب : فرج اخثم منفتح خرقة قصير السمك خناق ضيق ، والعقب : القدح الضخم الجافى أو الى الصغر أو يروى ارجل ، وحمى خيبر يضرب بها المثل لأن خيبر مخصوصة بالحمى والوباء ، قال اوس بن حجر :

كأن به اذ جئته خيبرية   يعود عليه ورده وملالها

الورد يوم الحمى الدائر ، والملال : الضجر والتضايق
(٤) هو الحنظل أو حبه (٥) عمرو هو هاشم بن عبد مناف ابو عبدالمطلب وكان يكنى ابا نضلة ثالث جد لسيدنا رسول الله (ص) سمى هاشما لأنه أول من ثرد الثريد وهشمه فى الجدب والعام الجماد ، ومسنتون : مقحوطون ، وعجاف : ضعاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما   سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وكان عبد الله بن جُدعان التيمى يطعم الرغو[1] والعسل والسمن ولبّ البرّ حتى قال أمية بن أبى الصلت فيه يمدحه :

لكل قبيلة رأسٌ وهاد   وأنت الرأس تقدم كل هادى

له داعٍ بمكة مُشمَعِلٌّ   وآخَرُ فوق دارته ينادى

إلى رُدُح من الشيزاء ملأى   لبابَ البرّ يُلْبكُ بالشهادِ

وفضائل قريش ليس هذا موضع استقصائها ، وقد أفردها الزبير بن بكار بكتاب أجاد فيه وأفاد ، وقد بلغ تعظيم العرب لمكة أنهم كانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون ، فإذا أرادوا الانصراف أخذ الرجل منهم حجراً من حجارة الحرم فنحته على صورة أصنام البيت فيجعله فى طريقه قبلةً ويطوف ويصلى له تشبيهاً بأصنام البيت ، وأفضى بهم الأمر بعد طول المدة إلى أن كانوا يأخذون الحجر من الحرم فيعبدونه ، فذلك كان أصل عبادة العرب للحجارة فى منازلها شَغَفاً منها بأصنام الحرم ، وتمام الكلام ، فى هذا المقام ، نورده إن شاء الله تعالى عند البحث عن أديانهم ، وما كانوا يتعبدون به فى سالف أزمانهم . وأما رؤساء مكة فذكر أهل السير أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما حمل ابنه إسماعيل عليه السلام إلى مكة جاءت جُرهم وقطوراء وهما قبيلتان من اليمن وهم أبناء عم ؛ فرأوا بلداً ذا ماء وشجر فنزلوا ونكح إسماعيل عليه السلام من جُرهم ، فلما توفى إسماعيل ولى البيت بعده نابت بن إسماعيل وهو أكبر ولده ، ثم ولى بعده مُضاض ابن عمرو الجرهمى خال ولد إسماعيل عليه السلام ، إلى أن تنافست جُرهم وقطوراء فى الملك وتداعوا للحرب فخرجت جرهم إلى قعيقعان وهى أعلى مكة وعليهم مضاض ابن عمرو ، وخرجت قطوراء من أجياد وهى أسفل مكة وعليهم السميدع ، فالتقوا بفاضح واقتتلوا قتالاً شديداً فقتل السميدع وهزمت قطوراء ، فسمى الموضع

(١) الزبد.

فاضحاً لأن قطوراء افتضحت فيه ، وسميت أجياداً لما كان معهم من أجياد الخيل ، وسميت قعيقعان لقعقعة السلاح . ثم تداعوا إلى الصلح واجتمعوا فى الشعب وطبخوا القدور ، فسمى المطابخ . ونشر الله ولد إسماعيل عليه السلام فكثروا وتفرقوا فى البلاد لا ينادون قوماً إلا أتوهم طائعين ، وظهروا عليهم بدينهم . ثم إن جُرهماً بغوا بمكة فاستحلوا المحرمات ، وأباحوا المنكرات ، وظلموا من دخلها ، وأكلوا مال الكعبة ، وكانت مكة تسمى الباسة[1] . لا تقر ظلماً ولا بغياً ولا تبقى فيها أحداً من الملحدين إلا أخرجته ، وكان أبوبكر بن عبد بن مناة بن كنانة وغسان وخزاعة حلولا حول مكة فأذنوهم القتال فاقتتلوا فجعل الحارث بن عمرو بن مضاض يقول :

لا هُمَّ إنَّ جرهماً عبادك الناس طرف وهم تِلادُك[2]

فغلبتهم خزاعة على مكة ونفتهم عنها . وفى ذلك قال عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض الأصغر * وقائلة والدمع سكب مبادر * إلى آخر الأبيات التى سبق ذكرها . ثم وليت خزاعة البيت ثلاثمائة سنة يتوارثون ذلك كابراً عن كابر حتى كان آخرهم حليل بن أبى حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة وهو خزاعة بن حارثة . وقريش إذ ذاك حلل وحرم وبيوتات متفرقة حول الحرام ، إلى أن أدرك قصىّ بن كلاب وتزوج بنت حليل بن أبى حبشية وولدت بنيه الأربعة فكثر ولده وعظم شرفه ، ثم هلك حليل وأوصى إلى ابنه المحترش أن يكون خازناً للبيت وأشرك معه غبشان[3] الملكانى . وكان إذا غاب أحجب هذا حتى

---

(١) من لسست الشىء اذا اذهبته وذكر الخطابى أنه يقال لها الباسة أيضا بالموحدة وهو من بست الجبال بسا أى فتت وثريت كما يثرى السويق قال الراجز :

لاتخبز خبزا وبسا بسا ماترك السير لهن نسا

يقول لا تشتغلا بالخبز وثريا الدقيق والتقماه . (٢) العرب تحذف الالف واللام من اللهم وتكتفى بما بقى ، والطرف : المستحدث من المال ، والتلاد : القديم منه :

(٣) يضرب به المثل فى الخسران ، قال الثعالبى : وكانت خزاعة سدنة الكعبة قبل قريش وكان أبو غبشان الخزاعى يلى من بينهم امر الكعبة وبيده مفاتيحها فاتفق له أنه اجتمع مع قصى بن كلاب فى شرب بالطائف فخدعه

هلك الملكانى فيقال أن قصياً سقى المحترش الخمر وخدعه حتى اشترى منه البيت بدنّ خمر وأشهد عليه وأخرجه من البيت وتملك حجابته وصار رب الحكم فيه، فقصيّ أول من أصاب الملك من قريش بعد ولد اسماعيل. وذلك فى أيام المنذر ابن النعمان ملك الحيرة، وملك الفرس يومئذ بهرام جور أبو الفرس وجعل قصيّ مكة رباعا وبنى بها دار الندوة. وكانت صوفة[1] وهى قبيلة من جرهم تصيب بمكة من يلى الإجازة بالناس من عرفة مدة. وفيهم يقول الشاعر:

ولا يريمون فى التعريف موقفهم حتى يقال أجيزوا آل صوفانا[2]

ثم أخذتها منهم خزاعة وأجازوا مدّة. ثم عدا عليهم بنو عدوان بن عمرو ابن قيس وصارت إلى رجل منهم يقال له أبو سيارة[3] أحد بنى سعد، وله يقول الراجز:

قصى عن مفاتيح الكعبة بان اسكره ثم اشتراها منه بزق خمر وأشهد عليه ودفع المفاتيح فى يد ابنه عبد الدار بن قصى وسرحه الى مكة فلما اشرف عبد الدار على دور مكة رفع عقيرته وقال: يامعاشر قريش هذه مفاتيح بيت ابيكم اسماعيل (ع) قد ردها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم، وأفاق غبشان من سكره نادما خاسرا فقال الناس أحمق من أبى غبشان واندم من أبى غبشان وأخسر صفقة من أبى غبشان، فذهبت الكلمات الثلاث امثالا واكثرت الشعراء القول فيه فقال بعضهم:

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت بزق خمر فما فازت ولا ربحت

وقال آخر:

أبو غبشان أظلم من قصى وأظلم من بنى فهر خزاعة
فلا تلحو قصيا فى شراء ولوموا شيخكم اذ كان باعه

وقال آخر:

اذا افتخرت خزاعة فى قديم وجدنا فخرها شرب الخمور
تبيع لكعبة الرحمن حمقا بزق بئس مفتخر الفخور

(١) أبو حى من مضر سمى بذلك لان أمه جعلت فى رأسه صوفة وجعلته ربيطا للكعبة يخدمها وهو الغوث بن مر بن اد بن طابخة. (٢) قوله أجيزوا أى أفيضوا وكان احدهم يقول اجيزى صوفة فاذا أجازت قال اجيزى خندف فاذا اجازت اذن للناس كلهم فى الاجازة، وآل صوفان ويقال لهم آل صفوان قوم من بنى سعد بن زيد مناة قال أبو عبيدة حتى يجوز القائم بذلك من آل صفوان والبيت لاوس بن مغراء. (٣) اسمه هميلة بن خالد بن اعزل وكان له حمار أسود أجاز الناس عليه من مزدلفة الى منى أربعين سنة وعير ابى سيارة مشهور يتمثل به فيقال اصح من عيرابى سيارة للرجل الصحيح فى بدنه، قال الجاحظ: أعمار حمر الوحش تزيد على أعمار الحمر الاهلية

خَلوا السبيل عن أبي سيَّارة وعن مَوَاليــه بنى فزَارة[١]

حتى يجيز ســـالمًا حماره مستقبل الكعبة يدعو جاره[٢]

وكانت صورة الإجازة أن يتقدمهم أبو سيارة على حماره ، ثم يخطبهم فيقول اللهم أصلح بين نسائنا ، وعاد بين رعايانا ، واجعل المال فى سماحنا وسمحائنا ، أوفوا بعهدكم . وأكرموا جاركم ، وأقروا ضيفكم ، ثم يقول : أشرق ثَبِير ، كيما نغير ، ثم ينفر ويتبعه الناس . فلما قوى أمر قصىّ أتى أبا سيارة وقومه فمنعه من الإجازة وقاتلوا عليها فهزمهم قصىّ وصار البيت الحرام إلى قصىّ . فلما كبر قصىّ ووهن عظمه جعل الأمر فى ذلك كله إلى ولده عبد الدار لأنه أكبر أولاده ، وهلك قصىّ وأقام قريش على ذلك عبد الدار . ثم إن عبد مناف رأى فى نفسه أنه أحق من عبد الدار بالأمر وكذلك قريش لما كان عليه من النباهة والفضل فأجمعوا على أخذ ما بأيديه ، وهموا بالقتال فمشى الأكابر منهم حتى تداعوا إلى الصلح بأن يكون لعبد مناف السقاية[٣] والرِّفادة[٤] ، وأن تكون الحجابة[٥] واللواء والندوة لبنى عبد الدار ، وعقدوا على ذلك حلفاً مؤكداً لا ينقضونه ، فأخرج بنو عبد مناف ومن تابعهم من قريش جفنة مملوءة طيباً وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بها الكعبة تأكيداً على أنفسهم فسموا المطيبين ، وأخرج بنو عبد الدار ومن تابعهم جفنة من دم وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بها الكعبة

ولا يعرف حمــار أهلى عاش اكثر وعمر اطول من عير ابى سيارة فانهم لا يشكون انه رفع عليه اهل الموسم اربعين عاما .

(١) يعنى بمواليه بنى عمه لأنه من عدوان وعدوان وفزازة من قيس عيلان

(٢) يدعو جاره أى يدعو الله عز وجل يقول اللهم كن لنا جارا مما نخافه أى مجيرا (٣) الموضع يتخذ لسقى الناس (٤) هى ماكانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج (٥) هى سدانة لبيت وقد أحدثها قصى ، واللواء منصب أحدثه قصى أيضا بمنزلة وزير الحرب فى عصرنا فاذا أخرجه من كان بيده اجتمعت عنده صناديد قريش لايتخلف أحد منهم عنه وذلك اذا نابتهم نائبة وغيره لايمكن من ذلك اللواء وكان هذا المنصب مخصوصا ببنى عبد الدار ، والندوة وهى أيضا مما أحدثه قصى وهى بمنزلة قصر الامارة ودار الحكومة وهى دار كانوا يجتمعون فيها لابرام أمرهم وتشاورهم والندوة الجماعة ودار الندوة دار الجماعة .

فسموا الأحلاف ولعقة الدم ، ولم يل الخلافة منهم غير عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه . والباقون من المطيبين لم يزالوا على حالهم حتى جاءهم الإسلام ، وقريش على ذلك حتى فتح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكة سنة ثمان من الهجرة فأقرّ المفتاح فى يد عثمان بن طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ منه المفاتيح عام الفتح فأنزل الله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فاستدعاه ورد المفتاح إليه ، وأقر السقاية فى يد العباس رضى الله تعالى عنه .

من انتهى إليه الشرف بمكة من قريش فى الجاهلية فوصله بالإسلام :

اعلم أن من انتهى إليه الشرف من قريش إلى أن بزغ نور الإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن ، وهم : (هاشم) و (أمية) و (نوفل) و (وعبد الدار) و (أسد) و (تيم) و (مخزوم) و (عدى) و (جمح) و (سهم) فكان من هاشم العباس ابن عبد المطلب يسقى الحجيجَ فى الجاهلية وبقى له ذلك فى الإسلام ، ومن بنى أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش ، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب ، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . ومن بنى نوفل الحارث بن عامر وكانت إليه الرفادة ، وهى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج . ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة ، يقال : والندوة أيضاً فى بنى عبد الدار . ومن بنى أسد يزيد بن زَمَعَة بن الأسود وكانت إليه المشورة وذلك أن رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه ، فإن وافقه ولاهم عليه وإلا تخير وكانوا له أعوانا ، واستشهد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالطائف ومن بنى تيم أبو بكر الصديق ، وكانت إليه فى الجاهلية الأشناق وهى الديات والمغرم ، فكان إذا احتمل

شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حَمَالَة[1] من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه . ومن بنى مخزوم خالد بن الوليد ، كانت إليه القبة والأعنة . فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها مايجهزون به الجيش . وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش فى الحرب . ومن بنى عدى عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة فى الجاهلية ، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم حىّ لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به . ومن بنى جُمَح صفوان ابن أمية ، وكانت إليه الأيسار وهى الأزلام ، فكان لايسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تسييره على يديه . ومن بنى سهم الحارث بن قيس ، وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لآلهتهم . فهذه مكارم قريش التى كانت فى الجاهلية ، وهى السقاية والعمارة والعقاب والرفادة والسدانة والحجابة والندوة واللواء والمشورة والأشناق والقبة والأعنة والسفارة والأيسار والحكومة والأموال والمحجرة إلى هؤلاء العشرة من هذه البطون العشرة على حال ما كانت فى أوليتهم يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، وجاء الإسلام فوصل ذلك لهم وكان كل شرف من شرف الجاهلية أدركه الإسلام فوصله ، فكانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر فى بنى هاشم . فأما السقاية فمعروفة ، وأما العمارة فهو أن لايتكلم أحد فى المسجد الحرام بهجر ولا رَفَثٍ ولا يرفع فيه صوته ، كان العباس ينهاهم عن ذلك . وأما حلوان النفر فان العرب لم تكن تملك عليها فى الجاهلية أحداً فان كان حرب أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيراً كان أو كبيراً . فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بنى هاشم فخرج سهم العباس وهو صغير فأجلسوه على المجنّ ، وسبحان من صرف الدهور ، على حسب مصالح الأمور .

---

(١) الحمالة كسحابة الدية يحملها قوم عن قوم .

ذكر ما وقع لأصحاب الفيل في مكة شرفها الله تعالى

اعلم أن أبرهة الأشرم بعد أن استولى على اليمن وقتل أميرها أرياطاً بنى القُلَّيْسَ بصنعاء فبنى كنيسة لم ير مثلها فى زمانها ، ثم كتب إلى النجاشى إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسةً لم يُبْنَ مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حج العرب . فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشى غضب رجل من النسأة [1] أحد بنى فقيم بن عدىّ بن عامر بن ثعلبة بن الحارث ابن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر فخرج حتى أتى القُلَّيْسَ [2] فقعد فيها يعنى أحدث فيها ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة . فقال : من

---

(١) الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية فيحلون الشهر من الاشهر الحرم ويحرمون مكانة الشهر من أشهر الحل ليواطئوا عدة ماحرم الله ويؤخرون ذلك الشهر ففيه انزل الله تبارك وتعالى انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما قوله ليواطئوا أى ليوافقوا ، وكان أول من نسأ الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ماحرم القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عامر بن ثعلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة وقيل له القلمس لجوده اذ القلمس من أسماء الحرب وتفصيل الكلام يأتى فى الجزء الثالث . (٢) هو كنيسة بصنعا سميت لارتفاع بنائها وعلوها ومنه القلانس لأنها فى أعلى الرؤس ويقال تقلنس الرجل وتقلس اذا لبس القلنسوة وقلس طعاما أى ارتفع من معدته الى فيه ، وكان ابرهة قد استذل أهل اليمن فى بنيان هذه الكنيسة وجشمهم فيها أنواعا من السخر وكان ينقل اليها العدد من الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان (ع) وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ وكان فيه بقايا من آثار ملكها فاستعان بذلك على ما اراده فى هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ونصب فيها صلبان من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنس وكان اراد أن يرفع فى بنائها حتى يشرف منها على عدن وكان حكمه فى العامل اذا طلعت عليه الشمس قبل أن يأخذ فى عمله أن يقطع يده !! فنام رجل منهم ذات يوم حتى طلعت الشمس فجاءت معه امه وهى امرأة عجوز فتضرعت اليه تستشفع لابنها فأبى الان يقطع يده فقالت : اضرب بمعولك اليوم فاليوم لك وغدا لغيرك ، فقال : ويحك ماقلته ؟ فقالت : نعم كما صار هذا الملك من غيرك اليك فكذلك يصير منك الى غيرك فاخذته موعظتها واعفى الناس من العمل فيها بعد ، فلما هلك اقفر ماحول هذه الكنيسة فلم يعمرها أحد وكثر حولها السباع والحيات ولم يقربها أحد الى زمن أبى العباس فذكر له أمرها وبعث اليها بابن الربيع عامله على اليمن معه أهل الحزم والجلادة فخربها وحصلوا منها مالا كثيرا ببيع ماأمكن بيعه من رخامها وآلاتها فعفى بعد ذلك رسمها وانقطع خبرها ودرست آثارها

صنع هذا ، فقيل له : رجل من العرب من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة لما سمع أنك تريد أن تصرف إليها حج العرب غضب فجاء فقعد فيها أى أنها ليست لذلك بأهل ، فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ثم سار وخرجوا معه بالفيل ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام ، فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر فدعا قومَهُ ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريد من هدمه وإخرابه فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر : أيها الملك لا تقتلْنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من قتلى فتركه من القتل وحبسه عنده فى وثاق وكان أبرهة رجلاً حليماً . ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له حتى إذا كان بأرض خَثْعَم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلى خثعم شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً فأتى به . فلما هم بقتله قال له نفيل أيها الملك لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يدان لك — يشير إلى شهران وناهس قبيلى خثعم — بالسمع والطاعة فخلى سبيله وخرج به معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف فى رجال ثقيف فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد ، يعنون اللات ، إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم ، واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة . قال ضرار بن خطاب الفهرى :

وفرت ثقيفٌ إلى لاتِها بمنقلب الخائبِ الخاسرِ

فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال

حتى أنزله المُغَمَّسَ(١) ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذى يرجمه الناس بالمُغَمَّسَ . فلما نزل أبرهة المُغَمَّسَ بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم — وهو يومئذ كبير قريش وسيدها — فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك ، وبعث أبرهة حناطة الحميرىَّ إلى مكة وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له : « إنَّ الملك يقول لك إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دمائكم فإن هو لم يرد حربى فأتنى به » فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، أو كما قال فإنه يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فو الله ما عندنا دفع عنه . فقال حناطة : فانطلق معى إليه فإنه قد أمرنى أن آتيه بك ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر وكان صديقاً له حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له ياذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدوًّا أو عشياً . ما عندى غناء فى شىء مما نزل بك إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لى وسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك بخير إنْ قدر على ذلك ، فقال : حسبى فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل ، والوحوش فى رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده

---

(١) كمعظم ومحدث موضع بطريق الطائف فيه قبر ابى رغال دليل ابرهة ويرجم

بما استطعت فقال : أفعلُ ، فكلم أنيس أَبْرَهَةَ فقال له : أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة وهو يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رؤوس الجبال فأذن له عليك فليكلمك فى حاجته . قال : فأذن له أبرهة وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان فقال حاجتى أن يردَّ علىَّ الملك مائتى بعير أصابها لى ، فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه . قال له عبد المطلب : أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع منى قال أنت وذاك . وكان — فيما يزعم بعض أهل العلم — قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه حناطة يعمر بن نفاثة بن عدىّ ، ينتهى نسبه إلى كنانة وهو يومئذ سيد بنى بكر ، وخويلد بن واثلة الهذلىّ وهو يومئذ سيد هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصاب له فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شَعَفِ الجبال [١] والشعاب تخوفاً عليهم من معرة الجيش [٢] . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده . فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهُمَّ إنَّ المـرءَ يمـ ـنع رَحله فامنع حلالك [٣]

---

(١) الشعف بفتحتين جمع شعفة محركة وهى رأس الجبل ، والشعاب جمع شعب بالكسر وهو الطريق وقيل الطريق فى الجبل (٢) المعرة : المساءة (٣) العرب تحذف الألف واللام من اللهم وتكتفى بما بقى وكذلك تقول لاه أبوك تريد لله

لايغلبنَّ صليبهم ومحالهم أبدا محالك
إن كنتَ تارِكَهم وكعـ بتنا فأمر ما بدا لك
فلئن فعلت فإنه أمر يتمُّ به فعالك
أسمع بأرجس ما أرا دوا العَدْوَ وانتهكوا حلالك
جرّوا جميع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم جهلاً وما رقبوا جلالك

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف :

لاهُمَّ اخزِ الأسودَ بن مقصودْ الآخذ الهَجْمة فيها التقليد[1]
بين حِراء وثبيرٍ فالبيد يحبسها وهى أولات التطريد[2]
فضمها إلى طماطمٍ سود أَخْفِرْهُ ياربٍّ وأنت محمود[3]

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعَف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما يفعل أبرهة بمكة إذا دخلها ، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبى جيشه ، وكان اسم الفيل (محموداً) وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نُفَيل ابن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل[4] . وخرج

أبوك ويقولون لاهنك أى والله انك وهذا لكثرة دور هذا الاسم على الألسنة وقد قالوا فيما هو دونه فى الاستعمال اجنك تفعل كذا أى من أجل انك تفعل كذا وكذا والحلال فى هذا البيت القوم الحلول فى المكان والحلال مركب من مراكب النساء ، قال الشاعر : « بغير حلال غادرته مجحفل » والحلال أيضا متاع البيت وجائز أن يستعيره ههنا (١) الهجمة مابين التسعين الى المائة من الابل والمائة منها هنيدة والمائتان هند ، والأسود بن مقصود صاحب الفيل (٢) حراء وزان كتاب جبل بمكة ، وثبير : جبل بين مكة ومنى ، والبيد بالكسر جمع بيداء وهى الفلاة ، وفى الحديث أن قوما يغزون البيت فاذا نزلوا البيداء بعث الله جبريل فيقول يا بيداء أبيديهم فيخسف بهم أى أهلكيهم وهى هنا اسم موضع بعينه (٣) قوله اخفره أى انقض عزمه وعهده فلا تؤمنه ، وقوله الى طماطم سود يعنى العلوج ويقال لكل أعجمى طمطمانى وطمطم (٤) قال أبو القاسم السهيلى : فيه نظر لأن الفيل لايبرك فيحتمل أن يكون

نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد فى الجبل وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربوا رأسه بالطَبرزَين[١] ليقوم فأبى فأدخلوا محاجن[٢] لهم فى مراقه[٣] فبزغوه[٤] بها ليقوم فأبى فوجهوه راجماً إلى اليمن فقام يهرول[٥] ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك ، فقال أبو الطيب مسعود فى ذلك ، وقيل : بل قاله عبد المطلب :

إنَّ آياتِ ربّنا ساطعاتٌ لايمارى بهنَّ إلا الكَفُورُ[٦]
حبس الفيل بالْمُغَمَّس حتى مَرَّ يَعْوِى كأنه معقور[٧]

فارسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف[٨] والبلسان[٩] مع كل طائر منها ثلاثة أحجار ، حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لاتصيب منهم أحداً إلا هلك . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى جاؤا منه ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن . فقال نفيل حين رأى ماأنزل الله تعالى بهم من نقمته .

أين المفرُّ والإلهُ الطالِبُ والأشرَمُ المغلوب ليس الغالب

بروكه سقوطه الى الأرض لما جاءه من أمر الله سبحانه ويحتمل أن يكون فعل فعل البارك الذى يلزم موضعه ولا يبرح فعبر بالبروك عن ذلك ، وقد سمعت من يقول أن فى الفيلة صنفا منها يبرك كما يبرك الجمل فان صح والا فتأويله ماقدمناه

(١) ذكر البكرى فى المعجم أن الأصل فيه طبرزين بفتح الباء وقال طبر هو الفأس (٢) جمع محجن وزان مقود خشبة فى طرفها اعوجاج مثل الصولجان قال ابن دريد كل عود معطوف الرأس فهو محجن والجمع المحاجن (٣) قال فى القاموس ومراق البطن مارق منه ولأن جمع مرق أو لاواحد لها (٤) أى أدموه ومنه سمى المبزغ (٥) يسرع فى مشيه يقال هرول هرولة أسرع فى مشيه دون الخبب ولهذا يقال هو بين المشى والعدو وجعل جماعة الواو أصلا (٦) الآيات : العلامات وتجمع الآية على آى أيضا ، وقوله ساطعات أى مرتفعات يقال سطع الغبار سطوعا وسطيعا ارتفع وكذا البرق والشعاع والصبح والرائحة ، وقوله لايمارى أى لايجادل ولا يخاصم (٧) المغمس كمعظم بطريق الطايف فيه قبر أبى رغال دليل ابرهة ويرجم (٨) جمع خطاف وهو طائر معلوم (٩) طير من طيور الماء يسمى مالك الحزين وعبر عنه فى حياة الحيوان بلفظ بلشون

وقال أيضاً

ألا حييت عنّا يا رُدَيْنا نعمناكم مع الإصباح عينا[1]

ردينةُ لو رأيتِ فلا تريه لدى جنب المحصَّب ما رأينا

إذاً لعذرتنى و حَمِدْتِ أمرى ولم تأسىْ على مافات بَيْنا[2]

حَمِدْتُ الله إذ أبصرت طيراً وخفتُ حجارة تلقى علينا

وكلُّ القوم يسْأَلُ عن نُفيلٍ كأنَّ علىَّ للحبشان دَيْنا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك ، على كل منهل ، وأصيب أبرهـة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملةً أنملةً[3] حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فراخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون . ويروى أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرىّ بأرض العرب ذلك العـام ، وأنه أول ما رؤى بها مرائر الشجر[4] الحرمل والحنظل . فلما رد الله تعالى الحبشةَ عن مكة وأصابهم بما أصابهم به من النقمة أعظمت العرب قريشاً ، وقالوا : أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم

---

(١) قوله ردينا اسم امرأة كأنها سميت بتصغير ردنة وهى القطعة من الردن وهو الحرير ، ويقال لمقدم الكم ردن مذكر وأما ردينة بتقديم الدال فهو اسم للأحمق ، ونعمناكم الخ دعاء أى نعمنا بكم فعدى الفعل لما حذف حرف الجر وهذا كما تقول أنعم الله بك عينا (٢) نصب بينا نصب المصدر المؤكد لما قبله اذ كان فى معناه ولم يكن على لفظه لأن فات معنى فارق وبان كأنه قال على مافات فوتا أو بان بينا ولا يصح لأن يكون مفعولا من أجله يعمل فيه تأس لأن الأسى باطن فى القلب والبين ظاهر ولايجوز أن يكون المفعول من أجله الا بعكس هذا تقول بكى أسفا وخرج خوفا وانطلق حرصا على كذا ولو عكست الكلام كان خلفا من القول وهذا أحد شروط المفعـول من أجله (٣) أى ينتثر جسمه والأنملة طرف الاصبع ولكن قد يعبر بها عن طرف غير الأصبع والجزء الصغير (٤) يقال شجرة مرة ثم يجمع على مرائر كما تجمع حرة على حرائر ولا تجمع فعلة على فعائل الا فى هذين الحرفين والقيـاس فعل نحو درة ودرر ولكن الحرة من النساء فى معنى الكريمة والعقيلة ونحو ذلك فأجروها مجرى ماهو فى معناها من الفعلية وكذلك المر قياسه أن يقال فيه مرير لأن المرارة فى الشىء طبيعة فقياس فعله أن يكون فعل واذا كان قياسه فعل فقياس الصفة منه أن تكون على فعيل والأنثى فعيلة والشىء المر عسير اكله شديد فأجروا الجمع مجرى هذه الصفات التى هى على فعيل لأنها طباع وخصال وأفعال الطباع والخصال كلها تجرى هذا المجرى

مؤونة عدوهم ، فقالوا فى ذلك أشعاراً يذكرون فيها ما صنع الله تعالى بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم فقال عبد الله بن الزبعرى :

تنـكلوا عن بطن مكة إنها كانت قديماً لا يرام حريمها[١]

لاتخلق الشِعرى ليالى حرمت إذْ لا عزيزَ من الأنام يرومها[٢]

سائلْ أميرَ الحبش عنها ما رأى ولسوف ينبي الجاهلين عليمُها

ستون ألفاً لم يئوبوا أرضَهم بل لم يعش بعد الإياب سقيمها[٣]

كانت بها عادٌ وجرْهُمُ قبلهم واللهُ من فوق العباد يقيمها

وقال أبو قيس صيفى بن الأسلت بن جشم بن وائل :

ومن صنعه يوم فيل الحبوش إذ كل ما بعثوه رزم[٤]

محاجنُهم تحت أقرابه وقد شرموا أنفَهُ فانخرم

---

(١) الأبيات من (الكامل) وقد دخل فى قوله تنكلوا الخ خرم ولا يبعدان يدخل الخرم فى متفاعل فيحذف من السبب حرف كما حذف من الوتد فى الطويل حرف واذا وجد حذف السبب الثقيل كله فأحرى أن يجوز حذف حرف منه وذلك فى قول ابن مفرغ :

هامة تدعـــو صدى بين المشـــقر واليمامه

وهو من المرفل والمرفل من الكامل الا ترى أن قبله :

وشريت بردا ليتـــنى من بعد برد كنت هامه

فالمحذوف من الطويل اذا خرم حرف من وتد مجموع والمحذوف من الكامل اذا خرم حرف من سبب ثقيل بعده سبب خفيف قال السهيلى : ولما كان الاضمار فيه كثيرا وهو اسكان التاء من متفاعلن فمن ثم قال أبو على : لايجوز فيه الخرم لأن ذلك يؤول الى الابتداء بساكن ، وهذا الكلام لمن تدبره بارد غث لأن الكلمة التى يدخلها الخرم لم يكن قط فيها اضمار نحو تنكلوا عن بطن مكة والتى يدخلها الاضمار لايتصور فيها الخرم نحو لايبعدن قومى ونحو قوله لم تخلق الشعرى الخ فتعليله فى هذا الشعر اذا لايفيد شيئا وما أبعد العرب من الالتفات الى هذه الأغراض التى يستعملها بعض النحاة وهى أوهى من نسج الخدرنق (٢) ان كان ابن الزبعرى قال هذا فى الاسلام فهـو منتزع من قول النبى صلى الله عليه وسلم أن الله حرم مكة ولم يحرمها الناس ومن قوله فى حديث آخر أن الله حرمها يوم خلق السموات والأرض والتربة خلقت قبل خلق الكواكب وان كان ابن الزبعرى قال هذا فى الجاهلية فانما أخذه والله أعلم من الكتاب الذى وجدوه فى الحجر بالخط المسند حين بنوا الكعبة وفيه أنا الله رب بكة خلقتها يوم خلقت السموات والأرض الحديث (٣) يعنى بقوله بعد الاياب سقيمها ابرهة اذ حملوه معهم حين أصـابه ما أصابه حتى مات بصنعاء (٤) رزم : ثبت ولزم موضعه وأرزم من الرزيم وهو صوت ليس بالقوى وكذلك صوت الفيل ضئيل على عظم خلقته

وقد جعَـلوا سوطَهُ مِغْولا إذا يمموه قفـاه كلِم[١]
فولى وأدبر أدراجـه وقد باءَ بالظلم من كان ثم[٢]
فأرسل من فوقهم حاصباً فلفَّهم مثل لف القُزُمِ[٣]
تحضُّ على الصبر أحبـارُهم وقد ثأجوا كُثؤَاج الغنم[٤]

« وقال أيضاً »

فقوموا فصـلوا ربكم وتمسحوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب[٥]
فعندكُمُ منـه بلاءٌ مصدَّق غداةَ أبي يكسوم هادى الـكتائب[٦]
كتيبته بالسهل تمشى ورجله على القاذفاتِ فى رؤس المناقب
فلما أتاكم نصر ذى العرش ردَّهم جنود المليك بين ساف وحاصب[٧]
فولوا سراعاً هاربين ولم يَؤُبْ إلى أهله مِلْحَبْشِ غير عصائب[٨]

وقال طالب بن أبي طالب بن عبد المطلب :

ألم تعلموا ما كانَ فى حرب داحس وجيش أبى يكسوم إذ ملؤا الشعْبا
فلولا دفاعُ الله لا شيءَ غيره لأصبحتُمُ لا تمنعون لـكم سَرْبا[٩]

وقال أمية بن أبى الصلت ابن أبى ربيعة الثقفى :

إن آيات ربِّنا ثاقباتٌ لا يمارى فيهن إلا الـكفور
خلق الليل والنهار فـكلٌ مستبين حسابهُ مقـدور
ثم يجلو النهارَ ربٌّ رحيم بمهَاةٍ شُعاعها منشور[١٠]

---

(١) المغول كمنبر حديدة تجعل فى السوط فيكون لها غلافا وشبه مشمل الا انه أدق واطول منه ونصل طويل أو سيف دقيق له قفا (٢) يقال أدبر او رجع فلان أدراجه أى عاد من حيث جاء ، وبآء رجع ، وثم بالفتح اسم يشار به بمعنى هناك للمكان البعيد ظرف لاينصرف (٣) الحاصب : ريح تحمل التراب أو هو ماتناثر من دقاق الثلج والبرد والسحاب الذى يرمى بهما ، والقزم صغار الغنم ويقال رذال المال (٤) كثؤاج الغنم أى كصوت الغنم (٥) الأخاشب : جبال الصمان (٦) أبو يكسوم كنية أبرهة والكتايب جمع كتيبة وهى الجيش أو الجماعة المستجيزة من الخيل أو غير ذلك ، والهادى المتقدم (٧) السـافى الذى يرمى بالتراب ، والحاصب مر تفسيره قريبا
(٨) قوله لم يؤب أى لم يرجع وملحبش أى من الحبش (٩) السرب بالفتح المال الراعى والسرب بالكسر القطيع من البقر والظباء ومن النساء أيضـا
(١٠) المهاة : الشمس سميت بذلك لصفائها والمها من الأجسام الصافى

حبس الفيل بالمُغَمَّس حتى　ظلّ يحبوا كأنه معقور
لازماً حلقة الجران كما قط　رمن صخر كبكب محدود[١]
حولَهُ من ملوكِ كِنْدَةَ أبطا　لٌ ملاويثُ فى الحروب صقور[٢]
خلفوه ثم ابذعَرُّوا جميعاً　كلّهم عظمُ ساقه مكسور[٣]
كل دين يوم القيامة عند اللّـ　ـهِ إلا دين الحنيفة بُورُ[٤]

وقال الفرزدق يمدح سليمان بن عبد الملك ويهجوا الحجاج بن يوسف:

فلما طغى الحجاج حين طغى بهِ　عنا قال إنى مرتق فى السلالم[٥]
فكان كما قال ابنُ نوح سأرتقى　إلى جبلٍ من خشية الماء عاصم[٦]
رمى الله فى جثمانه مثلَ مارمى　عن القبلة البيضاء ذاتِ المحارم
جنودٌ تسوقُ الفيل حتى أعادهم　هباءً وكانوا مُطْرَخِمِّى الطراخم[٧]
نصرت كنصر البيت إذ ساقَ فيله　إليه عظيم المشركين الأعاجم

وقال عبد الله بن قيس الرقيات أحد بنى عامر بن لؤى بن غالب يذكر أبرهة والفيل:

كادَهَ الأشرم الذى جاء بالفـ　ـيل فولّى وجيشه مهزوم
واستهلت عليهم الطير بالجَنْـ　ـدلِ حتى كأنَّهُ مرجوم[٨]
ذاكَ من يغزُهُ من الناس يرجع　وهو فلّ من الجيوش ذميم

---

(١) الجران العنق الذى يرى باطنه من ظاهره ، والمهاة الظبية ، والمهاة البلورة ، يريد ألقى بجرانه الى الأرض وهذا يقوى أنه برك الا تراه يقول كما قطر من صخر كبكب وهو جبل محدور أى حجر حدر حتى بلغ الأرض (٢) الملاويث والملاوث جمع ملاث وهو الملاذ السيد الشريف لأن الأمر يلاث به ويعصب أى تقرن به الأمور وتعقد (٣) ابذعروا : تفرقوا من ذعر وهى كلمة منحوتة من أصلين من البذر والذعر (٤) يريد بالحنيفة الأمة الحنيفة أى المسلمة التى على دين ابراهيم الحنيف صلى الله عليه وسلم وذلك أنه حنف عن اليهودية والنصرانية أى عدل عنهما فسمى حنيفا أو حنف عما كان يعبد آباؤه وقومه
(٥) السلالم جمع سلم كسكر المرقاة وقد تذكر وتجمع على سلاليم أيضا
(٦) ابن نوح اسمه يام وقيل كنعان ، وعاصم اسم فاعل عصمه اذا حفظه وحماه (٧) المطرخم المتلىء كبرا أو غضبا والطراخم جمع مطرخم (٨) بالجندل كجعفر مايقله الرجل من الحجارة وتكسر الدال ، ومرجوم الرجم القتل والقذف والطرد ورمى بالحجارة

فلما هلك أبرهة ملك الحبشة ابنه يكسوم بن أبرهة وبه كان يكنى ، فلما هلك يكسوم بن أبرهة ملك اليمن فى الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذى يزن الحميرى وكان يكنى بأبى مرة فانتزع ملك اليمن من أيديهم بمعاونة كسرى وقد عدت قصة الفيل من آيات الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإنه كان فى زمانه حملا فى بطن أمه بمكة لأنه ولد بعد خمسين يوما من الفيل وبعد موت أبيه فى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ووافق من شهور الروم العشرين من شباط فى السنة الثانية عشر من ملك هرمز ابن أنوشروان . وحكى أبو جعفر الطبرى : أن مولده كان لاثنين وأربعين سنة من ملك أنوشروان فكانت آيته فى ذلك من وجهين . أحدهما : أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا فأهلكهم الله لصيانة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجرى عليه السبي حملا ووليداً . والثانى : أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به دفع أصحاب الفيل عنهم ، وما هم أهل كتاب لأنهم كانوا بين يدى عابدصنم ، أومتدين وثن ، أو قائل بالزندقة ، أو مانع من الرجعة ، ولكن لما أراده الله تعالى من ظهور الإسلام تأسيساً للنبوة ، وتعظيما للكعبة ، أن يجعلها قبلة للصلاة ، ومنسكا للحج ولما انتشر فى العرب ما صنع الله تعالى بجيش الفيل تهيبوا الحرم ، وأعظموه وزادت حرمته فى النفوس ، ودانت لقريش بالطاعة ، وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم ، فزادوهم تشريفاً وتعظيما . وقامت قريش لهم بالوفادة والسدانة والسقاية على ما سبق فصاروا أئمة ديانين ، وقادة متبوعين وصار أصحاب الفيل مثلا فى الغابرين . وروى هشام بن محمد الكلبي عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه خرج فى الجاهلية تاجراً إلى الشام فمر بزنباع بن روح وكان عشاراً فأساء إليه فى اجتيازه وأخذ مكسه ، فقال عمر بعد انفصاله :

متى أُلفِ زنباعَ بن روح ببلدة　　إلى النصف منها يقرع السن بالندم

ويعلم أنّا من لؤى بن غالب　　مطاعين فى الهيجامضاريب فىالتهم

فبلغ ذلك زنباعاً فجهز جيشاً لغزو مكة فقيل له إنها حرم الله ما أرادها أحد بسوء إلاّ هلك كأصحاب الفيل فـكف زنباع فقال :

تمنّى أخو فهرٍ لقاى ودونه ... قراضبة مثل الليوث الحواظر[1]
فوالله لولا الله لا شىءَ غيره ... وكعبته راقت إليـكم معاشرى
لأقتل منكم كل كهل معمم ... وأسبى نساءً بين جمع الأباعر

فبلغ ذلك عمر رضوان الله تعالى عليه فأجابه وقال :

ألم تر أنَّ الله أهْلك من بغى ... علينا قديماً فى قديم المعاشر
وأردى أبا يكسوم أبرهة الذى ... أتانا مغيراً كالفَنيق الخاطر[2]
بجمع كثير يُحرج العين وسطه ... على رأسه تاجٌ على رأس باكر
فما راعنا من ذلك العبد كيده ... وكنا به من بين لاه وساخر
وقال سأبغى البيت هدماً ولا أرى ... بمكة ماش بين تلك المشاعر[3]
فردّاه رب العرش عنا رداءه ... ولم ينجه أعظامه بالمرائر
فأهلـكه والتابعين له معاً ... وأسرى به من ناصر ومسامر
وليس لنا فاعلم وليس لبيتنا ... سوى الله من مولى عزيز وناصر
فدونك زرنا تلق مثل الذى لقوا ... جميعهم من دارعين وحاسر

وكان شأن الفيل رادعا لـكل باغ ، ودافعاً لـكل طاغ ، وقد عاصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى زمن نبوته وبعد هجرته جماعة شاهدوا الفيل ، وطير الأبابيل[4] ، منهم حكيم بن حزام ، وحاطب بن عبد العزى ، ونوفل بن معاوية ، لأن كل واحد من هؤلاء عاش مائة وعشرين سنة منها ستين سنة فى الجاهلية ، وستين سنة فى الإسلام .

---

(١) القراضبة : اللصوص الواحد قرضوب وقرضاب .
(٢) الفنيق الفحل المكرم لايؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .
(٣) المشاعر : مواضع المناسك والمشعر الحرام جبل بآخر مزدلفة واسمه قزح وميمه مفتوحة على المشهور وبعضهم يكسرها على التشبيه بالآلة .
(٤) فرق جمع بلا واحـد .

سؤال وجواب

إن سأل سائل لم كان حبس الفيل فى زمان الجاهلية عن مكة من الإفساد والإلحاد فيها ، ولم يمنع الحجاج بن يوسف الثقفى فى زمان الإسلام عنها ، وقد نصب المنجنيق[1] على الكعبة وأضرمها بالنار ، فقال فيها على ما حكى عنه :

كيف تراه ساطعاً[2] غباره   والله فيما يزعمون جاره

وقال راميها بالمنجنيق :

قطارة مثل الفنيق المزبد   أرمى بها أعواد كل مسجد

وسفك فيها الدم الحرام ، وقتل عبد الله بن الزبير وأصحابه فى المسجد ، وكيف لم يحبس عنها القرامطة ، وقد سلبوا الكعبة ، ونزعوا حليتها وقلعوا الحجر ، وقتلوا العالم من الحاج وخيار المسلمين بحضرة الكعبة ؟

(الجواب) إن حبس الفيل فى الجاهلية كان علماً لنبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتنويهاً بذكر آبائه إذ كانوا عمار البيت وسكان الوادى فكان ذلك الصنيع إرهاصاً[3] للنبوة وحجة عليهم فى إثباتها فلو لم يقع الحبس عنها والذب عن حريمها لكان فى ذلك أمران ، أحدهما : فناء أهل الحرم وهم الآباء والأسلاف لعامة المسلمين ، ولكافة من قام به الدين . والآخر : أن الله سبحانه أراد أن يقيم به الحجة عليهم فى إثبات نبوّة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأن يجعله مقدمة لكونها وظهورها فيهم ، وكان مولد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عامئذ

---

(١) معرب من جه نيك أى ما اجودنى أو أنا شىء جيد لأنه لايجتمع الجيم والقاف فى كلمة عربية غير اسم صوت بكسر الميم كما فى القاموس وضبطه أبو منصور بفتحها الة لرمى الحجارة كالمنجنوق ومنجليق لغات فيه معربة وقيل الأقرب أنه معرب منجل نيك ومنجل مايفعل بالحيل وميمه زائدة وقيل أصلية ويدل على الأول قول بعض العرب كانت بيننا حروب عون تفقأ فيها العيون مرة بمنجنيق وأخرى بوثيق ، وقيل النون زائدة والميم أصلية وعكسه وقيل هما أصليتان وقيل زائدتان كما فصل فى التصريف كما فى شفاء العليل (٢) أى مرتفعا (٣) الارهاص : الاثبات يقال أرهص الشىء اذا أثبته وأسسه وهو مجاز ومنه ارهاص النبوة

وكانوا قوما عرباً أهل جاهلية ليست لهم بصيرة فى العلم ، ولا تقدمة فى الحكمة ، وإنما كانوا يعرفون من الأمور ما كان دركه من جهة الحس والمشاهدة ، فلو فلم يجر الأمر فى ذلك على الوجه الذى جرى لم يكن يبق فى أيديهم شىء من دلائل النبوة تقوم به الحجة عليهم فى ذلك الزمان . فأما وقد أظهر الله الدين ورفع أعلامه ، وشرح أدلته وأكثر أنصاره ، فلم يكن ما حدث عليها من ذلك الصنيع أمراً يضر بالدين ، أو يقدح فى بصائر المسلمين ، وإنما كان ما حدث منه امتحانا من الله سبحانه لعباده ليبلو فى ذلك صبرهم واجتهادهم وليقيلهم من كرامته ومغفرته ما هو أهل التفضل به ، والله يفعل ما يشاء وله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

وما ذكرناه نبذةٌ يسيرة مما كان عليه البلد الحرام ، وبقيت أبحاثٌ يضيق عنها نطاق الأرقام ، فإن أردت زيادة على ما ذكرنا فمليك (بشفاء الغرام ، باخبار البلد الحرام) لأبى الطيب محمد المكى المالكى عليه رحمة الملك العلام ، وكذلك تاريخ مكة للإمام الأزرقى عليه الرحمة فإن فيهما البغية [1] لمن أراد الوقوف التام على أحوال مكة المكرمة .

أسواق العرب قبل الجاهلية

كان للعرب أسواق يقيمونها شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها سائر العرب بما عندهم من المآثر والمفاخر . منها (دُومة الجندل) كانوا ينزلونها أول يوم من ربيع الأول يجتمعون فى أسواقها للبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وكانت المبايعة فيه ببيع الحصاة ، وهو من بيوع الجاهليـة التى أبطلها الإسلام وفسر بأن يقول أحد المتبايعين للآخر ارْمِ هـذه الحصاة فعلى أى ثوب وقعت فهو لك بدرهم ، وفسر بأن يبيعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، وفسر بأن يقبض على كف من حصى ويقول لى بعـدد ما خرج فى القبضة من الشيء المبيع أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول لى بكل حصاة

(١) بالكسر الحاجة التى تبغيها ، وضمها لغة وقيل بالكسر الهيئة بالضم الحاجة

درهم ، وفسر بأن يمسك أحدهما حصاة فى يده ويقول أى وقت سقطت الحصاة وجب البيع ، وفسر بأن يتبايعا ويقول أحدهما إذا نبذت إليك الحصاة فقد وجب البيع ، وفسر بأن يعترض القطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول أى شاة أصابتها فهى لك بكذا . وهذه الصور كلها فاسدة لما تتضمن من أكل المال بالباطل ومن الغرر والخطر الذى هو شبيه بالقمار ، ولذلك أبطلتها الشريعة . وكان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم فتقوم سوقهم إلى نصف الشهر ، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشوهم ويتولى أمرهم يومئذ بعض رؤساء بنى كلب فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر . ومنها (سوق هَجر) بفتح الهاء والجيم اسم لجميع أرض البحرين ومنه المثل « كمبضع تمر إلى هجر » . وقول عمر رضى الله تعالى عنه « عجبت لتاجر هجر » كأنه أراد لكثرة وبائه أو لركوب البحر . وسمى بهذا الاسم بلد باليمن بينه وبين (عَثْر) يوم وليلة مذكر مصروف وقد يؤنث والنسبة هجرى وهاجرى والسوق الموضع الأول كانوا ينتقلون إليها فى شهر ربيع الآخر فتقوم سوقهم بها ، وكان يعشوهم ويتولى أمرهم المنذر بن ساوى أحد بنى عبد الله بن دارم . ومنها (سوق عمان) كغراب . ذكر فى القاموس أنها بلد باليمن ويصرف وكشداد بلد بالشام ولم يذكر الموضع الذى كان سوقاً ، وهو فى أرض البحرين كانوا يرتحلون من سوق هجر فتقوم بها سوقهم إلى أواخر جمادى الأولى ، ومنها (سوق المشقّر) كمعظم حصن بالبحرين كان فيه سوق للعرب تقوم من أول يوم من جمادى الآخرة ، وكان بيعهم بالملامسة والإيماء والهمهمة خوف الحلف والكذب . والهمهمة : الكلام الخفى وكل صوت معه بحح . وبيع الملامسة على أوجه وهى : أن يأتى بثوب مطوى أو فى ظلمة فيلمسه المستام فيقول له صاحب الثوب : بعتكه بكذا بشرط أن يقوم لمسك مقام نظرك ولا خيار لك إذا رأيته . الوجه الثانى : أن يجعلا نفس اللمس بيعاً بغير صيغة زائدة . الوجه الثالث : أن يجعلا اللمس شرطاً فى قطع خيار المجلس وغيره ، وهو أيضاً من البيوع التى أبطلها

الإسلام كبيع المنابذة وهو أن يجعلا نفس النبذ بيعاً كما تقدم فى الملامسة ، أو أن يجعلا النبذ بيعاً بغير صيغة ، أوْ أن يجعلا النبذ قاطعاً للخيار ومنها (سوق صُحار) بضم الصاد المهملة تقوم لعشر يمضين من رجب الفرد خمسة أيام . ومنها (الشحر) كالمنع ساحل البحر بين عمان وعدَن ويكسر تقوم فى النصف من شعبان ، وكان بيعهم فى هذه السوق أيضاً برمى الحصاة وإلقاء الحجارة كما فى سوق دومة الجندل . ومنها (سوق عَدَن أبيْن) كانوا يرتحلون من الشحر فينزلون هذا الموضع ، وعدن جزيرة فى اليمن أقام بها (أبين) فنسبت إليه فتقوم سوقهم بها إلى أيام من رمضان فتشترى التجارات وأنواع الطيب ، ومنها (سوق صنعاء) كانوا إذا ارتحلوا من عدَن والشَّحْر تقوم سوقهم بصنعاء فى النصف من شهر رمضان إلى آخره وصنعاء من أطيب بلاد اليمن ، ومنها كان يجلب الأدَم[1] والبرود ، وكانت تجلب إليها من معافر وهو بلد كان فى اليمن ، وقد تقدم بعض الكلام على صنعاء . ومنها (سوق حضر موت) كانت تقوم فى النصف من ذى القعدة يحضرها بعض القبائل من العرب والبعض منهم يحضر سوقا أخرى تقوم فى هذه الأيام أيضاً سيأتى ذكرها . ومنها (سوق ذى المجاز) كانت بناحية عرفة إلى جانبها ، وعند الأزرقى من طريق هشام بن الكلبى أنها كانت لهذيل على فرسخ من عرفة ، ووهم هنا صاحب الصحاح فإنه قال فيه ذو المجاز موضع بمنى كان به سوق فى الجاهلية لما رواه الطبرانى عن مجاهد أنهم كانوا لايبيعون ولا يبتاعون فى الجاهلية بعرفة ولا بمنى ومنها (سوق مجنة) بفتح الميم وكسرها موضع قرب مكة ، وهو الذى عناه بلال رضى الله تعالى عنه بقوله متشوقا إليه بعد الهجرة :

وهل أردنْ يوما مياه مجنة وهل يبدونْ لى شامة وطفيل

كانت تقوم سوقهم فيها قرب أيام موسم الحج . ويحضرها كثير من قبائل

---

(١) بفتحتين وبضمتين أيضا جمع اديم وهو الجلد المدبوغ ، والبرود جمع برد بالضم وهو ثوب مخطط وكساء يلتحف به

العرب . ومنها (سوق حُبَاشة) بضم الحاء المهملة وتخفيف الموحدة وبعد ألف شين معجمة . كانت فى ديار بارق نحو (قنونا) بفتح القاف وبضم النون الخفيفة وبعد النون ألف مقصورة من مكة إلى جهة اليمن ، ولم تكن من مواسم الحج ، وإنما كانت تقام فى شهر رجب . ومنها (سوق عكاظ) بضم المهملة وتخفيف الكاف وآخر ظاء معجمة بالصرف وعدمه . قال اللحيانى : الصرف لأهلى الحجاز وعدمه لغة تميم . وهو موسم معروف للعرب بل كان من أعظم مواسمهم وأسواقهم وهو نخل فى واد بين نخلة والطائف وهو إلى الطائف أقرب بينهما عشرة أميال ، وهو وراء (قَرَن المنازل) بمرحلة من طريق صنعاء اليمن ، وكان المكان الذى يجتمعون فيه منه يقال له الابتداء ، وكانت هناك صخور يطوفون حولها ، وكانوا يتبايعون فيها ويتعاكظون[1] ويتفاخرون ويتحاجون ، وتنشد الشعراء ما تجدد لهم وقد كثر ذلك فى أشعارهم كقول حسان :

سأنشر إنْ حييتُ لهم كلاماً ينشّر فى المجامع من عُكاظِ

وفيها كان يخطب كل خطيب مِصْقَع . ومنهم قُسُّ بن ساعدة الأَيادىّ إذ خطب خطبته الشهيرة هناك وهو على جملة الأورق ، وفيها علقت القصائد السبع الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل إلى غير ذلك وكان كل شريف إنما يحضر سوق بلده إلاّ سوق عكاظ فإنهم كانوا يتوافون بها من كل جهة فكان يأتيها قريش وهوازن وسليم والأحاشيش وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب . ومن كان له أسيرٌ سعى فى فدائه ، ومن كانت له حكومة ارتفع إلى الذى يقوم بأمر الحكومة . وكان الذى يقوم بأمر الحكومة فى هذه السوق أناس من بنى تميم ، وكان أحدهم الأقرع بن حابس . ولما كانت هذه السوق مجمع القبائل قال طريف بن تميم العنبرىّ :

أو كلّما وردتْ عكاظ قبيلةٌ بعثوا إلىَّ عَرِيفَهُم يَتَوَسَّمُ[2]

---

(١) أى يتفاخرون

(٢) العريف : رئيس القوم لأنه عرف بذلك أو النقيب وهو دون

فتوسمونى إننى أنا ذلكم شاكى سلاحى فى الحوادث مُعْلَمُ (١)
تحتى الأغرُّ وفوق جلدى نثْرةٌ زَغَف تردّ السيف وهو مثلم (٢)
حولى أسيد والهجيم ومازنٌ وإذا حللت فحول بيتى خَضَّمُ (٣)
ولكل بكرىّ لدىّ عداوةٌ وأبو ربيعةَ شانئٌ ومحلّم

وطَرِيف هذا كان من مشاهير شجعان العرب وفرسانهم قتل مرة رجلا من بنى شيبان ثم حضر ذلك الموسم فأمعن فيه النظر بعض أقارب ذلك المقتول. فسأله طريف عن السبب فقال أُريد أَنْ أعرفك فلعلى أصادفك يوماً لأقتلك أو تقتلنى، فأنشد طريف تلك الأبيات . وقد صادف ذلك الرجل طريفاً فى يوم من أيامهم فقتله وأخذ منه ثار قريبه ، وكانت بعكاظ وقائع مرة بعد مرة ، ولذلك يقول دريد ابن الصمة :

تغيبتُ عن يومَىْ عُكاظَ كليْهما وإنْ يكُ يومٌ ثالثٌ أتغيَّبِ
وإن يكُ يومٌ رابع لا أكن به وإن يكُ يوم خامس أتجنّبِ

وذكر أبو عبيدة أنه كان بعكاظ أربعة أيام : يوم شمطة ويوم العبلاء ويوم شرب ويوم الحريرة ، وهى كلها من عكاظ قال : « فشمطة » من عكاظ هو الموضع الذى نزلت فيه قريش وحلفاؤها من بنى كنانة بعد يوم نخلة ، وهو أول يوم اقتتلوا فيه من أيام الفجار بِحَوْلٍ على ما تواعدت عليه مع هوازن وحلفائها من ثقيف وغيرهم فكان يوم شمطة لهوازن على كنانة وقريش ولم يقتل من قريش أحد يذكر ، واعتزلت بكر بن عبد مناة بن كنانة إلى جبل يقال له (رخم) فلم يقتل منهم أحد ، وقال خداش بن زهير :

الرئيس ، والتوسم التخيل والتفرس وانما كان يتوسمه لأن فرسان العرب اذا كان أيام عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا تقنعوا حتى لايعرفوا

(١) شاكى السلاح : ذو شوكة وحد فى سلاحه ، واعلم نفسه وسمها بسيما الحرب (٢) الزغفة وقد يحرك : الدرع اللينة الواسعة المحكمة الرقيقة الحسنة السلاسل ، درع زغف أيضا ، والنثرة : الدرع السلسة الملبس أو الواسعة (٣) خضم كبقم الجمع الكثير من الناس

فأبلغ إن بلغت به هشاماً   وعبدَ الله أبلغْ والوليدا[١]
بأنا يوم (شمطة) قد أقمنا   عمودَ الدين إنَّ له عمودا

ثم التقى الأحياء المذكورون على رأس الحول من شمطة « بالعبلاء » إلى جنب عكاظ ، فكان لهوازن أيضاً على قريش وكنانة . قال خداش بن زهير :

ألم يبلغكُمُ أنّا جَدَعنا   لدى العبلاء خِنْدفَ بالقياد
ضربناهم ببطن عكاظ حتى   تولّوا طالعينَ من النجاد

ثم التقوا على رأس الحول وهو اليوم الرابع من يوم نخلة « بشرب » وشرب من عكاظ ، ولم يكن بينهم يوم أعظم منه فحافظت قريش وكنانة وقد كان تقدم لهوازن عليهم يومان ، وقيد أبو سفيان وحرب ابنا أمية وأبو سفيان بن حرب أنفسهم وقالوا لا يبرح منا رجل مكانه حتى يموت أو يظفرَ ، فانهزمت هوازن وقيس كلها الا بنى نصر فإنها صبرت مع ثقيف ، وذلك أن (عكاظ) بلدهم لهم فيه نخل وأموال فلم يغنوا شيئاً ، ثم انهزموا وقتلت هوازن يومئذ قتلا ذريعاً . قال أمية بن أسكر الكنانى :

الاسائل هوازن يوم لاقوا   فوارسَ من كنانة معلمينا[٢]
لدى شرب وقد جاشوا وجشنا   فأوعب فى النفير بنو أبينا[٣]

وقال

قومى اللَّذُو بعكاظ طيَّروا شرراً   من روس قومك ضرباً بالمصاقيل[٤]

---

(١) حذفت نون التوكيد من أبلغن للضرورة ومثله قول الشاعر :
يا راكبا بلغ اخواننا   من كان من كندة أو وائل
وقول الآخر :
ان ابن احوص مغرور فبلغه   فى ساعديه اذا رام العلى نصر
ولا يجوز مثل هذا فى سعة الكلام الا شاذا نحو قراءة أبى جعفر المنصور الم نشرح لك صدرك بفتح الحاء

(٢) المعلم الذى أعلم نفسه أى وسمها بسيما الحرب (٣) أوعب القوم اذا حشدوا (٤) الشرر بفتحتين هواما جمع شررة وهو ماتطاير من النار وكذلك الشرار والشرارة وأما مصدر شررت يارجل بفتح الراء وكسرها شرا وشررا وشرارة من الشر نقيض الخير ، وقوله من روس ومك بحذف الهمزة

ثم التقوا على رأس الحول « بالحُرَيْرَةَ » وهى جرة إلى جنب عكاظ مما يلى مهب جنوبها فكان لهوازن على قريش وكنانة . وكانت تقوم هذه السوق فى قول أول ذى القعدة إلى عشرين منه ثم يتوجهون إلى مكة فيقفون بعرفات ويقضون مناسك الحج ثم يرجعون إلى أوطانهم . وفى قول آخر : أنهم كانوا يقيمون به جميع شوال إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة ، ولعل ذلك لاختلاف العادة فى السنين أو لاختلاف القبائل فى الإقامة فى هذا الموسم . والذى عليه صاحب قبائل العرب أنهم كانو يقيمون فى هذه السوق من نصف ذى القعدة إلى آخره فإذا أهل ذوالحجة أتوا (ذا المجاز) وهو قريب من عكاظ على ما سبق فتقوم سوقه إلى التروية وهو اليوم الثامن من ذى الحجة سمى بيوم التروية لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء لما بعد ، أو لأنَّ إبراهيم عليه السلام كان يتروى ويتفكر فى رؤياه فيه . وفى التاسع عرف وفى العاشر استعمل ثم يصيرون إلى منى وتقوم سوق (نطاة) بخيبر ونطاة عين أو حصن بخيبر . وسوق (حَجْرٍ) بفتح المهملة وسكون الجيم يوم عاشوراء إلى آخر المحرم . ولم تزل هذه الأسواق قائمة فى الإسلام إلى أن كان أول ما ترك منها سوق عكاظ فى زمن خروج الخوارج الحرورية بمكة مع المختار بن عوف سنة تسع وعشرين ومائة فنهبوها فتركت إلى الآن . واتخذت سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة وكان آخر ما ترك من الأسواق المذكورة سوق (حُباشة) فى زمن داود بن عيسى بن موسى العباسى فى سنة سبع وتسعين ومائة . والله أعلم بحقائق الأمور .

مجتمعات العرب فى جاهليتهم

أما المجتمعات فى غير هذه الأسواق فهى كثيرة الأنواع والأقسام لا يمكن استيعابها

من رؤس ، والمصاقيل جمع مصقول من الصقل وهو جلاء الحديد وتحديده أى جعله قاطعا أراد كل آلة حديد من السلاح مثل السيف والسنان وفى البيت شاهد على أن النون تحذف من اللذون

فى مثل هذا المقام . منها ما كان لمحض الأنس ، وتنشيط الأنفس ، وذكر ما سلف لهم من الحروب والوقائع ، وتناشد الشعر والقريض ونحو ذلك من الكلام الذى تبتهج له الطبائع . وهذا الحال لا يكون غالباً إلا فى الليالى ، وبعد الاستراحة واستقرار البال ، كما يدل عليه لفظ المسامرة فإن السمر هو التحدث فى الليل والمحاورة . ولله در العرب ، فقد كان لهم من دقيق الفكر ما يوجب العجب ، فإن النهار ولا سيما فى الغدو وهو وقت السعى وطلب المعاش وزمان قضاء مصلحة وتكسب وانتعاش ، وهم كانوا يسعون فيه بما لهم من المصالح والأشغال ، ولا يقضونه فى اللهو والبطالة والقيل والقال ، وهذا بعكس ما عليه أهل زماننا من قبيح العوائد ، فتراهم يقضون نفائس الأوقات فى كل ما عرى عن الفوائد ، ولذلك تأخروا فى الفضائل ، وحرموا والأمر لله تعالى من الصفات الجليلة وجميل الشمائل . وأما العرب الأولون فقد ملأوا بطون الدفاتر ، بما كان لهم من المفاخر والمآثر ، وكانوا يتحلقون إذا اجتمعوا من النادى فى طرف ، وربما كان وسط الحلقة من ينتهى إليه الشرف ، وإذا أراد أحدهم ذكر حادث غريب ، وإلقاء كلام عجيب ، قام وتلاه على القوم كما يفعل الخطيب ، وإذا حدث شخص آخر مس لحيته فى أثناء مخاطبته ، وتناولها بيده فى حال محاورته ، وذلك شكل من أشكال العرب وعادة من عاداتهم ، يفعل الرجل ذلك بصاحبه إذا حدثه ويجرى ذلك مجرى الملاطفة من بعضهم لبعض فى معتقداتهم كما نبه على ذلك الخطابى فى شرح السنن .

« ومنها » ما كان للمذاكرة والمشاورة فى تدارك حرب أو إغارة على قوم آخرين فإنهم لا يتحركون حركة فى ذلك إلا بعد أن يجتمع أهل الحل والعقد فى محل مخصوص كقبة ينصبها لهم من تكفل بأمرها لأجل ذلك كما أشرنا إليه سابقاً ، وعند الاجتماع تدور بينهم أقداح المذاكرة فما يستقر عليه الرأى يعمل بموجبه ولا يتخلف أحد عنه . « ومنها » ما كان لأجل الحكومة وفصل الدعاوى والمنازعات التى كانت تقع بينهم كما كانوا يجتمعون فى دار الندوة وهى دار قُصىّ

ابن كلاب وهو الذى بناها وجعل بابها إلى مسجد الـكعبة ، وفيها كانت قريش تقضى أمورها تيمناً بأمر قصىّ ، فما تنكح امرأةٌ ولا يتزوج رجل من قريش ولا يتشاورون فى أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا فيها يعقده لهم بعض ولد قصىّ ، وما تدرع جارية من قريش إذا بلغت أن تدرع إلا فى داره يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها . وكان لا يعذر غلام إلا فيها[1] ، ولا تفصل خصومة بينهم إلا هناك . قال الـكلبى : وهى أول دار بنيت بمكة ثم تتابع الناس فبنوا من الدور ما استوطنوه ، وكلما قربوا من عصر الإسلام ازدادوا قوةً وكثرة عددٍ حتى دانت لهم العرب وصار أمر قصى فى قريش كالدين المتبع . وسميت الندوة لأنهم كانوا ينتدون فيها أى يجتمعون للخير والشر . وفى القاموس النـادى والندوة والمنتدى مجلس القوم نهـاراً أو المجلس ما داموا مجتمعين فيـه . وكانت لقريش أندية حول الـكعبة يجتمعون فيها كما فى السيرة الهشامية ويتذاكرون فى أمور تخصهم . وكان عبد المطلب يجلس فى ظل الـكعبة على فراش معد له لا يجلس عليه أحـد غيره احتراماً له وإجلالا لقدره . وكان رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم يجلس وهو صغير بجنب جده ولا يدع أحداً يمنعه . وكان يقول : سيكون لابنى هذا شأن فـكان كما قال بل فوق ما كان يتصوره ويرجوه .

« ومنها » ما كان لطلب مثوبة واتعاظ بوعظ كما كانت قريش فى الجاهلية تجتمع إلى كعب بن لؤى بن غالب وهو جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم السابع فى كل جمعـة فيخطب فيه على قريش فيقول على ما حـكاه الزبير بن بكار : أما بعد فاسمعوا وافهموا وتعلموا واعلموا . ليلٌ داج[2] ونهار صاح ، والأرض مهاد ، والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعـلام ، والأولون كالآخرين ،

---

(١) عذر الغلام والجارية من باب ضرب ختنه فهو معذور وأعذرته بالألف لغة

(٢) أى مظلم

فصلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم ، فهل رأيتم من هالك رجع أو ميت انتشر ، والدار أمامكم ، والظن غير ما تقولون . وكان يذكرهم بمبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويعلمهم بأنه من ولده ويأمرهم باتباعه ، ويقول : زينوا حرمكم وعظموه ، فسيأتى له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم ، ثم ينشد :

نهارٌ وليل كل أَوْبٍ تجاذب   سواءٌ علينا ليل ونهارُها

يئوبان بالأحداث حينَ تأوبا   وبالنعم الضافى علينا ستورُها

صروف وأبناء تقلب أهلها   لها عقدٌ ما يستحل مريرها

على غفلةٍ يأتى النبي محمدٌ   فيخبر أخباراً صدوقا خبيرها

ثم يقول : أما والله لئن كنت فيها ذا سمع وبصر ويد ورجل لتنصبت فيها تنصب الجمل ، ولأرقلت فيها أرقال[1] الفحل ، ثم يقول :

يا ليتنى شاهد فحواءَ دعوته   حين العشيرة تبغى الحقَّ خذلانا

وهـذا من فطن الإلهامات التى تخيلتها العقول فصدقت ، وتصورتها النفوس فتحققت ، ويقال : هو الذى سمى يوم العَرُوبة يوم الجمعة . وهو أول من نقلها إلى ماهو المتداول ، لاجتماع الناس إليه فى كل جمعة . وقد كانت العرب العاربة تسمى أيام الأسبوع بأسماء غير هذه الأسماء المتداولة بين الناس اليوم . وكانوا يسمون الأحد أول ، والإثنين أهون ، والثلاثاء جباراً ، والأربعاء دباراً ، والخميس مونسا ، والجمعة ماسبق ، والسبت شِياراً ، ويقال فى أهون أوهن وأوهد وفى شيار الفتح والكسر ، وقد نظم ذلك بعضهم بقوله :

أؤمّلُ أن أعيش وأَنَّ يومى   بأوّلَ أو بأهونَ أو جبار

أو التالى دبار فإن أفته   فمونس فالعَروبة أو شـيار

أى إنى أؤمل البقاء فى الدنيا والعيش فيها ، ولابد من الموت فى يوم من هذه

---

(١) هو ضرب سريع من السير .

الأيام ولا محالة وهذا سفه من الرأى ، فينبغى للحازم أن لا يؤمل البقاء وكل يوم من أيام الأسبوع محتمل أن يكون غاية الأجل وللعمر فيه ختام وانقضاء . وكذلك وضعت العرب لساعات النهار والليل أسماء غير ما هو المتعارف ، وهى الذرور ثم البزوغ ثم الضحى ثم الغزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم الدلوك ثم العصر ثم الأصيل ثم الصبوب ثم الحدود ثم الغروب ويقال فيها أيضاً البكور ثم الشروق ثم الإشراق ثم الراد ثم الضحى ثم المتوع ثم الهاجرة ثم الأصيل ثم العصر ثم الطفل ثم العشى ثم الغروب ، ذكر هاتين الروايتين ابن النحاس فى كتابه الذى سماه (صناعة الكتاب) . ويقال : إن أول من قسم النهار اثنتى عشرة ساعة آدم عليه السلام : وضمن ذلك وصيته لابنه شيث عليه السلام وعرفه ما وظف عليه فى كل ساعة من عمل وعبادة . وأما ساعات الليل فهى الشاهد ثم الغسق ثم العتمة ثم الفحمة ثم الموهن ثم القطع ثم الجوسر ثم العبكة ثم التباشير ثم الفجر الأول ثم المعترض ثم الإسفار . وفى كتب اللغة أسماء أخر لساعات الليل والنهار فلتراجع . وكذلك كانوا يسمون الأشهر بأسماء غير ما نعلمها اليوم وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى فى الكلام على النسىء ، وقيل فى سبب تسمية يوم العروبة بيوم الجمعة أن الأنصار قالوا لليهود يوم يجتمعون فيه بعد كل ستة أيام وللنصارى كذلك فهلموا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه نذكر الله تعالى ونصلى ، فقالوا : يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه ، فأنزل الله تعالى سورة الجمعة فهى أول جمعة كانت فى الإسلام . وأما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهى أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل على قبيلة بنى عمرو بن عوف ، وأقام عندهم يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وانتبش مسجدهم . ثم خرج يوم الجمعة قاصداً المدينة فأدركته الصلاة فى بنى سالم بن عوف فى بطن واد لهم فخطب وصلى بهم الجمعة . وحكى السهيلى فى كتاب شرح السيرة النبوية : أن يوم الجمعة كان

يسمى بهذا الاسم قبل أن تصلى الأنصار الجمعة وأنه لما كان اليوم الذى جمع فيه خلق آدم عليه السلام سمى بهذا الاسم . قال أهل اللغة : السبت القطع ، ومنه يوم السبت لانقطاع خلق الأشياء فيه . وحكى أيضاً أن هذه الأسماء المتداولة مروية عن أهل الكتاب وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن الناس لم يكونوا يعرفون ذلك إلا الأسماء التى وضعتها العرب العاربة والأسماء التى وضعتها السريان وهى (أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت) ، ولم يذكروا سابعاً وذكروا أنها أسماء الأيام التى حتى خلق الله تعالى فيها سائر المخلوقات علويها وسفليها . وهذا القول مذكور فى كتاب ابن النحاس أيضاً وكأن السهيلى نقله منه .

« ومنها » ما كان لحلف وعقد معاهدة كما اجتمعت قريش فى الجاهلية حين كثر فيهم الزعماء وانتشرت فيهم الرياسة وشاهدوا من التغالب والتجاذب مالم يكفهم عنه سلطان قاهر فعقدوا حلفا على رد المظالم ، وإنصاف المظلوم من الظالم . وكان سببه ما حكاه الزبير بن بكار : أن رجلا من اليمن من بنى زبيد قدم مكة معتمراً ببضاعة فاشتراها منه رجل من بنى سهم ، وقيل إنه العاص بن وائل فلوى الرجلَ بحقه فسأله ماله أو متاعه فامتنع عليه فقام على الحجر ، وأنشد بأعلى صوته :

يال قصىّ(١) لمظلوم بضاعته   ببطن مكةَ نائى الدار والنفر

وأشعث محرم لم تقض حرمته   بين المقام وبين الحجْر والحَجَر

أقائمٌ من بنى سهم بذمتهم   أو ذاهبٌ فى ضلال مالُ معتمر

ثم إن قيس بن شيبة السلمى باع متاعا على أبىّ بن خلف فلواه وذهب بحقه فاستجار برجل من بنى جمح فلم يجره ، فقال قيس :

يالَ قصىٍّ كيفَ هذا فى الحَرَمْ   وحرمة البيت وأحلاف الكرمْ

أظلم من لايمنع عنى الظلم

فأجابه العباس بن مرداس السلمى(٢) :

---

(١) ويروى عنه ياآل فهر . (٢) جده أبو عامر بن حارثة احد بنى سليم

إن كانَ جارُكَ لم ينفعك ذمتهُ ... وقد شربت بكأس الذل أنفاسا
فأتِ البيوتَ وكن من أهلها صددا ... لاتلق تأديبهم فحشاً ولا باسا
ومن يكن بفناء البيت معتصما ... يَلْقَ ابن حربٍ ويلقَ المرء عباسا
قومى قريش بأخلاق مكملة ... بالمجد والحزم ماعاشا وما ساسا
ساق الحجيج وهذا ناشر فلج ... والمجد يورث أخماسا وأسداسا

فقام أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب فرد عليه ماله ، واجتمعت بطون قريش فتحالفوا فى دار عبد الله بن جُدْعان على رد المظالم بمكة وأن لا يظلم أحد إلاّ منعوه وأخذوا للمظلوم حقه ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يومئذ معهم قبل النبوة ، وكان إذ ذاك ابن خمس وعشرين سنة فعقدوا حلف الفضول فى دار ابن جدعان فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذاكراً للحال : لقد شَهدت فى دار عبد الله بن جُدْعان حلف الفضول ما أحب أنْ لى به حمر النعم ولو أدعى إليه فى الإسلام لأجبت . وأَتَى بقصته وما يزيده الإسلام إلا شدة ، فقال بعض قريش فى هذا الحلف :

تيمَ بنَ مرةَ إن سألتَ وهاشما ... وزهرةَ الخير فى دار ابن جُدْعان
متحالفين على الندى ما غرّدت ... ورقاء فى فَنَنٍ من جَذع كُتمان

وهذا وإن كان فعلا جاهلياً دعتهم إليه السياسة فقد صار بحضور رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم له وما قاله فى تأكيد أمره حكما شرعياً ، وفعلا نبوياً ، وكما اجتمعوا على الحلف الشهير (بحلف المطيبين) وقد مرت الإشارة إليه عند الكلام على مكة شرفها الله تعالى . وهو على مافى السيرة الهشامية نقلا عن ابن إسحق : أن قصىّ بن كلاب لما هلك أقام أمره فى قومه وفى غيرهم بنوه من بعده فاختطوا مكة رباعا بعد الذى كان قطع لقومه بها . فكانوا يقطعونها فى قومهم

ابن منصور وأمه الخنساء الشاعرة بنت عمرو بن الشريد وكان العباس فارسا شاعرا مخضرما شديد العارضة والبيان سيدا فى قومه من كلا طرفيه وفد الى النبى (ص) وأسلم وكان من المؤلفة قلوبهم ثم حسن اسلامه .

وفى غيرهم من حلفائهم ويبيمونهم فأقامت على ذلك قريش معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع ، ثم إن بنى عبد مناف بن قصى بن عبد شمس وهاشما والمطلب ونوفلا أجمعوا على أن يأخذوا مابأيدى بنى عبد الدار قصىّ مما كان قصى جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم يرون أنّهم أحق من بنى الداز لمكانهم فى قومهم . وكانت طائفة مع بنى عبد الدار يرون أن لاينزع منهم ماكان قصىّ جعل إليهم فكان صاحب أمر بنى عبد مناف عبد شمس بن عبد مناف ، وكان صاحب بنى عبد الدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وكان بنو أسد ابن عبد العزى بن قصى . وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة بن كعب وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر مع بنى عبد مناف ، وكان بنو مخزوم ابن يقظة بن مرة ، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص كعب ، وبنو جمح بن عمرو ابن هصيص بن كعب ، وبنو عدى بن كعب مع بنى عبد الدار ، وخرحت عامر ابن لؤى ومحارب بن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين . فعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً مابلّ بحر صوفه[1] ، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فيزعمون أن بعض نساء بنى عبد مناف أخرجتّها لهم فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم

---

(١) هذا من الابديات لامن الامثال كما زعم بعضهم وحكى اللحيانى مابل البحر صوفة والظاهر ان هاء صوفة فيه للتأنيث كهاء تمرة وأن المراد بذلك القطعة من الصوف المعروف وذكر بعض أهل اللغة انه يحتمل ان تكون الهاء هاء الضمير وحمل صوف البحر على شيء يكون فيه يشبه الصوف المعروف من وجهويسمى سحاب البحروغمامة والزبد الطرى وقيل هوالطحلب ويسمى غزل الماء كما قال الطبيب داود الضرير ورجح الأول بأن السفنج المتبادر منه البحر المالح بخلاف الطحلب فانه يكون فى مناقع الماء مطلقا فالأوفق بالاضافة فى صوف البحر ارادة ما كان مختصا وبأن شبه السفنج للصوف الحيوانى اقوى من شبه الطحلب له ، والا ظهر أن الهاء للتأنيث والصوفة قطعة من الصوف المعروف .

فسموا المطيبين . وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدواهم وحلفاؤهم عند الـكعبة حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً فسموا الأحلاف . ثم سوند بين القبائل ولزم بعضها ببعض فعبيت بنو عبد مناف لبنى سهم ، وعبيت بنو أسد لبنى عبد الدار ، وعبيت زهرة لبنى جمح ، وعبيت بنو تيم لبنى مخزوم وعبيت بنو الحارث بن فهر لبنى عدىّ بن كعب . ثم قالوا لتفز كل قبيلة من أسند إليها فبينا النـاس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة وأن تـكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك وتحاجز النـاس عن الحرب وثبت كل قوم مع من حالفوا فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما كان من حلف فى الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلاشدة . وبقى لهم اجتماعات كثيرة مذكورة فى كتب السير والتواريخ

***

الـكلام على مفاخرات العرب فى الجاهلية ومنافراتهم

اعلم أن الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان . وفى القاموس : الفخر والفخار والفخارة بفتح الفاء التمدح بالخصال كالافتخار ، وتفاخر القوم فخر بعضهم على بعض ، وفاخرهم مفاخرة وفخارة عارضه بالفخر ففخره كنصره غلبه ، وفخره عليه كمنع فضله عليه فى الفخر كأفخره عليه . والمفخرة وتضم ما فخر به انتهى. والفخر نهاية الحمق عند من نظر بعين عقله ، وانحسر عنه قناع جهله . وقد أبطلته الشريعة المحمدية ، ونهت عن تعاطيه بالـكلية ، فإن أعراض الدنيا عارية مستردة لايؤمن كل ساعة أن ترجع . فالمباهى بها مباهٍ بغير ثراه ، ومتبجح بمـا فى نظر سواه ، كالفاجرة تَبَجَّحُ بزّيها بل هو دون ذلك ، فقـد قال بعض الحـكماء لمثر يفتخر بثرائه : إن افتخرت بفرسك فالحسن والفراهة له دونك ، وإن افتخرت بآبائك فالفضل فيهم لافيك ، ولو تكلمتْ هذه الأشياء لقالت هذه محاسننا فمالك

من الحسن ؟ وأيضاً فالأعراض الدنيوية سحابة صيف عن قليل تقشع ، وظل زائل عن قليل يضمحل ، كما قال الشاعر :

إنما الدنيا كرؤيا فرّحتْ   من رآها ساعة ثم انقضت

بل كما قال الله عز وجل « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض » . فإن افتخرتَ فافتخر بمعرفة غير خارجة عنك ، وإذا أعجبك من الدنيا شيء فاذكر فناءك وبقاءه ، أو بقاءك وزواله أو فناءكما جميعاً ، فإذا أرابك ما هو لك ، فانظر إلى قرب خروجه من يدك ، وبعد رجوعه إليك ، وطول حسابك عليه ، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر . وقد ذم الله تعالى الفخور ، بقوله « والله لا يحبُّ كل مختال فخور » وتفاخر حيان من قريش بنو عدنان وبنو سهم وتكاثروا بالسيادة والإشراف بالإسلام فقال كل حيّ منهم : نحن أكثر سيداً ، وأعظم رجالا ، وأكثر قائداً ، فإن التكاثر التفاعل فيكون من اثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه أنا أكثر منك مالا وأعزُّ نفراً فكثر بنو عبد مناف بنى سهم ، ثم تكاثروا بالأموات فكثرتهم بهم فنزل « أَلْهٰكمُ التكاثر حتى زرتم المقابر » قاله الكلبى . وعن أبى بردة : أنها نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار : فى بنى حارثة وبنى الحارث ، تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان وفلان . وقال الآخرون مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ثم قالوا انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله تعالى « أَلْهٰكمُ التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » ردع وزجر لهم وتنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة وفيه وعيد شديد ، وفى ذلك دليل على أن الاشتغال بالدنيا والمكاثرة بها والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة . والعرب لم يكن لهم فى الجاهلية من يردعهم ويكفهم عن سفاسف الأمور وذميم الأخلاق فإنهم كانوا فى زمان فترة من الرسل والأنبياء فلم يكن لهم وقوف على غايات الأمور

والعواقب المحمودة وما يترتب عليه الثواب والعقاب من الفعل الحسن والقبيح ، وكان غالب مفاخراتهم بالشجاعة والكرم والوفاء ونحو ذلك ، وها أنا ذاكر من مفاخراتهم ومنافراتهم لُمَعاً لأنى لو تقصيت ذلك لأفنيت العمر دون الجزء الذى لايتجزى منه قلة ، فأقول : نقل عن أبى عبيدة أنه قدم على النعمان بن المنذر وفود ربيعة ومضر ابنى نزار ، فكان فيمن قدم عليه من وفود ربيعة بسطام ابن قيس والحوفزان بن شريك البكران . وفيمن قدم عليه من وفد مضر من قيس ابن عيلان عامر بن مالك وعامر بن الطفيل . ومن تميم قيس بن عاصم والأقرع بن حابس فلما انتهوا إلى النعمان أكرمهم وحباهم ، وكان يتخذ للوفود عند انصرافهم مجلساً يطعم فيه معهم ويشرب ، وكان إذا وضع الشراب سقى النعمان فمن بدىء به على أثره فهو أفضل الوفد فلما شرب النعمان قامت القينة تنظر إلى النعمان مَن الذى يأمرها أن تسقيه وتفضله من الوفد فنظر فى وجهها ساعة ثم أطرق ثم رفع رأسه وأنشأ يقول :

اسق وفودك مما كنت ساقيتى ... وابدى بكأس ابن ذى الجدَّيْن بسطام
أغرَّ يَنْميه من شيبانَ ذو أنف ... حامى الذمارِ وعن أعراضها رام
قد كان قيس بن مسعود ووالده ... تبدا الملوك به أيام أيام
فارضوا بما فعل النعمانُ فى مُضَرٍ ... وفى ربيعةَ من تعظيم أقوام
هم الجماجِمُ والأذناب غيرهُمُ ... فارضوا بذلك أو بُوءوا بإرغام

فقال عامر بن الطفيل :

كان التتابع فى دهر لهم سلف ... وابن المُرارِ وأملاك على الشام
حتى انتهى الملك من لَخْمٍ إلى ملك ... بادى السنان لمن لم يرمه رام
أنحى علينا بأظفار فطوّقنا ... طوقَ الحمام بإتعاس وإرغام
إن يمكن الله فى يومٍ يشاء به ... نتركك وحدَك تدعو رَهْطَ بسطام
فانظر إلى الصيد لم يحموك من مضر ... هل فى ربيعةَ إن لم تدعنا حام

فأجابه بسطام بن قيس فقال :

لعمرى لئن صحت تميمٌ وعامرٌ لقد كنت قِدْماً فى حلوقهم شَجَا
أرونى كمسعودٍ وقيس وخالد وعمرو وعبد الله ذى الباع والنَّدَى
فكانوا على افناء بكر بن وائل ربيعاً إذا ما سال سائلهم جدا
وسرتُ على آثارهم غير تارك وصيتهم حتى انتهيت إلى المدى

« وروى عن ابن الكلبى » أنه قال : قال كسرى للنعمان بن المنذر يوما : هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة ، قال : نعم ، قال فبأى شىء ؟ قال: من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ، ثم اتصل ذلك بكمال رابع فالبيت من قبيلته فيه وتنسب إليه . قال : فاطلب ذلك فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حذيفة بن بدر وآل ذى الجدين وآل الأشعث بن قيس ين كندة فجمع الجميع ومن معهم من عشائرهم وأقعد لهم الحكام والعدول وقال : ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قومه وليصدق ، فكان حذيفة بن بدر أول متكلم ، وكان ألسنَ القوم ، فقال : قد علمت العرب أن فينا الشرفَ الأقْدَم ، والعزَّ الأعظم ، ومآثر للصنيع الأكرم . فقال من حوله : ولم ذاك يا أخا فزارة ؟ قال . ألسنا الدعائم التى لاترام ، والعز الذى لايضام ؟ قيل له : صدقت . ثم قام شاعرهم فقال .

فزَارةُ بيت العز والعز فيهمُ فزارة قيس حسب قيس نضالها
لها العزة القعساء والحسب الذى بناه لقيسٍ فى القديم رجالها
فمن ذَا إذا مد الأكف إلى العلا يمد بأخرى مثلنا فينالها
فهيهاتَ قد أعيا القرونَ التى مضت مآثرُ قيس مجدُها وفعالها
وهل أحدٌ إنْ مدَّ يوما بكفه إلى الشمس فى مجرى النجوم ينالها
فإن يصلحوا يصلح لذاك جميعنا وإن يفسدوا يفسدْ على الناس حالهُا

ثم قام الأشعث بن قيس وإنما أذن له أن يقوم قبل ربيعة وتميم لقرابته بالنعمان ، فقال : لقد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر ، وقديم زحفها الأكبر ، وأنا

غياث اللَزْبات(١) . فقالوا : لم يا أخا كندة ؟ قال . لأنا ورثنا ملك كندة فاستظللنا بأفيائه ، وتقلدنا منكبه الأعظم ، وتوسطنا بحبوبه(٢) الأكرم ، ثم قام شاعرهم فقال

إذا قستَ أبيات الرجال ببيتنا   وجدت له فضلا على من يفاخر
فمن قال . كلا أو أتانا بخطةٍ   ينافرنا يوماً فنحن نخاطر
تعالوْا فعُدُّوا يعلم الناس أيُّنا   له الفضلُ فيما أورثته الأكابر

ثم قام بسطام بن قيس فقال . قد علمت العرب أنا بُناةُ بيتها الذى لا يزول ، ومغرس عزها الذى لا يحول . قالوا . ولم يا أخا شيبان ؟ قال . لأنا أدركهم للثأر ، وأضربهم للملك الجبار ، وأقولهم للحق ، وألدهم للخصم . ثم قام شاعرهم فقال :

لعَمْرِى بسطام أحقُّ بفضلها   وأول بيت العز عز القبائل
فسائل أبيت اللعن عن عزقومها   إذا جدَّ يوم الفخرِ كلُّ مناصل
فيخبرك الأقوام عنها فإنها   وقائع ليست نُهْزَةَ للقبائل
ألسنا أعز الناس قوماً وأسرة   وأضربهم للكبش بين القبائل(٣)
وقائع عز كلها رَبَعِيَّةٌ   تذل لهم فيها رقاب المحافل
إذا ذكرت لم ينكر الناس فضلها   وعاذ بها من شرها كلُّ قائل
وأنا ملوك الناس فى كل بلدة   إذا نزلت بالناس إحدى النوازل

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى فقال . قد علمت العرب أنا فرع دعامتها ، وقادة زحفها . قالوا . ولم ذاك يا أخا بنى تميم ؟ قال . لأنا أكثر الناس عديداً ، وأنجبهم طراً وليداً ، وأعطاهم للجزيل ، وأحملهم للثقيل . ثم قام شاعرهم فقال :

ولقد علمت أبناء خِنْدَف أننا   لنا العزُّ قدماً فى الخطوب الأوائل
وأنا كرام أهل مجد وثروة   وعز قديم ليس بالمتضائل
فكم فيهم من سيد وابن سيد   أغر نجيب ذى فعال ونائل

---

(١) لزبات بالتسكين جمع لزبة وهى الشدة . (٢) بحبوحة الشىء وسطه
(٣) الكبش : سيد القوم وقائدهم .

فسائل أبيتَ اللعنَ عنا فإننا دعائم هذا الناس عند الجلائل

ثم قام قيس بن عاصم السعدى فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم فى المكرمات دعائم ، وأثبتهم فى النائبات مقادم . قالوا : ولِمَ ذاك يا أخا بنى سعد ؟ قال : لأنا أدركهم للثأر ، وأمنعهم للجار ، وأنا لا ننكل إذا حملنا ، ولا نرام إذا حللنا . ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمت قيسٌ وخِنْدَفُ أننا وجل تميم والجموع التى ترى
بأنا عماد فى الأمور وأننا لناالشرف الضخم المركب فى الندى
وأنا ليوث البأس فى كل مأزق إذا جزّ بالبيض الجماجم والكلا
وأنا إذا داعٍ دعانا لنجدة أجبنا سراعاً فى العلائم من دعا
فمن ذا ليوم الفخر يعدل عاصماً وقيساً إذا مدالأكف إلى العلا ؟
فهيهاتَ قد أعيا الجميعَ فعالُهم وفاتوا بيوم الفخر مسعاةَ من سعى

فقال كسرى حينئذ ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى حباءهم ، وأعظم صلاتهم « وافتخر » رجلان بباب معاوية بن أبى سفيان أحدهما من بنى شيبان والآخر من بنى عامر بن صعصعة . فقال العامرى : أنا أعد لك عشرة من بنى عامر ، فعد علىّ عشرة من بنى شيبان . فقال الشيبانى هات إذا شئت . فقال العامرى : خذ عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، والطفيل بن مالك قائد هوازن ، وفارس قردل ، ومعاوية بن مالك معوّذ الحكماء ، وربيعة بن مالك فارس ذى علق ، وعامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة وعتبة بن سنان ، ويزيد ابن الصعق وأربد بن قيس وهو أربد الحتوف . فقال الشيبانى . خذ قيس بن مسعود رهينة بكر بن وائل ، وهانئ ابن قبيصة أمين النعمان بن المنذر ، وقبيصة ابن مسعود وافد المنذر ، ومفروق ابن عمرو[1] حاضن الأيتام ، وسنان بن مفروق ضامن الدمن ، والأصم عمرو بن قيس صاحب روس بنى تميم ، وعمران ابن مرة الذى أسر يزيد بن الصعق مرتين ، وعوف ابن النعمان . فقال معاوية :

(١) وسيأتى قريبا : مفروق بن عمران فانظر أيهما أصوب .

عامر أفخر هوازن ، وشيبان أفخر بكر بن وائل ، وقد كفاكما الله المؤنة . هذان رجلان من غير قومكما عندى يحكمان بينكما . عدىّ بن حاتم . وشريك بن الأعور الحارثى . ثم قال معاوية للشيبانى . من تعبأ لعامر بن مالك . قال أصم بن أبى ربيعة : الذى قتل من تميم مائة رجل على دم . فقال معاوية للرجلين : ما تقولان ؟ قالا : رجح الأصم على عامر بن مالك . قال معاوية : فمن تعبأ لعامر بن الطفيل قال الشيبانى : الحوفزان بن شريك . فقال الحكمان : رجح الحوفزان . قال : فمن تعبأ لعلقمة بن علاثة ؟ قال الشيبانى : بسطام بن قيس . فنظر معاوية إلى الحكمين فقالا : رجح بسطام بن قيس . قال معاوية : فمن تعبأ لعتبة بن سنان ؟ فقال الشيبانى : معروق بن عمران بن مرة . فقالا له : رجح مفروق . قال معاوية : فمن تعبأ للطفيل بن مالك ؟ قال الشيبانى : عمران ابن مرة . فقالا رجح عمران بن مرة . قال فمن تعبأ لمعاوية بن مالك ؟ قال الشيبانى عوف بن النعمان . فقالا : رجح عوف بن النعمان . قال فمن تعبأ لعوف بن الأحوص ؟ قال قبيصة بن مسعود . فقالا . رجح قبيصة . قال فمن تعبأ لربيعة بن مالك ؟ قال : هانىء بن قبيصة . قال معاوية : فمن تعبأ ليزيد بن الصعق ، قال : سنان بن مفروق . قال فمن تعبأ لأربد بن قيس ؟ قال الأسود بن شريك . فقال معاوية للشيبانى : فأين نسيب قيس بن مسعود ؟ قال : أصلحك الله ليس من هذه الطبقة فإنهم قيس مجداً وطولا فقال العامرى فى ذلك :

أعــدّ إذا عددت أبا براء ... وكان علا على الأقوام فضلا

وكان الجعفرىّ أبو علىّ ... إذا ما هاجت الهيجاء علّا

ووالده الذى حدثت عنه ... طفيلٌ خيرنا يفَعا وكَهلْا

وكان معوّذ الحكما المبارى ... رياح الصيف أعلى القوم فعلا

وقد أورتْ زناد أبى لبيد ... ربيعة يوم ذى علق فأبلا

وعلقمة بن الأحوص كان كهفا ... كلابياً رحيبَ الباع سهلا

وعتبة والأغــرّ يزيد إنى رأيتهما لـكل الفخر أهلا
وعوفا ثم أَرْبدَ ذا المعـالى كفى بهما عليك ندى وبذلا
أولئك من كلاب فى ذُراها وخير قُرومها حَسَباً ونُبْلا

فقال الشيبانى مجيباً له :

أعدّ إذا عددت أبا خفافٍ وعمرانَ بن مُرَّةَ والأصمّا
وهانينا الذى حدثت عنه وكان قبيصة الأنف الأشمـا
ومفروقاً وذا النجدات عوفاً وبسطاما ووالده الخضّما
وأسود كان خيرينى شريك ولم يكُ قرنه كبشاً أجمّا
أولئك من عكابةَ خير بكر وأكرم من يليك أباً وأمّا
وأفضل من ينص إلى المعالى إذا ما حصلوا خالاً وعمّا
وأكثر قومهم بالشر طوقاً وأبعد قومهم فى الخير همّا

فقال معاوية للحكمين : ما تقولان ؟ قالا : شيبان أكرم الحيين . فقال معاوية : وذاك قولى فأكرمهما وحباها ، وفضل الشيبانى على العامرى .

ومن حديث ذى الجدين

أن الملك النعمان قال : لأعطينّ أفضل العرب مائةً من الإبل فلما أصبح الناس اجتمعوا لذلك ولم يك ابن مسعود فيهم وأراده قومه على أن ينطلق فقال لا لئن كان يريد بها غيرى لا أشهد ذلك وإن كان يريدنى بها لأعطينها . فلما رأى النعمان اجتماع الناس قال : ليس صاحبها شاهداً . فلما كان من الغد ، قال له قومه : انطلق فانطلق . فدفعها الملك إليه . فقال حاجب بن زرارة أبيت اللعن ما هو بأحق بها منى . فقال قيس بن مسعود : أنافره عن أكرمنا قعيدةً ، وأحسننا أدب ناقة وأكرم لئيم قوم . فبعث معهما النعمان من ينظر فى ذلك ، فلما انتهيا إلى بادية حاجب بن زرارة مروا على رجل من قومه فقال حاجب : هذا ألأمُ قومى وهو

فلان بن فلان والرجل عند حوضه يورد إبله فأقبلوا إليه فقالا : ياعبد الله دعنا فلنستق فإنا قد هلكنا عطشا وأهلكنا ظهورنا فتجهم وأبى عليهم فلما أعياهم قالوا لحاجب أسفر فسفر ، فقال : أنا حاجب بن زرارة فدعنا فلنشرب . قال : أنت ؟ فلا مرحبا بك ولا أهلا فأتوا بيته فقالوا لامرأته هل من منزل يا أَمَةَ الله ؟ قالت : والله مارب المنزل شاهد أو ما عندنا من منزل وأرادوها على ذلك فأبت ثم أتوا رجلا من بكر بن وائل على ماء يورد فقال قيس : هذا والله ألأمُ قومى فلما وقفوا عليه قالوا مثل ما قالوا للآخر فأبى عليهم وهمَّ أن يضربهم . فقال له قيس ابن مسعود : ويلك أنا قيس بن مسعود فقال له : مرحباً وأهلا أوردْ . ثم أتوا بيته فوجدوا فيه امرأته قدرها تَغِطُّ[١] فلما رأتِ الركب من بعيد أنزلت القدر وتردت ، فلما انتهوا إليها قالوا : هل عندك يا أَمَةَ الله منزل ؟ قالت : نعم انزلوا فى الرحب والسعة فلما نزلوا وطعموا وارتحلوا أخذوا ناقتيهما فأناخوهما على قريتين للنمل ، فأما ناقة قيس بن مسعود فتضورت[٢] وتقلبت ثم لم تَثُرْ[٣] . وأما ناقة حاجب فمكثت وثبتت حتى إذا قالوا قد اطمأنت طفقت هاربةً ، فأتوا الملك فأخبروه بذلك فقال له قد كنت ياقيس ذا جدّ فأنت اليوم ذو جدين ، فبذلك سمى ذا الجدين . وقيل : إنما سمى بذلك لأسيرين أسرهما مرتين . وقيل بل سبق فى سبقين هكذا جاءت الرواية . والذى أعرف أنا أن ذا الجدين إنما هو عبد الله بن عمرو بن الحارث بن همام سمى بذلك لأنه اشترى كعب بن مامة من أيدى قوم عَنَزِيّين وكتم نفسه وعرفه عبد الله أنه لم يشتره إلا عن معرفة فوهبه كل ما لقى فى طريقه من إبل أبيه بعبدانها وكانت سوداً وحمراً وصهباً ، وبلغ به إلى أبيه ، فأجاز له ذلك وأعطاه قبته بما فيها ، فلما أتى الحيرة قال بعض من رآه لصاحبه : أنه لذو جد . قال الآخر : بل هو ذو جدين فسمى بذلك .

---

(١) أى تصوت وذلك عند اشتداد غليانها. (٢) التضوُّر : الصياح والتلوى عند الضرب أو الجوع . (٣) من ثار يثور .

مفاخرة يمن ومضر

قال الأبرش الكلبي لخالد بن صفوان : هلمَّ أفاخرك وهما عند هشام بن عبد الملك فقال له خالد : قل ، فقال الأبرش : لنا ربع البيت يريد الركن اليماني ، ومنا حاتم طيّء ، ومنا المهلب ابن أبي صفرة . قال خالد بن صفوان : منا النبي المرسل ، وفينا الكتاب المنزل ، ولنا الخليفة المؤمل . قال الأبرش : لافاخرت مضريا بعدك .

ونزل بأبي العباس قوم من اليمن من أخواله من كلب ففخروا عنده بقديمهم وحديثهم فقال هشام لخالد بن صفوان : أَجِبِ القوم فقال : أخوال أمير المؤمنين . قال : لابد أن تقول قال : وما أقول لقوم يا أمير المؤمنين هم بين حائك بُرْد ، وسائس قِرَد ، ودابغ جلد ، دل عليهم هُدْهُد ، وملكتهم امرأة ، وغرقتهم فأرة ، فلم يثبت لهم بعدها قائمة .

* * *

مفاخرة الأوس والخزرج

تفاخرت الأوس والخزرج فقالت الأوس : منـا غسيل الملائكة حنظلة ابن الراهب ، ومنا عاصم بن الأفلح الذى حمت لحمه الدبر[1] ، ومنا ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت ، ومنا الذى اهتز لموته العرش سعد بن معاذ . قالت الخزرج : منا أربعة قرءوا القرآنَ على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقرأه غيرهم زيد بن ثابت وأبو زيد ومعاذ بن جبل وأُبَيٌّ بن كعب سيد القراء ، ومنا الذى أيده الله بروح القدس فى شعره حسان بن ثابت .

المنافرات الشهيرة التى وقعت بين العرب فى الجاهلية

« منها منافرة عامر بن علقمة » كانت العرب فى الجاهلية إذا تنازع الرجلان منهم فى الشرف تنافروا إلى حكامهم وسنذكرهم إن شاء الله قريباً فيفضلون

---

(١) جماعة النحل والزنابير .

الأشرف . ونافر معناه حاكم فى النسب وسميت منافرةً لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة إنا أعز نفراً . وقد ألف أبو عبيدة وغيره من الأئمة البارعين فى اللغة كتباً فى منافرات العرب ، وأشهر منافرة كانت فى الجاهلية منافرة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب مع علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص ابن جعفر حين قال له علقمة : الرياسة لجدى الأحوص ، وإنما صارت إلى عمك أبى براء من أجله ، وقد استسن عمك وقعد عنها فأنا أولى بها منك وإن شئت نافرتك . فقال له عامر : قد شئت والله لأنا أشرف منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول قصباً فقال . علقمة : أنافرك وإنى لَبَرٌّ وإنك لفاجر ، وإنى لولود وإنك لعاقر ، وإنى لواف وإنك لغادر . فقال : عامر : أنافرك أنى اسمى منك سمة ، وأطول قمة ، وأحسن لمة ، وأجعد جمة ، وأبعد همة ، فقال علقمة : أنا جميل وأنت قبيح ، ولكن أنافرك أنا أولى بالخيرات منك . فخرجت أم عامر فقالت : نافره أيكما أولى بالخيرات . ففعلوا على أن جعلوا مائة من الإبل يعطيها الحكم الذى ينفر عليه صاحبه ، فخرج علقمة ببنى خالد بن جعفر وبنى الأحوص ومعهما القباب والجزر والقدور وينحرون فى كل منزل ويطعمون ، وخرج عامر ببنى مالك وقال : إنها لمقارعة عن أحسابكم ، فاشخصوا بمثل ماشخصوا به . وقال لعمه أبى براء أعنى فقال سبنى ، فقال : كيف أسبك وأنت عمى . فقال : وأنا لاأسب الأحوص وهو عمى ولم ينهض معه ، فجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية ، ثم إلى أبى جهل ابن هشام فلم يقولا بينهما شيئاً ، ثم رجعا إلى هرم بن قطبة بن سنان الفزارى . فقال : نعم لأحكمن بينكما فأعطيانى موثقاً أطمئن به أن ترضيا بحكمى وتسلما لما قضيت بينكما ففعلا فأقاما عنده أياماً ، ثم أرسل إلى عامر فأتاه سراً فقال : قد كنت أحسب أن لك رأياً وأن فيك خيراً ، وما حبستك هذه المدة إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتنافر رجلاً لا تفخر أنت ولا قومك إلا بآبائه فما الذى أنت به خير منه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم أن لا تفضل علىّ علقمة فوالله لئن فعلت لا أفلح

بعدها أبداً هذه ناصيتى فاجزُزْها واحتكم فى مالى فإن كنت لابد فاعلا فَسَوِّ بينى وبينه . فقال : انصرف فسوف أرى من آرائى . فانصرف عامر وهو لا يشك أنه ينفره عليه ، ثم أرسل إلى علقمة سراً فقال له ما قال لعامر ، وقال له : أتفاخر رجلا هو ابن عمك فى النسب وأبوه أبوك ، وهو مع ذلك أعظم منك غناء وأحمد لقاء ، وأسمح سماحاً ، فما الذى أنت به خير منه ؟ فرد عليه علقمة ما رد به عامر وانصرف وهو لايشك أنه ينفر عامراً عليه فأرسل هرم إلى بنيه وبنى أخيه وقال لهم : إنى قائل فيهم غداً مقالة فإذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة وليطرد بعضكم مثلها فلينحرها عن عامر وفرقوا بين الناس لا يكونوا بينهم جماعة ، ثم أصبح هرم فجلس مجلسه وأقبل عامر وعلقمة حتى جلسا فقال هرم . إنكما يا ابنى جعفر قد تحاكمتما عندى وأنتما كركبتى البعير الأَدْرَم الفحل تقمان الأرض وليس فيكما واحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه ، وكلاكما سيد كريم ، ولم يفضل واحداً منهما على صاحبه لكيلا يجلب بذلك شراً بين الحيين ونحر الجزر وفرق على الناس ، وعاش هرم حتى أدرك خلافة عمر . فقال : يا هرم أىّ الرجلين كنت مفضلا لو فعلت ؟ قال : لو قلت ذلك اليوم عادت جذعة ولبلغت شعفات هَجَر . فقال عمر : نعم مستودع السرّ أنت يا هرم مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم . والحكاية طويلة قد اختصرناها . وقال فيه الأعشى :

حكمتموه فقضى بينكم ... أبلج مثل القمر الباهر

لا يأخذ الرشوة فى حكمه ... ولا يبالى غبن الخاسر

هذا ما وجدناه فى أول شرح المقامات الحريرية للشريشى . وقد شرحها بأكثر من هذا مرتين أو ثلاثاً الأصبهانى فى الأغانى[1] فقال : قال ابن الكلبى حدثنى أبى ومحيريز بن جعفر وجعفر بن كلاب الجعفرى عن بشر بن عبد الله بن حبان ابن سلمى بن مالك بن جعفر عن أبيه عن أشياخه وذكر بعضه أبو مسكين قالوا :

(١) ج ١٥ ص ٥٠

أول ما هاج النفار بين عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر ، وبين علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص ، وأم عامر كبشة بنت عروة الرحال بن عتبة بن جعفر ، وأمها أم الظباء بنت معاوية فارس الهراز بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة ، وأمها خالدة بنت جعفر بن كلاب ، وأمها فاطمة بنت عبد شمس بن عبد مناف ، وأم أبيه الطفيل أم البنين بنت ربيعة بن عامر بن صعصعه . قال أبوالحسن الأثرم : وكانت أم علقمة ليلى بنت أبي سفيان بن هلال بن النخع سبية وأم أبيه ماوية بنت عبد الله ابن الشيطان بن بكر بن عوف بن النخع مهيرة ، وذكر أن علقمة كان قاعداً ذات يوم يبول فبصر به عامر فقال لم أَرَ كاليوم عورةَ رجل أقبح . فقال علقمة : أما والله ما وثبت على جاراتها ولا تنازل كناتها يعرض بعامر. فقال عامر: وما أنت والقروم والله لَفَرَس أبي حيوة أذكر من أبيك ولفحل أبي غَيْهب أعظم ذكراً منك فى نجد . قال : وكان فرسه فرساً جواداً نجا عليه يوم بنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان وكان فحله فحلا لبنى حرملة بن الأشعر بن صرمة بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . قال الأثرم : وأخبرنى رجل من جهينة بدمشق قال هو الأشعر بن صرمة . قال الأثرم : وسمى صرمة غيهب لسواده . قال ابن الكلبي : فاستعاره منهم يستطرقه فغلبهم عليه . فقال علقمة : أما فرسكم فعارة وأما فحلكم فغدرة ولكن إن شئت نافرتك . فقال : قد شئت . فقال عامر : والله لأنا أكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً . فقال علقمة : لأنا خير منك ليلا ونهاراً . فقال عامر : لأنا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن منك . فقال عامر : أنافرك على أنى أنحر منك للقاح ، وخير منك فى الصباح ، وأطعم منك فى السنة الشياح . فقال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس يزعمون أنى جبان ولأن تلقى العدو وأنا أمامك أعز لك من أن تلقاهم وأنا خلفك وأنت جواد والناس يزعمون أنى بخيل ولست كذلك ، ولكن أنافرك أنى خير منك أثراً ، وأحدّ منك بصراً ، وأعز منك نفراً ، وأشرف منك ذكراً . فقال عامر : ليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك

فى العدد ، وبصرى ناقص وبصرك صحيح ، ولكنى أنافرك على أنى أنشر منك أُمَّةً ، وأطول منك قمة ، وأحسن منك لمة ، وأجعد منك جمة ، وأبعد منك همة . قال علقمة : أنت رجل جسيم ، وأنا رجل قصير ، وأنت جميل وأنا قبيح ، ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى . فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنافرك بهم ، ولكنى أنافرك أنى خير منك عقبا ، وأطعم منك جدبا . قال علقمة : قد علمت أن لك عقباً فى العشيرة ، وقد أطعمت طيئاً إذ سارت ، ولكنى أنافرك أنى خير منك ، وأدلى بالخيرات منك ، وقد أكثرنا المراجعة منذ اليوم . قال : فخرجت أم عامر وكانت تسمع كلامهما فقالت : ياعامر نافره أيكما أولى بالخيرات . قال أبو المنذر : قال أبو مسكين قال عامر فى مراجعته والله لأنا أركبُ منك فى الحماه ، وأقل منك للكماه ، وخير منك للمولى والمولاه . فقال له علقمة : والله إنى لَبَرٌّ وإنك لفاجر ، وإنى لوفىّ وإنك لغادر ، ففيم تفاخرنى يا عامر ، فقال عامر : والله إنى لأنزلُ منك للقفرة ، وأنحر منك للبكرة ، وأطعم منك للهبرة [1] ، وأطعن منك للثُغرة ، فقال علقمة : والله إنك لكليل البصر . نكد النظر ، وثاب على جاراتك بالسحر . فقال بنو خالد بن جعفر وكانوا يداً مع بنى الأحوص على بنى مالك بن جعفر : لن تطيق عامراً ولكن قل له أنافرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات ، وخذ عليه بالكبر . قال له علقمة هذا القولَ . فقال عامر (عير وتيس وتيس وعنز) فذهبت مثلاً ، نعم على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يعطاها الحكم أينا نفر عليه صاحبه أخرجها ، ففعلوا ذلك ووضعوا بها رهناً من أبنائهم على يدِ رجلٍ من بنى الوحيد ، فسمى الضمين إلى الساعة وهو الكفيل . قال : وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد وخرج عامر فيمن معه من بنى مالك وقد أتى عامر بن الطفيل عامر بن مالك وهو أبو براء . فقال : يا عماه أعنى . فقال يا ابن أخى : سبنى . فقال لا أسبك وأنت عمى قال : فسب الأحوص . فقال عامر : ولا أسب والله الأحوص وهو عمى . فقال :

---

(١) القطعة من اللحم

دونك نعلى فإنى قد ربعت فيها أربعين مِرْباعا[1] فاستعن بها فى نفارك ، وجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية فلم يقل بينهما شيئاً وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما وقال : أنتما كركبتى البعير الأدرم . قال : فأينا اليمين فقال كلاكما يمين . وأبى أن يقضى بينهما فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام فأبى أن يحكم بينهما فوثب مروان بن سراقة بن قتادة بن عمرو بن الأحوص بن جعفر فقال :

يالَ قريشٍ بيّنوا الكلاما إنا رَضِينا منكُم الأحكاما
فبينوا إن كنتم حُكّاما كانَ أبونا لهم إماما
وعبد عمرو منع الفئاما[2] فى يوم نحر معلماً إعلاما
ودعلج أقدمه إقداما لولا الذى أجشمهم إجشاما

* لاتّخذتُهمْ مَذْحِجٌ نعاما *

قال : فأبوا أن يقولوا بينَهما شيئاً وقد كانت العرب تحاكم إلى قريش فأتيا عيينة بن حصن بن حذيفة فأبى أَن يقول بينهما شيئاً ، فأتيا غيلان بن سلمى ابن معتب الثقفى فردهما إلى حرملة بن الأشعر المرى فردهما إلى هرم بن قطبة ابن سنان بن عمرو الفزارى فانطلقا حتى نزلا به . وقال بشر بن عبد الله بن حبان ابن سلم : إنهما ساقا الإبل معهما حتى أشتتْ وأربعت لايأتيان أحداً إلا هاب أن يقضى بينهما فقال هرم : لعمرى لأحكمن بينكما ثم لأفضلن ثم لست أثق إلى أحد منكما فأعطيانى موثقاً أطمئن إليه أن ترضيا بما أقول وتسلما لما قضيت بينكما وأمرهما بالانصراف ووعدهما ذلك اليوم من قابل فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه ، فخرج علقمة ببنى الأحوص فلم يتخلف منهم أحد معهم القباب والجزر والقدور وينحرون فى كل منزل ويطعمون ، وجمع عامر بنى مالك فقال : إنما تخاطرون عن أحسابكم فأجابوه وساروا معه ولم ينهض أبو براء معه وقال لعامر : والله لا تطلع ثنية إلا وجدت الأحوص منيخاً بها وكره أبو براء ما كان من أمرها . فقال عامر فيما

---

(١) ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية
(٢) الفئام : الجماعة من الناس

كان من منافرتهما ودعا عامر إياه أن يسير معه .

أأومَرُ أن أسبَّ أبا شريحٍ ولا والله أفعل ما حَييتُ
ولا أهدى إلى هَرِم لقاحاً فيحيا بعد ذلك أو يميت
أكلف سعى لقمان بن عادٍ فيا لأبى شريح ما لقيت

قال : وأبو شريح هو الأحوص فكره كل واحد من البطنين ما بينهما . وقال عبد عمرو بن شريح بن الأحوص :

لحا الله وفدينا وما ارتحلا به من السوءة الباقى عليهم وبالها
إلا إنما يردى صفاق متينة أبى الضيم أعلاها وأثبت حالها

قال : فسار عامر وبنو عامر على الخيل مجنبي الإبل وعليهم السلاح . فقال رجل من غنى : يا عامر ما صنعت أخرجت بنى مالك تنافر بنى الأحوص ومعهم القباب والجزر وليس معك شيء تطعمه الناس ما أسوءَ ما صنعت ! فقال عامر لرجلين من بنى عمه : أحصيا كل شيء مع علقمة من قبة أو قدر أو لقمة . ففعلا ، فقال عامر : يا بنى مالك إنها القارعة عن أحسا بكم فاشخصوا بمثل ما شخصوا به ففعلوا وثار مع عامر لبيد بن ربيعة والأعشى ، ومع علقمة الحطيئة وفتيان من بنى الأحوص منهم السندرى بن يزيد بن شريح ومروان بن سراقة بن قتادة بن عمرو بن الأحوص وهم يرتجزون ، فقال لبيد :

يا هرمٌ وأنت أهلُ عدلِ اِنْ نفر الأحوص يوماً قبلى
ليذهبن أهــــله بأهلى لا يجمعن شكلهم وشكلى
ونسل آبائهم ونسلى

وقال أيضاً :

اِنى امرُؤٌ من مالك بن جعفر علقم قد نافرت غير منفر
نافرت سقباً من سقاب العرعر

فقال لحافة بن عوف بن الأحوص :

نَهْنِهْ إليك الشعر يا لبيدُ واصدد فقد ينفعك الصدود
سادَ أبونا قبلَ أَنْ تسودوا سؤددكم مطرف زهيد

وقال أيضاً :

انى إذا أكنّنى الخباء وضاع يومَ المشهد اللواء
أنمى وقد حق لى النماء إلى كهولٍ ذكرها سناء
إذ لا يزال جلدة كوماء مبقورة لسقبها رغاء
لم ينهنا عن نحرها الصفاء لنا عليكم سورة ولاء
المجدُ والسؤددُ والعطاء

وقال أيضاً :

أنتم عزلتم عامرَ بنَ مالكِ فى سنوات مضر الهوالك
يا شر ناحياً وشر هالك

قال : وأنشدها السندرى يومئذ ورفع صوته فقيل : مَنْ هذا ؟ فقال :

أنا لمن أنكر صوتى السندرى أنا الفتى الجعد الطويل الجعفرى
من ولد الأحوص أخوال غنى

فقال عامر . أجب يا لبيد فرغب لبيد عن إجابته وذلك لأن السندرى كانت جدته أمَةً اسمها (عيساء) فقال :

لما دعانى عامرٌ لأُجيبَهُ أبيتُ وإن كانَ ابنُ عيساءَ ظالما
لكى لا يكون السندرى نديدتى واشتم أعماماً عموما عما عما
وأنشر من تحت القبور أُبوةً كراماً هم شدوا علىَّ التمائما
لعبت على أكتافهم وحجورهم وليداً وسمّونى وليداً وعاصما
ألا أيّنا ما كان شراً لمالك فلا زال فى الدنيا ملوماً ولائما

قال ووثب الحطيئة فقال :

ما يحبس الحكام بالفصل بعدما بدا سابق ذو غرة وحجول

وقال أيضاً :

ياعامُ قد كنتَ ذا باع ومكرمة	لو أن مسعاةَ من جاريته أَمَمُ
جاريت قَرْماً أجاد الأحوصان به	سمح اليدين وفى عِرْنينه شَمَمُ
لا يصعب الأمر إلا ريثَ يركبه	ولا يبيت لمرعوبٍ له قسم
هابتْ بنو مالك مجداً ومَكْرُمةً	وغاية كان فيها الموت لو قدموا
وما أساءوا فراراً عن مجلحة	لا كاهن يمترى فيها ولا حَكَمُ

قال : وأقام القوم عنده أياما ، وأرسل إلى عامر فأتاه سراً لا يعلم به علقمة . فقال يا عامر : قد كنت أرى لك رأيا وإن فيك خيراً ، وما حبستك هـذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك أتنافر رجلاَ لا تفخر أنت وقومك إلا بآبائه ؟ فما الذى أنت به خير منه ؟ قال عامر نشدتك الله والرحم أن لا تفضل علىّ علقمة فو الله لئن فعلت لا أفلح بعدها أبداً هـذه ناصيتى فاجزُزْها واحتكم فى مالى فإن كنت لا بدّ فاعلاً فَسَوِّ بينى وبينه . قال : انصرف فسوف أرى رأيى فخرج عامر وهو لا يشك أنه ينفره عليه . ثم أرسل إلى علقمة سراً لا يعلم به عامر فأتاه فقال يا علقمة : والله إن كنت لأحسب فيك خيراً وإن لك رأيا وما حبستك هـذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتفاخر رجلا فى النسب وأبوه أبوك ، وهـو مع هذا أعظم قومك غناءً ، وأحمدهم لقاءً ؟ فما الذى أنت به خير منـه ؟ فقال له علقمة : أنشدك الله والرحم أن لا تنفر علىّ عامراً أجزز ناصيتى واحتكم فى مالى وإن كنت لا بد أن تفعل فَسوِّ بينى وبينه . فقال : انصرف فسوف أرى رأيى فخرج وهولا يشك أنه سيفضل عليه عامراً .. قال أبى : وسمعت أن هرما قال لعامر حين دعاه يا عامر كيف تفاضل علقمة ؟ فقال عامر : ولِمَ يا هرم ؟ قال : لأنه أَنْجل منك عيناً فى النساء ، وأكثر منك نفيراً عند ثورة الدعاء ، قال عامر : هل غير هذا ؟ قال : نعم هو أكثر منك نائلا فى الثراء ، وأعظم منك حقيقة عنـد الدعاء . ثم قال لعلقمة : كيف تفاضل عامراً ؟ قال . ولمَ يا هرم ؟ قال : هو أنفذ منك لسانا ، وأمضى منك سنانا . قال علقمة : فهل غير هذا ؟ قال . نعم هو أقتل منك للكماة ، وأفك

منك للعناة . قال : ثم إن هرما أرسل إلى بنيه وبنى أبيه إنى قائل غداً بين هذين الرجلين مقالة فإذا فمات فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة ويطرد بعضكم عشر جزائر ولينحرها عن عامر وفرقوا بين الناس لا تكونوا لهم جماعة . وأصبح هرم فجلس مجلسه ، وأقبل الناس وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ، فقام لبيد فقال :

يا هرمُ ابن الأكرمين منصبا إنك قد وليت حكما معجبا
فاحكم وصوّبْ رأىَ من تصوبا إنَّ الذى يعلو عليها ترتبا[1]
لخيرنا عمـاً وأُمًّا وأبا وعامرٌ خيرها مركبا
وعامر أدنى لقيس نَسبا

فقام هرم فقال . يا بنى جعفر قـد تحاكمتما عندى وأنتما كركبتى البعير الأدْرم تقعان إلى الأرض معاً وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه ، وكلا كما سيد كريم . وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هرم عن علقمة عشراً وعن عامر عشراً وفرقوا الناس فلم يفضل هرم أحـداً على صاحبه وكره أن يفعل وهما ابنا عم فيجلب بذلك عداوةً ويوقع بين الحيين شراً . قال . وكان الأعشى حين رجع من عند قيس بن معدى كرب بمـا أعطاه طلب الجوار والخفرة من علقمة فلم يكن عنده ما طلب ، وأجاره وخفره عامر حتى أداه وماله إلى أهله . قال .

علقم ما أنت إلى عامرٍ الناقص الأوتار والواتر[2]

---

(١) الترتب الدائم الثابت كذا فى نسخة الأصل (٢) من أبيات أعشى بن قيس بن ثعلبة يمدح عامر بن الطفيل ويهجو علقمة بن علاثة وبعده :

ان تسد الحوص فلم تعدهم وعامر ســاد بنى عامـــر
عهدى بها فى الحى قـد درعت صفراء مثل المهـــرة الضامر
قد حجم الثدى على نحـــرها فى مشرق ذى بهجـــة ناضر
او اسندت ميتـا الى نحـرها عاش ولـم ينقـــل الى قابر
حتى يقول الناس ممـــا رأوا ياعجبـا الميت النـــاشر

ثم أتمها بعد النفار فلما بلغ علقمة ما قال الأعشى وأشـــاع فى العرب أن هرما قد فضل عامراً ؛ توعد الأعشى فقال الأعشى : (لعمرى لئن أمسى من الحى شاخصاً) قال ابن الـكلبى : حدثنى أبى قال فماش هرم حتى أدرك سلطان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فسأله أىُّ الرجلين كنت مفضلا لو فضلت ؟ فقال : لو قلت ذاك يا أمير أمير المؤمنين لعادت جذعة ، ولبلغت شعاف هجز . فقال : نِعْمَ مُسْتَوْدَعُ السر ومسند الأمر إليه أنت يا هرم ، مثل هذا فلْيسُدِ العشيرة . وقال : إلى مثلك فليستبضع القوم أحكامهم . قال أبو الفرج الأصبهانى : وقد أدرك علقمة ابن علاثة الإســلام فأسلم ثم ارتد فيمن ارتد من العرب ، فلما وجه أبو بكر خالد بن الوليد إلى بنى كلاب ليوقع بهم وعلاقمة يومئذ رئيسهم هرب وأسلم ، ثم أتى أبا بكر رضى الله تعالى عنه فأعلمه أنه قد نزع عما كان عليه فقبل إسلامه وآمنه ، وهكذا ذكر المدائنى . وأما سيف بن عمر فإنه روى عن الـكوفيين غير ذلك والله تعالى أعلم .

منافرة بين فزارة وبنى هلال

إن بنى فزارة وبنى هلال تنافراً إلى أنس بن مدرك ، وتراضوا به فقالت بنو هلال : يا بنى فزارة أكلتم أيرَ الحمار . فقال بنو فزارة : لم نعرفه . وكان سبب ذلك أن ثلاثة اصطحبوا فزارى وتغلبى وكلابى فصادفوا حمار وحش ، ومضى الفَزارى فى بعض حوائجه فطبخا وأكلا وخبآ للفَزارى أير الحمار ، فلمــا رجع قالا له قد خبأنا لك سهمك فـكُل ، وأقبل يأكل ولا يسيغه فجملا يضحكان ففطن وأخذ السيف وقام إليهما وقال : لتأكلان منه وإلا قتلتـكما فامتنعا فضرب أحدهما فقتله وتناوله الآخر فأكل منه ولذلك رمى بنو فَزارة بأكل أير الحمار قال الـكميت ابن ثعلبة .

نشدتُك يا فَزارُ وأنتَ شيخٌ   إذا خيرت تخطىء فى الخيار

أصيحانيةٌ أدمتْ بِسَمْن أحبُّ إليك أم أيْرُ الحمارِ
بلى أَيْرُ الحمارِ وخصيتاه أحبّ إلى فَزارة من فَزارِ

قوله نشدتك أراد به نشدتك بالله أى ذكرتك به واستعطفتك به لتخبرنى عما أسألك ويقال أيضاً نشدتك الله من باب نصر والخيار هو الاختيار . وقوله أصيحانية أدمت : أى أتمرة صيحانية والصحيانى تمر معروف بالمدينة ويقال كان كبش اسمه صيحان بمهملتين شدّ بنخلة فنسبت إليه وقيل صيحانية : وأدمت : من الأدام يقال أدمت الخبز إذا أصلحت إساغته بالأدام وهو مايؤتدم به مائعاً كان أو جامداً . ولكون هذه الأبيات فيها خفاء أشرنا إلى تفسير مبهماتها . . فقالت بنو فَزارة منكم يا بنى هلال من سقى إبله فلما رويت سَلَحَ[1] فى الحوض ومدره بخلا ، يريدون به رجلا من بنى هلال يضرب به المثل فى البخل فيقال (هو أبخل من مادر) . وبلغ من بخله أنه كان يسقى إبله فيبقى فى أسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه ومدر الحوض به فسمى مادراً ، فنفرهم أنس بن مدرك على الهلاليين فأخذ الفزاريون منهم مائة بعير ، وكانوا تراهنوا عليها ، وفى بنى هلال يقول الشاعر :

لقد جللت خزياً هلالُ بن عامر بنى عامرٍ طراً لسلحة مادر
فأفّ لكم لا تذكروا الفخرَ بَعْدَها بنى عامر أنتم شرارُ العشائر

هذا ما أورده الجاحظ فى مساوى البخل من كتاب المحاسن والأضداد ، ونقله حمزة الأصبهانى والميدانى والزمخشرى فى أمثالهم بعبارات مختلفة محصلها ما ذكرناه تعالى أعلم .

* * *

قصة الفقعسى وضمرة وما جرى بينهما من المنافرة

قال أبو محمد الأعرابى فى (ضالة الأديب) : إنَّ ضمرة بن ضمرة بن جابر

---

(١) السلح مايخرج من البطن

ابن قطن بن نهشل كان جاراً لنوفل بن جابر بن شحنة بن حبيب بن مالك بن نصر وأم نوفل عاتكة بنت الأشتر بن حجوان بن فقعس بن طريف بن عمرو ابن قعين ، وكان ضمرة كثير المقامرة فنحر نوفل جزوراً فدعا الحى فأكلوا فدعا ضمرة فقال يا معشر بنى قعين هذا جاركم وأنا منه خلو . ثم إن ضمرة قام فقمر ماله كله ، وانتجعت[1] أسد نحوَ أرض بنى تميم وهم مقحمون مضعفون فأرسل ضمرة إلى من يليهم من بنى تميم أن ميلوا عليهم فإنهم لأول من أتاهم ، فأتى بنى نصر الخبر فانصرفوا وأْتَمَرُوا بضمرة أن يأكلوه حين ينزلون فأمر نسوته سراً أن يتأخرن ويلحقن بظعن بنى فقعس وسار هو فى سلف بنى نصر وقد علم أنهم آكلوه إذا نزلوا ، فلما نزلوا ركض نحو بنى فقعس فقال أنا جارٌ لكم فقالوا إنك لست بجار ولك أمانُ العائذ الغادر ومنعوه من بنى نصر ، وإذاً ماله فى بنى نصر قد أحرزوه فلما جاء ظعن بنى فقعس إذا نسوته فيهن فعدل له بنو فقعس خمسين شائلة[2] ونحروا الجزور ، وكان فيهم زماناً ثم لحق بقومه فنافر معبد ابن نضلة بن الأشتر بن حجوان خالد بن وهب الصيداوى وجمعهما وضمرة مجلس النعمان ، فأرسل ضمرة إلى خالد نافره واجعلنى الكفيل وهو بينى وبينك نصفين فإنه لا يخافنى ، واجعلهما مائة فى مائة فى خفرة النعمان وأجعل بينكما بها رهناً فإنه لا بد من أدائها إذا كنت أنا الكفيل . فلما راحوا إلى النعمان سب خالد معبداً ، فقال : أتسبنى ولم تنافرنى قال : أنافرك قال ما بد الك . قال خالد : إنى أجعل الكفيل من شئت وإن شئت ولىّ نعمتكم هذا . قال معبد : فإنى قد فعلت وأعتقد عليه بما أمره به ضمرة . ثم تغاديا على ضمرة ، فقال ضمرة : والله إن بنى طريف لمن أكرم الناس وما رأينا قط أكرم من خالد فنفره على معبد فى مجلسه فحبس قيس بن معبد عند النعمان رهينة بمائة من الإبل ، فقال معبد لبنى جابر بن شحنة : اكفلونى

---

(١) أى طلبت الكلأ فى موضعه .   (٢) الشائلة من الابل ماأتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها

يابنى عمى فإنى لم يشنى غدر ضمرة ولا كذبه . قال بنو جابر : نرى بنى فقعس مقرين بهذا . قال : نعم يرون أنها خيانة ولا تضرهم فكفل بنو جابر الإبل فلما أتى معبد بنى فقعس قال بنو وثار وبنو نوفل بن فقعس : والله ما نرضى بهذا أبداً ما بقى منا إنسان فنهضت بنو فقعس إلى النعمان فوجدوا عنده ضمرة فقال سبرة بن عمرو بن الحارث بن وثار بن فقعس بن طريف :

إنى إن أنكر وجهى سبره   الرجل الأشم فيه الزعره[1]

كالميسم الحامى عليه الغبره

إلى أن قال .

والله ما نعقل منها بكره   أو يأمر النعمان فيها أمره

فأمرهم النعمان أن يتقاضوا إلى العُزَّى صنم كان بنخلة فعندها قال سبرة .

أضَمْرَ بن ضمر أبلقَ الاست والقفا   وهل مثلنا فى مثلها لك غافر

أتنسى دفاعى عنكَ إذ أنتَ مُسْلَمٌ   وقد سال من ذلّ عليك قراقر[2]

ونسوَتكم فى الرَّوْع بادٍ وجوهُها   يُخَلْنَ إماء والإماء حرائر[3]

يسلخن بالليل الشوىّ بأذرع   كأيدى السباع والرءوس حواسر

أعيّرتنا ألبانها ولحومها   وذلك عارٌ يا ابنَ رِيطةَ ظاهرُ[4]

وإنا لتغشانا حقوقٌ ولم تكن   تقربنا للمخزيات الأباعِرُ

نحابى بها أكفاءنا ونهينها   ونشربُ فى أثمانها ونقامر[5]

وتكسبها فى غير غدر أكفنا   إذا عقدت يوم الحِفاظ الدوائر

(١) الزعرة : سوء الخلق (٢) المسلم : المخذول الذى لاناصر له ، وقراقر اسم واد (٣) الروع هنا الحرب ، وقوله يخلن اماء أى يحسبن اماء وكانت الحرة فى ذلك الوقت تتشبه بالأمة خوفا على نفسها من السبى ، وقوله والاماء حرائر معناه أنكم تفرقتم حتى تركتم اماءكم فيما تركتم فصرن بمنزلةالحرائر (٤) عيره الأمر قال المجد ولا تقل عيره بكذا أى نسبه الى العار والذم ، وظاهر أى زائل ، يريد عيرتنا البان الابل ولحومها واقتناء الابل مباح لامحظور فيه وعاره ذاهب (٥) نحابى من المحاباة وهى العطاء ، والاكفاء جمع كفء وهو النظير المماثل لك ، وقوله ونهينها أى للاضياف ومن يطلب القرى

وإنا لنقرى الضيف فى ليلة الشتا عظيم الجفان فوقهن الحوائر

والحوائر جمع حوير وهو الشحم الأبيض وبعد هذا ثلاثة أبيات أخر . ثم أورد لسبرة الفقعسى أشعاراً كثيرة يخاطب بها ضمرة ويهجوه بها فى سياقه هذا نقص فإنه لم يذكر فيه وجه تعييره بالإبل ولا إلى أى شىء تم حالها والله أعلم .

منافرة جرير البجلى وخالد بن أرطاة الكلبى

قال ابن الأعرابى فى نوادره : كان جرير بن عبد الله البَجَلى تنافر هو وخالد بن أرطاة الكلبى إلى الأقرع بن حابس ، وكان عالم العرب فى زمانه . والمنافرة المحاكمة من النفر لأن العرب كانوا إذا تنازع رجلان منهم وادعى كل واحد أنه أعز من صاحبه تحاكما إلى عالم فمن فضل منها قدم نفره عليه ، أى فضل نفره على نفره . فقال الأقرع : ما عندك يا خلد ؟ فقال : ننزل البراح [1] ، ونطعن بالرماح ، ونحن فتيان الصباح ، فقال : ماعندك ياجرير ؟ فقال : نحن أهل الذهب الأصفر ، والأحمر المعتصر ، نخيف ولا نخاف ، ونطعم ولا نستطعم ، ونحن حىٌّ لقاح ، نطْعم ما هبت الرياح ، نضمن الدهر ، ونصوم الشهر ، ونحن الملوك القسر . فقال الأقرع : واللات والعزّى ، لو نافرتَ قيصرَ ملكَ الروم ، وكِسْرَى عظيم الفرس ، والنعمان ملك العرب لنفرت عليهم ، وروى لنصرت عليهم . فقال عمرو بن خثارم البَجَلى فى هذه المنافرة :

يا أقرعَ بنَ حابسٍ يا أقرعُ إنى أنا أخوك فانظرَنْ ما تصنَع
إنك إنْ يُصْرع أخوك تصرعُ إنى أنا الداعى نِزاراً فاسمعوا
فى باذخٍ من عز مجد يفرع به يضر قادر وينفع
وأدفع الضيم غداً وأمنع عزٌّ ألدُّ شامخ لا يقمع
يتبعه الناس ولا يستتبع هل هو إلا أذنب وأكرع

---

(١) يأتى شرح هذه الكلمة وما بعدها فى الأصل .

وزَمَع مُؤْتَشَبٌ مجمّع وحَسَبٌ وَغْلٌ وأنفٌ أجْدَعُ

وقوله : يا أقرع بن حابس هو من الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، وكانت هذه المنافرة فى الجاهلية قبل إسلامه . والصرع : الهلاك . ونزار : هو أبو قبيلة وهو نزار بن معد بن عدنان . والباذخ : العالى يقال جبل باذخ بمعجمتين . والمجد : العظمة والشرف . ويفرع : أى يعلو كل عز ومجد ، يقال فرعت قومى ، أى علوتهم بالشرف ونحوه وهو بالفاء ومهملتين ، والألد : الأشد ولدّه يلدّه غلبه فى الخصومة والشامخ : المرتفع ، ويقمع : أى يقهر ويذل يقال قمعه بالقاف والميم فانقمع ، وقوله هل هو الضمير لخالد بن أرطاة الكلبى . والأكرع جمع كراع بالضم وهو مستدق الساق استعاره لأسفل الناس كالذنب . والزمع بفتح الزاى والميم هو رذال الناس ، يقال هو من زمع الناس ، أى من مؤخريهم . والمؤتَشَب بفتح الشين قال فى الصحاح . فلان مؤتَشَب أى مخلوط غير صريح فى نسبه ، والوغل بفتح الواو وسكون المعجمة . قال فى الصحاح : والوغل النذل من الرجال . وأجدع بالجيم والدال المهملة مقطوع الأنف . وقوله نزل البراح بفتح الموحدة والحاء المهملة المكان الذى لاسترة فيه من شجرة وغيره وهو منزل الكرماء . وقوله : والأحمر المعتصر هو الخمر . وقوله حى لقاح بفتح اللام بعدها قاف . قال فى الصحاح : يقال حى لقاح للذين لايدينون للملوك أو لم يُصبهم فى الجاهاية سباُ . وجرير بن عبد الله البجلى صحابى وكان جميلا .

قال عمر هو يوسف هذه الأمة وقدمه عمر فى حروب العراق على جميع بَجِيلة وكان لهم أثر عظيم فى فتح القادسية ثم سكن جريرُ الكوفةَ وأرسله علىّ رسولا إلى معاويةَ ثم اعتزل الفريقين وسكن قرقيساء حتى مات سنة إحدى وقيل أربع وخمسين . وفى الصحيح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعثه إلى ذى الُخلصة فهدمها وفيه قال ما حجبنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منذ أسلمت ولا رآنى إلا تبسم ، كذا فى الإصابة لابن حجر . وخالد بن أرطاة الكلبى جاهلى . وسيأتى ذكر ابن حابس

فى الـكلام على الحـكام . وأما عمرو بن خثارم البجلى فهو جاهلى والله أعلم هذا على وجه الاختصار . وأما على وجه البسط فهو ما أورده أبو محمد الأعرابى فى (فرحة الأديب) قال : أملى علينا أبو الندى قال : كان سبب المنافرة بين جرير بن عبد الله البجلى وبين خالد بن أرطاة بن خشين بن شيث الـكلبى . أن كلباً أصابت فى الجاهلية رجلا من بجيلة يقال له مالك بن عتبة من بنى عادية بن عامر بن قداد فوافوا به عكاظ فمر العادى بابن عم له يقال له القاسم بن عقيل ابن أبى عمرو بن كعب بن عريج بن الحويرث بن عبد الله بن مالك بن هلال بن عادية بن عامر بن قداد يأكل تمراً فتناول من ذلك التمر شيئاً ليتحرم به فجذبه الـكلبى . فقال له القاسم إنه رجل من عشيرتى فقال لو كانت له عشيرة منعته فانطلق القاسم إلى بنى عمه بنى زيد بن الغوث فاستتبعهم . فقالوا نحن منقطعون فى العرب وليست لنا جماعة نقوى بها . فانطلق إلى آخر فاستتبعهم فقالوا كلما طارت وبرة من بنى زيد فى أيدى العرب أردنا أن نتبعها . فانطلق عند ذلك إلى جرير بن عبد الله البجلى فـكلمه فـكان القاسم يقول إن أول يوم أريت فيه الثياب المصبغة والقباب الحمر اليوم الذى جئت فيه جريراً فى قسر . وكان سيد بنى مالك بن سعد بن زيد بن قسر وهم بنو أبيه فدعاهم فى انتزاع العادى من كلب فتبعوه . فخرج يمشى بهم حتى هجم على منازل كلب بعكاظ فانتزع منهم مالك بن عتبة العادى وقامت كلب دونه . فقال جرير زعمتم أن قومه لا يمنعونه فقالت كلب إن رجالنا خلوف . فقال جرير لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئاً . فقالوا كأنك تستطيل على قضاعة إن شئت قايسنا كم المجد وزعيم قضاعة يومئذ خالد بن أرطاة بن خشين بن شيث قال ميعادنا من قابل سوق عكاظ فجمعت كلب وجمعت قسر ووافوا عكاظ من قابل . وصاحب أمر كلب خالد بن أرطاة فحـكموا الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع حكمه جميع الحيين ووضعوا الرهون على يدى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فى أشراف من قريش . وكان فى الرهن من قشر الأصرم بن عوف بن عويف

ابن مالك بن ذبيان بن ثعلبة بن عمرو بن يشكر بن على بن مالك بن صعد بن نذير بن قسر ومن أحمر حازم بن أبى حازم وصخر بن العلية . ومن بنى زيد بن الغوث بن أنمار رجل ثم قام خالد بن أرطاة فقال لجرير ما تجعل قال الخطر فى يدك قال ألف ناقة حمراء فى ألف ناقة حمراء . فقال جرير ألف قينة عذراء فى ألف قينة عذراء . وإن شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء . قال من لى بالوفاء ؟ قال كفيلك اللات والعُزَّى وإساف ونائلة ويَعُوق وذو الخُلَصة ونسر . فمن عليك بالوفاء قال ود ومناة وقلس ورضا . قال جرير لك بالوفاء سبعون غلاماً مُعَمًّا مُخْوِلا يوضعون على أيدى الأكفاء من أهل الله . فوضعوا الرهن من بجيلة ومن كلب على أيدى من سمينا من قريش . وحكموا الأقرع بن حابس وكان عالم العرب فى زمانه . فقال الأقرع ما عندك يا خالد ؟ فقال ننزل البراح . ونطعن بالرماح . ونحن فتيان الصباح . فقال الأقرع ما عندك يا جرير ؟ قال نحن أهل الذهب الأصفر . والأحمر المعتصر . نخيف ولا نخاف . ونطعم ولا نستطعم . ونحن حى لَقَاح . نُطعم ما هبت الرياح ، نطعم الشهر . ونضمن الدهر . ونحن الملوك لقسر . فقال الأقرع واللات والعُزّى لو فاخرت قيصر ملك الروم وكسرى عظيم فارس والنعمان ملك العرب لنفرتك عليهم وأقبل نعيم بن حجبة النمرى . وقد كانت قسر ولدته بفرس إلى جرير فركبه جرير من قبل وحشيّه[1] فقيل لم يحسن أن يركب الفرس ، فقال جرير الخيل ميامن وإنا لا نركب إلا من وجوهها . وقد كان نادى عمرو بن خثارم أحد بنى جشم بن عامر بن قداد فقال :

لا يغلب اليوم فتى إلا كما ... يا ابنىْ نِزارٍ انصُرا أخاكما

إن أبى وجـــدته أباكما ... ولم أَجِدْ لى نَسَباً سواكما

غيثٌ ربيع ســبط نداكما ... حتى يحِلَّ الناسُ فى مرعاكما

أنتم سرور عين من رآكما ... قد مُلِئتْ فما ترى سواكما

---

(١) أى الأيسر .

قد فاز يومَ الفخر من دعا كما ولا يعدّ أحـــد حصا كما
وإن بنوْا لم يُدركوا بنا كما مجـــداً بناه لـكما أبا كما
ذاكَ ومن ينصُرُه مثلاً كما يوما إذا ما ســـعرت نارا كما

وقال أيضاً

يا لنزار قد نمى فى الأخشب دعوة داع دعوة المثوب[1]
يا لنزار ثم فاسعى واركبى يا لنزار ليس عنكم مذهبى
إن أباكم هو جـدى وأبى لم ينصر المولى إذا لم تغضبى
يا لنزار إننى لم أكذب أحسابكم أخطرتها وحسبى
ومن تـكونوا عزه لا يغلب ينمى إلى عز هجان مصعب
كأنه فى البرج عند الـكوكب

وقال أيضاً

يا أقرع بن حابس يا أقرع إنى أخوك فانظرن ما تصنعُ
إنك إن يصرعْ أخوك تصرع إنى أنا الداعى نزار فاسمعوا
لى باذخ من عـــزه ومفزع به يضر قادر وينفـــع
وأدفع الضيم غـــداً وأمنع عـــز ألدّ شامخ لا يقمع
يتبعه النـاس ولا يستتبع هل هو إلا ذنب وأكرع
وزَمَـــع مؤتَشَبْ مجمّـع وحسب وغلْ وأنف أجدع

وقال أيضاً

يا أقرع بن حابسٍ يا أقرع إنك إن يصرع أخوك تصرع
إنى أنا الداعى نزاراً فاسمعوا فى باذخ من عزه ومفزع
قم قائماً ثمّتَ قُل فى المجمع للمرء أرطاة أيا ابن الأفدع
ها إن ذا يوم عـــلا ومجمع ومنظر لمن رأى ومسمع

---

(١) الأخشب : اسم جبـــل

فنفره الأقرع بمضر وربيعة ولولاه نفر الـكلبي ، وكانت القرابة بين بجيلة وولد نزار .
أن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب
بن يعرب بن قحطان خرج حاجا فتزوج سلامة بنت أنمار بن نزار . وأقام معها فى الدار
بغور تهامة فأولدها أنمار بن أراش ورجالا فلما توفى أراش وقع بين انمار بن أراش
وإخوته اختلاف فى القسمة فتنحى عن أخويه ، وأقام أخويه فى الدار مع أخوالهم ،
وتزوج انمار بن أراش بهند بنت مالك بن غافق بن الشاهد فولدت أفتل وهو خثعم .
ثم توفيت فتزوج ببجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة فولدت له عبقر ، فسمته باسم
جدها وهو سعد ولقب بعبقر لأنه ولد على جبل يقال له عبقر وولدت أيضاً الغوث
ووادعة وصهيبة وحزيمة وأشهل وشهلاءوسنية وطريفاً وفهماً وخدعةوالحرث ، انتهى
ما أورده أبو محمد الأعرابى والله أعلم .

منافرة القعقاع بن زرارة بن مالك

إن القعقاع بن زرارة بن عدس ، وخالد بن مالك بن ربعى بن سلم بن جندل
ابن نهشل تنافرا إلى أكثم بن صيفى أيهما أكرم وجعلا بينهما مائة من الإبل لمن
كان أكرمهما . فقال أكثم : سفيهان يريدان الشر وطلب إليهما أن يرجعا عما
جاءا له فأبيا فبعث معهما رجلا إلى ربيعة بن حُـذار . وحبس إبلهما التى تنافرا
عليها مائة ومائة . وقال : انطلقا مع رسولى هذا فإنه (قتل أرضاً عالُمها ،[1] وقتلت
أرض جاهلها) فأرسلها مثلا . فلما قدما على ربيعة وأخبراه بما جاء له قال ربيعة
للقعقاع : ما عندك ياقعقاع ؟ قال : أنا ابن معبد بن زرارة وأمى معاذة بنت ضرار
رأس من أعمامى عشرة ومن أخوالى عشرة وهذه قوس عمى رهنها عن العرب
وجدى زرارة أجار ثلاثة أملاك بعضهم من بعض قال : وفى ذلك يقول الفرزدق :

(١) أصل القتل التذليل ومنه قتل الخمر وهو مزجها بالماء والمراد بالمثل
ان الرجل العالم بالارض عند سلوكها يذلل الارض ويطلبها بعلمه فلم يضل ولم
يهلك ، يضرب فى مدح العلم وقتلت أرض جاهلها فى مقابلة قتل ارضا عالمها
يضرب لمن يباشر أمرا لاعلم له به .

منا الذى جمع الملوك وبينهم   حرب يشب سعيرها بضرام

ثم قال ربيعة لخالد بن مالك : ما عندك ياخالد ؟ قال أنا ابن مالك . قال : لم تصنع شيئاً . ثم ابن من ؟ قال : ابن ربْعى . قال : لم تصنع شيئاً . ثم ابن من ؟ قال : ابن سلم . قال الآن . فمن أمك ؟ قال : قردعة . قال ابنة من ؟ قال : ابنة مندوس . قال ربيعة للقَعقاع : قد نفرتك ياابن الضبية . فقال خالد . أتجعل ابن معبد بن زرارة كمثل ابن سلم بن جندل فقال ربيعة : (ما جُعِلَ العبد كَرَبِّهِ) فأرسلها مثلاً .

منافرة هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس

كان هاشم بن عبد مناف أحد أجداد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد تولى أمر مكة بعد أبيه وساد قومه بما كان عليه من محاسن الأخلاق ، وجليل الشيم ، وكمال الشجاعة ، ووافر الكرم ، وغاية الفصاحة ، وغير ذلك من الصفات الفاضلة التى لم يطاوله بها أحد . وهو أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام وهو الذى كان يقوم بأمر الناس فى السنين المقحطة ويطعمهم أحسن الطعام ، ولذلك لهجت ألسنة العرب على اختلافهم فى القبائل بالثناء عليه ، فعند ذلك حسده ابن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف حيث عجز عن محاكاته فى صنيعه ومباراته فى شيمه حتى شمت به أناس كثيرون من قريش . فقال فيه وهب بن عبد قصى :

تحمل هاشم ما ضاق عنه   وأعيان أن يقومَ به بريض

أتاهم بالغرائر مثقلاتٍ   من الشآم بالبر المغيض

فأوسع أهل مكة من هشيمٍ   وشاب اللحم باللحم الغريض[1]

ونشبت العداوة بين أمية وهاشم وأراد منافرته فكره هاشم ذلك لنسبه

---

(١) الغريض : الطرى .

وقدره . فلم تدعه قريش حتى نافره إلى الكاهن الخزاعى فى خمسين ناقة سود الحدق ينحرها ببطن مكة والجلاء من مكة عشر سنين فخرج كل منهما فى نفر فنزلوا على الكاهن فقال قبل أن يخبروه خبرهم : والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر . فنفر الخزاعى هاشماً وقال لأمية : تنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأحسن منك وسامة ، وأقل منك لامة ، ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفراً ؟ فقال أمية : من انتكاث الزمان أن جعلناك حكما . فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره ، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين . فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية وسيأتى لهاشم ذكر فى مبحث حكام العرب ، وما قاله عند تنافر قريش وخزاعة عنده إن شاء الله تعالى .

حكام العرب في الجاهلية

الحاكم منفذ الحكم كالحكم محركة جمعه حكام . وحكام العرب علماؤهم الذين كانوا يحكمون بينهم إذا تشاجروا فى الفضل والمجد وعلو الحسب والنسب وغير ذلك من الأمور التى كانت تقع بينهم وكان لكل قبيلة من قبائلهم حكم يتحاكمون إليه وهم كثيرون لا يسعهم الحصر ونحن نذكر منهم من وجدناه فيما عندنا من كتب الأدب ، منهم :

أكثم بن صيفى بن رياح (١)

كان أكثم بن صيفى حكماً من حكام تميم فصيحاً عالماً بالأنساب ، وكان من حديثه أنه لما ظهر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة ودعا إلى الإسلام بعث أكثم ابنه حُبَيْشاً فأتاه بخبره فجمع بنى تميم وقال . يا بنى تميم لا تحضرونى سفيهاً فإنه

(١) أقول ومن الحكام أيضا عيينة بن حصن بن حذيفة وحرملة بن الاشعر المرى وهرم ابن قطبة بن سنان بن عمرو الفزازى وبشر بن عبد الله بن جبان وابو سفيان بن حرب بن امية وأبو جهل بن هشام وانس بن مدرك .

من يَسْمَعْ يَخَلْ[١] إن السفيه يوهن من فوقه ويثبت من دونه ، لا خير فيمن لا عقل له ، كبرت سنى ودخلتنى ذلة ، فإذا رأيتم منى حسناً فاقبلوه ، وإن رأيتم منى غير ذلك فقومونى أستقِم ، إن ابنى شافه هـذا الرجل مشافهةَ وأتانى بخبره وكتابهِ يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران . وقد حلف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه . إن أحق النـاس بمعونة (محمدٍ) ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذى يدعو إليه حقاً فهو لكم دون النـاس ، وإن يكن باطلا كنتم أحق النـاس بالكف عنه والستر عليه ، وقد كان أسقُف نجران[٢] يحدث بصفته ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله ، وسمى ابنه محمداً فكونوا فى أمره أوّلاً ولا تكونوا آخراً . ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين ، إن الذى يدعو إليه محمدٌ لو لم يكن ديناً كان فى أخلاق الناس حسناً أطيعونى واتبعوا أمرى أسأل لكم أشياء لا تُنزع منكم أبداً وأصبحتم أعزَّ حىّ فى العرب ، وأكثرهم عدداً ، وأوسعهم داراً ، فإنى أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلاّ ذل ، ولا يلزمه ذليل إلاّ عزّ ، إن الأول لم يدع للآخر شيئاً وهذا أمر له ما بعده ، من سبق إليه غمر المعالى واقتدى به التالى والعزيمة حزم والاختلاف عجز . فقال مالك بن نُوَيرة : قد خرِف شيخكم . فقال أكثم ويلٌ للشجىِّ من الخلىّ ،[٣] ولهفى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى فذهب مثلا .

---

(١) المعنى ان من يسمع الشىء ربما ظن صحته ، وقيل من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع فى نفسه عليهم المكروه أى أن المجانبة للناس اسلم ، ومفعولا يخل محذوفان أى يخل مسموعه صادقا على ما فى كتب النحو ، قال الكميت :

فان تصغ تكفاء العداة انآءنا　　　وتسمع بنا أقوال اغدائنا يخل

(٢) هو قس بن ساعدة احد بل أوحد حكماء العرب وبلغائهم — راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب — (٣) يضرب مثلا لسوء مشاركة الرجل صاحبه ، يقول ان الخلى لا يساعد الشجى على ما به ويلومه ، والخلى الخالى من الهم وياؤه مشددة وياء الشجى مخففة وقد تشدد ، وقيل ان أول من قاله لقمان وقصته فى صغراهن شراهن وقيل بل أن أول من تكلم به أكثم بن صيفى لما اتاد ابنه من عند رسول الله (ص) بكتاب فدعى قومه وحرضهم على الاسلام

قال المدائني : أول من قال ذلك أكثم بن صيفي التميمي ومن كلامه : مقتل الرجل بين فكيه . والمقتل القتل وموضع القتل أيضاً . ويجوز أن يجعل اللسان قتلا مبالغة في وصفه بالإفضاء إليه ، كما قال الشاعر : (فإنما هي إقبال وإدبار) ويجوز أن يجعل موضع القتل أي في سببه يحصل القتل . ويجوز أن يكون بمعنى القاتل فالمصدر ينوب عن الفاعل كأنه قيل قاتل الرجل بين فكيه . قال المفضل : أول من قال ذلك أكثم بن صيفي في وصيته لبنيه وكان جمعهم فقال : تباروا فإن البرّ يبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه . إن قول الحق لم يدع لي صديقاً . الصدق منجاة . لا ينفع التوقي مما هو واقع . وفي طلب المعالي يكون العناء . الاقتصاد في السعي أبقى للجمام . من يأْس على فاته ودع بدنه . ومن قَنِعَ[1] بما هو فيه قرت عينه . التقدم قبل التندم . أصبح عند رأس الأمر أحب إليّ من أن أصبح عند ذنبه . لم يهلك من مالك ما وعظك . ويل لعالم أمرٍ ومن جاهله . يتشابه الأمر إذا أقبل . وإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق . البطر عند الرخاء حمق . والعجز عند البلاء أفن . أي نقص . لا تغضبوا من اليسير فإنه يجني الكثير . لا تجيبوا فيما لم تسألوا عنه . ولا تضحكوا مما لا يضحك منه . تناءوا في الديار ولا تباغضوا فإنه من يجتمع يتقعقع عمده . ألزموا النساء المهانة . نِعْمَ لهو الحرة المغزل . حيلة من لا حيلة له الصبر ، إن تعِشْ ترَ ما لم تره .

فقال مالك بن نويرة قد خرف شيخكم انه ليدعوكم الى الفناء ويعرضكم على البلاء ان تجيبوه تفرق جماعتكم وتظهر أضغانكم ويذل عزيزكم فمهلا مهلا فقال أكثم بن صيفي : ويل للشجي من الخلي فيالهف نفسي على أمر لم أدركه ولم يفتني ماآسى عليك بل على العامة يامالك انك هالك وان الحق اذا قام دفع الباطل وصرعه صرعي قياما فتبعه مائة من عمرو وحنظلة وخرج الى النبي (ص) فلما كان في بعض الطريق عمد حبيش الى رواحلهم فنحرها وشق ما كان معهم من قربة وهرب فأجهد أكثم العطش فمات وأوصى من معه باتباع النبي (ص) وأشهدهم انه أسلم فانزل الله فيه : ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله .

(١) قنع بالكسر قنوعا وقناعة اذا رضي واما قنع بالفتح فمعناه سأل وما أحسن ما قال بعضهم :

العبد حر ان قنع   والحر عبد ان قنع
فاقنع ولا تقنع فما   شيء يشين سوى الطمع

المِكْثار كحاطبِ ليل . من أكثر أسقط . لا تجعلوا سراً إلى أمة . فهذه تسعة وعشرون مثلاً كلها من كلام أكثم . وقد أحسن من قال فى معنى قولهُ (مقتل الرجل بين فكيه) : رحم الله امرأ أطلق ما بين كفيه ، وأمسك ما بين فكيه . ولله درّ أبى الفتح البستى حيث يقول فى معنى هذا المثل أيضاً :

تكلَّم وسَدِّدْ ما استطعتَ فإنما كلامك حىٌّ والسكوت جمادُ
فإن لم تجِدْ قولا سديداً تقولهُ فَصَمْتُك عن غير السديدِ سدادُ

واحتذاه القاضى أبو أحمد منصور بن محمد الهروى فقال :

إذا كنت ذا علم وما راك[1] جاهل فأعرِضْ ففى تركِ الجوابِ جواب
وإن لم تصِبْ فى القول فاسكُت فإنما سكوتك عن غير الصواب صوابُ

وضمن الشيخ أبو مهل النيلى شرائط الكلام فى قوله حيث يقول :

أوصيك فى نظم الكلام بخمسةٍ إن كنت للموصى الشفيق مطيعاً
لا تُغفِلَنْ سبب الكلام ووقته والكيف والكم المكان جميعاً

وقد ذكرت نبذة من كلام أكثم مع كسرى وما خطب به فيما سبق ، وسيأتى إن شاء الله فى الخطب شىء منه . ومنهم

حاجب بن زرارة بن عدس التميمى

كان حاجب أيضاً من حكام تميم ، وله معرفة تامة بأخبار العرب وأحوالها وأنسابها وكان من مشاهير فصحاء زمانه وبلغائهم ، ومن المعروفين بالوفاء بين العرب . وفد على كسرى لما منع تميما من ريف العراق فاستأذن عليه فأوصل إليه فقال : أسيد العرب أنت ؟ قال : لا . قال : فسيد مضر ؟ قال لا . قال : فسيد بنى أبيك أنت ؟ قال : لا . ثم أذن له فلما دخل عليه قال له : من أنت ؟ قال : سيد العرب . قال : أليس قد أوصلت إليك أسيد العرب . فقلت : لا . حتى

(١) أى جاد لك وخاصمك .

اقتصرت بك على بنى أبيك . فقلت : لا . قال له : أيها الملك ألم أكن كذلك حتى دخلت عليك فلما دخلت عليك صرت سيدَ العرب . قال كسرى : آه املأوا فاه دُرًّا . ثم قال : إنكم معشرَ العرب غُدُر فإن أذِنْتُ لكم أفسدتم البلاد ، وأغرتم على العباد ، وآذيتمونى . قال حاجب فإنى ضامِنٌ للملك أن لا يفعلوا . قال : فمن لى بأن تفى أنت ؟ قال : أرهنك قوسى . فلما جاء بها ضحك من حوله وقالوا : لهذه العصايفى . قال كسرى : ما كان ليسلمها لشىء أبداً فقبضها منه وأذن لهم أن يدخلوا الريف . ثم إن مضر أتت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله هلك قومك ، وأكلتهم الضبع يريدون الجوع . والعرب يسمون السنة الضبع والذئب . قال جرير (من ساقت السنة الشهباء والذيب)[1] وقال آخر :

أبا خُراشةَ أما أنت ذا نفرٍ فإن قومِى لَم يأكلهم الضَبُعُ[2]

فدعا لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأحيوا . وقد كان دعا عليهم فقال : « اللهم اشدُدْ وطأتَكَ على مضر ، وابعث عليهم سنينَ كسنى يوسف » . ومات حاجب بن زرارة فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه . فقال له : ما أنت الذى رهنتها . قال : أجل ، قال : فما فعل ؟ قال : هلك وهو أبى وقد وفى له قومه ووفى هو للملك فردها عليه وكساه حُلة . فلما وفد إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عطارد بن حاجب وهو رئيس تميم وأسلم على يديه أهداها للنبى

---

(١) قبله : (يأوى اليك فلا من ولا جحد والبيت من قصيدة له يمدح بها أيوب بن سليمان ابن عبد الملك ومعناه يأوى اليك أهل الحاجة الذين ساقتهم السنة الشهباء وهى التى لاخضرة فيها أولا مطر والذيب أى الجوع

(٢) نسبه الزمخشرى فى المفصل الى ابى ذؤيب الهذلى ونسبه غير واحد الى العباس بن مرداس من ابيات يخاطب بها خفاف بن ندبة السلمى ، وابو خراشة كنية خفاف بن ندبة ، والنفر فى اصل معناه اسم لمادون العشرة والمراد هنا القوم والجماعة والضبع السنة المجدبة ، قيل ان ذلك اسم لها وقيل بل اطلاقه عليها على سبيل التشبيه كانه شبه نقص السنة المجدبة لمن تأتى عليه باكل الضبع وهذا البيت من شواهد النحو والشاهد فى اما أنت حيث حذف فيه كان بعد أن المصدرية .

صلى الله تعالى عليه وسلم فلم يقبلها فباعها من رجل من اليهود بأربعة آلاف درهم . وهذه رواية ابن عبد ربه فى العقد الفريد . وقال الإمام المرزوقى : وقد روى القصة بأبسط مما ذكر . كان السبب فى ذلك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان دعا على مضر وقال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، وابعث عليهم سنيناً كسنى يوسف » فتوالت الجدوبة عليهم سبع سنين ، فلما رأى حاجب الجهد على قومه جمع بنى فزارة وقال : إنى أزمعت[١] على أنى آتى الملك يعنى كسرى فأطلب أن يأذنَ لقومنا فيكونوا تحت هذا البحر حتى يحيوا . فقالوا : رشدت فافعل غير أنا نخاف عليك بكر بن وائل . فقال : ما منهم وجه إلاّ ولى عنده يدٌ إلا ابن الطويلة التميمى وسأداويه . ثم ارتحل فلم يزل ينتقل فى الاتحاف والبرّ من الناس حتى انتهى إلى الماء الذى عليه ابن الطويلة فنزل ليلا فلما أضاء الفجر دعا بنَطع[٢] ثم أمر فصب عليه التمر ، ثم نادى حَيَّ على الغداء فنظر ابن الطويلة . فإذا هو بحاجب ، فقال لأهل المجلس : أجيبوه . وأهدى إليه جزراً ، ثم ارتحل فلما بلغ كسرى شكا إليه الجهد فى أموالهم وأنفسهم وطلب أن يأذن لهم فيكونوا فى حد بلاده . فقال : أنتم معشر العرب غُدُر فإذا أذنت لهم عاثوا[٣] فى الرعية وأغاروا . قال حاجب : إنى ضامن للملك أن لا يفعلوا . قال : فمن لى بأن تفى أنت . قال : أرهنك قوسى . فلما جاء بها ضحك من حوله ، فقال الملك ، ما كان ليسلمها اقبضوها منه . ثم جاءت مضر إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موت حاجب فدعا لهم فخرج أصحابه إلى بلادهم وارتحل عطارد ابن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه . فقال : ما أنت بالذى وضعها . قال : أجل إنه هلك وأنا ابنه وفىّ للملك . قال ردوا عليه وكَساه حلة . فلما وفد إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أهداها إليه فلم يقبلها فباعها من يهودىٍّ بأربعة آلاف درهم فصار ذلك فخراً ومنقبة لحاجب وعشيرته . وإلى هذه القوس أشار أبو تمام يمدح بها أبا دُلَفٍ العجلى :

(١) يقال ازمعت الأمر وعليه اى اجمعت أو ثبت عليه كزمعت بالتشديد
(٢) هو بالكسر وبالفتح وبالتحريك وكعنب : بساط من الأديم
(٣) اى أفسدوا

على مثلها من أَرْبُعٍ وملاعبٍ   تذال مصونات الدموع السواكب [١]
أقول لقُرحان من البين لم يجد   رسيس الهوى بين الحشا والترائب [٢]
أعنّي أفرّق شمل دمعي فإنني   أرى الشمل منهم ليس بالمتقارب

إلى أن قال

إذا العِيسُ لاقت أبي دُلَف فقد   تقطّع ما بيني وبين النوائب [٣]
هنالك تلقى الجودَ حيثُ تقطعت   تمائمه والمجدُ مرخى الذوائب [٤]
تكاد عطاياه يجنّ جنونها   إذا لم يعوّذها بنعمة طالب [٥]
يرى أقبحَ الأشياء أوْبَةَ آملٍ   كسته يدُ المأمول حلةَ خائب [٦]
وأحسن من نَوْرٍ يفتّحه النَّدَى   بياض العطايا فى سواد المطالب [٧]
إذا ألمت يوماً لجيم وحولها   بنو الحصن نجل المحصنات النجائب [٨]
فإن المنايا والصوارمَ والقنا   أقاربُهم فى الرَّوْع دون الأقارب
جَحَافل لا يتركْنَ ذا جبرية   سليماً ولا يحرِبْنَ من لا يحارب [٩]
يمدونَ من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ   تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضبٍ [١٠]

---

(١) الاربع : المنازل ، وتذال . تحتقر وتهان ، ويروى تذيل وأهينت أيضا
(٢) قرحان : سالم ، والبين الفراق ، والرسيس : الثابت ، والترائب عظام الصدر (٣) العيس : الابل البيض بشقرة ، والنوائب . المصائب (٤) التمائم : خرزات رقط تعلق فى عنق الصبى لدفع العين والمفرد تميمة ، وفى الحديث من علق تميمة فلا أتم الله له ، والجود : الكرم ، والذوائب : النواصى وهى قصاصات الشعر (٥) هذا البيت انتقد به على أبى تمام حتى قال بعضهم وماباله ينسبها الى الجنون ويلتمس لها العوذ والرقى هلافك أسارها وعجل خلاصها ولم ينتظر بها نعمة الطالب ففعل كما قال المتنبى :

وعطاء مال لو عداد طالب   انفقته فى أن تلاقى طلبا

(٦) الاوبة : الرجعة ، والحلة ثوبان : وهنا استعارة . (٧) النور : زهر النبت ، والصبا الريح الشرقية ، وهذا البيت من أحسن الشواهد على المقابلة (من صناعة البديع) وهو مأخوذ من قول الاخطل :

رأينا بياضا فى سواد كأنه   بياض العطايا فى سواد المطالب

(٨) النجل النسل ويطلق على الولد ، والمحصنات : الحرائر العفيفات .
(٩) الجحافل : الجيوش وذا جبرية أى متجبرة ، ويحربن : يسلبن .
(١٠) عواصم : موانع ، وقواض قاضيات ، وقواضب : قواطع ، وهذا البيت يستشهد به فى البديع على الجناس الناقص المطرف

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقوسها   فخاراً على ما وطَّدت من مناقب[١]

فأنتم بذى قارٍ أمالت سيوفكم   عروشَ الذين استرهنوا قوس حاجب

يقول إذا افتخرت تميم بذلك ، فأنتم قتلتم الذين أكسبوهم هذا المجد بما ارتهنوه وهدمتم عزهم . وإنما يعنى وقعة ذى قار حين قتلت بنو شيبان العجم ونكثوا فيهم . وكان رئيسهم سيار بن حنظلة العجلى ، وأبو دُلف عجلى فلذلك خاطبه بهذا . ومنهم :

الأقرع بن حابس أبو عيينة التميمى

كان الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمى المجاشعى الدارمى من حكام تميم ومرجعهم فى واقعاتهم ومنافراتهم . قال ابن إسحق : وفد على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وشهد فتح مكة وَحُنَيناً والطائف ، وهو من المؤلفة قلوبهم وقد حسن إسلامه . وقال الزبير فى النسب : كان الأقرع حكماً فى الجاهلية ، وقد نادى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من وَراء الحجرات يا محمد فلم يجبه . فقال : والله يا محمد إن حمدى لزين ، وإن ذمى لشين . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ذلكم الله . وروَى ابن شاهين من طريق المدائنى ، قال : لما أصاب عيينة بن حصن بنى العنبر قدم وفدهم فذكر القصة وما فيها فكلم الأقرع بن حابس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى السبي . وكان فى المدينة قبل قدوم السبى فنازعه عيينة ابن حصن . وفى ذلك يقول :

وعند رسولِ الله قامَ ابنُ حابسٍ   بخطة أسوارٍ إلى المجدِ حازم

له أطلق الأَسْرَى التى فى قيودها   مغللة أعناقُها فى الشكائم[٢]

وشهد الأقرع مع شُرَحْبيل بن حسنة دُومَةَ الجندل وشهد مع خالد حرب

---

(١) وطدت ثبتت .

(٢) الشكائم جمع شكيمة وهى فى اللجام الحديدة المعترضة فى فم الفرس فيهـا الفأس .

أهل العراق وفتح الأنبار . وقال ابن دريد : اسم الأقرع بن حابس فراس ، وإنما قيل له الأقرع لقرع كان برأسه وكان شريفاً فى الجاهلية والإسلام واستعمله عبد الله ابن عامر على جيش سيره إلى خراسان فأصيب بالجوزجان هو والجيش ، وذلك فى زمن عثمان . وذكر ابن الكلبى : أنه كان مجوسياً قبل أن يسلم . وذكر الرضى الشاطبى : أنه قتل الأقرع بن حابس باليرموك فى عشرة من بيته والله أعلم . ومنهم :

ربيعة بن مخاشن التميمى

كان من حكام تميم وإليه المرجع فى عصره حيث كان عالمهم واقفاً على أنساب قومه وغيرهم من قبائل العرب مقدّراً لمراتبهم ، ومع ذلك كان من أفصح أهل زمانه ومن الخطباء المشهورين مضْيافاً شجاعاً لا يعدل قومه عن رأيه وَلا يقطعون أمراً دونه . وهو أحد بنى أسيد بن عمرو بن تميم وَبنو تميم يزعمون أنه هو الذى أوّل من قرعت له العصا . وقد ذكرنا الخلاف فى ذلك عند الكلام على ذكاء العرب . ومنهم :

ضمرة بن ضمرة التميمى

كذلك كان من حكام تميم وإليه يتنافرون وعنده يتحاكمون لا يرون فى وَقته كرأيه رأياً ، وَلا يستغنون عن مشورته فى وَقائعهم وَأيامهم لوقوفهم على ما كان عليه من غزارة العقل وَذكاء الفطنة وَطلاقة اللسان وكرم السجية وخبرته بأحوال العرب وَأنسابهم . وفى القاموس : أنه ضمرة بن أبى ضمرة وصوابه ما ذكرناه كما نبه عليه شارحه الزبيدى . وفى مجمع الأمثال للميدانى عند قولهم : « إن العصا قُرِعَتْ لذى الحلم » أن ضمرة حكم فأخذ رشوة فغدر . ومنهم :

عامر بن الظرب العدوانى

كان عامرٌ هذا من حكام قيس ، وَقد ذكرنا فى ذكاء العرب أن أبا عبيدة

قال : أول من قرعت له العصا عامر بن الظَرِب ، والقصة هناك . وكانت العرب لا تعدل بفهمه فهماً ، ولا بحكمه حكماً ، وفى كتاب مجمع الأمثال : يُقال إنه عاش ثلاثمائة سنة ، ثم ذكر ما يدل على ذلك من شعره ، وقد نقلناه سابقاً مع نبذة من خبره . وكان عامر من فصحاء العرب . ومن كلامه : رُبّ أكلةٍ تمنع أكلات .
قال المفضل : أول من قال ذلك عامر بن الظرِب العدوانى ، وكان حديثه أنه كان يدفع بالناس فى الحج فرآه ملك من ملوك غَسَّان فقال : لا أترك هذا العدوانى أو أذله فلما رجع الملك إلى منزله أرسل إليه أحب أن تزورنى فأحبُوك وأكرِمَكَ واتخذك خِلاًّ . فأتاه قومه فقالوا . أتَفِدُ ويَفِدُ معك قومك إليه فيصيبون بجنبك ويتجهون بجاهك فخرج وأخرج معه نفراً من قومه ، فلما قدم بلاد الملك أكرمه وأكرم قومه . ثم انكشف له رأى الملك فجمع أصحابه وقال : « الرأى نائم والهوى يقظان ، ومن أجل ذلك يغلب الهوى الرأى عجلت حين عجلتم ولن أعود بعدها ، إنا قد توردنا بلاد هذا الملك فلا تسبقونى بريْث[1] أمر أقيم عليه ولا بعجلة رأى أخف معه فإن رأيي لكم » فقال قومه ، لقد أكرمنا كما ترى وبعد هذا ما هو خير منه . قال : لا تعجلوا فإن لكل عام طعاماً رُبَّ أكلة تمنع أكلات فمكثوا أياماً . ثم أرسل إليه الملك فتحدث عنده . ثم قال له الملك : قد رأيت أن أجعلك ناظراً فى أمورى . فقال له : إن لى كنز علمٍ لست إلا به تركته فى الحى مدفوناً وإن قومى أضنَّاء بى فا كتب لى سجلا بجباية الطريق فيرى قومى طمعاً تطيب به أنفسهم فأستخرج كنزى وأرجع إليك وافراً . فكتب له بما سأله ، وجاء إلى أصحابه فقال : ارتحلوا ، حتى إذا أدبروا وقالوا : لم نر كاليوم وافدَ قوم أقل ولا أبعد من نوال منك . فقال : مهلاً فليس على الرزق فوت ، وغنم من نجا من الموت ، ومن لا يرى باطناً ، يعش واهناً ، فلما قدم على قومه أقام فلم يعُد .

ومن كلامه أيضاً : « رب زارع لنفسه حاصد سواه » قال ابن الكلبي : أول

(١) الريث البطىء

من قال ذلك عامر بن الظرِب ، وذلك أنه خطب إليه صعصعة بن معاوية ابنته فقال : « يا صعصعة إنك جئت تشترى منى كَبِدِى ، وارحم ولدى عندى ، منعتك أو بعتك ، النكاح خير من الأيمة ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح يُعَدُّ أباً ، قد أنكحتك خشيةَ أن لا أجدَ مثلك » ثم أقبل على قومه فقال يا معشر عَدوان أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم ، ولكنه من خُطَّ له شىء جاءه ، رُبَّ زارعٍ لنفسه حاصد سواه ، ولولا قسم الحظوظ على غير الجدود ، ما أدرك الآخر من الأول شيئاً يعيش به ، ولكن الذى أرسل الحيا[1] أنبت المرعى ، ثم قسمه أكلا لكل فم بقلة ، ومن الماء جرعة ، إنكم ترون ولا تعلمون ، لن يرى ما أصفُ لكم إلا كل ذى قلب واع ، ولكل شىء راع ، ولكل رزق ساع ، ما أكْيَسُ وما أحمق ، وما رأيت شيئاً قط إلا سمعت حسه ، ووجدت مسه ، وما رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، وما رأيت جائياً إلا داعياً ولا غانماً إلا خائباً ، ولا نعمةً إلا ومعها بؤس ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء ، فهل لكم فى العلم العليم ؟ » قيل : ما هو قد قلت فأصبت وأخبرت فصدقت ؟ فقال : « أرى أموراً شتى وشيئاً شيًّا حتى يرجع الميت حيا ، ويعود اللاشىء شيّا ، ولذلك خلقت الأرض والسماء » فتولوا عنه راجعين ، فقال : وَيْلُمِّها نصيحة لو كان مَنْ يقبلها . ومن كلامه أيضاً : « من طلب شيئاً وجده » وفى مجمع الأمثال للميدانى أن أول من قال ذلك : عامر بن الظرب وكان سيد قومه فلما كبر وخشى عليه قومه أن يموت اجتمعوا إليه فقالوا : إنك سيدنا وقائلنا وشريفنا فاجعل لنا شريفاً وسيداً وقائلا بعدك . فقال : (يا معشر عَدوان كلفتمونى بغياً إن كنتم شرّفتمونى فإنى أريتكم ذلك من نفسى فأنَّى لكم مثلى . افهموا ما أقول لكم إنه من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به ، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل ، ولم يزل الباطل ينفر من الحق ، يا معشر عَدوان

---

(١) المطر

لا تشمتوا بالذلة ولا تفرحوا بالعزة فبكل عيش يعيش الفقير مع الغنىّ ومَنْ يُرِ يوماً يُرَ به ، وأعِدُّوا لكل أمر جوابَه ، إن مع السفاهة النـــدامةَ ، والعقوبةُ نكالٌ وفيها ذمامة ، ولليد العليا العاقبة والقود راحة لا عليك ولا لك ، وإذا شئت وجدت مثلك إنَّ عليك كما أنَّ لك ، وللكثرة الرُّعب ، وللصبر الغلبة ، ومَن طلب شيئاً وجده ، وإن لم يجده يوشِكُ أن يقع قريباً منه ، ومنهم :

غيلان بن سلمة الثقفى

وهو غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف ابن ثقيف وسمى أبو عمرو جدّه شرحبيل : قال المرزبانى فى معجم الشعراء : غيلان شريف شاعر أحد حكام قيس فى الجاهلية .

« وأنشد له »

لم ينتقص منى المشيبُ قُلامة[1] الآن حينَ بدا أَلَبُّ وأكْيَسُ

والشيب إنْ يحلل فإنَّ وراءه عمرا يكون خلاله متنفس

وفى مجمع الأمثال للميدانى : غيلان بن سلمة الثقفى من حكام قيس ، وكانت له ثلاثة أيام يوم يحكم بين الناس ، ويوم ينشد فيه شعره ، ويوم ينظر فيه إلى جماله ، وجاء الإسلام وعنده عشر نسوة فخيره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاختار أربعاً . وعدَّه أيضاً صاحب القاموس من حكام قيس . وأسلم بعد فتح الطائف ، وكان أحد وجوه ثقيف وأسلم أولاده عامر وعمار ونافع وهو أحد من نزل فيه قوله تعالى (على رجل من القريتين عظيم) وقد روى ابن عباس عنه شيئاً من شعره ، وهو ممن وفد على كسرى فبنى له حصناً بالطائف ، وله معه خبر ظريف قال أبو الفرج الأصبهانى بعد أن ساق سنده : كان غيلان بن سلمة قد وفد على كسرى فقال له ذات يوم أى ولدك أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر والمريض حتى يبرأ قال : عجبت لك هذا العقل . وقد روى الهيثم بن عدى هذه القصة أبين من

---

(١) القلامة بالضم ماسقط من الظفر .

هذه ، وفيها : كان أبو سفيان فى نفر من قريش ومن ثقيف فوجهوا بتجارة إلى العراق فقال لهم أبو سفيان : إنا نقدم على ملك جبار لم يأذن لنا فى دخول بلاده فأعدوا له جواباً . فقال غيلان : أنا أكفيكم على أن يكون نصف الربح لى قالوا نعم فتقدم إلى كسرى وكان جميلا فقال له الترجمان : يقول لك الملك كيف قدمتم بلادى بغير إذنى ؟ فقال : لسنا من أهل عداوتك ولا تجسسنا عليك وإنما جئنا بتجارةٍ فإن صلحت لك خذها وإلا فائذن لنا فى بيعها ، وإن شئت رجعنا بها . قال : وسمعت صوت الملك فسجدت فقيل له لم سجدت ؟ قال : سمعت صوت الملك حيث لا ينبغى أن ترفع الأصوات . فأعجب كسرى وأمر أن توضع تحته مرفقة فرأى عليها صورة كسرى فوضعها على رأسه . فقيل له : لم فعلت ذلك ؟ قال : رأيت عليها صورة الملك فأجللتها أن أجلس عليها . فاستحسن ذلك أيضاً ثم قال له : ألك ولد ؟ قال نعم . قال : فأيهم أحب إليك ؟ قال الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتي يقدم . قال : أنت حكيم من قوم لا حكمة فيهم . وأحسن إليه ، وذكرها أبو هلال العسكرى فى كتاب الأوائل بغير إسناد أطول مما هنا فقال : خرج أبوسفيان بن حرب فى جمع من قريش وثقيف يريدون بلاد كسرى بتجارة لهم فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان فقال : إنا فى سيرنا هذا لعلى خطر ، ما قدومنا على ملك لم يأذن لنا بالقدوم عليه وليست بلاده لنا بمتجر فأيكم يذهب بالعير فنحن برآء من دمه إن أصيب ، وأن يغنم فله نصف الربح ؟ فقال غيلان بن سلمة أنا أمضى بالعير وأنشده :

فلو رآنى أبو غيلان إذ حسرت ... عنى الأمور بأمرٍ ماله طبَقُ[1]
لقال : رُعْبٌ ورهبٌ أنتَ بينهما ... حبُّ الحياة وهول النفس والشفق
أما مشف على مجدٍ ومَكْرُمةٍ ... أو أُسْوة لك فيمن يهلك الوَرِقُ[2]

---

(١) الطبق غطاء كل شيء ، والحسر : الكشف (٢) قوله مشف على مجد هكذا هو فى الأصل ولعله مسف الى مجد من أسف اليه أى دنا ، والمكرمة بضم الراء اسم من الكرم والأسوة : القدوة ، والورق : الدراهم المضروبة

فخرج بالعير وكان أبيضَ طويلا جعْداً[١] فتخلّق[٢] ولبس ثوبين أصفرين وأشهر نفسه وقعد بباب كسرى حتى أَذِنَ له فدخل عليه وشباك بينه وبينه فقال له الترجمان : يقول لك ما أدخلك بلادى بغير إذنى ؟ فقال : لست من أهل عداوة لك ولم أكن جاسوساً ، وإنما حملت تجارة فإن أردتها فهى لك وإن كرهتها رددتها . قال : فإنه ليتكلم إذ سمع صوت كسرى فخرَّ ساجداً . فقال له الترجمان يقول لك ما أسجدك ؟ قال : سمعت صوتاً مرتفعاً حيث لا ترفع الأصوات فظننته صوت الملك فسجدت . قال : فشكر له ذلك وأمر بمرفقة فوضعت تحته فرأى فيها صورة الملك فوضعها على رأسه . فقال له الحاجب : إنا بعثنا بها إليك لتقعد عليها . فقال : قد علمت ولكننى رأيت عليها صورة الملك فوضعتها على أكرم أعضائى . فقال : ما طعامك فى بلادك ؟ قال : الخبز . قال : هـذا عقل الخبز ثم اشترى منه التجارة بأضعاف أثمانها وبعث معـه من بنى له أُطُماً[٣] بالطائف فـكان أولَ أطم بنى بالطائف . ومن أخبار غيلان فى الجاهلية ما حكاه أبو سعيد السكرى فى ديوان شعره أن بنى عامر أغاروا على ثقيف بالطـائف فاستنجدت ثقيف ببنى نصر بن معاوية وكانوا حلفاءهم فلم ينجدوهم فخرجت ثقيف إلى بنى عامر وعليهم يومئذ غيلان بن سلمة فقاتلوهم حتى هزموا بنى عامر ، وفى ذلك يقول غيلان فذكر شعراً يذكر فيه الوقعة ، وأخباره كثيرة مفصلة فيما أعِدَّ لمثلها من الـكتب . ومنهم :

هاشم بن عبد مناف القرشى

وهو من أكابر رجال قريش . وساداتهم وحكامهم ، وملك بعد أبيه الرفادة والسقاية واستقرت له الرياسة وصارت قريش له تابعة تنقاد لأمره وتعمل برأيه .

(١) جعد الشعر جعودة اذا كان فيه التوآء وتقبض فهو جعد وذلك خلاف المسترسل (٢) أى تطيب بالخلوق وهو ضرب من الطيب (٣) الأطم : القصر وكل حصن مبنى بحجارة وكل بيت مربع مسطح

وكان يعمل الطعام للحجاج يأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد ويقال لذلك الرفادة ، وأخباره كثيرة مشحونة منها كتب السير . وكان ذا أهل هلال ذى الحجة قام صُبَيْحته وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ويخطب ويقول فى خطبته : يامعشر قريش إنكم سادة العرب ، أحسنها وجوهاً ، وأعظمها أحلاماً ، وأوسط العرب أنساباً ، وأقرب العرب بالعرب أرحاماً ، يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله . أكرمكم الله بولايته ، وخصكم بجواره ، دون بنى إسماعيل ، وإنكم يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه ، وأحق من أكرم أضياف الله أنتم فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتون شُعثاً غبراً من كل بلد على ضوامر[1] كالقداح ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته ، فورب هذ البَنِيّة[2] . لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه ، وأنا مخرج من طيب مالى وحلالى مالم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام . فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ غصباً ، فكانوا يجتهدون فى ذلك ويخرجونه من أموالهم فيضعونه فى دار الندوة . وتنافرت قريش وخزاعة إليه لخطيهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة فقال فى خطبته : أيها الناس نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ومَعْدِن المجد ، ولكل فى كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم ، يا بنى قصى أنتم كغصن شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه والسيف لا يصان إلا بغمده ، ورامى العشيرة[3] يصيبه سهمه . ومن أَمْحَكَهُ[4] اللجاج أخرجه إلى البغى ، أيها الناس الحلم شرف ، و الصبر ظفر .

---

(١) جمع ضامر وهو الجمل المهزول (٢) البنية على فعيلة الكعبة لشرفها اذ هى أشرف مبنى يقال لا ورب هذه البنية ماكان كذا وكذا وفى حديث البراء رأيت بأن لا أجعل هذه البنية منى بظهر يريد الكعبة وكانت تدعى بنية ابراهيم عليه السلام لأنه بناها وقد كثر قسمهم برب هذه البنية (٣) وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

قومى هم قتلوا أميم أخى فاذا رميت أصابنى سهمى

(٤) أغضبه

والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر غُيّر ، [١] والمرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة . وإياكم والأخلاقَ الدنية فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ، وإن نهنهة الجاهل [٢] ، أهون من حزرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها . ومقام الحليم عظة لمن انتفع به ، فقالت قريش : رضينا بك أبا نضلة وهى كنيته . قال الإمام الماوردى بعد إيراد هذه الخطبة فى كتابه أعلام النبوة : فانظروا إلى ما أمر به من شريف الأخلاق ، ونهى عن مساوى الأفعال ، هل صدر إلا عن غزارة فضل ، وجلالة قدر وعلو همة ، وما ذاك إلا لاصطفاء يراد ، وذكر يشاد . لأن توالى ذلك من الآباء ، يوجب تناهيه فى الأبناء . ومنهم :

عبد المطلب بن هاشم القرشى

وكان أيضاً من حكام قريش ، وهو جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويدعى (شيبةَ الحمد) لكثرة حمد الناس له لأنه كان مفْزَعَ قريش فى النوائب وملجأهم فى الأمور فكان شريف قريش وسيدها كمالا وفعالا من غير مدافع ، وكان مجاب الدعوة ، وكان يقال له (الفياض) لجوده و (مطعم طير السماء) لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش فى رؤس الجبال ، وكان من حلماء قريش وحكمائها ، وكان ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، وكان نديمه حرب بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف والد أبى سفيان ، وكان فى جوار عبد المطلب يهودى فأغلظ ذلك اليهودى القول على حرب فى سوق من أسواق (تهامة) فأغرى عليه حربٌ من قتله فلما علم عبد المطلب بذلك ترك منادمة حرب ولم يفارقه حتى أخذ

(١) اى متقلب (٢) زجره .

منه مائة ناقة دفعها لابن عم اليهودىّ حفظاً لجواره . ثم نادم عبد الله بن جُدْعان ، وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيئات الأمور . وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه ، وتصيبه عقوبة إلى أن هلك رجل ظلوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة فقيل لعبد المطلب فى ذلك ، ففكر وقال : والله إن وراء هـذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسىء بإساءته — أى فالظلوم شأنه فى الدنيا ذلك حتى إذا خرج من الدنيا ولم تصبه العقوبة فهى معدّة له فى الآخرة — ورفض فى آخر عمره عبادة الأصنام ووحّد الله سبحانه وتعالى ، وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السُّنَّه بها ، منها الوفاء بالنذر ، والمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموءودة ، وتحريم الخمر والزنا وأن لا يطوف بالبيت عُرْيان . ومنهم :

***

أبو طالب بن هاشم بن عبد مناف

وهو عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وناصره ولد قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بخمس وثلاثين سنة ، ولما مات عبد المطلب وصى بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم إليه فكفله وأحسن تربيته ، وسافر به إلى الشام وهو شاب . ولما بعث صلى الله تعالى عليه وسلم قام بنصرته وذب عنه من عاداه ومدحه عدة مدائح واسمه عبد مناف على المشهور واشتهر بكنيته ، وقيل اسمه عمران ، وقيل شيبة . وكان من حكام قريش وساداتها ومرجعها فى الملمات . قال الواقدى : وتوفى أبو طالب فى النصف من شوال فى السنة العاشرة من النبوة وهو ابن بضع وثمانين سنة واختلف فى إسلامه . قال ابن حجرٍ : رأيت لعلىّ بن حمزة البصرى جزءًا جمع فيه شعر أبى طالب ، وزعم أنه كان مسلماً ومات على الإسلام وإن الحشوية تزعم أنه مات كافراً ، واستدل لدعواه بما لا دلالة فيه انتهى . ومن شعره قوله

ودعوتَنى وزعمتَ أنك صادق ولقد صدقتَ وكنتَ قبلُ أمينا
ولقد علمت بأن دينَ محمدٍ من خيرِ أديانِ البرية دِينا

ومن شعره الذى قاله وهو فى الشعب :

ألا أبلغا عنى على ذاتِ بيننا لؤيّا وخصًّا من لؤى بنى كعب
ألم تعلموا أنا وجـــدنا محمداً نبياً كموسى خُطَّ فى أول الـكتب
وأن عليـــه فى العباد مودةً ولا خير ممن خصه الله بالحب

وهى قصيدة جيدة على هذا الأسلوب ، وله قصيدة لامية طويلة تزيد على مائة بيت وهى من جيد شعره عاذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها إلى أشراف قومه ، وأخبر قريشاً أنه غير مسلم محمداً رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد حتى يهلك دونه ومدحه فيها أيضاً ، وقالها فى الشعب لـما اعتزل مع بنى هاشم وبنى عبد المطلب قريشاً . وسبب دخوله الشعب أن كفار قريش اتفق رأيهم على قتل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقالوا : قد أفسد أبناءنا ونساءنا ، فقالوا لقومه : خذوا منّا ديةً مضاعفة ويقتله رجل من غير قريش وتريحوننا وتريحون أنفسكم فأبى بنو هاشم من ذلك ، وظاهَرَهم بنو عبد المطلب فاجتمع المشركون من قريش على منا بذتهم وإخراجهم من مكة إلى الشعب ، فلما دخلوا الشعب أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة وكانت مَتْجَراً لقريش ، وكان يثنى على النجاشى بأنه لا يظلم عنده أحد ، فانطلق عامة من آمن بالله ورسوله إلى الحبشة ودخل بنو هاشم وبنو عبد المطلب الشعب مؤمنهم وكافرهم فالمؤمن ديناً والـكافر حمية ، فلما عرفت قريش أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد منعه قومه أجمعوا على أن لا يبايعوهم ولا يدخلوا إليهم شيئاً من الرفق وقطعوا عنهم الأسواق ولم يتركوا طعاماً ولا إداماً إلا بادروا إليه واشتروه ولا ينا كحوهم ولا يقبلوا منهم صـلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يُسـلّموا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها

فى الكعبة ، وتمادوا على العمل بما فيها من ذلك ثلاث سنين فاشتد البلاء على بنى هاشم ومن معهم فأجمعوا على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة ، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى طالب : يا عم إن ربى قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلحستها إلا ما كان اسماً لله فأبقته . قال : أربك أخبر بهذا ؟ قال : نعم . قال : فوالله ما يدخل عليك أحد ثم خرج إلى قريش . فقال : يا معشر قريش إن ابن أخى أخبرنى ولم يكذبنى أن هذه الصحيفة التى فى أيديكم قد بعث الله عليها دابة فلحست ما فيها فإن كان كما يقول فأفيقوا فلا والله لا نسلمه حتى نموت ، وإن كان يقول باطلا دفعناه إليكم . فقالوا : قد رضينا ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر به صلى الله تعالى عليه وسلم وقالوا : هذا سحر ابن أخيك وزادهم ذلك بغياً وعدواناً ، فقال أبو طالب : يا معشر قريش علامَ نحصر ونحبس وقد بان الأمر وتبين أنكم أهل الظلم والقطيعة ؟ ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة وقال : اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا ، ثم انصرف إلى الشعب وقال هذه القصيدة . قال ابن كثير : هى قصيدة بليغة جداً لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه ، وهى أفحل من المعلقات السبع وأبلغ فى تأدية المعنى . منها قوله :

خليليَّ ما أذنى لأولِ عاذلٍ بصغْواءَ فى حقٍ ولا عند باطِلِ [1]

خليليَّ إنَّ الرأىَ ليس بشركةٍ ولا نَهْنهٍ عند الأمور البلابلِ [2]

---

(١) بصغواء خبر ما النافية وهى حجازية ولذا زيدت الباء ، والصغو الميل وأصغيت الى فلان اذا ملت بسمعك نحوه ولأول عاذل متعلق بصغواء وفى حق متعلق بعاذل أى لا أميل بأذنى الأول عاذل فى الحق وانما قيد العاذل بالاول لانه اذا لم يقبل عذل العاذل الأول فمن باب أولى أن لا يقبل عذل العاذل الثانى فان النفس اذا كانت خالية الذهن ففى الغالب أن يستقر فيها أول ما يرد عليها . (٢) أراد ان الرأى الجيد يكون بمشاركة العقلاء فان لم يتشاركوا بان كانوا متباغضين لم ينتج شيئا والرأى ما لم يتخمر فى العقول كان فطيرا ، والنهنهة بنونين وهاءين كجعفر : المضىء والنير الشفاف الذى يظهر الاشياء على جليتها وأصله الثوب الرقيق النسج ومن شأنه ان لا يمنع النظر الى ما وراءه وهو معطوف على شركة ، والبلابل اما جمع بلبلة بفتح الباءين أو جمع بلبال بفتحهما وهما بمعنى الهم ووساوس الصدر كزلازل جمع زلزلة وزلزال بالفتح وهو اما على حذف مضاف أى ذات البلابل أو أنها بدل من الامور .

ولما رأيتُ القومَ لا ودَّ عندهم ... وقد قطعوا كل العُرا والوسائل[١]
وَقد صارَحُونا بالعداوَة وَالأَذى ... وَقد طاوَعوا أمرَ العدوِّ المزايل[٢]
وَقد حالفوا قوماً علينا أظِنّةً ... يعضُّون غيظاً خلْفنَا بالأنَامل[٣]
صبرتُ لهم نفسى بسمراءَ سمحةٍ ... وأبيض عضبٍ من تراث المقاول[٤]
وَأحضرتُ عند البيت رهْطى وإخوتى ... وَأمسكتُ من أثوابه بالوصائل[٥]
قياماً معاً مستقبلين رتاجَهُ ... لدى حيثُ يقضى خلفه كل نافِلِ[٦]
أعوذُ بربِّ الناس من كل طاعن ... علينَا بسوءٍ أو مُلحٍّ بباطِلِ[٧]
ومن كاشحٍ يَسْعى لنَا بمَعيبةٍ ... ومن مُلحقٍ فى الدِّين مالم نحاوِلِ[٨]

وكلها على هذا المنوال وهى مذكورة مع شرحها فى كتاب لب لباب لسان العرب . وعن هشام بن محمد بن السائب الكلبى أنه قال : لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ جمع إليه وُجوه قريش فأوصاهم فقال : يا معشرَ قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المِقدام الشجاع ، الواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب وعلى حربكم إلْبٌ[٩] ، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البَنِيَّة (يعنى الكعبة) فإن فيها

---

(١) أراد بالقوم كفار قريش ، والعرا جمع عروة وهى معروفة واراد هنا ما يتمسك به من العهود مجازا مرسلا ، والوسائل جمع وسيلة وهى مايتقرب به . (٢) صارحونا أى كاشفونا بالعداوة وصريحا والصراحة وان كانت لازمة لكنها لما نقلت الى باب المفاعلة تعدت ، والمزايل اسم فاعل من زايله مزايلة وزيالا فارقه وباينه وانما يكون العدو مفارقا اذا صرح بالعداوة فلا تمكن العشرة . (٣) حالفوا قوما مثل صارحونا فى أنه كان لازما وتعدى الى المفعول بنقله الى باب المفاعلة والتحالف التعاهد والتعاقد على أن يكون الامر واحدا فى النصرة والحماية وعلينا متعلق بحالفوا ، والاظنة جمع ظنين وهو الرجل المتهم والظنة بالكسر التهمة والجمع الظن . (٤) الصبر والحبس ، والسمراء : القناة ، والسمحة اللدنة اللينة بالهز والانعطاف ، والابيض : السيف ، والعضب : القاطع ، والمقاول جمع مقول بكسر الميم الرئيس وهو دون الملك . (٥) الوصائل ثياب مخططة يمانية كان البيت يكسى بها .

(٦) الرتاج : الباب العظيم وهو مفعول مستقبلين ، والنافل فاعل من النافلة وهو التطوع . (٧) قوله ملح اسم فاعل من الح على الشىء اذا أقبل عليه مواظبا . (٨) المعيبة العيبة والنقيصة ، ونحاول : نريد ، والكاشح : مضمر العداوة . (٩) واحد مجتمعون عليه بالظلم والعداوة .

مرضاة للرب وقواماً للمعاش ، وثباتاً للوطأة ، صلوا أرحامكم فإن فى صلة الرحم منسأةً (أى فسحةً) فى الأجل ، وزيادةً فى العدد ، اتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى ، وأعطُوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والمات ، وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة فإن فيهما محبةً فى الخاص وَمَكْرُمةً فى العام ، وإنى أوصيكم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين فى قريش ، والصدِّيق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به وقد جاءنا بأمر قبله الجنَان[1] ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن وأيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعَفين من الناس ، قد أجابوا دعوته ، وَصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ، ودورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً ، وإذاً أعظمهم عليه ، أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأصفت له بلادَها ، وأعطته قيادَها ، يا معشر قريش كونوا له ولاةً ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحدٌ سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ بهديه أحد إلا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ، وفى أجلى تأخير ، لكففت عنه الهزاهز ولدافعت عنه الدواهى ، ثم هلك ، ومنهم :

العاص بن وائل القرشى

عده صاحب القاموس من حكام قريش وكذلك الميدانى فإنه قال فى كتاب مجمع الأمثال : العاص بن وَائل من حكام قريش . وقد ذكر نسبه الزبيدى فى شرحه على القاموس فقال : العاص بن وَائل بن هشام بن سعيد بن سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤى انتهى وهو والد عمرو بن العاص الصحابى المشهور وكان له قدر فى الجاهلية ولم يوفق للإسلام . قال ابن الكلبى : كان من حكام قريش ، وَأجار عمر رضى الله تعالى عنه حين أسلم . وَقد أخرج الزبير بن بكار

(١) القلب .

هذه القصة مطولة وفيها : أَنَّ العاص بن وائل قال رجل اختار لنفسه أمراً فمالكم وله فردّ المشركين عنه . وكان موته بمكة قبل الهجرة ، ولم أقف على كمال خبره فيما بين يدى من كتب الأدب سوى ما ذكرت وهو كاف فى المقصود . ومنهم :

العلاء بن حارثة القرشى

وهو على ما فى القاموس أيضاً من حكام قريش ، واسم جده نضلة بن عبد العزى بن رياح وكان عند قريش بمكان مكين من علو المنزلة ونفوذ الحكم وسعة الاطلاع بأحوال العرب وأنسابهم وأحسابهم . ومنهم :

ربيعة بن حذار الأسدى

كان حكما من حكام بنى أسد وإليه مرجعهم فى كل ما يعنّ لهم من الحوادث وإليه نافر خالد بن مالك بن تميم النهشلى القعقاع بن معبد التميمى كما ذكرناه سابقاً عند ذكر المنافرات وكان ما أوردناه من رواية الميدانى فى كتاب مجمع الأمثال . ورأيت القصة فى كتاب أسد الغابة عند ترجمة خالد هذا بلفظ آخر وكلامٍ أبسط وأشمل فأحببت ذكرها هنا تكميلا للفائدة وهى : إن خالداً هو الذى نافر القعقاع إلى ربيعة بن حذار الأسدى فقال هاتيا مكارمكما . فقال خالد : أعطيت من سأل ، وأطعمت من أكل ، ونصبت قدورى حين وضعت السماك ذيولها ، وطعنت يوم (شواحط) فارساً فجللت فخذيه بفرسه . فقال : يا قعقاع ما عندك ؟ فأخرج قوس حاجب فقال : هذا قوس عمى رهنها عن العرب وهاتان نعلا جدى قسم فيها أربعين مرْباعاً وهذه زربية[1] زرارة لم ير ناره خائف إلا أمن ولم يمسك بطنب فُسطاطه[2] أسير إلا فكّ . فنادى ربيعة بن حُذار إن السماحة واللهى[3] والمِرْباع والشرفَ الأسبغَ للقعقاع إلا أنى نفرت من كان أبوه معبداً وعمه حاجباً وجده زرارة . قال أبو أحمد العسكرىّ · ثم أدرك القعقاع بن معبد وخالد بن مالك النهشلىّ

---

(١) البساط أو كل ما بسط واتكىء عليه . (٢) بضم الفاء وكسرها بيت من الشعر والجمع فساطط . (٣) العطايا .

الإسلام فوفدا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال أبو بكر : أمر هذا[١] . وقال عمر : أمر هذا[٢] . فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لولا أنكما اختلفتما لوليتهما وأخذت برأيكما ، وهذه المقالة من أبي بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما قد ذكرت فى ترجمة القعقاع بن معبد من كتاب أسد الغابة ، وكان الثانى الأقرع بن حابس التميمى ، وهو الأكثر . وقد نسب خالداً المذكور ابن الكلبى فقال خالد ابن مالك بن ربعى بن مسلم بن جندل بن نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك ابن زيد مناة بن تميم . وقال كان شريفاً ولم يذكر له صحبة إلا أبو أحمد العسكرى . والله أعلم . ومنهم :

يعمر الشداخ الكنانى[٣]

وهو يعمُرُ بن عوف بن كعب ولقب بالشُدَّاخ لأنه شَدَخَ دماءَ خُزاعة وكان حكما من حكام كنانة ، وكان عالم العرب فى وقته خبيراً بأنسابهم وأحسابهم . ومنهم :

صفوان بن أمية

كان أيضاً من حكام كنانة وإليه مرجعهم فيما ينوبهم من المهمات وكان فصيح اللسان مشهور البيان ، وأخباره كثيرة تدل على رفعة شأنه وعلو مكانه بين العرب . ومنهم :

سلمى بن نوفل الكنانى

كان أيضاً من حكام كنانة وعرفائها حيث كان فى الفهم والفطنة بمنزلة أذعن له بها العرب غير أنهم كانوا يفضلون عليه عامر بن الظَرِب العدْوانى . ومنهم :

---

(١) هو القعقاع بن معبد بن زرارة . (٢) هو على ما فى الاصابة الاقرع ابن حابس التميمى . (١) قال فى القاموس ويعمر الشداخ كطوال وطياب وقد يفتح : أحد حكامهم حكم بين قضاعة وقصى فى أمر الكعبة وكثر القتل فشدخ دماء قضاعة تحت قدمه وأبطلها فقضى بالبيت لقصى وهذا ـ الذى ذهب اليه صاحب القاموس ـ تبعا لبعض المؤرخين وقيل يوجد فى بعض النسخ بين خزاعة .

مالك بن جبير العامرى

كان من حكام العرب وحكمائها المشهورين بجودة الفهم وغزارة العقل وسعة الاطلاع . ومن كلامه الذى ضرب به المثــل : (على الخبير سقطتَ) والخبير العالم والخبر العلم ، وسقطت أى عثرت عبر عن العثور بالسقوط . لأن عادة العاثر أن يسقط على ما يعثر عليه . وقد تمثل الفرزدق بهذا المثل للحسين بن على رضى الله تعالى عنهما حين أقبل يريد العراق فلقيه وهو يريد الحجاز فقال له الحسين : ما وراءك ؟ قال : (على الخبير سقطت) قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والأمر ينزل من السماء . فقال الحسين رضى الله تعالى عنه : صدقتَنى . ومنهم :

عمرو بن حممة الدوسى

وحممة بضم المهملة وفتح الميم الخفيفة بعدها مثلها . ذكر أبو بكر بن دريد أنه وفد على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والذى ذكره غيره أنه مات فى الجاهلية وكان معَمَّراً . وهو الذى يقول :

أخبِّرُ أخبارَ القرون التى مضت ولا بُدَّ يوماً أنْ تطار لمصرعى

أنشده له ابن الــكلبى . وقال المرزبانى : كان أحد حكام العرب فى الجاهلية وأَحَدَ المعمَّرين . يقال إنه عاش ثلاثمائة وتسعين سنة . وأنشد له البيت المذكور وقبله :

كبرتُ وطال العمر منى كأننى سليم أفاعٍ ليــله غــير مودع

وبعده

وما السقم أبلانى ولــكن تتابعتْ علىَّ سنون من مَصِيفٍ وَمَرْبع

ثلاث مئين من سنينٍ كواملٍ وها أنا هذا أرتجى مرَّ أربع

فأصبحت بين الفخِّ والعُشِّ نادِباً إذا رام تطياراً يقال له : قَع [1]

---

(١) الفخ : آلة يصاد بهــا .

أخبر أخبــار القرون البيت . قال : ويقال إنه الذى كان يقال له ذو الحلم وضربت به العرب المثل فى قرع العصا لأنه بعد أن كبر صار يذهل فاتخذوا له من يوقظه فيقرع العصا ، فيرجع إليه فهمه وإليه أشار الحارث بن وعلة :

وزعمتمُ أنْ لا حُلومَ لنـا إن العصا قُرِعت لذى الحلم

وقال الفرزدق :

* كأنَّ العصا كانت لذى الحلم تقرعُ *

وقال الآخر :

لذى الحلم قبلَ اليوم ما تقْرَعُ العصا وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا ليعلما

قال ابن دريد بسنده إلى الشعبي قال : كنا عند ابن عباس وهو فى ضفة زمزم يفتى إذ قام إليه أعرابى فقال : أفتيتهم فافتنا . قال : هات قال : مامعنى قول الشاعر لذى الحلم قبل اليوم ، وأنشد البيت السابق ؟ فقال له ابن عباس : ذاك عمرو بن حممة الدوسى قضى بين العرب ثلاث مائة سنة فـكبر فألزموه السابع أو التاسع من ولده ، فـكان إذا غفل قرع له العصا ، فلما حضره الموت اجتمع إليه قومه فأوصاهم وصية حسنة فيها حلم ، وهذا كله منقول من الإصابة لابن حجر . وقد حقق الميدنى أن أول من قرعت له العصا عامر بن الظرِب ، والقول بأنه عمرو ابن حُمَمَة هو قول أهل اليمن ، والأبيات السابقة نسبها إلىعامر أيضاً وجعل بدل قوله « كبرت وقد طال » تقول ابنتى لمـا رأتنى كأننى . روى أبو على القالى فى أماليه (١) قال حدثنا أبو بكر بن دريد قال حدثنى عمى أبيه عن ابن الـكلبى عن أبى مسكين وعن الشرقى بن قطامى قال : لمـا مات عمرو بن حممة الدوسى وكان أحد من تتحاكم إليه العرب مر بقبره ثلاثة نفر من أهل يثرب قادمين من الشام الْهِدْم بن امرىء القيس بن الحارث زيد بن كلثوم (أبو كلثوم بن الهدم الذى نزل عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) وعتيك بن قيس بن هيشة

---

(١) ج ٢ ص ١٤٥

ابن أمية بن معاوية ، وحاطب بن قيس بن هيشة الذى كان بسببه حرب حاطب فعقروا روَاحلهم على قبره وقام الهِدْم فقال :

لقد ضمت الأثراء منكَ مُرَزَّأً عظيمَ رماد النار مُشْتَرَكَ القِدْرِ
حليماً إذا ما الحلم كان حَزَامَةً وَقُوراً إذا كان الوقوفُ على الجمرِ
إذا قلتَ لم تَتْرُكْ مقالاً لقائلٍ وإن صُلْتَ كنت الليث يحمى حمَى الأجْرِ
لِيَبْكِكَ من كانت حياتُك عِزَّهُ فأصْبحَ لما بنْتَ يُغضى على الصُّغرِ
سقى الأرضَ ذاتَ الطول والعرض مُثجِمٍ أحَمُّ الرحى وَاهى العُرى دائم القطْرِ(١)
وَما بِيَ سُقْيا الأرض لكنَّ تُربةً أضلَّكَ فى أحشائها مَلْحَدُ القبر

الرحى وسط الغيم ومعظمه ووسط الحرب ومعظمها . وقام عتيك فقال :

بِرغم العُلا وَالجودِ وَالمجد وَالنَّدَى طواكَ الرَّدَى يا خيرَ حافٍ وَناعِلِ
لقد غال صَرْفُ الدهر منك مُرَزَّأً نَهُوضاً بأعباء الأمور الأثاقلِ
يَضُمُّ العُفاة الطارقين فناؤُهُ كما ضَمَّ أُمُّ الرأس شَعبُ القبائل
وَيَسْرُو دَجى الهَيْجا مَضاءُ عَزيمةٍ كما كَشَفَ الصبحُ اطّراق الغَياطل(٢)
وَيُسْتَهزَم الجيش العَرَمْرَمُ باسمه وإن كان جرَّاراً كثيرَ الصواهِل
وَينقادُ ذو البأوِ الأبيُّ لحُكمه فيرتَدُّ قَسْراً وَهو جَمُّ الدَّغاوِلِ(٣)
وَيَمْضِي إذا ما الحرب مُدَّتْ رِوَاقُهَا على الرَّوْع وَارفضَّتْ صدورُ العوامل
فإمّا تُصِبْنَا الحادثاتُ بنَكْبَةٍ رمتك بها إحدى الدوَاهى الضآبل
فلا تَبْعُدَنْ إن الحُتوفَ مَوَارِدُ وكل فتًى من صَرْفِهَا غيرُ وَائل

الضآبل الضواهى واحدها ضِئْبِل . وقام حاطب بن قيس فقال :

سلامٌ على القبر الذى ضمَّ أعظُماً تَحومُ المعالى حولَهُ فَتُسَلِّمُ

---

(١) أثجم المطر اذا دام وأثجمت السماء اسرع مطرها ثم أقلعت وقيل أثجمت السماء دام مطرها كثجمت ثجما . (٢) الغيطلة : الظلمة والغيطلة اختلاط الأصوات قال أبو النجم : مستأسدا ذبانة فى غيطل) وهو جمع غيطلة والغيطلة البقرة الوحشية والغيطلة الشجر الملتف ، قال ابن الاعرابى : الغيطلة التفاف الناس واجتماعهم والغيطلة غلبة النعاس .

(٣) الدغاول : الدواهى .

سلام عليه كلما ذرَّ شارقٌ ... وما امتدَّ قِطْعٌ من دُجَى الليل مُظلِم
فيا قبرَ عمرٍو جادَ أرضاً تعطَّفتْ ... عليك مُلِثٌّ دائم القَطْرِ مُرْزِمُ
تضمَّنْتَ جسماً طابَ حيًّا وَميتاً ... فأنتَ بما ضُمِّنْتَ فى الأرض مُعْلَمُ
فلو نطقت أرضٌ لقال تُرابها ... إلى قبر عمرو الأزدِ حَلَّ التَكرُّمُ
إلى مَرْمَس قد حلَّ بين تُرابها ... وأحجاره بدْرٌ وأضبَطُ ضيغَمُ
فلو وَأَلَتْ من سَطوة الموت مُهْجَةٌ ... لَكنتَ ولكنَّ الرَّدى لا يُثَمْثِمُ[(١)]
ولا يُبعدَنْك الله حيًّا وَميتاً ... فقد كنتَ نورَ الخطْب وَالخطبُ مُظلِم
وقد كنتَ تُمضى الحكم غير مُهَلِّلٍ ... إذا غَال فى القولِ الأَبَلُّ الغَشَمْشَمُ[(٢)]
لعَمْرُ الذى حُطَّت إليه على الونى ... حدَابيرُ عوجٌ نيُّهَا مُتَهَمِّمُ[(٣)]
لقد هدَّ مِلْعَلْياء موتُك جانباً ... وَكان قديماً ركنها لا يهدَّم

ومنهم :

الحارث بن عباد الربيعى

قال أبو رياش فى شرح الحماسة : كان الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة من حكام ربيعة وفرسانها المعدودين ، وكان اعتزل حرب بنى وائل وتنحى بأهله وولده وولد إخوته وأقاربه وحل وَتَرَ قوسه ونزع سنان رمحه ولم يزل معتزلا حتى إذا كان فى آخر وقائعهم خرج ابن أخيه بجير بن عمرو بن عباد فى أثر إبل له نَدَّتْ[(٤)] يطلبها فعرض له مهلهل فى جماعة يطلبون غِرَّة (أى غفلة) بكر بن وائل فقال لمهلهل امرؤ القيس بن أبان بن كعب بن زهير بن جشم (وكان من أشراف بنى تغلب . وكان على مقدمتهم زماناً طويلا) : لا تفعل فوالله لئن قتلته ليقتلن به منكم كبش لا يسئل عن خاله من هو وإياك أن تحقر البغى فإن عاقبته وخيمة ، وقد اعتزلنا عمه وأبوه وأهل بيته وقومه فأبى مهلهل إلا قتله فطعنه

---

(١) وألت . نجت ، ويثمثم : يبطىء ويثمثم بحرك ويدفع .
(٢) المهلل: المتوقف ويقال حمل عليه فما هلل، والابل: الظلوم، والغشمشم: الذى يركب برأسه لا يثنيه شىء عما يحب ويهوى . (٣) الحدابير جمع حدبار وهى المنحنية الظهر . والنى الشحم ، والمتهمم : الذآئب ، وقوله ملعياء أى من العلياء . (٤) أى شردت ونفرت .

بالرمح وقتله وقال بُؤْ بشسع نعل كليب . يقال أبأت فلاناً بفلان فبآء به إذا قتله به ولا يكاد يستعمل هذا إلا والثانى كفء للأول ، وسيأتى باقى القصة عند ترجمته فى مبحث الفرسان . ومنهم :

القلمس الكنانى[1]

كان أحد حكام العرب فى الجاهلية ، وكان أيضاً من نَسَأَةِ الشهور كان يقف عند جمرة العقبة ، ويقول : اللهم إنى ناسئُ الشهور وواضعُها مواضِعَها ولا أعابُ ولا أجاب ، اللهم إنى قد أحْلَلْتُ أحد الصَفَرَيْن وحرمت صفر المؤخَّر ، وكذلك فى الرَجَبَيْن يعنى رجباً وشعبان ، انفِرُا على اسم الله تعالى . وذلك قوله تعالى (إنما النسىء زيادة فى الكفر) وسيأتى له ذكر إن شاء الله تعالى فى ترجمة ابنة الُخسّ ، ومنهم :

ذو الأصبع العدوانى

كان أحد حكام العرب فى الجاهلية وشعرائهم المعَمَّرين ، قال أبو حاتم فى كتاب المعمرين : عاش ذو الإصبع وهو حرثان بن محرث من عدوان بن عمرو ابن قيس عيلان ثلثمائة سنة وقال :

أصبحتُ شيخاً أرى الشخصين أربعةً والشخص شخصين لما مسَّنى الكِبَرُ
لا أسمَعُ الصوتَ حتى استَدِيرَ له ليلا وإنْ هو ناغانى به القَمَرُ

وإنما قال ليلا لأن الأصوات هادئة ، فإذا لم يسمع بالليل والأصوات ساكنة كان من أن يسمع بالنهار مع ضجة الناس ولغطهم أبعد . وإنما قيل له ذو الإصبع لأنه كانت له فى رجله أصبع زائدة . وقال ابن قتيبة فى كتاب الشعراء : ذو الإصبع حرثان بن عمرو من عدوان بن عمرو بن قيس عيلان ، وكان جاهلياً وسمى ذو الإصبع لأن حية نهشت إصبع فقطعها انتهى . وقال ابن الأنبارى فى شرح المفضليات .

---

(١) القلمس معناه البحر .

نسبه أحمد بن عبيد وغيره ، فقالوا : هو حرثان بن الحارث والأصمعى يقول : ابن السموءل بن محرث بن شبـابة بن ربيعة بن هبيرة بن ثعلبة بن الظرب ابن عمرو بن عياذ بن يشكر بن عدوان وهو الحرث بن عمرو بن سعد بن قيس ابن عيلان بن مضر بن نزار ، وإنما سمى ذا الإصبع لأن أفعى نهشت إبهام رجله فقطعها ، ويقال إنه كانت له إصبع زائدة انتهى . وقال السيد المرتضى فى أماليه غرر الفوائد ودرر القلائد : ومن المعمرين ذو الإصبع العدوانى واسمه حرثان بن محرث ابن الحارث بن ربيعة بن وهب بن ثعلبة بن ظرب بن عمرو بن عياذ بن يشكر ابن عَدْوان وهو الحرث بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر وإنما سمى الحرث عدوان لأنه عدا على أخيه فهم فقتله وقيل بل فقأ عينه ، وقيل إن اسم ذى الإصبع محرث بن حرثان ، وقيل حرثان بن حويرث ، وقيل حرثان بن حارثة ويكنى أبا عدوان ، وسبب لقبه بذى الإصبع أن حية نهشته على إصبعه فشلت فسمى بذلك ، ويقال إنه عاش مائة وسبعين سنة . وقال أبو حاتم : إنه عاش ثلاثمائة سنة وهو أحد حكام العرب فى الجاهلية ، ثم أورد السيد جملا من أحواله إلى أن أورد هذه الحـكاية وأوردها الزجاجى أيضاً فى أماليه الصغرى بسندها إلى سعيد بن خالد الجدلى أنه قال : لما قدم عبد الملك بن مروان الـكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير دعا الناس إلى فرائضهم فأتيناه فقال : ممن القوم ؟ فقلنا : من جديلة . فقال جديلة عدوان ؟ قلنا : نعم . فتمثل عبد الملك .

عَذِيرَ الحىِّ من عَدْوا ... نَ كانوا حَيَّةَ الأرضِ (١)

بغى بعضُهُم بعضـــاً ... فلم يرعوا على بَعْضِ (٢)

---

(١) اختلف فى العذير فمنهم من جعله مصدرا بمعنى العذر وهو مذهب سيبويه ومنهم من جعله بمعنى عاذر كعليم وعالم والمعنى عنده هات عذرك واحضر عاذرك وامتنع أن يجعله بمعنى العذر لأن فعيلا لايبنى على المصـــدر الا فى الأصوات نحو الصهيل والنهيق والنبيح والاولى مذهب سيبويه لان المصدر يطرد وضعه موضع الفعل بدلا منه لانه اسمه ولا يطرد ذلك فى اسم الفاعل وقد جاء فعيل فى غير الصوت كقولهم وجب القلب وجيبا اذا اضطرب، وقوله كانوا حية الارض أى كانوا يتقى منهم لكثرتهم وعزتهم كما يتقى من الحية المنكرة . (٢) الارعاء الابقاء على أخيك .

ومنهم كانت الســـادا تُ والموفونَ بالقَرْض

ثم أقبل على رجل كنا قدمناه أمامنا جسيم وسيم ، فقال . أيكم يقول هذا الشعر ؟ فقال : لا أدرى . فقلت من خلفه : يقوله ذو الإصبع فتركنى وأقبل على ذلك الجسيم . فقال : وما كان اسم ذى الإصبع ؟ فقال لا أدرى . فقلت أنا من خلفه : اسمه حرثان ، فأقبل عليه وتركنى ، فقال : لم سمى ذا الإصبع ؟ فقال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : نهشته حية على إصبعه . فأقبل عليه وتركنى . فقال : من أيكم كان ؟ فقال : لا أدرى . فقلت أنا من خلفه : من بنى ناج ، فأقبل على الجسيم فقال : كم عطاؤك ؟ فقال : سبعمائة درهم . ثم أقبل علىَّ فقال . كم عطاؤك ؟ قلت : أربعمائة درهم فقال لكتابه : حط من عطاء هذا ثلاثمائة وزدها فى عطاء هـذا فَرُحْتُ وعطائى سبعمائة وعطاؤه أربعمائة انتهى . وأورد له من شعره قوله :

أكاشر كالظغن المبين منهم وأضحك حتى يبدوَ النابُ أجمعُ
وأهدنه بالقول هدناً ولو يرى سريرةَ ما أُخفى لباتَ يفزع

ومعنى أهدنه أسكنه . ومن شعره أيضاً قوله :

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ شرَاشِرَهُ أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنـا أفيقوا سَيَلْقَى الشامتون كما لقينا

ومنه قوله أيضا :

ذَهَبَ الذين إذا رأونى مقبلا هَشُّوا إلىَّ ورحَّبوا بالمقبلِ
وهمُ الذين إذا حملت حَمَالَةً ولقيتُهم فكأننى لم أحمل

والحمالةُ بالفتح تحمل دية القتيل عن القاتل ومعنى الشراشر فى البيت السابق الثقل ومنه قوله :

ولى ابن عمٍّ على ما كانَ من خُلُق مختلفان فَأَقْليه ويَقْلِينى
أزرى بنا أننا شالت نَعامَتنا فخالَنى دونه بل خِلْتُه دونى[1]

(١) يقال ازرى به اذا قصر وزرى عليه اذا عابه ، وقوله شالت نعامتنا أى تفرق أمرنا واختلف والمعنى تنافرنا فصرت لا اطمئن اليه ولا يطمئن الى .

لاهِ ابنُ عمك لاأفْضَلْتَ فى حسب ... عنى ولا أنت ديّانى فَتَخزُونى[1]

إنى لَعَمْرُكَ مابابى بذى غَلَق ... عن الضيوف ولا خيرى بِمَمْنون

ولا لسانى على الأدنى بمنطقٍ ... بالفاحشات ولاأغضى على الهون

ماذا علىَّ وإن كنتم ذوى رحمى ... أن لا أحبكم إن لم تحبونى

ياعمرُو إنْ لم تدَعْ شتمى ومنقصتى ... أضربْك حتى تقول الهامة اسقونى[2]

كل امرئ صائرٌ يوماً لشيمته ... وإن تخلَّق أخلاقاً إلى حين

لا يخرجُ القسر منى غير مغضبة ... ولا ألين لمن لا يبتغى لينى[3]

وهى قصيدة طويلة مذكورة فى شرح الشواهد للعينى[4] وكان لذى الإصبع بنات أربع فعرض عليهن أن يزوجهن فأبين وقلن خدمتك وقربك أحب إلينا ثم أشرف عليهن يوماً من حيث لا يرينه فقلن . لتقل كل واحدة ما فى نفسها . فقالت كل منهن شعراً تعرِّض به إلى حب الازدواج ، وسيأتى إن شاء الله تعالى تفصيل القصة عند ذكر مناكح العربوأنه زوّجهن .

***

حكيمات العرب

كان فى نساء العرب أيام الجاهلية ذواتُ كمال ، ووفور معرفة ، ومزيد فطانة وذكاء ، وحدة نظر ، حتى تزينت بذكر مآثِرِهنَّ صحف التواريخ ، وقد دونت

---

(١) قوله لاه ابن عمك قال قوم اراد لله ابن عمك وقال ابن دريد : اقسم بالله ابن عمك ، وقوله عنى أى على ، والديان القيم بالأمرالمجازى به وتخزونى : تسوسنى سياسة وتخزونى بالخاء والزاى المعجمتين مضارع خزاه خزوا بالفتح ساسه وقهره وملكه وأما الخزى بالكسر وهو الهوان والذل فالفعل منه كرضى . (٢) قوله أضربك حتى تقول الهامة اسقونى ، قال الاصمعى العطش فى الهامة وأراد أضربك فى ذلك الموضع أى على الهامة حتى تعطش . وقال آخرون : ان العرب تقول ان الرجل اذا قتل خرجت من رأسه هامة تدور حول قبره وتقول اسقونى اسقونى فلا تزال كذلك حتى يؤخذ بثاره وهذا من مذاهب العرب فى الجاهلية ـ راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب .

(٣) القسر : القهر أى أن أخذت قسرا لم أزده الا اباء .

(٤) وذكرها القالى فى أماليه أيضا أنظر ج ١ ص ٢٥٩

كتب ودواوين مشهورة فى شعرهن وفصاحة كلامهن ، وكانت منهن جملة اشتهرن بإصابة الحكم وفصل الخصومات وحسن الرأى فى الحكومة . منهن :

ابنة الخس

وهى هند بنت الخس الأيادية جاهلية قديمة ، وقد أدركت القَلَمَّسَ أحد حكام العرب وقد سبق ذكره . تحاكمت هى وأختها جمعة إليه ومدحته بأبيات منها :

إذا الله جازى منعماً بوفائِهِ فجازاك عنى يا قلمَّسُ بالكرمْ

وبعض الرواة يزعم أنها ماتت فى زمن النعمان عند هند ابنته ويستشهد على ذلك بقول الفرزدق :

وفيت بعهد كان منك تكرماً كما لابنةِ الخسّ الأيادى وفت هِنْدُ

وليس الأمر كذلك ، وإنما مراد الفرزدق أن هنداً وفت لأختها جمعة ابنة الخس لا أنها عند ابنة النعمان ، وقد ترجمها الشريف المرتضى فى أماليه وذكر طرفاً من أمورها . ولها أسجاع كثيرة وشعر قليل ، وكانت تحاجى[1] الرجال إلى أن مرَّ بها رجل فسألته المحاجاة فقال لها : كاد . فقالت : كاد . العروس يكون أميراً . فقال : كاد . فقالت : كاد المنتعل يكون راكباً . فقال : كاد . فقالت : كاد البخيل يكون كلباً . وانصرف ، فقالت له : أحاجيك . فقال قولى . فقالت : عجبت . فقال : عجبت للسبخة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها . فقالت : عجبت . فقال : عجبت للحجارة لا يكبر صغيرها ولا يهرم كبيرها . فقالت : عجبت . فقال : عجبت لحفرة بين فخذيك لا يمل حفرها ، ولا يدرك قعرها . فخجلت وتركت المحاجاة . وقد روى الحريرى هذه القصة فى كتابه درة الغواص ونسبها لامرأة من الجن والصواب ما ذكرناه . ومن أسجاعها · قيل لها أى الخيل أحب إليك ؟ قالت : ذو الميعة[2] الصنيع ، السليط التليع[3] ، الآيد

---

(١) يقال حاجيته محاجاة وحجآء فحجوته فاطنته فغلبته .

(٢) يقال ماع الشىء يميع جرى على وجه الارض منبسطا فى هينة والفرس جرى . (٣) السليط : الشديد . والتليع : الرافع رأسه فى مشيه.

الضليع[١] ، اللهب[٢] السريع . فقيل لها : أى الغيوث أحب إليك ؟ قالت : ذو الهَيْدَب[٣] المنبعق ، الأضخم المؤتلق[٤] ، الصخب المنبق[٥] ، وروى الشريف المرتضى فى أماليه عن ابن الأعرابى أنه قيل لابنة الخس : ما مائة من المعز . قالت : مويل يشف من ورائه مال الضعيف وحرفة العاجز . قيل : فما مائة من الضأن ؟ قالت : قرية لا حمى لها . قيل : فما مائة من الإبل ؟ قالت : بخ جمال ومال ، ومنى الرجال . قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت : طغى من كانت له ولا يوجد . قيل : فما مائة من الحمر ؟ قالت : عازبة الليل ، وخزى المجلس ، لا لبن فيحلب ولا صوف فيجز ، إنْ ربط عيرها أدلى ، وإن ترك ولى . وقيل لها : من أعظم الناس فى عينك ؟ قالت : من كانت لى إليه حاجة . وعن ابن الأعرابى أيضاً قيل لابنة الخس : ما أحسن شىء ؟ قالت غادية فى إثر سارية فى بنخاء قاوية . قال : بنخاء أرض مرتفعة لأن النبات فى موضع مشرف أحسن . وفى أمالى أبى على القالى شىء من أسجاعها . وشعرها جيد ، ومنه قولها :

أشَمّ كَنْصَلِ السيف جَعْد مرجّل   شغفتُ به لو كانَ شىء مدانيا
وأقسم لو خيرت بين لقائهِ   وبين أبى لاخترتُ أنْ لا أباليا

والخس بضم الخاء المعجمة وتشديد السين المهملة ابن حابس رجل من إياد قال فى القاموس : وهو أبو هند بنت الُخسّ أو هى من العماليق والأيادية جُمعة بنت حابس كلتاهما من الفصاح انتهى . وأغرب الجواليقى فقال : قال الأصمعى سمعت ناساً يحدثون أن ابنة الخس كانت قاعدة فى جوارٍ فمر بهـــا قطا واردٌ فى مضيق من الجبل . فقالت : يا ليت ذا القطا لنا * ومثل نصفه معه * إلى قطاة أهلنا * إذا لنا قطا مائة * فاتبعت القطا فعدت على المــاء فإذا هى ست وستون

(١) الآيد : القوى ، والضليع : التام الخلق المجفر والغليظ الالواح والكثير العصب . (٢) هو الذى يجتهد فى عدوه حتى يثير الغبار . (٣) الهيدب : السحاب ما تهدب منه اذا أراد الودق كانه خيوط ، والمنبعق : السحاب المتصبب بشدة . (٤) ائتلق البرق : لمع واضاء . (٥) الصخب ذو الصياح والجلبة ، والمنبثق : المنفجر .

انتهى[1] والصواب أن صاحبة القطاهي زرقاء اليمامة . وإلى هذه القصة أشار النابغة الذبياني بقوله من أبيات يخاطب بها النعمان بن المنذر ويعاتبه ويعتذر إليه مما اتهم به عنده :

فاحكم كحكم فتاة الحي إذ نَظرتْ ... إلى حمامٍ شراعٍ وارد الثَّمد

يحفّه جانبا نيق وتتبعه ... مثل الزجاجة لم تكحل من الرمَد

قالت ألا ليتما هذا الحمامُ لنا ... إلى حمامتنا أو نصفه فقَدِ

فحسبوه فألفوه كما ذكرت ... تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد[2]

فكملت مائة فيها حمامتها ... وأسرعت حسبةً في ذلك العدد

قال من شرح هذه القصيدة قوله فاحكم كحكم أى كن حكيما كهذه الفتاة أى أصب فى أمرى كإصابتها فى حدسها بالنظر . وأراد بفتاة الحى زرقاء اليمامة . قال الزمخشرى : أبصر من الزرقاء من مستقصى الأمثال هى من بنات لقمان بن عاد ملكة اليمامة ، واليمامة اسمها فسميت البلدة باسمها وقيل اسمها عنز وهى إحدى الزُّرق الثلاث أعينها والزباء والبَسوس . وكانت جديسية ، وحين قتل جديس طسما استجاش قبيلة طسم حسان بن تبّع إلى اليمامة فلما صاروا من جو على مسيرة ثلاث ليال صعدت الأطُم[3] الذى يقال له (الكلب) فنظرت إليهم وقد استتر كل بشجرة تلبيساً عليها فارتجزت بقولها :

---

(١) أقول ان هذه القصة قد تداولها الناس فى كتبهم وتلقوها بالقبول ، وانى لا أرى من المستحيل ان يتفق هذا لاحد مع التساهل فى تجويز الرؤية وسرعتها على أن احصاء هذا العدد والحمام والقطا فى طيرانه كيف يتهيأ وبعضه يتقدم وبعضه يتأخر وبعضه يتسفل وبعضه يستعلى . والأغرب ماذكره النابغة فى بيته :

يحضه جانبا نيق وتتبعه ... مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد

يريد بجانبى النيق : حافتى الجبل واذا كان الحمام بين جبلين ضاق المكان عليه وركب بعضه بعضا متراكما فيكون أبعد لاحصاء عدده بخلاف ما اذا كان منبسطا فى الجو ، والاغرب ايضا ما يذكرونه من ان زرقاء اليمامة كانت تنتظر الفارس من مسيرة ثلاثة أيام وقد ذكر فخر الدين الرازى فى (السر المكتوم) ما هو أسخف من هذه السخافات والامر لله .

(٢) قوله فحسبوه بعضهم يشدد السين لئلا تتوالى أربع متحركات وبعضهم يخففها ويقول بجواز ذلك فى بحر البسيط ، والفوه : وجدوه .

(٣) القصر وكل حصن مبنى بحجارة وكل بيت مربع مسطح .

أُقسمُ باللهِ لقد دبّ الشَجَرْ أو حمير قد أخذتْ شيئاً تجر

فكذبها قومها فقالت : والله لقد أرى رجلا ينهس كتفا أو يخصف نعلا ، فما تأهبوا حتى صبحهم الجيش ولما ظفر بها حسان قال : ما كان طعامك ؟ قالت : درمكة[1] فى كل يوم بمخ . قال فبم كنت تكتحلين ؟ قالت : بالإثمد وشق عينها فرأى عروقاً سوداً من الإثمِد وهى أول من اكتحل بالإثمد من العرب انتهى المقصود منه . ومنهن :

جمعة بنت حابس الايادى

وكانت من حكيمات العرب ذات فصاحة ومنطق عذب لاتبارى ببيانها وسلاطة لسانها ، وقد سبق أنها أخت هند بنت الخس وأنهما تحاكما إلى القَلَمَّس فى كلام لهما ، وذكرها صاحب القاموس والميدانى فى جملة حكيمات العرب وسبق القول أن جُمعة ليست أخت هند . والأول أشهر . ومنهن :

صحر بنت لقمان

كانت من نساء العرب المشهورات بالعقل والكمال والفصاحة ، وكانت العرب تتحاكم عندها فيما ينوبهم من المشاجرات فى الأنساب وغيرها . وصُحُر بالصاد والحاء المهملتين وكون أبيها لقمان هو الأصح ، وبعضهم يقول : هى أخت لقمان لابنته والله أعلم . ومنهن :

خصيلة بنت عامر بن الظرب العدوانى

كانت خصيلة من حكيمات العرب كما فى القاموس ومجمع الأمثال ، ولعلها هى التى كان أبوها عامر يقول لها (مَسِّى سُخَيْلُ بعدها أو صبّحى) بناء على أنها كانت تسمى سخيلا أيضا . قال الميدانى عند شرحه لهذا المثل : سخيل جارية

---

(١) الدرمك كجعفر : دقيق الحوارى .

كانت لعامر بن الظرِب العدوانى وكان عامر حكم العرب . وكانت سخيل ترعى عليه غنمه ، فكان عامر يعاتبها فى رعيتها إذا سرحت قال : أصبحتِ ياسُخَيل ، وإذا أراحت قال : أمسيت ياسخيل وكان عامر عىَّ فى فتوى قوم اختلفوا إليه فى خنثى يحكم فيه وسهر فى جوابهم ليالى فقالت الجارية . أَتْبعه المبال فبأيهما بال فهو هو ففُرِّج عنه وحكم به . وقال مَسى سخيل بعدها أى بعد جواب هذه المسئلة أى لاسبيل لأحد عليك بعد ما أخرجتنى من هذه الورطة ، يضرب لمن يباشر أمراً لا اعتراض لأحد عليه فيه . ومنهن :

حذام بنت الريان

وهى القائلة (لو تُرِكَ القطا ليلا لنامَ) قال المفضل الضبى : أول من قال ذلك حَذامِ بنت الريَّان ، وذلك أن عاطس بن خلاَّج سار إلى أبيها فى حمير وخثعم وجعفى وهَمْدان ولقيهم الريان فى أربعة عَشَرَ حياً من أحياء اليمن فاقتتلوا قتالا شديداً ، ثم تحاجزوا وأن الريان خرج تحت ليلته وأصحابه هراباً فساروا يومهم وليلتهم ، ثم عسكروا وأصبح عاطس فغدا لقتالهم فإذا الأرض منهم بَلاقِعُ فجرد خيله فانتهوا إلى عسكر الرَيَّان ليلاً فلما كانوا قريباً منه أثاروا القطا ، فمرت على أصحاب الرَيّان فخرجت حَذَامِ بنت الريان إلى قومها فقالت :

ألا يا قومَنا ارتَحِلوا وسيروا فلو تُرِكَ القطا ليــلاً لناما

أى أن القطا لو تُرِكَ لما طار هذه الساعة وقد أتاكم القوم ، فلم يلتفتوا إلى قولها وأخلدوا إلى المضاجع لما نالهم من الكلال فقام ديسم بن طارق فقال بصوت عال :

إذا قالتْ حَذامِ فصدِّقوها فإن القولَ ما قالت حَذَامِ

فثار القوم فلجأوا إلى واد كان قريباً منهم فاعتصموا به حتى أصبحوا وامتنعوا منهم . قال الميدانى : قلت وفى رواية أبى عبيد أن البيت للجيم بن صعب فى امرأته

حدام ، وقد ذكرته فى باب القاف . قال : وهـذا مثل يضرب لمن حمل على مكروه من غير إرادته . هذا ما وقفت عليه من هذا الباب ، وعليك بالـكتب المؤلفة فيه إن أردت الاستيعاب ، وما ذكرته كاف فى المقصود ، ونسأله تعالى التسهيل إنه ذو الـكرم والجود .

الـكلام على أعياد العرب فى الجاهلية وأفراحهم

اعلم أن العيد اسم لـما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائداً ما تعود السنة أو يعود الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك فالعيد يجمع أموراً منها يوم عائد كيوم الفطر ويوم الجمعة ، ومنها اجتماع فيه ، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات ، وقد يختص العيد بمـكان بعينه وقد يكون مطلقا وكل من هذه الأمور قد تسمى عيدا ، فالزمان كقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (إن هذا يوم جعله الله للمسلمين عيدًا) يعنى يوم الجمعة . والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس (شهدت العيد مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان ، فـكلهم كانوا يصلون قبل الخطبة) والمكان ، كقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (لا تتخذوا قبرى عيداً) وقوله صلى الله تعالى عليـه وسلم للّذى نذر أن ينحر بِبُوانة[1] (أبِها وثن من أوثان المشركين او عيد من أعيادهم ؟ قالا : لا . قال : فأَوْفِ بنذرك . وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب كقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من جملة حديث (دعهما يا أبا بكر فإن لـكل قوم عيداً وهذا عيدنا) إذا عرفت ذلك فاعلم أن العرب كانوا فى الجاهلية شِيَعاً متفرقين وفرقاً مختلفين . قال ابن قتيبة فى أديان العرب : إنّ النصرانية كانت فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة ، وكانت اليهودية فى حمير وبنى كنانة وبنى الحارس بن كعب وكندة ، وكانت المجوسية فى تميم منهم زُرارة بن عدس التميمى وابنه حاجب ابن زرارة وكان تزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن حابس فقد كان مجوسياً ،

---

(١) بوانة كثمامة : هضبة وراء ينبع ومآءه لبنى جشم وماء لبنى عقيل .

وأبو الأسود جد وكيع بن حسان فقد كان مجوسياً أيضاً ، وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة والمراد بالزندقة هنا عدم الإيمان بالآخرة وبالربوبية ولها غير هذا المعنى وكان بنو حنيفة اتخذوها فى الجاهلية إلهاً من حيْس[1] فعبدوه دهراً طويلاً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال رجل من تميم :

أكلتْ ربَّها حنيفةُ من جو ع ٍ قديم ٍ بها ومن إعوازِ

وقال آخر :

أكلت حنيفةُ ربَّهــا زمن التقحُّم والمجاعه
لم يحذَروا من ربهم سوءَ العواقب والتباعه

والتقحم القحط والحيْس الخلط وتمر يخلط بسمن وأقِط فيعجن شديداً ثم يندر[2] منه نواه وربما جعل فيه سويق ، وسيأتى إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام فى ذلك كله . والمقصود أن العرب لم يكونوا متفقى المذهب ، ولا متحدى المسلك والمشرب ، ولا شك أن الأعياد من الديانات ، ولو احق العبادات ، وإلى ذلك ذهب المفسرون فى قوله تعالى : (ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) فقد فسروا المنسك بالعيد فلم يكن العرب يومئذ متفقين فى الأعياد ، كما لم يتفقوا فى الدين والاعتقاد ، فلزم أن نبين ما لكل فرقة منهم من الأعياد والمواسم على وجه الإجمال ، ولو ذكرنا ما كان لكل قبيلة من ذلك على وجه التفصيل لطال المقال ، ومن الله نستمد التوفيق وعليه الاتكال .

أعياد المشركين من عبدة الأصنام

كان لعباد الأصنام من العرب فى الجاهلية أعياد كثيرة منها مكانية ومنها زمانية أما « المكانية » فكثيرة ، وهى مواضع أصنامهم وأوثانهم وأمكنة طواغيتهم وكانت الطواغيت الكبار التى كانت تشد إليها الرحال وتتخذ عيداً ثلاثةً : اللات

(١) سيأتى تفسيره . (٢) ندر الشىء ندورا من باب قعد سقط أو خرج من غيره ومنه نادر الجبل وهو ما يخرج منه ويبرز وندر فلان من قومه .

والعُزّى ومَناة الثالثة الأخرى كما ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه حيث قال : (أفرأيتم اللاتَ والعُزّى ومناةَ الثالثةَ الأخرى ألَكم الذَّكَرُ وله الأنثى تلك إذاً قِسْمَةٌ ضيزى)[1] وكل واحد من هذه الثلاثة لمصر من أمصار العرب ، والأمصار التى كانت من ناحية الحرم ومواقيت الحج ثلاثة : مكة والمدينة والطائف ، فكانت اللات لأهل الطائف . ذكروا أنه كان فى الأصل رجلاً صالحاً يلُتّ[2] السويقَ للحاج فلما مات عكفوا على قبره مدة ثم اتخذوا تمثاله ثم بنوا عليه بنية سموها بيت الربة . وأما العُزّى فقد كانت لأهل مكة قريباً من عرفات ، وكانت هناك شجرة يذبحون عندها ويدعون ، فبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خالد بن الوليد عقب فتح مكة فأزالها وقسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مالها وخرجت منها شيطانة ناشرةٌ شعرَها فيئست العُزّى أن تعبد . وأما مَنَاة فكانت لأهل المدينة يهلون لها شركا بالله تعالى ، وكانت حذو قديد الجبل الذى بين مكة والمدينة من ناحية الساحل . وكانت لهم مواسم من السنة مخصوصة للاجتماع فى هذه الثلاثة ، وكانت العرب تَقْصِدُها من كل فَجّ وتعظمها كتعظيم الكعبة ، وكان لها سدنة[3] وحُجَّاب ، وكانوا يهدون إليها كما يهدون للكعبة ويطوفون بها وينحرون عندها مع اعترافهم بفضل الكعبة عليها لعلمهم أنها بيت أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده ، وكان ذو الخلَصة بيتاً باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب يعبدونها ولهم فيه من السنة موسم وعيد ، وفى الحديث : (كان بيت فى الجاهلية يقال له ذو الخلصة والكعبة اليمانية والكعبة الشامية ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لجرير ألا تريحنى من ذى الخلصة ؟ قال جرير : فنفرت فى مائة وخمسين راكباً فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده فأتيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبرته فدعا لنا

(١) أى ناقصة ويقال جائرة ويقال أضازه حقه اذا نقصه وضاز فى الحكم اذا جار فيه وضيزى وزنه فعلى وكسرت الضاد للياء وليس فى النعوت فعلى.

(٢) لت الرجل السويق لتا من باب قتل بله بشىء من الماء وهو أخف من البس . (٣) يقال سدنت الكعبة سدنا من باب قتل خدمتها فالواحد سادن والجمع سدنة والسدانة بالكسر الخدمة .

ولأَحْمَسَ) وفى رواية أخرى فقال رسول جرير : والذى بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جملٌ أجربُ ، قال فبارك فى خيل أحمس ورجالها خمس مرات ، وهذا غير ذى الخلصة الذى نصبه عمرو بن لُحَىٍّ أسفلَ مكة . وكانوا يلبسونه القلائد ويجعلون عليه بيض النعام ويذبحون عنده .

وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد وموسم فى كل سنة إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسَن وحلى النساء ثم خرجوا إليها وعكفوا عليها يوماً فابتاع فيمونَ — وكان مؤمناً بعيسى عليه السلام — رجلٌ من أشراف أهل نجران وابتاع صالحاً آخر ، فكان فيمون إذا قام من الليل يتهجد فى بيت له أسكنه إياه سيده فإذا صلى أضاء له البيت نوراً حتى يُصبح ، فأحس بذلك سيده فأعجبه ما يرى منه فسأله عن دينه فأخبره به فقال له فيمون : إنما أنتم فى باطل إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع ولو دعوت عليها إلهى الذى أعبده أهلكها وهو الله وحده لا شريك له فقال سيده فافعل فإنك إن فعلت دخلنا فى دينك وتركنا ما نحن عليه . فقام فيمون فتطهر وصلى ركعتين ثم دعا الله تعالى عليها فأرسل الله عليها ريحاً فجعفتها أى قلعتها من أصلها فألقتها فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه فحملهم على الشريعة من دين عيسى بن مريم عليه السلام ثم دخلت عليهم الأحداث التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض فمن هنالك كانت النصرانية بنجران فى أرض العرب .

وأما « الزمانية » فهى أيام مسراتهم وأفراحهم لظفرهم على عدوهم ونصرتهم على خصومهم ومحاربيهم ، وذلك إنما يكون بحسب قوم دون قوم ولقبيلة دون أخرى فيتفق فى يوم هو عيد لقوم وسرور وهو لآخرين حزن وبؤس . وكان لأهل المدينة يومان يلعبون فيهما[1] فلما قدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة قال لهم (قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما يوم الفطر والأضحى) ويوم (السبع) عيد من أعياد قبيلة من قبائل العرب فى الجاهلية يشتغلون فيه باللهو

(١) ذكر بعض شراح الحديث أنهما النيروز والمهرجان وكانهم أخذوهما من الفرس .

واللعب ، وكذلك يوم (السباسب) كان عيداً لقوم من العرب فى الجاهلية ، قال النابغة .

رقاقُ النعال طيّب حُجُزاتهم ... يُحَيّون بالرَيحان يوم السباسب[1]

يقول : هم أعفاء الفروج لا يحلون إزارهم لريبة ، وكانوا إذا حيوا يقدمون مع التحية الريحان لا أنهم يحيون بنفس الريحان . وذلك فى هذا الموسم خاصة وبعض الأدباء عمّم .

أعياد المجوس وهم الفرس وشرذمة من العرب وغيرهم

وهى كثيرة جداً حتى إن علىّ بن حمزة الأصبهانى عمل فيها كتاباً ذكر فيه سبب اتخاذهم لها وسنن ملوكهم فيها فكرهت أن أقتفى أثره فى ذلك خوف التطويل فاقتصرت منها على المشهور الذى أولع الشعراء بذكره ، واعتنى الأمراء بأمره ، وهو (النيروز) و(المهرجان) و (السدق) فأما « النيرور » فهو تعريب نوروز وهو أعظم أعيادهم فيقال : إن أول مس اتخذه (جمشاد) أحد ملوك الطبقة الأولى من الفرس وهذا الاسم فى الأصل مركب من جم وهو القمر وشاد وهو الشعاع والضياء وسبب اتخاذهم لهذا اليوم عيداً إن (طمهورة) لما هلك ملك بعده جمشاد فسمى اليوم الذى ملك فيه نوروزاً أى اليوم الجديد ، ونقل عن بعض المجاميع إن جمشاد ملك الأقاليم السبعة والجن والإنس ، وأنه لما مضى من ملكه ثلثمائة وستة عشر سنة أقبل على عجلة من زجاج عملتها له الشياطين سار بها إلى (دنباوند) إلى (بابل) فى يوم واحد ، وجعل يسير بها فى الهواء حيث شاء ، وأن اليوم الذى ركبها فيه كان أول من شهر (أفروريزماه) وكان مدة ملكه لا يريهم وجهه فلما ركبها أبرز لهم وجهه ، وكان له حظ وافر من الجمال فجعلوا يوم رؤيتهم له عيداً وسموه نوروزاً والله تعالى أعلم بصحة ذلك . والفرس يصفون جمشاد بما وصف

---

(١) الحجزة . بالضم مقعد الازار ومن السراويل موضع التكة .

به سليمان بن داود عليهما السلام ، وأنه كان مجاب الدعوة ، وأنه سأل ربه أن يرفع عن رعيته الموت والسقم فكثر الخلق حتى ضاقت بهم الأرض فسأل ربه أن يوسعها عليهم فأمره أن يأتى جبل (البرز) وهو جبل (قاف) المحيط بالأرض فيأمره أن يتسع ثلثمائة فرسخ فى أدوار الأرض فاتسع ، ثم بعد ذلك طغى وتجبر فذهب بهاؤه وشعاعه وهرب يجول فى الأرض مائة سنة ثم ظَفِر به الضحاك فنشره بالمنشار . ومن الفرس من يزعم أن النيروز هو اليوم الذى خلق الله تعالى فيه النور ، وأنه كان معظماً قبل جمشاد . وبعضهم يزعم أنه أول الزمان الذى ابتدأ الفلك فيه بالدوران ، ومدته عندهم ستة أيام أولها اليوم الأول من شهر (أفرودريزماه) الذى هو أول شهور سنتهم ويسمون اليوم السادس النيروز الكبير لأن ، الأكاسرة كانوا يقضون فى الأيام الخمسة حوائج الناس على اختلاف طبقاتهم ، ثم ينتقلون إلى مجالس أنسهم مع خواصهم .

وحكى ابن المُقَفَّع : أنه كان من عادتهم فيه أن يأتى الملك رجل من الليل قد أرصد لما يفعله حسن الاسم والوجه فيقف على الباب حتى يُصبِح ، فإذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان ووقف حيث يراه ، فيقول له الملك : من أنت ومن أين أقبلت وأين تريد وما اسمك ولأى شىء وردت وما معك ؟ فيقول : أنا المنصور واسمى المبارك ومن قبل الله أقبلت والملك السعيد أردت وبالهنا والسلامة وردت ومعى السنة الجديدة ، ثم يجلس ويدخل بعده رجل معه طبق من فضة وعليه حنطة وشعير وجلبان وحمص وسمسم وأرز ، من كل جنس سبع سنابل وسبع حبات وقطعة سكر ودينار ودرهم جديدان فيضع الطَبَق بين يدى الملك ، ثم تدخل عليه الهدايا ويكون أول من يدخل عليه وزيره ثم صاحب الخراج ثم صاحب المئونة ثم الناس على مراتبهم ، ثم يقدّم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب موضوع فى سلة فيأكل منه ويطعم من حضره ، ثم يقول : هـذا يوم جديد من شهر جديد من عام جديد من زمان جديد يحتاج

إلى أن نجدد فيه ما أخلق الزمان ، وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأس لفضله على سائر الأعضاء . ثم يخلع على وجوه مملكته ويَصِلهم ويفرق فيه ما حمل إليه من الهدايا . وأما عوام الفرس فكانت عادتهم إيقاد النار فى ليلته ورش الماء فى صباحه ، وزعموا أن إيقاد النار فيه لتحليل العفونات التى أبقاها الشتاء فى الهواء وقيل : إنما فعلوا ذلك تنويهاً بذكره وإشهاراً لأمره . وقيل فى رش الماء إنما هو بمنزلة النُشْرَةِ[1] لتطهير الأبدان مما انضاف إليها من دخان النار الموقدة فى ليلته . وقال آخرون : إن سبب رش الماء أن فيروز بن يزدجرد لما استتم بناء سور (جَىّ)[2] وأصبهان القديمة لم يقع المطر سبع سنين من ملكه ، ثم مطرت فى هذا اليوم ففرح الناس بالمطر فصبوا من مائه على أبدانهم من شدة فرحهم به فصار ذلك سنة عندهم فى ذلك اليوم من كل عام[3] . وكثيراً ما نحا الناس هذا النحو لموافاته إياهم بالكدر بدلاً عن الصفو . وعند القبط بمصر عيد يسمونه (النيروز) أيضاً ويتخذونه فى رأس سنتهم ويسميه نصارى الشام (القلنداس) وهم يظهرون فيه من الفرح والسرور وإيقاد النيران وصب المياه ضعف ما يفعله الفرس ويشاركهم فى ذلك العوام من المسلمين إلا أن أهل مصر يزيدون فيه التصانع بالنطاع ، وربما حملهم ترك الاحتشاد على أن يجترئوا على الرجل المطاع ، ولولا أن ولاة الأمر يردعونهم ويمنعونهم من ذلك لمنعوا الطريق من السالك وهم مع هذا من ظَفِروا به لا يتركونه إلا بما يرضيهم من الفداء ، كما يفعل بمن حصل فى أيدى الأعداء ، ويقال إن أول من عمل نيروز القبط أشمود بن قبطم ابن مريم أحد ملوك القبط الأول ، وأول من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الإسلام الحجاج بن يوسف الثقفى ، وأول من رفع ذلك عمر بن عبد العزيز ،

---

(١) بالضم رقية يعالج بها المجنون والمريض (٢) بالفتح لقب أصبهان قديما

(٣) وما احلى قول بعضهم يخاطب من يهواه ويذكر مايعتمد فى النيروز من شب النيران وصب الافواه :

كيف أبتهاجك بالنيروز ياسكنى ... وكل مافيه يحكينى وأحكيه
فتارة كلهيب النار فى كبدى ... وتارة كتوالى عبرتى فيه
أسلمتنى فيه ياسؤلى الى وجب ... فكيف تهدى الى من أنت تهديه

واستمر ذلك إلى أن فتح الهدية فيه (أحمد بن يوسف الكاتب) فانه أهدى فيه للمأمون سفطَ ذهبٍ فيه قطعة عود هندى فى طوله وعرضه وكتب معه هذا يوم جرت فيه العادة ، بألطاف العبيد للسادة ، وقد قلت :

على العبد حقٌ وهولاشك فاعلهُ وإنْ عَظُمَ المولى وجَلّتْ فواضِلُهُ[١]

وكتب سعيد بن حميد إلى صديق له يوم نيروز : هذا يوم سهلت فيه السنة للعبيد الإهداء للملوك وتعلقت كل طائفة من البر بحسب القدرة والهمة ولم أجد فيما أملك مايفى بحقك ، ووجدت تفريطك أبلغ من أداء مايجب لك ومن لم يؤت فى هدية إلا من جهة قدرته ، فلا طمن عليه فى همته . ولم يزل الناس على سنن الفرس فى استجباء الخراج عند دخول النيروز حتى دخل عليهم الخلل فى دور السنين فحاولوا أن يؤخروه وذلك فى زمن هشام بن عبد الملك ، وبذلوا لخالد ابن عبد الله القسرى مائة ألف دينار على ذلك فكتب فيه إلى هشام ، فكتب إليه هشام : أخاف أن يكون هذا من النسيء الذى قال الله تعالى فيه : إنما النسيء زيادة فى الكفر . فامتنع خالد من ذلك ثم سئل يحيى بن خالد بن برمك فى أيام الرشيد أن يؤخر النيروز إلى شهرين فعزم على ذلك فبلغه أن قوماً قالوا أراد أن ينصر المجوسية فامتنع من ذلك إلى أن رأى المتوكل وقد ركب للصيد يوم النيروز والزرع لم يسبل بعد وقال : قد استؤذنت فى فتح الخراج والزرع لم يسبل بعد فعرّفه إبراهيم بن عباس الصُولى أن الأكاسرة كانت تسقط فى كل عشرين ومائة سنة شهراً ، وإن الروم طرحت بعد موت الإسكندر من كل أربع سنين يوما وربع يوم ، وإنما فعلوا ذلك لأن الشمس تقطع الفلك فى كل ثلثمائة وستين يوما وربع يوم فيجمع من هذا الربع يوم فى كل أربع سنين فيطرح وتسمى هذه السنة

---

(١) ويروى بعده :

ألم ترنا نهـــدى الى الله ما له	وان كان عنه ذا غنى فهو قابله
فلو كان يهدى للجليل بقــدره	لقصر عنه البحر يوما وساحله
ولكننا نهدى الى من نجـــله	وان لم يكن فى وسعنا مانشاكله

كبيسة فلما جاء الإسلام عملوا على رسم دواوين العجم من غير أن يطرحوا هـذا اليوم ، فأمر المتوكل الْحُسَّابَ أن يحسبوا ماطرحوه فحسبوا الذى مضى من السنين التى لم تـكبس فيها بعد ذهاب الفرس فوجدوه مائتين وخمسين سنة فجعلوا لـكل مائة وعشرين سنة شهراً ، فوافق السابع عشر من حزيران ، وأمر أن يحمل النيروز فى هذا اليوم ، وأن لايفتح الخراج إلا فيه ، وكان هـذا فى أواخر سنة اثنتين وأربعين ومائتين . ثم قدّم فى أيام المعتضد إلى الحادى عشر من حزيران تحريراً للحساب الأول ، ونقلت فى أيام المطيع لله سنة خمسين وثلثمائة الخراجية إلى سنة أحدى وخمسين .

وأما « المهرجان » فوقوعه فى السادس والعشرين من تشرين الأول من شهور السريان ، ومن شهور الفرس فى السادس عشر من مهرماه وهذا الأوان وسط زمن الخريف ولهذا قال الشاعر :

أَحِبُّ المهرجان لأَنَّ فيه سروراً للملوك ذوى السناء
وباباً للمصير إلى أوانٍ تفتح فيـه أبواب السماء

وهو ستة أيام ويسمى اليوم الثالث المهرجان الأكبر . قال المسعودى وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم أنهم كانوا يسمون شهورهم بأسماء ملوكهم ، وكان لهم ملك يسمى مهراً يسير فيهم بالعنف والعسف فمات فى نصف الشهر الذى يسمونه مهر ماه ، ومعنى ماه القمر فسمى ذلك اليوم مهرجان وتفسيره : نفس مهر ذهبت لأن العجم يقدمون المضاف إليه على المضاف بخلاف العرب ، وهذه اللغة لغة الفرس الأولى وتسمى الفهلوية ويقال مهر وفاء وجان سلطان وكان معناه سلطان الوفاء . وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حفاظ وجان الروح[1] . ويقال : إنما ظهر فى عهد إفريدون الملك ، ومعنى هذا الاسم أدراك النار بعده عن دين المجوسية

---

(١) وفى ذلك يقول عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر :

اذا ما تحـــقق بالمهرجـــا ن من ليس يعرف معناه غاظا
ومعناه ان غلب الفرس فيه فســمود الروح فيه حفاظا

وسبب اتخاذهم له أن بيوراسب وهو الضحاك[1] . ويقال له الإزدهاق ذو الحيتين

(١) قال ابن الاثير فى الكامل ذكر بيوراسب وهو الازدهاق الذى يسميه العرب الضحاك قال وأهل اليمن يدعون أن الضحاك منهم وانه أول الفراعنة وكان ملك مصر لما قدمها ابراهيم الخليل .

والفرس تذكر أنه منهم وتنسبه اليهم وأنه بيوراسب بن اروندا سب ابن رينكال بن وندريشتك بن ياربن بن فروال بن سيامك بن ميشى بن جيومرث ومنهم من ينسبه هذه النسبة .

وزعم أهل الاخبار أنه ملك الاقاليم السبعة وأنه كان ساحرا فاجرا ، قال هشام ابن الكلبى ملك الضحاك بعد جم فيما يزعمون والله أعلم ألف سنة ونزل السواد فى قرية يقال لها برس فى ناحية طريق الكوفة وملك الارض كلها وسار بالفجور والعسف وبسط يده فى القتل وكان أول من سن الصلب والقطع وأول من وضع العشور وضرب الدراهم وأول من تغنى وغنى له ، قال وبلغنا أن الضحاك هو نمروذ وان ابراهيم عليه السلام ولد فى زمانه وأنه صاحبه الذى أراد احراقه .

وتزعم الفرس أن الملك لم يكن الا للبطن الذى منه أوشهنج وجم وطهمورث وأن الضحاك كان غاصبا وانه غصب أهل الارض بسحره وخبثه وهول عليهم بالحيتين اللتين كانتا على منكبيه وقال كثير من أهل الكتب ان الذى كان على منكبيه كان لحمتين طويلتين كل واحدة منهما كرأس الثعبان وكان يسترهما بالثياب ويذكر على طريق التهويل انهما حيتان يقتضيانه الطعام وكانتا تتحركان تحت ثوبه اذا جاعا . ولقى الناس منه جهدا شديدا وذبح الصبيان لان اللحمتين اللتين كانتا على منكبيه كانتا تضربانه فاذا طلاهما بدماغ انسان سكنتا فكان يذبح فى كل يوم رجلين فلم يزل الناس كذلك حتى اذا اراد الله هلاكه وثب رجل من العامة من أهل اصبهان يقال له كابى بسبب ابنين له اخذهما اصحاب بيوراسب بسبب اللحمتين اللتين كانتا على منكبيه، واخذ كابى عصا كانت بيده فعلق بطرفها جرابا كان معه ثم نصب ذلك كالعلم ودعا الناس الى مجاهدة بيوراسب ومحاربته فاسرع الى اجابته خلق كثير لما كانوا فيه من البلاء وفنون الجور فلما غلب كابى تفاءل الناس بذلك العلم فعظموه وزادوا فيه حتى صار عند ملوك العجم علمهم الاكبر الذى يتبركون به وسموه درفش كابيان فكانوا لايسيرونه الا فى الامور الكبار العظام ولا يرفع الا لأولاد الملوك اذا وجهوا فى الامور الكبار ، وكان من خبر كابى انه من أهل اصبهان فثار بمن اتبعه فالتفت الخلائق اليه فلما أشرف على الضحاك قذف فى قلب الضحاك منه الرعب فهرب عن منازله وخلى مكانه فاجتمع الاعجام الى كابى فاعلمهم انه لا يتعرض للملك لانه ليس من أهله وأمرهم أن يملكوا بعض ولد جم لانه ابن الملك أوشهنج الاكبر ابن فروال الذى رسم الملك وسبق فى القيام ، وكان أفريدون بن أثفيان مستخفيا من الضحاك فوافى كابى ومن معه فاستبشروا بموافاته فملكوه وصار كابى والوجوه لافريدون أعوانا على أمره فلما ملك وأحكم ما احتاج اليه من أمر الملك واحتوى على منازل الضحاك وسار فى أثره فأسره بدنباوند فى جبالها .

وبعض المجوس تزعم انه وكل به قوما من الجن وبعضهم يقول انه اتى سليمان بن داود وحبسه سليمان فى جبل دنباوند وكان ذلك الزمان بالشام فما برح بيوراسب بحبسه يجره حتى حمله الى خراسان فلما عرف سليمان

والأفواه الثلاثة والأعين الستة الداهية الخبيث المتمرد لما قتل جمشاد وملك .
جاءه إبليس فى صورة خادم فقبل منكبيه فبدت فيهما حبتان وكانت تؤلمه فوصف له أدمغة الناس فقتل كل يوم غلامين لذلك فأجحف قتل الولدان بالرعية فخرج رجل بأصبهان يقال له (كابى) وعقد لواء من سنبك جدى ، وقيل من جلد أسد ودعا الناس إلى محاربة الضحاك فاجتمع له خلق كثير ، وشخص إلى الضحاك فهابهم وهرب منهم فاجتمع الفرس إلى (كابى) ليملكوه عليهم ، فقال : ما أنا من أهله وذكر لهم أن معه صبياً من ولد جمشاد يسمى أفريدون ، فقال : أرى أن تملكوه وتعيدوا الملك إلى أهله . فملكوه فخرج أفريدون فى طلب الضحاك فوجده فأخذه وشده وحبسه فى جبل دنباوند ، وجعل ذلك اليوم عيداً وسماه المهرجان .
ويقال إن ذلك اللواء لم يزل عند الفرس مغشى بالديباج المذهب المرصع بضروب الجواهر ، وكان يسمى (درفس كابى) ومعنى درفس قائم ، وكانت ملوك الفرس لا تخرجه إلاَّ فى يوم حرب تبركا به ، ولا يحمل إلاّ على رأس ملك أو ولى عهد ، ولم يزل عندهم إلى أن جاء الإسلام فحمل على رأس رستم فى وقعة القادسية ، فلما هزمت الفرس وقتل رستم صارت هذه الغنائم إلى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقوّمت بألفى ألف ومائتى ألف وثلاثين ألف درهم . وقيل : كان أخذها يوم فتح المدائن . وقيل : يوم فتح نهاوند . وزعم بعض الفرس أن الضحاك هو نمروذ ، وأفريدون هو إبراهيم عليه السلام . ويقال : إن المهرجان هو اليوم الذى

ذلك أمر الجن فاوثقوه حتى لا يزول وعملوا عليه طلسما كرجلين يدقان باب الغار الذى حبس فيه ابدا لئلا يخرج فانه عندهم لا يموت . وهذا أيضا من اكاذيب الفرس الباردة ولهم فيه اكاذيب اعجب من هذا تركنا ذكرها .
وبعض الفرس يزعم ان افريدون قتله يوم النيروز فقال العجم عند قتله أمر وزنوروز أى استقبلنا الدهر بيوم جديد فاتخذوه عيدا وكان اسره يوم المهرجان فقال العجم امد مهرجان تقتل من كان يذبح وزعموا انهم لم يسمعوا فى امور الضحاك بشىء يستحسن غير شىء واحد وهو ان بليته لما اشتدت ودام جوره تراسل الوجوه فى أمره فاجمعوا على المصير الى بابه فوافاه الوجوه فاتفقوا على أن يدخل عليه كابى الاصبهانى فدخل عليه ولم يسلم فقال أيها الملك أى السلام عليك سلام من يملك الاقاليم كلها ام سلام من يملك هذا الاقليم ، فقال بل سلام من يملك الاقاليم كلها لانى ملك الارض .
هذا ما اردنا ذكره توضيحا لما أجمل فى الاصل ليس الا .

عقد فيه التاج على رأس أزدشير بن بابك أول ملوك الفرس الساسانية وقال عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر يفضل المهرجان على النيروز :

أخا الفُرسِ إنّ الفرسَ تعلم أنه   لأطيبُ من نيروزِها مهرجانُها
لإدبار أيام يغمُّ هواؤهــــا   وإقبـــال أيام يسر زمانُها

وكان مذهب الفرس فيه أن تدهن ملوكهم بدهن البان تبركا وكذلك عوامهم وأن يلبس العصب والوشى وأن يتتوج بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها الدائرة عليها ، ويكون أول من يدخل عليها الموبذان بطبق فيه أترجة وقطعة سكر ونبق وسفرجل وعناب وتفاح وعنقود عنب أبيض وسبع طاقات آس قد زمزم عليها ، ثم تدخل الناس على تفاوت طبقاتهم بمثل ذلك . وكان أزدشير وأنوشيروان يأمران بإخراج مافى خزائنهم فى المهرجان والنيروز من أنواع الملابس والفرش فيفرق كلها فى الناس على مراتبهم ويقولان · إن الملوك تستغنى عن كسوة الصيف فى الشتاء وعن كسوة الشتاء فى الصيف ، وليس من أخلاقهم أن تجبي كسوتهم فى خزائنهم وتساوى العامة فى فعلها . وزعم أصحاب التاريخ أن النيروز عملته الفرس قبل المهرجان بألفى سنة وخمسمائة سنة . وكانوا يهدون فى النيروز والمهرجان المسك والعنبر والعود الهندى ويعرضون فى النيروز عن الزعفران الكافور . وأما « السدق » ويعمل فى ليلة الحادى عشر من شهر أيارماه ويسمى هذا اليوم عند الفرس روزابان لأن لكل يوم من أيام الشهر عندهم أسماء ويقال فى سبب اتخاذهم له : إن فراسياب لما تملك سار إلى بلاد بابك فأكثر فيها الفتنة وخرب ما كان عامراً منها فخرج عليه زفرب بن طهماز شب فطرده عن مملكة فارس إلى بلاد الترك . وكان ذلك فى يوم روزابان فاتخذ الفرس هذا اليوم عيداً وجعلوه ثالثاً لعيدى النيروز والمهرجان ، ولما تملك وضع عن الناس خراج سبع سنين فعمرت البلاد . ويقال أيضاً فى سبب اتخاذهم لهذا العيد : إن الأب الأول وهو عندهم كيومرت لما كمل له من بنيه مائة ولد زوج الذكور بالإناث وصنع لهم

عرساً أكثر فيه من إيقاد النيران ، وَقد وَافق هذا تلك الليلة المذكورة فاستنت ذلك الفرس بعده وهم يوقدون النيران بسائر الأدهان وَيزيدهم الولوع بها حتى أنهم يلقون فيه سائر الحيوانات .

وللفرس أعياد دون ما ذكرناه . منها عيد يسمى « نيركان » زعموا أنه لما وقعت المصالحة بين منوجهر وفراسياب التركى على أن يعطى فراسياب منوجهر من المملكة قدر رمية سهم فانبروا رجلا يقال له آيس ، وكان مؤيداً فى الرمى فغرز سهماً فى قوسه وَرمى وامتدَّ السهم من جبال طبرستان إلى أعالى طخرستان ، وهذا يكون فى الثالث عشر من تيرماه . وأيام « الفيروزجان » وهى خمسة أيام أولها السادس والعشرون من أبان ماه ومعناه تربية الروح لأنهم كانوا يصنعون فيها أطعمة وأشربة لأروَاح موتاهم ، وَيزعمون أنها تأتى وتغتذى بها « وركوب الكوسج »[1] يعمل فى أوّل يوم من آذرماه . وَسُنتهم فيه أن يركب فى كل بلد من بلادهم رجل كوسج قد أعدَّ لما يصنع به يأكل الأطعمة الحارَّة ويشرب الشراب الصرف أياماً قبل حلول الشهر ، فإذا حل لبس غلالة صبورية وركب بقرة وأخذ على يده غراباً ، وَيتبعه الناس يصبون عليه الماء وَيضربون وجهه بالثلج وُيروّحون عليه بالمراوح وهو يصيح بالفارسية كرم كرم . ومعناه : الحرّ الحرّ ، يفعل ذلك سبعة أيام ومعه أوْباش الناس ينهبون ما يجدون من الأمتعة فى الحوانيت ، وللسلطان عليهم مال فإذا وُجدوا بعد عصر اليوم السابع ضربوا وحبسوا . ويقال : إن هذا الفعل كان يتداوَله أهل بيت كل منهم كوسج . وَحكى الزمخشرى فى كتاب (ربيع الأبرار) فى سببه : أن كوسجاً كان يشرب فى هذه الأيام وَيطلى بدنه فيها فعملته الفرس . وفى ركوبه يقول الشاعر :

قد ركب الكوسجُ يا صاحِ فالتـــذَّ بالمزهرِ وَالراحِ
وَأنعم بآزرماه عيشًـا وخذ من لذة العيش بمفتـاح

---

(١) الكوسج معرب كوسه بمعنى ناقص الشعر وقيل ناقص الاسنان والاول هو المعروف وأشتقوا منه فعلا فقالوا من طالت لحيته تكوسج عقله ، ويقال كوسق وهو اسم سمكة وهو معرب أيضا .

و « عيد بهمنجه » يتخذونه فى يوم بهمن فى شهر بهمن ماه يؤكل فيه بهمن الأبيض باللبن الخالص على أنه ينفع الحفظ ، ورؤساء خراسان كانوا يعملون فيه الدعوات على طبيخ فيه كل حب مأكول ولحم كل حيوان يؤكل ويحضر ما يوجد فى ذلك الوقت من بقل أو نبات .

أعياد القبط والنصارى

قال الشيخ شهاب الدين الحموى فى كتابه (عجائب المخلوقات) : للقبط أربعة عشر عيداً سبعة يسمونها كباراً وسبعة يسمونها صغاراً فالكبار :

« البشارة » ويعنون بها بشارة (غبريال) وهو جبريل عليه السلام على زعمهم لمريم عليها السلام بميلاد عيسى صلوات الله عليه يعملونه فى اليوم التاسع والعشرين من برمهات من شهور القبط .

و « الزيتونة » وهو عيد الشعانين وتفسيره التسبيح يعملونه فى سابع أحد من صومهم وكانت سنتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة وهو ركوب المسيح العفو فى القدس وهو معنى الحمار ودخوله صيور وهو راكب والناس يسبحون بين يديه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر

و « الفصح » وهو العيد الكبير عندهم يقولون إن المسيح قام فيه بعد الصلبوت بثلاثة أيام وخلص آدم من الجحيم وأقام فى الأرض أربعين يوماً آخرها يوم الخميس ثم صعد إلى السماء ، وكان يوافق فصح اليهود قبل زمان قسطنطين . ولما تنصر قسطنطين وانين واجتمع الأساقفة حينئذ على وضع الأمانة وهى العقيدة التى يدين بها جميع فرق النصارى فاتفقوا أيضاً على مخالفة اليهود فى الفصح فأخروه عنه وجعلوه يوم الأحد .

و « خميس الأربعين » ويسميه الشاميون (السلاق) وهو الثانى والأربعون من الفطر يزعمون أن المسيح عليه السلام تسلق فيه من بين تلاميذه إلى السماء بعد القيام ووعدهم إرسال (الفار قليط) وهو روح القدس .

و « عيد الخمسين » وهو العنصرة يعمل بعد خمسين يوماً من عيد القيام يقولون إن روح القدس حلت فى التلاميذ وَتفرّقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة وَراح كل واحد منهم إلى بلاد لسانه يدعونهم إلى دين المسيح عليه السلام .

و « الميلاد » وهو الذى ولد فيه المسيح عليه السلام . يقولون : إنه وُلد يوم الاثنين وَيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد وهم يقدون فيها المصابيح بالكنائس ويزينونها ، وَوُلد صلوات الله عليه ببيت لحم قرية من أعمال فلسطين يعمل فى التاسع وَالعشرين من كيهك من شهور القبط . وَقال المسعودى : يوم الأربعاء لستّ من كانون الثانى ، وكانت مريم عليها السلام يوم وَلدته بنتَ ثلاث عشرة سنةً .

و « الغطاس » ويعمل فى الحادى عشر من طوبة من شهورهم ، يقولون إن يوحنا وهو يحي بن زكريا عليهما السلام غمس بالمعمدان ، وفيه غسل عيسى عليه السلام فى بحيرة الأردن . وَيزعمون أنه لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة وَالنصارى يغمسون أولادهم فى الماء فى هذا اليوم وَوَقته شديد البرد . وَرأيت فى بعض الكتب هذه الأعياد ، وَذكر فيه يوم ظهور المجوس وأنهم أهدوا له دقيقاً وَلباناً وَتمرًا وَهو يوم النجم .

وَأما الأعياد الصغار « فالختان » ويعمل فى سادس (بُونة) وَيقولون : إن المسيح ختن فى هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

وَ « الأربعون » عيد دخول الهيكل ، يقولون : إن سمعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أمه وَبارك عليه ويعمل فى ثامن أمشير .

و « خميس العهد » ويعمل قبل الفطرِ بثلاثة أيام وسنتهم فيه أنهم يأخذون إناء وَيملأونه ماء وَيُزمزمون عليه ثم يغسل البطرِيك به أرجل سائر الناس وَيزعمون أن المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه فى هذا اليوم يعلمهم التواضع وَأخذ

عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض والعامة من النصارى يسمون هذا الخميس (خميس العدس) لأنهم يطبخون فيه العدس على ألوان شتى ويسميه أهل الشـام (خميس الرز وكان) ويسميه أهل الأندلس (خميس إبريل) وهو اسم شهر من شهور الروم .

و « سبت النور » وهو قبل الفصح بيوم يقولون : إن النور يظهر على مقبرة المسيح فى هذا اليوم فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التى بالقدس وما ذلك إلا من التخيلات النيرنجية التى يفعلها القسيسون منهم ليستميلوا بها العقول الضعيفة وذلك أنهم كانوا يعلقون القناديل فى بيت المذبح ويتحيلون فى إيصال النار إليها بأن يمدوا على سائرها شريطاً من حديد فى غاية الدقة مدهونا بدهن البَلَسان ودهن الزنبق فإذا صلوا وحان وقت الزوال فتحوا المذبح فدخل الناس إليه وقد اشتعلت فيه الشموع ويتوصل به بعض القوم إلى أن يعلق بطرف الشريط النار فتسرى عليه فتتقد القناديل واحد بعد واحد إذ من طبيعة دهن البلسان علوق النار فيه سريعا بأدنى ملامسة له فيظن من حضر من ذوى العقول الناقصة أن النار نزلت من السماء فأوقدت القناديل وكذلك اتخذوا شريطاً دقيقاً من حديد مدهون بهـذا الدهن منصوبا من أعلى القبة إلى فتيلة قنديل معلق فى وسط القبة فيوقد طرف الشريط فتسرى النار فيه إلى الفتيلة فتشتعل . وقد أراد بعض ملوك الشام من بنى أيوب إبطالها فقيل له : إنك تحصل بهذا كثيراً من المال فى كل سنة فـكف عنها وتركها .

و« الأحد الجديد » وهو بعد الفصح بثمانية أيام يعمل أول أحد بعد الفطر لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم وفيه يجددون الآلات والأثاث واللباس ومنه يأخذون فى العدد للمعاملات والقبالات والأمور الدنيوية .

و « التجلى » يقولون : إن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه بعد أن رفع فى هذا اليوم وتمنوا عليه أن يحضر لهم إيليا وموسى عليهما السلام فأحضرهما لهم بمصلى

بيت المقدس ثم صعد وصعدوا ويعمل فى ثالث عشرة مسرى .

و « عيد الصليب » وتزعم النصارى أن قُسْطنطين بن هيلانة انتقل من اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية فيه وبنى كنيسة قُسطنطينية العظمى وسائر كنائس الشام ، ويزعمون فى سبب ذلك أنه كان مجاوراً للرومان فضاق بهم ذرعاً من كثرة غاراتهم على بلاده فهم أن يصانعهم ويفرض لهم عليه أتاوة فى كل عام ليكفوا عنه فرأى ليلة فى المنام أن ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صلبان فحاربت الرومان فانهزموا فلما أصبح عمل أعلاماً وصور فيها صلباناً ثم قاتل فيها الرومان فهزمهم . وقيل : إنه رأى فى المنام صليباً من بعد فى السماء وقائلا يقول : اعمل مثل هذا على رؤس أعلامك فإنك تنتصر . فلما أصبح أمر بعمل صلبان من ذهب على رؤس أعلامه وقاتل بها ونصر فسأل من كان فى بلده من التجار الذين طافوا فى بلاد الدنيا فقالوا له هذا دين النصرانية ، وإنه فى بلد الخليل من أرض الشام فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم إليه وأن يقصوا شعورهم ويحلقو لحاهم ، وإنما فعل ذلك بهم لأن رسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان قبل أن يأمروهم بالتعبد بدين النصرانية فأعرضوا عنهم ومثلوا بهم بهذه المثلة نكالًا ففعلوا ذلك تأسّياً أى اقتداء بهم ولما انتصر قسطنطين خرجت أمه هيلانة إلى الشام ، فبنت فيه الكنائس وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التى صلب عليها المسيح على ما تزعم النصارى وكانت مدفونة فى مربطة عظيمة فأخرجت منها وفيها موضع سبعة مسامير ، وكانت اليهود قد وثبت على يعقوب بن يوسف أخى عيسى فى الصليبية على زعم النصارى ببيت المقدس فألقوه من أعلى الشكل (لعله الهيكل) فمات لا متناعه من الرجوع إلى دينهم ومقامه على دين النصرانية وهدموا البِيعَةَ وأخذوا خشبة الصلب وخشبتى اللصين اللذين صلبا معه على زعمهم فدفنوهم فى قبر واحد . وهـذه الأعياد عندهم يصومونها

وإذا كان أحدهم فى موطن أو قرية لا يرتحل حتى يعيد فلما حملت إليها غلفتها بالذهب وحملتها إلى ابنها ، فعمل من المسامير لجاماً لفرسه وعمل صليباً من ذهب ووضعه على جبهته واتخذت يوم رؤيتها لها عيداً وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول ووافق ذلك سبع عشرة ليلة من توت من شهور القبط . قال المسعودى وكان من مولد المسيح إلى اليوم الذى وجدت فيه الخشبة ثلاثمائة وثمان وعشرون سنة .

أعياد اليهود

وهى على ما ذكره الحموى أيضاً خمسة نطقت بها التوراة بزعمهم وهى « عيد رأس السنة » يعملونه عند رأس سنتهم ويسمونه (عيد رأس هيشا) أى عيد رأس الشهر وهو أول يوم من تشرين يتنزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا ، ويقولون إن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ولده اسحق فيه وفداه بذِبْح[1] عظيم .

و « عيد صوماريا » ويسمى (الكبور) وهو عندهم الصوم العظيم الذى فرض عليهم صومه ، ومدة الصوم خمسة وعشرون ساعة يبتدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرين وتختم بمضى ساعة بعد غروبها من اليوم العاشر ، ولهذا ربما يسمى العاشور ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار وهو عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع عندهم فى يوم الأحد ، ولا فى يوم الثلاثاء ، ولا فى يوم الجمعة ، ويزعمون أن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ماخلا الزنى بالمُحْصَنَةِ وظلم الرجل أخاه وجحده لربوبية الله تعالى .

و « عيد المظال » وهو ثمانية أيام أولها الخامس عشر من تشرين وكلها أعياد ، واليوم الآخر منها يسمى عرايا . تفسيره : شجر الخلاف . وهو أيضاً حج لهم وهم يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلال من جريد النخل وأغصان الزيتون والخلاف وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقه على الأرض . ويزعمون أن ذلك

(١) الذبح بكسر الذال ما ذبح ، والذبح بضمها المصدر .

تذكار منهم لإظلال الله تعالى إياهم فى التيه بالغمام . وكيفية عمل هذه الظلال أن يصنع كل من أمكنه فى بيته طارمة من قصب وسقفها من الجريد الأخضر وسعفه ويترك داخلها أسفار التوراة . ومنهم من يوزرها بالديباج ومتى زالت من السعف سعفه حتى تدخل الشمس المكعب فسد عليه عيده ، وتكون هذه الظلة فى علو الدار تحت السماء ويعمل كل واحد فى أول يوم من هذه الأيام الثمانية قبضة مرسين فيها ثلاثة عيدان فى كل عود ثلاثة أغصان بعضها أعلى من بعض فى كل غصن ثلاثة أوراق وفى وسطها قلب من سعف النخل مستقيم طوله ثلاث قبضات ، وعود من الصفصاف وأترجة سالمة من الخدوش صحيحة من التعفن ويحمل ذلك إلى البيعة ويودع عند القمص ، وإذا كان قبل يوم من الأيام الثمانية دخلوا البيعة وصلوا وأعطى قيم البيعة إلى كل رجل منهم بيده اليمنى قبضة ، وبيده اليسرى الأترجة فيكون فى أيديهم وهم قيام . ويقرأ عليهم مزموراً من المزامير ، فإذا فرغ من المزمور سلم عليهم الختران وهو المعلم وقرأ عليهم شيئاً من التوراة فإذا فرغ من القراءة صلى صلاة ثانية قرب الظهر . ومنهم من يبرد إلى العصر فى بيته ، ومنهم من يعلم القيم وينصرف .

و « عيد الفطير » ويسمونه الفصح فيكون فى الخامس عشر من نيسان وهو سبعة أيام أيضاً يأكلون فيها الفطير وينظفون فيها من خبز الخمير لأنها عندهم الأيام التى خلص الله تعالى بنى إسرائيل من يد فرعون وأغرقه فخرجوا إلى أرض التيه ، وجعلوا يأكلون اللحم والخبز الفطير وهم بذلك فرحون ، وفى آخر هذه الأيام غرق فرعون واتفق أن كان القمر فى ذلك اليوم تام الضوء فأمروا بحفظ ذلك اليوم فصاروا يراعون وقوعه فى ذلك الزمن .

و « عيد الأسابيع » وهى الأسابيع التى فرضت فيها الفرائض وكمل فيها الدين ، ولهم فيها حساب طويل امتطوا فيه مطىّ التعسف ، ويسمى (عيد العنصرة) و (عيد الخطاب) . ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع ، ويقولون : إنه اليوم

الذى خاطب الله تعالى فيه بنى إسرائيل من طور سيناء ، وفى جملة هـذا الخطاب الـكلمات العشر ، وهى وصايا تضمنت أمراً ونهياً وتضمنت التوفيق ، وهو حج من حجوجهم ، وحجوجهم ثلاثة الأسابيع والفطير والمظال وهم يعظمونه ويأ كلون فيه القطايف ويتفننون فى عملها ويجعلونها بدلاً عن المنّ الذى أنزل عليهم فى هذا اليوم على ما يزعمون . واتخاذهم لهذا العيد السادس من سيوان ، ويسمى عشرتا مشتق من الاجتماع . و « عيد الفوريم » وهو عيد أحدثوه ويسمونه الفوريم ، وذكر فى سبب اتخاذهم له أن بختنصر لما أجلى من كان ببيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم أسكنهم (بجَىّ) وهى إحدى مدينتى أصفهان ، ثم ذهبت أيام الـكلدانيين ، وملـكت الفرس الأولى والأخيرة . فلما ملك أزدشير بن بابك وتسميه اليهود بالعبرانية احشويرش . وكان له وزير يسمونه بلغتهم هامان ، ولليهود يومئذ حبر يسمونه بلغتهم مردخاى ، فبلغ أزدشير أن له ابنة عم من أحسن نساء أهل زمانها وأ كملهن عقلا ، فطلب تزويجها منه فأجاب لذلك فحظيت عنده حظوة صار بها مردخاى قريباً منه فأراد هامان إصغاره واحتقاره حسدا له وعزم على إهلاك طائفة اليهود التى فى جميع مملـكة أزدشير ، فرتب مع نواب الملك فى سائر الأعمال أن يهلك كل واحد منهم من بعمله من اليهود ، وعين له يوماً وهو النصف من آذار وإنما خص هذا اليوم دون سائر الأيام لأن اليهود يزعمون أن موسى ولد فيه وتوفى فيه ، وأراد بذلك المبالغة فى نـكايتهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم وبموت موسى عليه السلام ، فاتضح لمردخاى ذلك من بطانة هامان فأرسل إلى ابنة عمه يعلمها بما عزم هامان فى أمر اليهود وسألها إعلام الملك بذلك وحضها على إعمال الحيلة فى خلاص نفسها وخلاص قومها ، فأعلمت الملك بالحال وذكرت له إنما حمله على ذلك الحسد على قربنا منك ونصحنا لك ، فأمر بقتل هامان وقتل أهله وأن يكتب لليهود بالأمان والبر والإحسان فى ذلك اليوم فاتخذوه عيداً واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام . وهذا العيد عندهم عيد

سرور ولهو وخلاعة يهدى بعضهم فيه إلى بعض ، ويصورون من الورق صورة هامان ويملأون بطنها نخالة وملحاً ويلقونها فى النار حتى تحترق يخدعون بذلك صبيانهم .

و « عيد الحنكة » وهو أيضاً مما أحدثوه ، وهو ثمانية أيام أولها ليلة الخامس والعشرين من كسلا ، ويقدون فى الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا ، وفى الثانية سراجين وهكذا إلى أن يكون فى الثانية ثمانى سرج . وسبب اتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبابرة تغلب على بيت المقدس وفتك ببنى إسرائيل وافتض أبكارهم ، فوثب عليه أولاد كاهنهم وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم ، وطلب اليهود زيتاً لوقيد الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم فى كل ليلة إلى تمام ثمان ليال ، فاتخذوا هذه الأيام عيدا وسموه (الحنكة) وهو بمعنى التنظيف لأنهم نظفوا فيه الهيكل من أقذار شيعة الجبار . وبعضهم يسميه (عيد التبريك) . وقيل : إن عيد التبريك كان فيه استتمام نزول التوراة وسلمت إلى أئمتهم لتوضع فى الهيكل . وهم يخرجون فيه التوراة ويتبركون فيها .

القول فى أعياد المسلمين

ولما انجرّ الكلام إلى ذكر غالب أعياد الأمم ، وبيان عاداتهم وسننهم فى مواسمهم على الوجه الأتم ، اقتضى ذلك أن نذكر ما اشتهر من أعياد المسلمين على سبيل الاختصار ، إذ قد بسط الكلام عليها العلماء الأخيار ، فنقول : قد أسلفنا أنه كان لكل قوم من الأمم يوم يتجملون فيه ويخرجون من بلادهم بزينتهم وتلك عادة لاينفك عنها أحد من طوائف العرب والعجم ، وقد قدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال ما هذان اليومان ؟ فقالوا : كنا نلعب فيهما فى الجاهلية . فقال : قد أبدلكم الله تعالى بهما خيرا منهما يوم الأضحى ويوم الفطر قيل : هما النيروز والمهرجان ، وإنما بدلا لأنه ما من عيد

فى الناس إلا وسبب وجوده تنويه بشعائر دين أو موافقة أئمة مذهب أو شيء مما يضاهى ذلك نخشى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن تركهم وعاداتهم أن يكون هنالك تنويه بشعائر الجاهلية أو ترويج لسنة أسلافهم فأبدلها بيومين فيهما تنويه بشعائر الملة الحنيفة ، وضم مع التجمل فيهما ذكر الله وأبواباً من الطاعات لئلا يكونَ اجتماع المسلمين بمحض اللعب ولئلا يخلُوَ اجتماع منهم من إعلاء كلمة الله إحداها : يوم فطر صيامهم وأداء نوع من زكاتهم فاجتمع الفرح الطبيعى من قبل تفرغهم عما يشق عليهم وأخذ الفقير الصدقات ، والعقلى من قبل الابتهاج مما أنعم الله عليهم من توفيق أداء ما افترض عليهم وأسبل عليهم من إبقاء رءوس الأهل والولد إلى سنة أخرى . والثانى : يوم ذبح إبراهيم ولده إسماعيل وإنعام الله عليهما بأن فداه بِذِبْحٍ عظيم . إذ فيه تذكر حال أئمة الملة الحنيفة والاعتبار بهم فى بذل المهج والأموال فى طاعة الله تعالى وقوة الصبر وفيه تشبه بالحاج وتنويه بهم وشوق لما هم فيه ولذلك سن التكبير وهو قوله تعالى (ولتكبروا الله على ما هداكم) يعنى شكراً لما وفقكم للصيام ، ولذلك سن الأضحية والجهر بالتكبير أيام منى واستحب ترك الحلق لمن قصد التضحية وسن الصلاة والخطبة لئلا يكون شيء من اجتماعهم بغير ذكر الله وتنويه شعائر الدين وضم معه مقصد آخر من مقاصد الشريعة وهو أن كل ملة لا بدلها من عرصة يجتمع فيها أهلها لتظهر شوكتهم وتعلم كثرتهم ولذلك استحب خروج الجميع الصبيان والنساء وذوات الخدور وَالْحُيَّضُ ويعتزلن المصلى ويشهدن دعوة المسلمين ولذلك كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يخالف فى الطريق ذهاباً وإياباً ليطلع أهل تلك الطريقين على شوكة المسلمين . ولما كان أصل العيد الزينة استحب حسن اللباس والتقليس أى ضرب الدفوف ومخالفة الطريق والخروج إلى المصلى وسنة صلاة العيدين أن يبدأ بالصلاة من غير أذان ولا إقامة يجهر فيها بالقراءة يقرأ عند إرادة التخفيف بـ « سبح اسم ربك الأعلى » . و « هل أتاك » . وعند الإتمام « ق » و « اقتربت الساعة » يكبر فى الأولى

سبعاً قبل القراءة والثانية خمساً قبل القراءة ، وعمل الكوفيين أن يكبر أربعاً كتكبير الجنائز فى الأولى قبل القراءة وفى الثانية بعدها ، وهما سنتان وعمل الحرميين أرجح ثم يخطب يأمر بتقوى الله ويَعِظ ويذكر . وفى الفطر خاصة أن لا يغدو حتى يأكل تمرات ويأكلهن وتراً وحتى يؤدى زكاة الفطر إغناءً للفقراء فى مثل هـذا اليوم ليشهدوا الصلاة فارغى القلب وليستحق مخالفة عادة الصوم عند إرادة التنويه بانقضاء شهر الصيام . وفى الأضحى خاصة أن لا يأكل حتى يرجعَ فيأكل من أضحيته اعتناء بالأضحية ورغبة فيها وتبركا بها ولا يضحى إلا بعد الصلاة لأن الذبح لا يكون قربة إلا بتشبه الحاج وذلك بالاجتماع للصلاة والأضحية سـنة من معز أو جذع من ضأن فى كل أهل بيت وقاسوها على الهَدْيِ فأقاموا البقرة عن سـبعة والجزور عن سبعة مقامها . ولـما كانت الأضحية من باب بذل المال لله تعالى وهو قوله تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولـكن يناله التقوى منكم) كان تسمينها واختيار الجيد منهـا مستحباً لدلالته على صحة رغبته فى الله فلذلك يتقى من الضحايا أربع : العرجاء البين ضلعها ، والعوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعجفاء التى لا تنقى ، وينهى عن أعضب القرن والأذن وسُنَّ استشراف العين والأذن وأن لا يضحى بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء . والمقابلة : ما يقطع من قبل أذنها أى مقدمها . والمدابرة : التى قطع من مؤخر أذنها والشرقاء : مشقوقة الأذن . والخرقاء : مقطوعة الأذن ثقباً مستديراً . وسن الفحل الأقرن الذى ينظر فى سواد — أى سواد العينين — ويبرك فى سواد — أى سواد البطن والصدر — ويطأ فى سواد — أى سواد الأرجل — لأن ذلك تمـام شباب المعز ومن أذكار التضحية : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض الخ اللهم منك وإليك ولك من الله والله أكبر . . واستيفاء الـكلام على الأعياد الزمانية والمـكانية والاجتماعية وما حدث منها فى الإسلام فى كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) لشيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية رحمه الله .

بيان ما كان العرب يصنعون فى أعيادهم ومواسمهم

كانوا فى أيامهم ومواسمهم يتزينون بأحسن الثياب والملابس المفتخرة والحلل الثمنة والبرود المعجبة والفرسان منهم يتسابقون على الخيل والأجواد ييسرون أى يلعبون بالميسر[١] وصبيانهم يلعبون أنواعا من الملاعب قد استوفاها صاحب القاموس ، ويزمرون بالدفوف والمزاهر ونحو ذلك مع التغنى بأراجيز وأبيات من الشعر أنشدوها فى أيامهم كيوم بِغاث ،[٢] وكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها فى عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام فى تلك الأجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلاً بالإفادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه البيت فتلائم الطبع بالتجزية أولاً ثم بتناسب الأجزاء فى المقاطع والمبادى ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها فالهجوا به فامتاز من بين الكلام بحظ من الشرف ليس لغيره لأجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديواناً لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكًّا لقرائحهم فى إصابة المعانى وإجادة الأساليب واستمروا على ذلك . وهذا التناسب الذى من أجل الأجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف فى كتب الموسيقى إلا أنهم لم يشعروا بما سواه لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة أغلب نحلهم ، ثم تغنى الحداة منهم فى حُداء إبلهم والفتيان فى فضاء خلواتهم فرجعوا الأصوات وترنموا ولم يزل هذا شأن العرب فى بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التى عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته فى ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع فى دين

---

(١) أى القمار .

(٢) بالعين المهملة والغين المعجمة ويثلث : موضع على ليلتين من المدينة ويومه معلوم .

ولا معاش فهجروا ذلك شيئاً مّا ولم يكن الملذوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذى هو ديدنهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ . وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تاحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة (نشيط الفارسى) و (طويس) و (سائب) و (حائر) مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم (معبد) وطبقته (وابن سريج) وأنظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بنى العباس عند إبراهيم بن المهدى وإبراهيم الموصلى وابنه إسحق وابنه حماد وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه إلى زمن بعيد وأمعنوا فى اللهو واللعب . واتخذت آلات الرقص فى الملبس والقضبان والأشعار التى يترنم بها عليه وجعل صنفاً وحده واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرّج وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرّون ويفرّون ويثاقفون . وأمثال ذلك من اللعب المعدّ للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو وكثر ذلك فى بغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلى غيرها . وكان للموصليين غلام اسمه (زرياب) أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه إلى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس فبالغ فى تكرمته وركب للقائه وأثنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف وطمى منها بإشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بأفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وهذه الصناعة آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لأنها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح وهو أيضاً ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه . كذا فى مقدمة العبر .

ذكر حداء العرب والغناء والتغبير

تغنَّ بالشعرِ إن ما كنتَ قائله إنَّ الغِناء لهذا الشعرِ مِضْمارُ

يقولون فلان يتغنى بفلان أو فلانة إذا صنع فى أحدهما شعراً قال ذو الرُّمة :

أحِبُّ المكانَ القَفْرَ من أجل أننى به أَتغَنَّى باسمِها غيرَ مُعجمِ

وكذلك يقولون حدا به إذا عمل فيه شعراً . قال المرار الأسدى :

ولو إنى حدوتُ به ارفأنَّتْ نعامتُـه وأبصر ما يقول(١)

وغناء العرب على ثلاثة أوجه : النصب ، والسناد ، والهزج . « فأما النصب » فغناء الركبان وغناء الفتيان . قال إسحق بن إبراهيم الموصلى : وهو الذى يقال له المراثى وهو الغناء الجنابى اشتقه رجل من كلب يقال له جناب بن عبد الله بن هبل فنسب إليه ، ومنه كان أصل الحداء كله ، وكله يخرج من الطويل فى العروض . « وأما السناد » فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات ، وهو على ست طرق : الثقيل الأول وخفيفه والثقيل الثانى وخفيفه والرمل وخفيفه « وأما الهزج » فالخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . قال إسحق : هذا كان غناء العرب حتى جاء الله تعالى بالإسلام وفتحت العراق وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم فغنوا الغناء المجزء المؤلف بالفارسية والرومية وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير . قال الجاحظ : العرب تقطع الألحان الموزونة والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل فى الوزن اللحن فتضع موزوناً على غير موزون : ويقال : إن أول من أخذ من ترجيعه الحداء مضر بن نزار بن معد بن عدنان سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول وايداه وايداه ، وكان أحسن خلق الله تعالى صوتاً وجرماً فأصغت

(١) قال المجد : أرفأن ارفئنانا نفر ثم سكن ، والنعامة الجهـل ، قال فى التاج يقال سكنت نعامته ثم قال : قال المرار الفقعسى :

ولو انى حدوت به ارفانت نعامته وابغض ما أقـول

إليه الإبل وجدّت فى السير فجعلت العرب مثالا لقوله هايدا هايدا يحدون فى الإبل ، حكى ذلك عبد الكريم فى كتابه ، وزعم ناس من مضر أنَّ أول من حدا رجل منهم كان فى إبله أيام الربيع فأمر غلاماً له ببعض أمره فاستبطأه فضربه بالعصا فجعل يشتد فى الإبل ويقول يا يداه يايداه قال له : الزم الزم فاستفتح الناس الحداء من ذلك . وذكر ابن قتيبة : إنهم قالوا ذلك للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وحكى الزبير ابن بكار فى حديثٍ رَفَعَه : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لقوم من بنى غفار حين سمع حادِيَهم بطريق مكة ليلا فمال إليهم : إن أباكم مضر خرج إلى بعض رعائه فوجد إبله قد تفرقت فأخذ عصاً فضرب بها كف غلامه فعدا الغلام فى الوادى وهو يصيح وايداه وايداه فسمعت الإبل ذلك فعطفت عليه . فقال مضر لو اشتق مثل هذا انتفعت به الإبل واجتمعت فاشتق الحداء « وأما التغبير » فهو تهليل أو ترديد صوت بقراءة أو غيرها حكى ذلك ابن دريد . وحكى أبو إسحق الزجاج قال : سألنى بعض الرؤساء لم سمى التغبير تغبيراً ؟ قلت : لأنه وضع على أنه يرغب فى الغابر أى الباقى أى يرغب فى نعيم الجنة وفيما يعمل للآخرة وقال غيرى : إنما قيل له تغبير لأن ما يخرج من الفم بمنزلة الغبار فعرض جوابانا على أبى العباس ثعلب فاستجاد جوابى ويقال للمراسل فى الغناء : المتالى حكاه غلام ثعلب ، والله تعالى ولىّ التوفيق .

* * *

الكلام على عادات عرب الجاهلية فى المأكل والمشرب

إعلم أن جميع سكان الأقاليم الصالحة اتفقوا على مراعاة آدابهم فى مطعمهم ومشربهم وملبسهم وقيامهم وقعودهم وغير ذلك من الهيئات والأحوال وكان ذلك كالأمر المفطور عليه الإنسان عند سلامة مزاجه وظهور مقتضيات نوعه عند اجتماع أفراد منه وترائى بعضها لبعض وكانت لهم مذاهب فى ذلك ، فكان منهم من يتخذها على قواعد الحكمة الطبيعية فيختار فى كل ذلك ما يرجى نفعه ولا

يخشى ضرره بحكم الطب والتجربة ، ومنهم من يتخذها على قوانين الإحسان حسبما تعطيه ملته ، ومنهم من يريد محاكاة ملوكهم وحكمائهم ورهبانهم ، ومنهم من يتخذها على غير ذلك ، وكانت عادات العرب فى ذلك أوسط العادات ولم يكونوا يتكلفون فى المطاعم والمشارب تكلف العجم ، وكانت لهم فى هذا الباب عوائد مستحسنة ومألوفات يتلقاها دوو العقول بالقبول ، من ذلك أنهم كانوا يبكرون فى الغداء ويرون أن ذلك أقرب إلى راحة البدن وصحته . وسُئِل ابن هبيرة عن ذلك فقال : إنَّ فيه ثلاثَ خصال ، الأولى أنه ينشف المرة . والثانية : يطيب النكهة[1] . والثالثة : أنه يعين على المروءة . قيل . وكيف يعين على المروءة ؟ قال إذا خرجت من بيتى وقد تغديت لم أتطلع على طعام أحد من الناس . وكانوا يؤخرون العشاء رغبة فى ورود الأضياف واجتماع الأكلة بعد انقضاء حاجاتهم وعودهم من مسارحهم وغاراتهم ولأن بلادهم حارة الهواء فكلما ذهبت منه شدة ببرد الليل كان الطعام أمرى ، والشاهية فى الأكل أدعى ، والأصل الأصيل فى ذلك مراعاة الضيوف فقد كان لهم مزيد اعتناء بأمرهم كما تنطِقُ بذلك أشعارهم وأخبارهم . قال قائلهم :

إنىّ إذا خَفِيَتْ نارٌ لمُرْمِلةٍ ... ألفى بأرفَعِ تلٍّ رافعاً نارى

ذاكَ وإنى على جارى لذوحَدَب ... أحنو عليه بما يحنى على الجار

الرملة : الجماعة التى نفد زادها ورجل مرمل لاشىء له مشتق من الرمل كأنه لا يملك غيره كما يقال ترب الرجل إذا افتقر يقال أرمل الرجل إذا نفد زاده وافتقر فهو مرمل وجاء أرمل على غير قياس والجمع أرامل وأرملت المرأة فهى أرملة للتى لازوج لها لافتقارها إلى من ينفق عليها . وقال الأزهرى لايقال لها أرملة إلا إذا كانت فقيرة فإن كانت موسرة فليست بأرملة والجمع أرامل . والتل ما ارتفع من الأرض . وإيقاد النار فى الأماكن العالية من أخلاق الكرام حتى يهتدى الضيف

(١) يقال نكه الرجل على فلان ونكه له نكها من بابى نفع وضرب اذا تنفس على انفه ونكهه نكها يتعدى بنفسه أيضا اذا فعل ذلك ليشم ريح فمه ليعلم هل شرب أم لا واستنكهه كذلك والنكهة مثل تمرة اسم منه كذا فى المصباح .

إليه فى الليل المظلم ويأتى . يقول : إذا خفيت نار غيرى بأن لاتوقد فى أيام الجدب والقحط فأنا أو قدها فى تلك الأيام لتهتدى إلىّ الضيوف يصف نفسه بشدة الكرم وبسط الكف للمستر فدين · وقال الأحوص :

عوّدت قومى إذا ما الضيف نبهنى　　عقر العشار على عسرى وإيسارى

أراد بقوله نبهنى طرقنى ليلا فنبهنى . والعقر ضرب قوائم البعير بالسيف ولا يكون العقر فى غير القوائم · وربما قيل عقره إذا نحره ، والعشار جمع عشراء وهى الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر وهى عند العرب أعز الإبل فذبحها للضيف يكون غاية فى الجود والإكرام . وقوله على عسرى وإيسارى أى أعقرها له على كل حالة سواء كنت معسراً أو موسراً . وعقر العشار مشتمل على إيقاد النار ودال عليه فكأنه قال عودت قومى أنى أوقد النار للطارق . وقال حريث بن عناب الطائى :

عوى ثم نادى هل أحستم قلائصاً　　وسمن على الأفخاذ بالأمس أربعا[١]

غلام قليعى يحف سباله　　ولحيته طارت شعاعاً مقزعا[٢]

غلام أضلته النبوح فلم يجد　　بما بين خبت فالهباءة أجمعا[٣]

أناساً سوانا فاستمانا فلم يرى　　أخا دلج أهدى بليل وأسمعا[٤]

---

(١) فاعل عوى هو غلام فى أول البيت الذى بعده وقوله هل أحستم يريد أحسستم قال الجوهرى وربما قالوا ماأحسست منهم فقالوا أحد السينين استثقالا وهو من شواذ التخفيف والقلائص جمع قلوس وهى الناقة الشابة، وجملة وسمن على الافخاذ صفة قلائص . (٢) قليعى منسوب الى قليع بضم القاف وفتح اللام وهى قبيلة أو منسوب الى القليعة مصغر قلعة وهى موضع فى طرف الحجاز واسم مواضع اخر ، ويحف بالحاء المهملة يقال يقال حف الرجل شاربه حفا من باب قتل اذا أحفاه أى بالغ فى قصه ؛ والسبالى بالكسر الشارب ، والشعاع بالفتح المتفرق ، والمقزع بالقاف وفتح الزاى المشددة المفتول يعنى أن لحيته من الهواء والبرد تفرقت وصارت كالفتائل

(٣) النبوح بضم النون والموحدة وحاء مهملة ضجة الحى وأصوات كلابهم ، وخبت بفتح الخاء المعجمة وسكون الموحدة اسم ماء لكلب وقيل لكندة وموضع آخر ، والهباءة موضع فى أطراف الربذة خارج المدينة المنورة وكانت فيه حرب من حروب داحس لعبس على ذبيان . (٤) قوله فاستمانا أى تصيدنا والمتسمى المتصيد والمسماة جورب يلبسه الصائد البحر وقواه فلم يرى هذه الالف نشأت من أشباع فتحة الراء وهو بالبناء للمفعول بمعنى يعلم والضمير فيه للغلام ، والدلج بفتحتين اسم مصدر من ادلج ادلاجا أى سار الليل كله فان خرج آخر الليل فقد أدلج بتشديد الدال كذا فى المصباح .

فقلت أجرّا ناقة الضيف إننى جدير بأن تلقى إنائى مترعا[1]

فما برحت سجواء حتى كأنما تغادر بالزيزاء برساً مقطعا[2]

كلا قادميها يفضل الكف نصفه كجلد الحبارى ريشه قد تزلعا[3]

دفعت إليه رسل كوماء جلدة وأغضيت عنه الطرف حتى تضلعا[4]

إذا قال قطنى قلت آليت حلفة لتغنى عنى ذا إنائك أجمعا[5]

يدافع حيزوميه سخن صريحها وَحلقاً تراه للثمالة مقنعا[6]

إذا عم خرشاء الثمالة أنفه تقاصر منها للصريح وأقمعا[7]

وشرح هذه الأبيات يطول وقد أراد الشاعر أن هذا الغلام شردت له قلائص أربع فخرج فى طلبها حتى أظلم عليه الليل فضل عن الطريق فعوى حتى سمعت الكلاب صوته فنبحته فاستدل بصوتها علينا فجاء فسأل عن قلائصه. والعرب تزعم أن سارى الليل إذا أظلم عليه فلم يستبن محجة ولم يدر أين الحلة

---

(١) أجر بفتح الهمزة وكسر الجيم أمر من اجررته رسنه اذا تركته يصنع ما يشاء يعنى خذوا رسنها ودعوها تأكل ما شاءت، وناقةالضيف الناقة التى جاء راكبها عليها وهذا من أخلاق الكرام فان أكرام دابة الضيف غاية الاكرام عند الضيف وانائى بالمد والاضافة الى الياء والاناء الوعاء، ومترع من ترعت الاناء بالتشديد واترعته أى ملأته وهذا كناية عن الخصب والكثرة.

(٢) سجواء بالنصب خبر برح وسحواء بالمهملتين والمد أى ساكنته عند الحلب، وتغادر تترك، والزيزاء بكسر الزاى الاولى والمد الموضع الصلب من الارض والبرس بكسر الموحدة واهمال الراء والسين القطن شبه ما سقط من اللبن به. (٣) الحبارى بضم المهملة بعدها موحدة وبالقصر طائر على شكل الاوزة برأسه وبطنه غبرة ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالبا، وتزلع تقلع. (٤) الرسل بكسر الراء اللبن، والكوماء بفتح الكاف والمد الناقة العظيمة السنام والجلدة بفتح الجيم وسكون اللام هى أدسم الابل لبنا والجمع الجلاد بالكسر، والطرف العين، وتضلع امتلأ ما بين أضلاعه. (٥) قطنى أى حسبى أى قلت قد حلفت أن تشرب جميع ما فى انائك. (٦) قوله حيزوميه هو ما اكتنف حلقومه من جانبى الصدر، والسخن الحار، والصريح اللبن الذى ذهبت رغوته، والثمالة بضم المثلثة رغوة اللبن يريد أنه يرفع حلقه لاستيفاء اللبن ومقنع اسم مفعول من اقنع رأسه اذا رفعه. (٧) الخرشاء بكسر الخاء جلد الحية وقشرة البيضة العليا بعد أن تكسر ويخرج ما فيها ثم يشبه به كل شىء فيه انتفاخ وتفتق وخروق، واقمعا يقال أقمعت ما فى السقاء اى شربته كله.

أى القوم النزول وضع وجهه مع الأرض وَعوى عواء الكلب لتسمع ذلك الصوت الكلاب إن كان الحىّ قريباً منه فتجيبه فيقصد الأبيات . قال الفرزدق :

وداع بلحن الكلب يدعو ودونه   من الليل سجفاً ظلمة وغيومها
دعا وهو يرجو أن ينبه إذ دعا   فتى كابن ليلى حين غارت نجومها
بعثت له دهماء ليست بلقحة   تدر إذا ما هب نحساً عقيمها

ابن ليلى : هو أبو الفرزدق . ومعنى بعثت له دهماء : أى رفعتها على أثافيها . ويعنى بالدهماء القدر واللقحة الناقة أراد أن قدره تدرّ إذا هبت الريح عقيماً لا مطر فيها . وما أحسن قول ابن هَرْمة :

ومستنبحٍ يستكشط الريح ثوبَهُ   ليسقُطَ عنه وهو بالثوب مُعْصِمُ
عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه   لينبح كلب أو ليفزعَ نُوَّمُ
فجاوبه مستسمع الصوت للقِرى   له مع إتيان المحبين مَطْعَمُ
يكاد إذا ما أبصر الضيفَ مقبلا   يكلمه من حبه وهو أعجم

يقال فزعت لفلان : إذا أغثته . والمهبون : الموقظون له ولأهله وهم الأضياف . وإنما كان له معهم مطعم لأنه ينحر لهم ما يصيب منه وأراد بقوله يكلمه من حبه الخ بصبصته وتحريكه ذَنَبَهُ . ومثله قوله أيضاً :

وإذا أتانا طارق متنــوِّرٌ   نبحت فدلتــه علىَّ كلابى
وفرحن إذ أبصرنه يضربنــه   من أنسها بشراشر الأذناب

يقال شرشر الكلب إذا ضرب بذنبه وحركه للأنس . وأما قول الأخطل :

دعانى بصوتى واحـــد فأجابه   منادٍ بلا صوت وآخر صيت

فمعناه أن ضيفاً عوى بالليل والصدى من الجبل يجيبه فذلك معنى قوله بصوتى واحد . وقوله فأجابه مناد بلا صوت : أى نار رفعها له فرأى سناها فقصدها ، والصيت الآخر الكلب لأنه أجاب عواءه . والمقصود من ذكر هذه الأبيات بيان ما كان للعرب من مزيد الاعتناء بالضيف حتى أوقدوا النيران فى الليل

واتخذوا الكلاب ليهتدى إليهم من لم يعرف المنازل . ومن عاداتهم المحمودة وأفعالهم الجميلة ، أنهم كانوا إذا ألمَّ بأحدهم ضيف ظهرت البشاشة على وجهه وتلقاه بالترحيب والتكريم ، وأدّوا له آداب الضيافة كلها فإنه حين يستقر بالضيف المقام يسرع إلى أهله ليجيئهم بنزلهم بحيث لا يكاد يشعر به أحد ، وهذا من كرم رب المنزل المضيف أنه يذهب باختفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه فيستحى فلا يشعر به إلاّ وقد جاءه بالطعام بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر مكانكم حتى أتيكم بالطعام ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه ، وقد تلقوا هذه السنن من أبيهم إبراهيم عليه السلام فهو أول من قرى الضيف ، وتأمل ثناء الله سبحانه عليه فى إكرام ضيفه حيث يقول سبحانه (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون) فى هذا من الثناء على إبراهيم وجوه متعددة . منها : أنه وصف إكرام ضيفه بأنهم مكرمون أى إن إبراهيم أكرمهم . ومنها : قوله تعالى إذ دخلوا عليه فلم يذكر استئذانهم ، فى هذا دليل على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قراهم فبقى منزل مضيفه مطروقا لمن ورده لا يحتاج إلى استئذان ، بل استئذان الدخول دخوله وهذا غاية ما يكون من الكرم . ومنها : قوله لهم سلام بالرفع وهم سلموا عليه بالنصب والسلام بالرفع أكمل فإنه يدل على الجملة الإسمية الدالة على الثبوت والتجدد والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد ، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم فإن قولهم سلاما يدل على سلمنا سلاماً وقوله سلام أى سلام عليكم . ومنها : أنه حذف المبتدأ من قوله قوم منكرون ، فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لوقال أنتم قوم منكرون ، فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام . ومنها : أنه راغ إلى أهله ليجيئهم بنزلهم والروغان هو الذهاب فى اختفاء بحيث لا يكاد يشعر

به وهذا من كرم المضيف على ما سبق . ومنها : أنه ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة . فدل على أن ذلك كان معداً عندهم مُهَيَّأً للضيفان ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه . ومنها : قوله فجاء بعجل سمين دل على خدمته للضيف بنفسه ولم يقل فأمر لهم بل هو الذى ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه وهذا أبلغ فى إكرام الضيف . ومنها : أنه جاء بعجل كامل ولم يأت ببضعة منه وهذا من تمام كرمه . ومنها : أنه سمين لا هزيل . ومعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم . ومثله يتخذ للإقتناء والتربية فآثر به ضيفانه . ومنها : أنه قربه إليهم بنفسه ولم يأمر خادمه بذلك . ومنها أنه قربه إليهم ولم يقربهم إليه : وهذا أبلغ فى الكرامة أن تجلس الضيف ثم تقرب الطعام إليه وتحمله إلى حضرته ولا تضع الطعام فى ناحية ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب إليه . ومنها : أنه قال لهم ألا تأكلون ، وهذا عرض وتلطف فى القول وهو أحسن من قوله كلوا أو مدّوا أيديكم ونحوها وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه ، ولهذا يقولون بسم الله أو ألا تتصدق ألا تجبر ونحو ذلك . ومنها : أنه إنما عرض عليهم الأكل لأنه رآهم لا يأكلون ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن فى الأكل بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل قال لهم : ألا تأكلون ، ولهذا أوجس منهم خيفة أى أحسها وأضمرها فى نفسه ولم يبدها لهم . فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التى هى أشرف الآداب وما عداها من التكلفات التى هى تخلف وتكلف إنما هو من أوضاع الناس وعاداتهم وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخراً . ومن تصفح أخبار العرب وأشعارهم وجدهم فى أمر الضيافة على تلك الآداب ، وأنهم لم يغيروا شيئاً منها بعد مرور الأزمان والأحقاب . حتى إنهم كانوا يقومون بأمر من يرد إلى مكة من الحاج بالغاً ما بلغ ، وكان هاشم وهو أحد أجداد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا حضر الحج قام فى قريش فقال : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وهم ضيف الله وأحق

الضيف بالكرامة ضيفه فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاماً أيامهم هذه التى لا بد لهم من الإقامة فيها فإنه والله لو كان لى مال يسع لذلك ما كلفتكموه فيخرجون لذلك خرجاً من أموالهم كل امرىء على حسب قدرته وطاقته فيصنع به للحاج طعاماً حتى يصدروا وهذه هى الرفادة التى هى من سنن قصى على ما سبق . وهاشم هو الذى هشم الثريد لقومه بمكة وكان اسمه عمراً كما يشعر به قول الشاعر :

عمرو الذى هَشَم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنتون عِجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما   سفر الشتاء ورحلة الأصياف

أشار فى البيت الثانى إلى رحلة الشتاء والصيف ، وهو أول من سنهما لقريش .

ومن عاداتهم فى هذا الباب أنهم يقلون من الأكل ويقولون البطنة تذهب القطنة . أى الذى يملأ بطنه من الطعام تذهب منه فطنته . وكانوا يعيبون الرجل الأكول الجشع . قال الشنفرى :

إذا مُدَّتِ الأيدى إلى الزادِ لم أكُن   بِأَعْجَلِهِمْ إذْ أجْشَعُ القومِ أعْجَلُ[1]

وقيل للحارث بن كلدة طبيب العرب فى الجاهلية : ما أفضل الدواء ؟ قال : الأزم . يريد قلة الأكل وقد أصاب فى ذلك . قال بعض حكمائهم : أى بنىّ لأمر مّا طالت أعمار الهند وصحت أبدان العرب ، ولله در ابن كلدة إذ زعم أن الدواء هو الأزم فالداء كله من فضول الطعام فكيف لا ترغب فى شىء يجمع لك صحة البدن وذكاء الذهن وصلاح الدين والدنيا والقرب من عيش الملائكة ، أى بنىّ لم صار الضب أطول عمرا لأنه يبتلع النسيم ، أى بنىَّ قد بلغت تسعين عاما ما نقص لى سن ولا انتشر لى عصب ولا عرفت ذنين أنف[2] ولا سيلان عين

---

(١) الجشع : اشد الحرص والماضى جشع بكسر الشين وتجشع كذلك ورجل جشع وقوم جشعون وهذا من جنس قول حاتم :

أكف يدى من أن تنال أكفهم   اذا نحن أهوينا وحاجاتنا معا

(٢) الذنين رقيق المخاط أو ماسال من الانف رقيقا أو عام فيهما وذنن كفرح والاذن من يسيل منخراه والذناء للانثى .

ولا سلس بول ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة وإن كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرك انتهى . وقال الأصمعى : تقول العرب فى الرجل الأكول : إنه برم قرون . البرم الذى يأكل مع الجماعة ولا يجعل شيئاً . والقرون الذى يأكل تمرتين تمرتين ، ويأكل أصحابه تمرة تمرة . والحاصل أن الشبع مذموم بالعقل والنقل ومضاره كثيرة فإنه يقسى القلب بخلاف الجوع فإنه يرققه ويصفيه فيتهيأ به لإدراك لذة المناجاة وللتأثر بالذكر فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يتأثر به حتى كأن بينه وبينه حجاباً وذلك من قساوة القلب الحاصلة من الشبع ولذلك قال بعض العارفين : القلب إذا جاع أو عطش صفا ورق ، وإذا شبع عمى . ومن مضاره أنه يفسد الذهن لأنه يكثر البخار فيورث البلادة حتى إن الصبى إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطىء الفهم والإداك . ومنها : أنه يعطل القوى الباطنة عن إدراك المعانى الكاملة والعلوم الفاضلة واستجلاء المعارف ، واستحلاء العوارف . قال لقمان لابنه : يا بنىّ إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادات . ومنها : أنه ينشط الأعضاء على المعصية لأن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ومادتهما لا محالة الأطعمة فبتقليلها يضعفان وبتكثيرها يقويان . وإذا قويتا تحصل المعاصى ، وقد وردت عدة أحاديث فى ذم الشبع . منها قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (المؤمن يأكل فى مِعًى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء) أى يأكل سبعة أضعاف المؤمن ، أو أن شهوته سبعة أمثال شهوة المؤمن وتكون الأمعاء كناية عن الشهوة لأن الشهوة هى التى تقبل الطعام وتأخذه كما تأخذ الأمعاء وليس المعنى زيادة أمعاء الكافر على أمعاء المؤمن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه إن كان ولابد من التجاوز عما ذكر فلتكن أثلاثاً ، فثلث للطعام . وثلث للشراب ، وثلث للنفس . ولله در العرب حيث رعوا فى مأكلهم هذه الدقائق والأسرار وهم زمن الجاهلية .

تفصيل الوصف بكثرة الأكل وترتيبه عند العرب

لما كان كثرة الأكل عندهم معيباً وليس ذلك بمنزلة واحدة بل هو درجات متفاوتة كما تدل عليه لغتهم فقد قالوا : إذا كان الرجل حريصاً على الأكل فهو نَهِمٌ وشَرِهٌ . فإذا زاد حرصه وجودة أكله فهو جشع . فإذا كان لا يزال قرما[١] إلى اللحم وهو مع ذلك أكول فهو جمم . فإذا كان يتتبع الأطعمة بحرص ونهم فهو لعوس ولحوس . فإذا كان رغيب البطن كثير الأكل فهو عيصوم . فإذا كان أكولاً عظيم اللقم واسع الحنجور فهو هبلع . فإذا كان مع شدة أكله غايظ الجسم فهو جعظرى . فإذا كان يأكل أكل الحوت الملتقم . فهو هاقام وتاقامة وجراضم . فإذا كان كثير الأكل من طعام غيره فهو مجلح . فإذ كان لا يبقى ولا يذر من الطعام فهو قحطى . وهو من كلام الحاضرة دون البادية . قال الأزهرى أظنه نسب إلى التقحط لكثرة أكله كأنه نجا من القحط . فإذا كان يعظم اللقم ليسابق فى الأكل فهو مدهبل . فإذا كان لا يزال جائماً أو يرى أنه جائع فهو مستجيع وشحذان ولهسم . فإذا كان يتشمم الطعام حرصاً عليه فهو أرشم . فإذا كان شهوان شرهاً حريصاً فهو لعمظ ولعموظ . فإذا دخل على القوم وهم يطعمون ولم يدع فهو وارش . فإذا دخل عليهم وهم يشربون ولم يدع فهو واغل . فإذا جاء مع الضيف فهو ضيفن . وقال الجاحظ فى عيوب الأكل الزقاق الذى فى فيه لقمة لم يسغها فيشرب الماء ويسمى زاقّ الفرخ أيضاً . والمبلعم الذى فى فيه لقمة لم يسغها ويبادر خلفها بأخرى . والمحلحل الذى يأخذ سكرجة فيحركها ليجتمع الأبزار فيأكل ويترك ملحاً ساذَجاً . والمغربل الذى يحرك طبق الرطب والباقلاء وما أشبهه ثم يأكل نقاوته . والمقبب الذى يجمع اللحم بين يديه على رغيف كأنه قبة ويدع رفقاءه بغير لحم . والمنعل الذى يأخذ لقمة أكبر مما يسع فاه فيضع يده أو كسرة تحتها . والمعلق الذى فى فيه لقمة وفى يديه أخرى .

---

(١) القرم محركة شدة شهوة اللحم .

مطاعم العرب الشهيرة

كان مأكولهم فى غالب الأزمان لحوم الصيد والسويق والألبان وربما ابتلع أحدهم الريح أو مضغ القيصوم[١] والشيح أو حَرَش اليربوع[٢] والضب أوصاد الظَّبْىَ والأرنب . وكان الغالب من أهل باديتهم لايعاف شيئاً من المأكل لقلتها عندهم . ومنهم من كان يعاف القذر ويتجنب عن أكل كل مادبَّ ودرج . وكان أحسن اللحوم عندهم لحوم الإبل ولا يفضلون شيئاً عليها ، وكان منهم من يستطيب أكل الضب .

« يقول قائلهم »

أكلتُ الضبابَ فما عفتُها وإنى اشتهيتُ قديدَ الغَنَم[٣]

ولحم الخرُوفِ حَنيذاً وقَدْ أتيتُ به فاتراً فى الشَبمَ

وأما البِهَط وحيتانكم فأصبحت منها كثير السقم

وركبتُ زُبْداً على تمرة فنعم الطعام ونعم الأدم

وقد نلت منها كما نلتمُ فلم أرَ فيها كضبٍّ هرم

وما فى التيوس كبيض الدجاج وبيض الدجاج شفاء القَرِم

ومَكْن الضباب طعام العرب وكاشيه منها رؤسُ العجم

قوله الحنيذ : أى الشوى . وماء الشبم بفتح الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة ماء الأسنان . والبهط بكسر الباء الموحدة وفتح الهاء وبالطاء المعجمة الأرز باللبن . والقرم بفتح القاف وكسر الراء الرجل يشتهى اللحم . والمكن بفتح الميم وإسكان الكاف وبالنون فى آخره بيض الضب . والكشى كشية بضم الكاف وإسكان الشين المعجمة وهى شحمة بطن الضب أو أصل ذنبه . . وكان الاصطياد

(١) نبت وهو صنفان انثى وذكر النافع من اطرافه وزهرد مر جدا .
(٢) يقال حرش الضب يحرشه حرشا وتحراشا صاده كاحترشه بأن يحرك يده على باب حجره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه .
(٣) هذه الابيات لأبى الهندى .

ديدنا لهم وسيرة فاشية حتى كان ذلك أحد المـكاسب التي عليها معاشهم ، وكان لهم شغل شاغل عن الاعتناء بأمر المأكل لاضطرارهم إلى النقلة فى الغالب لرعى مواشيهم وتشاغلهم بالحروب وغزو بعضهم بعضاً . وأما ما كان يتعاطاه غيرهم من التأنق فى الأطعمة المتنوعة والألوان الشهية فلم تـكن العرب تعرفها ولا كانت تمر على أذهانهم ، حتى حكى أن عبد الله بن جُدْعان وكان سيداً شريفاً فى قريش وفد على كِسْرَى مرة وأكل عنده الفالوذج فتعجب منه وسأل عن حقيقته فقيل له هى لُباب البر يُلبَكُ مع العسل فابتاع من عنده غلاماً يصنعه وقدم به مكة فصنع بها الفالوذج فوضع موائده بالأبطح إلى باب المسجد ثم نادى من أراد أن يأكل الفالوذج فليحضر فـكان ممن حضر أمية ابن أبى الصلت ، فقال مادحا :

لـكل قبيلةٍ رأسٌ وهادى وأنت الرأسُ تقدم كلَّ هادى
له داعٍ بمكة مُشْمَعِلٌّ وآخَرُ فوقَ دارته يُنادى(1)
إلى رُدُحٍ من الشِيزَى ملاء لُباب البُرِّ يُلْبَكُ بالشِهاد(2)

وكان للعرب أطعمة شهيرة يتخذونها من لحوم وحبوب وألبان وغير ذلك « فمنها السخينة » وهى تتخذ من الدقيق دون العصيدة فى الرقة وفوق الحساء وإنما يأكلونها فى شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المـال وهى التى كانت تعير بها قريش . حكى أن معاوية قال للأحنف : ما الشيء الملفف فى البجاد ؟ فقال : السخينة ، وإنما أراد معاوية قول القائل :

إذا ما مات مَيْتٌ من تميم فسَرَّك أن يعيش فجئ بزادِ(3)

---

(1) أشمعل أشرف والقوم فى الطلب بادروا فيه (2) الردحة سترة تكون فى مؤخر البيت أو قطعة تزاد فيه والرداح الخفيفة العظيمة، والشيز والشيزى خشب أسود يتخذ منه القصـاع وقوله لباب البراى من لبـاب البر وروى البيت الثالث هكذا : الى ردح من الشيزى عليها الخ (3) هذا الشعر ليزيد ابن عمرو بن الصعق الكلابى وذكر الجاحظ انه لابى المهوس الاسدى ، وقوله اذا ما مات ميت من تميم ، قال ابن السيد فيه رد على أبى حاتم السجستانى ومن ذهب مذهبه لان أبا حاتم كان يقول قول العامة مات الميت خطأ والصواب مات الحى وهذا الذى أنكره غير منكر لان الحى قد يجوز أن يسمى ميتا لان

بخبز أو بتمر أو بِسَمْنٍ أو الشئ الملَفَّف فى البجاد[1]
تراه يطوف فى الآفاق حِرْصاً ليأكل رأسَ لقمان بن عاد[2]

وكان الأحنف من تميم ، وإنما أراد الأحنف بالسخينة رمى قوم معاوية بالبخل لأنّهم كانوا يقتصرون عليها عند غلاء السعر حتى صار هذا اللفظ لقباً لقريش واسماً لهم . قال حسان :

زعمت سخينةُ أنْ ستغلِبُ ربَّها وليُغلبنَّ مغالبُ الغلاّبِ

ويروى أن كعباً لبس يوم أحـــد لاَمَةَ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت صفراء ولبس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لامته فجرح كعب أحد عشر جرحا ولما قال كعب :

جاءت سخينة كى تغالب ربها فليغلبن مغالب الغلاب

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لقد شكرك الله يا كعب على قولك

امره يئول الى الموت كما يقال للزرع قصيل لأنه يقصل أى يقطع وتقول العرب بئس الرمية فيسمونها رمية لانها مما يرمى ويقال الكبش الذى يراد ذبحه ذبيحة وهو لم يذبح وضحية ولم يضح بهـا ، وقال الله تعالى : (انك ميت وانهم ميتون) وقال : « انى أرانى أعصر خمرا » وانما يعصر العنب . وهذا النوع فى كلام العرب كثير والعجب من انكار أبى حاتم اياه مع كثرته وقـد فرق قوم بين الميت بالتشـديد والميت بالتخيف فقالوا الميت بالتشـــديد ما سيموت والميت بالتخفيف ماقد مات وهذا خطأ فى القياس ومخالف السماع اما القياس فان ميت المخفف انما أصله ميت المشـدد فخفف وتخفيفه لم يحدث فيه معنى مخالفا لمعناه فى حال التشديد كما يقال هين وهين ولين ولين فكما أن التخفيف فى هين ولين لم يحل معناهما فكذلك تخفيف ميت . واما السماع فانا وجدنا العرب لم تجعل بينهما فرقا فى الاسـتعمال ومن أبين ما جاء فى ذلك قول الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت انمـا الميت ميت الاحيـــاء

قال ابن قنعاس الاسـدى :

الا ياليتـنى والمـرء ميـت وما يغنى عن الحدثان ليت

ففى البيت الأول سوى بينهما وفى البيت الثانى جعل الميت المخفف الحى الذى لم يمت ، الا ترى أن معناه سيموت فجرى مجرى المثل انك ميت وانهم ميتون فجعل الميت بالتشديد ماقد مات .

(١) البجاد : الكساء فيه خطوط (٢) قوله ليأكل رأس لقمان الخ انما ذكر لقمان ابن عاد لجلالته وعظمته يريد أنه لشدة نهمه وشرهه اذا ظفر باكلة فكانه ظفر برأس لقمان لسروره بما نال واعجابه بما وصل اليه كما يقال لمن يزهى بما فعل ويفخر بما أدركه كأنه قد جاء برأس خاقان .

هذا « ومنها الحريقة » وهى أن يذر الدقيق على ماء أو لبن حليب فيحسى وهى أغلظ من السخينة يبقى بهـا صاحب العيال على عياله إذا عضه الدهر « ومنها الصحيرة » وهى اللبن يغلى ثم يذر عليه الدقيق « ومنها العذيرة » وهى دقيق يحلب عليه لبن ثم يحمى بالرضيف[1] « ومنها العكيسة » وهى لبن يصب عليه الإهالة وهى الشحم المذاب « ومنها الغريقة » وهى حلبة تضم إلى اللبن والتمر وتقدم إلى المريض والنُّفَساء « ومنها الرغيدة » وهى اللبن الحليب يغلى ثم يذر عليه الدقيق حتى يختلط فيلعق « ومنها الأصية » وهى دقيق يعجن بلبن وتمر « ومنها الرهية » وهى برّ يطحن بين حجرين ويصب عليه لبن يقال ارتهى الرجل إذا اتخذ ذلك « ومنها الوليقة » وهى طعام يتخذ من دقيق وسمن ولبن « ومنها اللويقة » وهى مالين من الطعام وفى حديث عبادة ولا آكل إلا مالوّق لى « ومنها الألوقة » وهى أيضاً الملين منه إلا أن اللويقة اللين « ومنها الخزيفة » وهى شحمة تذاب ويصب عليها ماء يطرح عليه دقيق فيلبَكُ به وهى عند الأطباء ثلاث : الخبز والسكر والسمن ، وشتان ما بينهما « ومنها الرغيفة » وهى حسو من دقيق وماء وليست فى رقة السخينة « والربيكة » وهى طعام يتخذ من بر وتمر وسمن . ومنها المثل « غرثان فاربكوا له » .[2] « والتلبينة » وهى حُثالةٌ يتخذ من دقيق أو نخالة ويجعل فيه عسل وإنما سميت تلبينة تشبيهاً باللبن لبياضها ورقتها . وفى الحديث : عليكم بالتلبينة . وكان إذا اشتكى أحدهم فى منزله لم تنزل البرمة حتى يأتى أحد طرفيه ومعناه حتى يبرأ من علته أو يموت ، وإنما جعل هذان طرفيه لأنهما منتهى أمر العليل « والوشيقة » وهى أن يغلى اللحم ثم يرفع يقال منه وشقت أشق وشقاً . وقال الحسن بن هانىء :

---

(١) الرضيف كامير : اللبن يغلى بالرضفة (٢) يقال دخل ابن لسان الحمرة على أهله وهو جائع عطشان فبشروه بمولود واتوه به فقال : والله ماادرى أآكله أم أشربه ، فقالت امرأته : غرثان فاربكو له ، أى اخلطوا له طعاما ، ويروى فاكبوا له من البكيلة وهى اقط يلت بسمن فلما طعم وشرب قال كيف الطلا وامه فارسلها مثلا ، والطلا ولد الظبية فاستعاره لولده ، يضرب لمن قد ذهب همه وتفرع لغيره ، وقيل يضرب مثلا للرجل تكلمه وله شأن يشغله عنك .

حتى رفعنا قدرنا بضرامها والللحم بين موزم وموشق

« والعثيمة » بالعين غير معجمة طعام يطبخ ويجعل فيه جراد وهو الغثيمة أيضاً « والبغيث والغليث » الطعام المخلوط بالشعير فإذا كان فيه الزوان فهو المغلوث « والعريقة » وهى شىء يعمل من اللبن « والبكيلة » السمن يخلط بالأَقِط وهى التى عناها الراجز بقوله :

لأكلَةٌ من أقط وسمْنِ ألينُ مسًّا فى حشايا البطن[١]

من يثْرَ بيات قذاذ خُشْنِ[٢]

وقال أبو زيد هى الدقيق يخلط بالسويق ثم يبل بماء أو بسمن أو بزيت . وقال الكلابى : هو الأَقِطُ المصحون تبكله بالماء كأنك تريد أن تعجنه : وقال ابن السكيت : وهى السويق والتمر يبلان بالماء « والعبيثة » وهى الأقط بالسمن والتمر . وقيل هى الأَقِطُ الرطب يخلط بالتمر اليابس « والحَيْسْ »[٣] وهو الأقط مع السمن والتمر « والمجيع » وهو التمر مع اللبن وهو حلواء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « والبسيسة » وهو كل شىء خلطته بغيره مثل السويق بالأقط ثم تلته بالسمن أو بالزيت ومثل الشعير بالنوى للإبل يقال بسسته أبسه بساً « والصناب » وهو الخردل مع الزبيب . « والبريك » وهو الزبد مع الرطب « والخبيط » وهو اللبن الرائب باللبن الحليب « والخليط » وهو السمن بالشحم « والنخيسة » وهو لبن الضأن يخلط بلبن المعز « والمرضة » وهى اللبن الحلو إذا اختلط مع اللبن الحامض « والوطيئة » وهى العصيدة الناعمة « النفيتة » وهى العصيدة إن ثخنت « واللفيتة » وهى النفيتة إذا زادت قليلا فإذا انعقدت وتعلكت فهى العصيدة « والخزيرة »

---

(١) الاقط : قال الازهرى يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل (٢) قال فى التاج : الاقذ سهم لاريش عليه ، وقيل هو المستوى البرى بلا زيغ فيه ولا ميل ، وقال اللحيانى : السهم حين يبرى قبل أن يراش والجمع قذ وجمع القذ قذان قال الراجز : من يثر بيات قذاذ خشن ، انهتى باختصار
(٣) هو تمر واقط وسمن وانشد :

التمــر والسمن والاقط الحيس الا انــه لـم يختلط

أن ينصب القدر بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير فإذا نضج ذرّ عليه الدقيق فإن لم يكن لحم فهو عصيدة . وأول من عمل الحزيرة سويد بن هرمى ، ولذلك قال شاعرهم لبنى مخزوم :

وعلمتُمُ أكل الحزير وأنتُمُ   على عُدَواء الدهر صم صلاب[1]

ومن تتبع كتب اللغة ونحوها وجد غير ماذكرنا مما هو على هذا القبيل ولا يسعنا استيعابه .

***

ولائم العرب الشهيرة

الولائم جمع وليمة ، وهى كل طعام يصنع لعرس وغيره ويدعى إليه . وقال الإمام الشافعى وأصحابه : تقع الوليمة على كل دعوة تتخذ لسرور حادث من نكاح أو ختان وغيرهما ، لكن الأشهر استعمالها عند الإطلاق فى النكاح وتقيد فى غيره ، فيقال وليمة الختان ونحو ذلك . وقال الأزهرى الوليمة مأخوذة من الولم وهو الجمع وزناً ومعنى لأن الزوجين يجتمعان . وقال ابن الأعرابى : أصلها من تتميم الشىء واجتماعه . وذهب غالب أهل اللغة إلى أن اسم الوليمة مختص بطعام العرس . وهو المنقول عن الخليل بن أحمد وثعلب وغيرهما ، وجزم به الجوهرى وابن الأثير . وقال صاحب المحكم : الوليمة طعام العرس والأملاك ، وجزم الماوردى ثم القرطبى بأنها لا تطلق فى غير طعام العرس إلا بقرينة . وأما الدعوة فهى أعم من الوليمة وهى بفتح الدال على المشهور وضمها قطرب فى مثلثاته وغلطوه فى ذلك على ما قال النووى . قال : ودعوة النسب بكسر الدال وعكس ذلك بنو تيم الرباب ففتحوا دال دعوة النسب وكسروا دال دعوة الطعام انتهى . وما نسبه لبنى تيم الرباب

(١) العدواء أرض يابسة صلبة وربما جاءت فى البئر اذا حفرت وقد يكون حجرا يحاد عنه فى الحفر ، وقيل العدواء المكان الذى لايطمئن من قعد عليه يقال على مركب ذى عدواء أى ليس بمطمئن ، وفى المحكم جلس على عدواء أى على غير استقامة .

نسبه صاحب الصحاح والمحكم لبنى عدى الرباب فالله أعلم . . وولائم العرب ست عشرة وليمة . الأولى « الخُرْسُ » بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وهى الطعام الذى يصنع للنفَساء لسلامة المرأة من الطلق . وقيل : هو طعام الولادة . والثانية « العقيقة » وهى ما يصنع للطفل بعد ولادته وتختص باليوم السابع . والثالثة « الأعذار » وهى ما يصنع للختان . والرابعة « ذو الحذاق » وهى ما يصنع لحافظ القرآن فهى مما حدثت بعد الإسلام . وقيل : إنه الطعام الذى يتخذ عند حذق الصبى ذكره ابن الصباغ فى الشامل . والخامسة « الملاك » وهى ما يصنع للخطبة . ويقال الأملاك . وطعامه يسمى (الشُنْدَخ) بضم المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وقد تضم وآخره خاء معجمة مأخوذ من قولهم فرس شندخ أى يتقدم غيره سمى طعام الأملاك بذلك لأنه يقدم الدخول . والسادسة « وليمة العرس » وهى ما يصنع للدخول بالزوجة . والسابعة « الوضيمة » وهى ما يصنع للميت أى لأهل المصيبة . والثامنة « الوكيرة » وهى ما يصنع للبناء يعنى للسكن المتجدد مأخوذ من الوكر وهو المأوى والمستقر . والتاسعة « العقيرة » بعين مهملة فقاف وهى ما يصنع لهلال رجب . والعاشرة « التحفة » وهى ما يصنع للزائر . والحادية عشرة « الشُنْدُخ » بالشين المعجمة والدال المهملة المضمومتين آخره خاء معجمة وهى ما يصنع عند وجود الضالة وقد سبق أنه يطلق أيضاً على طعام الأملاك والثانية عشرة « النقيعة » بالقاف ثم العين المهملة وهى ما يصنع للقدوم من السفر وقيل : النقيعة التى يصنعها القادم والتى تصنع له تسمى التحفة . والثالثة عشرة « القرى » وهى ما يصنع للضيف . والرابعة عشرة « المأدبة » وهى ما ليس له سبب من ذلك . والخامسة عشرة « الجَفَلَى » بفتح الجيم والفاء . وهى التى تعم دعوتها . والسادسة عشرة « النَقَرى » بفتح النون والقاف وهى التى تخص دعوتها . قال طَرَفة :

نحن فى المشتاةِ ندعو الجَفَلَى لاترى الآدِبَ فينا يَنْتَقِر

وصف قومه بالجود وأنَّهم إذا صنعوا مأدبة دعوا إليها عموماً لا خصوصاً وخص أيام الشتاء لأنهـا مَظِنَّةُ قلة الشيء وكثرة احتياج من يدعى ، والآدب بوزن اسم الفاعل من المأدبة وينتقر مشتق من النَقَرى .

أوانى العرب المميزة بأسماء مخصوصة

وحيث فرغنا من الإشارة الى ما كانوا عليه من أمر المطعم ناسب أن نذكر آنيتهم . وهى الدسيعة بالسين والعين المهملتين بوزن كريمة . والجفنة والقصعة والمكتلة والفَيْخَة بفتح الفاء والخاء المعجمة وتسمى بالسكرجة أيضاً بضم السين المهملة والكاف والراء المشددة وبالجيم إناء صغير لا يشبع الرجل والصحفة تشبع الرجل . والمكتلة تشبع الرجلين والثلاثة . والقصعة تشبع الأربعة والخمسة . والجفنة تشبع السبعة إلى العشرة . والدسيعة أكبرها . وقيل أكبرها الجفنة وهى التى يذكرها الشعراء فى شعرهم فى الغالب كقوله :

لنا الجفنات الغُرُّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يَقْطُرْنَ من نجدة دما

وقد نقدت الخنساء على هذا البيت كما فى المفتاح فقالت أى فخر يكون فى أن له ولعشيرته ولمن ينضوى إليهم من الجفان ما نهايتها فى العدد عشرة وكذا من السيوف . ألا استعمل جمع الكثرة الجفان والسيوف . وأىّ فخر فى أن يكون جفنته وقت الضحوة وهو وقت تناول الطعام غراء لا ممة كجفان البائع أما يشبه أن قد جعل نفسه وعشيرته بائعى عدة جفنات ثم أنّى يصاح للمبالغة فى التمدح بالشجاعة . وقد قال وأسيافنا يقطرن . أما كان يجب أن يتركها إلى يسلن أو يفضن أو ما شاكل ذلك .

عادات العرب فى الشرب

اعلم أن عادات العرب فى الشرب وآدابهم فيه قد جاءت الشريعة بكثير منها وهى مفصلة فى كتبها . منها : الشرب قاعداً قالوا : فإن للشرب قائمـا آفات

عديدة ، منها أنه لا يحصل له الرى التام ولا يستقر الماء فى المعدة حتى يقسمه الكبد على الأعضاء وينزل بسرعة وحده إلى المعدة فيخشى منه أن يبرد حرارتها ويشوشها ويسرع النفوذ إلى أسفل البدن بغير تدريج . وكل هذا يضر بالشارب وأما إذا فعله نادراً أو لحاجة لم يضره ولا يعترض بالعوائد على هذا فإن العوائد طبائع ثوان ولها أحكام أخرى وهى بمنزلة الخارج عن القياس . ومن آدابه أن يقلع عن الشرب ثلاث مرات . فإنه أروى وأمرأ وأبرأ . فأروى أشد ريّا وأبلغه وأنفعه وأبرأ من البرء وهو الشفاء أى يبرأ من شدة العطش ودائه لتردده على المعدة الملتهبة دفعات فتسكن الدفعة الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه والثالثة ما عجزت الثانية عنه . وأيضاً فإنه أسلم لحرارة المعدة وأبقى عليها من أن يهجم عليها البارد وهلةً واحدة ونهلة واحدة ، وأيضاً فإنه لا يروى لمصادفته لحرارة العطش لحظة ثم يقلع عنها ولم يكسر سوْرَتَهَا وحدّتها فان انكسرت لم تبطل بالكلية بخلاف كسرها على التدريج ، وأيضاً فانه أسلم عاقبة وآمن غائلة من تناول جميع ما يروى دفعة واحدة فإنه يخاف منه أن يطفىء الحرارة الغريزية بشدة برده وكثرة كميته أو يضعفها فيؤدى ذلك إلى فساد مزاج المعدة والكبد وإلى أمراض رديئة خُصوصاً فى سكان البلاد الحارة كالعراق والحجاز واليمن ونحوها وفى الأزمنة الحارة كشدة الصيف ، فإن الشرب وهلة واحدة مخوف عليهم جداً فإن الحار الغريزى ضعيف فى بواطن أهلها وفى تلك الأزمنة الحارة . وأما كونه أمْرَأ فإنه من مرىء الطعام والشراب فى بدنه إذا دخله وخالطه بسهولة ولذة ونفع ومنه فكلوه هنيئاً مريئاً . هنيئاً فى عاقبته ، مريئاً فى مذاقه . وقيل معناه أنه أسرع انحدارا عن المرى لسهولته وخفته عليه بخلاف الكثير فإنه لا يسهل على المرى انحداره

ومن آفات الشرب نهلة واحدة أنه يخاف منه الشرق بأن ينسد مجرى الشراب لكثرة الوارد عليه فيغص به فإذا تنفس رويداً ثم يشرب أمن من ذلك

ومن فوائد القطع ثلاثاً . إن الشارب إذا شرب أول مرة تصاعد البخار الدخانى الحار الذى كان على القلب والكبد لورود الماء البارد عليه فأخرجته الطبيعة عنها فإذا شرب مرة واحدة اتفق نزول الماء البارد وصعود البخار فيتدافعاق ويتعالجان ومن ذلك يحدث الشرق والغصة ولا يهنأ الشارب بالماء ولا يمر به ولا يتم ريه . وقد ورد فى الحديث إذا شرب أحدكم فليمص الماء مصاً ولا يعب عباً فإنه من الكُباد . والكباد بضم الكاف وتخفيف الباء هو وجع الكبد . وقد علم بالتجربة أن ورود المـاء جملة واحدة على الكبد يؤلمها و يضعف حرارتها ، وسبب ذلك المضادة التى بين حرارتها وبين ما ورد عليها من كيفية المبرود وكميته ولو ورد بالتدريج شيئاً فشيئاً ولم يضادد حرارتها لم يضعفها . وفى الحديث أيضاً لا تشربوا نَفَساً واحداً كشرب البعير لكن اشربوا مثنى وثلاث وسموا إذا أنتم شربتم واحمدُوا إذا أنتم فرغتم . ومن الآداب قطع النفس عند الشرب فإن الشارب إذا تنفس فى القدح نخالط نفسه الماء استقذر وربما سقط من أنفه فى المـاء ما يستكره وأحدث فيه داء وربما كان فى فم النافخ رائحة كريهة يعاف الماء لأجلها إلى غير ذلك من المضار وكانوا يكرهون الشرب من ثلمة الإناء وهذا من الآداب التى يتم بها مصلحة الشارب فإن الشرب من ثلمة القدح فيه عدة مفاسد . أحدها أن ما يكون على وجه الماء من قذى أو غيره يجتمع إلى الثلمة بخلاف الجانب الصحيح الثانى أنه ربما يشوش على الشارب ولم يتمكن من حسن الشرب من الثلمة . الثالث أن الوسخ والزهومة يجتمع فى الثلمة ولا يصل إليها الغسل كما يصل إلى الجانب الصحيح . الرابع أن الثلمة محل العيب فى القدح وهى أردأ مكان فيه فينبغى تجنبه وقصد الجانب الصحيح فإن الردىء من كل شىء لا خير فيه . ورأى بعض السلف رجلا يشترى حاجة رديئة فقال لا تفعل إن الله تعالى نزع البركة من كل ردىّ . الخامس أنه ربما كان فى الثلمة شق وتحديد يجرح شفة الشارب . وكانوا يكرهون أيضاً الشرب من فم السقـاء ، لأن تردد أنفاس الشارب

فيه يكسبه زهومة ورائحة كريهة يَعاف لأجلها وربما غلب الداخل إلى جوفه من الماء فتضرر به ، وربما كان فيه حيوان لا يشعر به فيؤذيه ، وربما كان فى الماء قذارة أو غيرها لا يراها عمد الشرب فتلج جوفه . وكانوا يحثون على تغطية الإناء لما فى انكشافه من المحاذير التى لا تخفى . وفى الحديث : غطوا الإناء ، وأوكوا السقاء .

ما يعتبر به جودة الماء عند العرب

تعتبر جودة الماء من عشرة طرق . أحدها من لونه بأن يكون صافياً الثانى : من رائحته بأن لا يكون له رائحة البتة . الثالث : من طعمه بأن يكون عذب الطعم حلوه كالنيل والفرات ونحوهما . الرابع : من وزنه بأن يكون خفيفاً رقيق القوام . الخامس : من مجراه بأن يكون طيب المجرى والمسلك . السادس : من منبعه بأن يكون بعيد المنبع . السابع : من بروزه للشمس والريح بأن لا يكون مختفياً تحت الأرض فلا تتمكن الشمس والريح من قصارته . الثامن : من حركته بأن يكون سريع الجرى والحركة . التاسع : من كثرته بأن يكون له كثرة تدفع المخالطة له . العاشر : من مصبه بأن يكون آخذاً من الشمال إلى الجنوب أو من المغرب إلى المشرق . وإذا اعتبرت هذه الأوصاف لم تجدها بكمالها إلا فى النيل والفرات وسيحون وجيحون ونحوها . وتعتبر خفة الماء من ثلاثة أوجه . أحدها سرعة قبوله للحر والبرد . الثانى : بالميزان . الثالث : أن تبل قطنتان متساويتان الوزن بمائين مختلفين ثم يجففا بالغاً ثم توزنا فأيهما كانت أخف فماؤها كذلك .

والماء وإن كان فى الأصل بارداً رطباً فإن قوته تتنقل وتتغير لأسباب عارضة توجب انتقالها فإن الماء المكشوف للشمال المستور عن الجهات الأُخر يكون بارداً وفيه يبس مكتسب من ريح الشمال . وكذلك الحكم على سائر الجهات الأُخر . والماء الذى ينبع من المعادن يكون على طبيعة ذلك المَعْدِن ويؤثر فى البدن تأثيره

والماء العذب نافع للمرضى والأصحاء والبارد منه أنفع وألذ . قالوا : ولا ينبغى شربه على الريق ولا عقب الجماع ولا عند الانتباه من النوم ولا عقب أكل الفاكهة ، وأما على الطعام فلا بأس به إذا اضطر إليه بل يتعين ولا يكثر منه بل يمتصه مصاً فإنه لا يضره البته بل يقوى المعدة وينهض الشهوة ويزيل العطش . والماء الفاتر ينفخ ويفعل ضد ما ذكرناه وبائته أجود من طريه . قالوا : والبارد ينفع من داخل أكثر من نفعه فى الخارج والحار بالعكس ، وينفع البارد من عفونة الدم وصعود الأبخرة من الرأس ويدفع العفونات ويوافق الأمزجة والأسنان والأزمان والأماكن الحارة ويضر كل حالة تحتاج إلى نضج وتحليل كالزكام والأورام ، والشديد البرودة منه يؤذى الأسنان ، والإدمان عليه يحدث انفجار الدم والنزلات وأوجاع الصدر . والبارد والحار بإفراط ضاران للعصب ولأكثر الأعضاء لأن أحدهما محلل والآخر مكثف . والماء الحار يسكن لذع الأخلاط الحادة ، ويحلل وينضج ويخرج الفضول ويرطب ويسخن ويفسد الهضم شربه ويطفو بالطعام إلى أعالى المعدة ويرخيها ولا يسرع فى تسكين العطش ويذبل البدن ويؤدى إلى أمراض رديئة ويضر فى أكثر الأمراض ، وعلى أنه صالح للشيوخ وأصحاب الصرع والصداع البارد والرمد وأنفع ما استعمل من خارج والشديد السخونة يذيب شحم الكلى . وعلى كل حال أن الماء البارد أنفع ولا سيما إذا خالطه ما يحليه كالعسل والزبيب والسكر ونحو ذلك فإنه من أنفع ما يدخل البدن وأحفظ عليه صحته . ولهذا كان أحب الشراب إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البارد الحلو . ولما كان الماء البائت أنفعَ من الذى يشرب وقت استقائه قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد دخل إلى حائط أبى الهيثم بن التيهان : هل من ماء بات فى شَنّهِ ؟ فأتاه به فشرب منه ، فإن الماء البائت بمنزلة العجين الخمير والذى شرب لوقته بمنزلة الفطير وأيضاً فإن الأجزاء الترابية والأرضية تفارقه إذا بات والماء الذى فى القرب والشنان ألذ من الذى يكون فى آنية الفخار والأحجار

وغيرها عندهم ولا سيما أسقية الأدم ، ولهذا التمس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ماءً بات في شنه دون غيرها من الأواني ، وفي الماء إذا وضع في الشنان خاصية لطيفة لما فيها من المسام المنفتحة التي يرشح منها الماء ، ولهذا كان الماء في الفخار الذي يرشح ألذّ منه وأبرد في الذي لا يرشح .

المياه المشهورة عند العرب

منها ماء (الغيث) وهو لديهم لذيذ الاسم على السمع والمسمى على الروح والبدن تبتهج أسماعهم بذكره ، وقلوبهم بوروده ، وماؤه ألطف المياه وأفضلها وأنفعها وأعظمها بركة ، ولا سيما إذا كان من سحاب راعد واجتمع في مستنقعات الجبال وهو أرطب من سائر المياه لأنه لم تطل مدته على الأرض فيكتسب من يبوستها . ولم يخالطه جوهر يابس ولذلك يتغير ويتعفن سريعاً للطافته وسرعة انفعاله وهل الغيث الربيعي ألطف من الشتوى أو بالعكس فيه قولان ، قال من رجح الغيث الشتوى : حرارة الشمس تكون حينئذ أقل فلا يجتذب من ماء البحر إلا ألطفه والجوّ صاف وهو خال من الأبخرة الدخانية والغبار المخالط للماء ، وكل هذا يوجب لطفه وصفاءه وخلوه من مخالط . وقال من رجح الربيعي : الحرارة توجب تحلل الأبخرة الغليظة وتوجب رقة الهوى ولطافته فيخف بذلك الماء وتقل أجزاؤه الأرضية وتصادف وقت حيوة النبات والأشجار وطيب الهواء .

ومنها ماء (الثلج) و (البَرد) و (الجمد) وهذا الماء قليل عندهم لغلبة الحرارة على قطرهم ولكونه لديهم من أنفع المياه وأنقاها . ورد في الحديث : اللهم اغسلني من خطاياي بماء الثلج والبَرَد . والثلج له في نفسه كيفية حادة دخانية فماؤه كذلك ، والحكمة في طلب الغسل من الخطايا بمائه ما يحتاج إليه القلب من التبريد والتصليب والتقوية ، ويستفاد من هذا الأصل طب الأبدان والقلوب ومعالجة أدوائها بضدها ، وماء البَرد ألطف وألذ من ماء الثلج . وأما ماء الجمد وهو الجليد فبحسب أصله ، والثلج يكتسب كيفية الجبال والأرض التي يسقط عليها

فى الجودة والرداءة وينبغى تجنب شرب المـاء المثلوج عقب الاستحمام والجماع والرياضة والطعام الحار ولأصحاب السعال ووجع الصدر وضعف الـكبد وأصحاب الأمزجة الباردة .

ومنها ماء (الآبار) و (القناء) و (العيون) وهذه المياه غالب مياه العرب . وقد جمع بعض الأدباء المتقدمين أسماء مياههم فى رسالة لطيفة وذكر أصحابهـا جاهلية وإسلاماً وما ورد فيها من الشعر ممايطول ذكره . ومياه الآبار قليلة اللطافة وماء القناء المدفونة تحت الأرض ثقيل لأن أحدهما محتقن ولايخلو عن تعفن والآخر محجوب عن الهواء . وينبغى أن لايشرب على الفور حتى يصدر للهواء ، وتأتى عليه ليـلة . وأردؤه ما كانت مجاريه من رصاص أوكانت بئره معطلة ولا سيما إذا كانت تربتها رديئة فهذا الماء دنِىٌّ وخيم . وأما ماء بئر زمزم فهو عند العرب جاهلية وإسلاماً سيد المياه وأشرفها وأجلها قدراً وأحبها إلى النفوس وأغلاها ثمناً وأنفسها ، وهو هزمة جبريل وسقيا أسماعيل عليهما السلام ، وثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إنه قال لأبى ذروقد أقام بين الكعبة وأستارها أربعين ما بين يوم وليلة وليس له طعام غيره : فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إنها طعام طعم ، وشفاء سقم . وفى الحديث : ماء زمزم لما شرب له . وقد جرب كثير من الناس من الاستشفاء بماء زمزم أموراً عجيبة ، وقد شوهد من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريباً من الشهر ولا يجد جوعاً ويطوف مع الناس كأحدهم . وأما مياه العيون فالغالب عليها الثقل كأكثر مياه الآبار . وللأصمعى رسالة ذكر فيها ما اعتبرته العرب من الأسماء فى البئر وأنواعها وآلاتها وهى فريدة فى بابها ، وسنذكر إن شاء الله عند الـكلام على علومهم ما لهم من اليد الطولى فى معرفة استنباط المياه وإجرائها وإن قسماً منهم يقال لهم (النصاتون) يضع أحدهم أذنه على الأرض فيعلم مسافة بعد الماء فى تلك الأرض .

أسماء أوانى المياه عند العرب

كما أن لأوانى الأطعمة أسماءً مخصوصةً كذلك لأوانى الشرب أسماء تخص

كلاً منها عن الآخرى ، وقد استوعبها ابن فارس وغيره فى كتب فقه اللغة . منها « التبن » بكسر التاء وفتحها قال فى القاموس هو قدح يروى العشرين . ومنها « الصحن » وهو العُسُّ العظيم . ومنها « العس » وهو القدح العظيم . ويقال : إنه الذى يروى الثلاثة والأربعة . ومنهـا « القَدح » بفتح القاف و الدال قال فى القاموس هو آنية تروى الرجلين ومنها « القَعْب » بفتح القاف وسكون العين قال فى القاموس : هو القدح الضخم الجافى أو إلى الصغر يروى الرجل . ومنها « الغُمَرْ » بضم الغين المعجمة وفتح الميم وهو قدح صغير أو أصغر الأقداح ، ويقال تغمر الرجل إذا شرب به .

تقديم العرب الأيمن فى الشرب

إن العادة كانت جارية بين ملوك الجاهلية ورؤسائهم بتقديم الأيمن فى الشرب وكانت عادة العرب مجاراة ملوكهم بتقديم الأيمن فالأيمن فى أىّ شرب كان وعلى ذلك قول عمرو بن كُلْثوم فى معلقته وهو :

صددتِ الـكأسَ عنا أمَّ عمروٍ وكان الـكأسُ مجراها اليمينا

وقد أقر الشرع هذه العادة ولم يغيرها لفضل اليمين على اليسار . ولهم فى شرب الخمور عوائد وآداب مذكورة فى كتاب (مساوى الخمرة) وكذلك أسماء أوقاته كالصَبُوح والغَبُوق ونحو ذلك ، وهكذا لما يشرب من اللبن وذكره يطول .

عادات العرب فى سقى إبلهم وأسمائها

اعلم أن للعرب فى سق إبلهم عوائد مختلفة ولـكل منها اسم يخصه ، فـكانوا إذ أوردوها كل يوم يقولون : سقيناها رفها . أى فى كل قوم . وإذا أوردوها يوماً وتركوها فى المرعى يوماً قالوا : سقيناها غِبًّا . وإذا أقاموها فى المرعى بعد يوم الشرب يومين ثم أوردوها فى اليوم الثالث يقولون : سقيناها ربعاً . ولا يقولون ثلثاً أبداً لأنّهم يحسبون يوم المقام مع يوم الشرب فيعدونها أربعة ويؤيده أنه يقال للحمى التى تأتى يوما وتنقلع يومين ثم تأتى فى الثالثة حمى الربع ، وتمـام ظمأ الإبل

فى الغالب ثمانية أيام فإذا أوردوها فى اليوم التاسع منه وهو العاشر من الشرب الأول قالوا : سقيناها عشْراً بالكسر فالعشر تسعة أيام أبداً لأن يوم الشرب الأول من العشر السابق فى الواقع لا من هذا العشر . وإذا زادوا على العشرة قالوا : أوردناها رفها بعد عشر . وحكى عن الليث أنه قال : قلت للخليل زعمت أن عشرين جمع عشر والعشر تسعة أيام . فكان ينبغى أن يكون العشرون سبعة وعشرين يوماً لتستكمل ثلاثة أتساع . قال ثمانية عشر يوماً عشران ضممت إليها يومين من العشر الثالث فجمعتها بذلك الاعتبار . قلت : هل يجوز أن تقول للدرهمين مع الدانقين ثلاثة دراهم ؟ قال : لا أقيس على هذا وإنما أقيس على قول أبى حنيفة رحمه الله تعالى حيث قال : إن من طلق امرأته تطليقتين وعشر تطليقة تقع ثلاث تطليقات فكما جاز له أن يعتد بعشر تطليقة ويجعله تطليقة واحدة كاملة جاز لى أن أعتدّ بيومى عشر وأعدها عشراً كاملا .

الاختلاف فى تغذية الماء

اختلف أطباء العرب فى الماء هل يغذى البدن أم لا . فأثبت طائفة التغذية بناء على ما يشاهد من النمو والزيادة والقوة فى البدن به ولا سيما عند شدة الحاجة إليه قالوا : وبين الحيوان والنبات قدر مشترك من وجوه عديدة . منها النموّ والاغتذاء والاعتدال . وفى النبات قوة حس وحركة تناسبه ، ولهذا كان غذاء النبات بالماء فما ينكر أن يكون للحيوان به نوع غذاء أو أن يكون جزأ من غذائه التام . قالوا : ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه فى الطعام وإنما أنكرنا أن لا تكون للماء تغذية البتة . قالوا : وأيضاً الطعام إنما يغذى بما فيه من المائية ولولاها لما حصلت به التغذية . قالوا : ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات ، ولا ريب أن ماكان أقرب إلى مادة الشىء حصلت به التغذية فكيف إذا كانت مادته الأصلية ، فكيف ينكر حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق ؟ قالوا : وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرىّ بالماء البارد تراجعت إليه قواه ونشاطه

وحركته وصبر عن الطعام وانتفع بالقدر اليسير منه ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام و لا يحدثه القوة والاغتذاء . ونحن لا ننكر أن الماء ينفذ الغذاء إلى أجزاء البدن وإلى جميع الأعضاء وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به ، وإنما ننكر على من سلب قوة التغذية عنه البتة ، ويكاد قوله عندنا يدخل فى إنكار الأمور الوجدانية . وأنكرت طائفة أخرى حصول التغذية به واحتجت بأمور يرجع حاصلها إلى عدم الاكتفاء به وأنه لا يقوم مقام الطعام وأنه لا يزيد فى نمو الأعضاء ، ولايخلف عليها بدل ما حللته الحرارة ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية فإنهم يجعلون تغذيته بحسب جوهره ولطافته ورقته وتغذية كل شيء بحسبه وقد شوهد الهواء الرطب البارد اللين اللذيذ يغذى بحسبه ، والرائحة الطيبة تغذى نوعا من الغذاء ، فتغذية الماء أظهر وأظهر .

ما يعالج به ضرر الماء

كان لهم طرق من العلاج لدفع مضرة ماء البحر إذا اضطر أحد منهم إلى شربه ، منها أن يجعل فى قدر ويجعل فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش ويوقد تحت القدر حتى يرتفع بخارها إلى الصوف فإذا كثر عصره من عمل ذلك ولا يزال على هذا الفعل حتى يجتمع له ما يريد فيكون فى الصوف من البخار ما عذب ويبقى فى القدر الزُعاق ، ومنها أن يحفر على شاطئه حفرة واسعة يرشح ماؤه إليها جانبها قريبا منها أخرى ترشح هى إليها ثم ثالثة إلى أن يعذب الماء . ولهم فى تصفية الماء ودفع كدورته حيل وذلك إذا ألجأت أحدهمُ الضرورة إلى شرب الماء الكدر ألقى فيه قطعة من خشب الساج أو جمراً ملتهباً يطفى فيه أو طينا أرمنيا أو سويق حنطة ، فإن كدورته ترسب إلى أسفل .

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

ثلاثة فهارس

الفهرس الأول ـ فى موضوعات الكتاب

الفهرس الثانى ـ فى أسماء الرجال والنساء

الفهرس الثالث ـ فى أسماء البلدان والقبائل

عنى بجمعها وترتيبها

محمد جمال

صاحب المكتبة الأهلية ـ بمصر

الفهرس الأول

فى مواضيع الكتاب

صفحة

صفحة

أنظر فهرس أسماء الرجال والنساء

الفهرس الثانى

فى أسماء الرجال والنساء

(ح)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

الفهرس الثالث

فى أسماء البلدان والقبائل وغيرها

(ج)

(ح)

(خ)

(ك)

(ل)

(م)